

رواية أهل البيت الأسود

تأليف الكاتب الروسي الشهير
الكونت الكسي فولستوي

2650
SIA

رواية
أهول الأسنابل

تأليف الكاتب الروسي الشهير
الكونت الكسي فولستوي

رواية ضحايا الانتقام

نمريب

المعروف الاستاذ طانيوس عبده

ستصدر هذه الرواية عما قريب

وتطلب من ملتزم نشرها

الياس انطون الياس

★ مطبوعات المطبعة المصرية بمصر

٧	القاموس المصري عربي وانكليزي	تأليف الياس انطون الياس
٥٠	» » انكليزي وعربي	» » » »
٥٠	» المدرسي » وبالعكس	» » » »
٢٠	قاموس الجيب عربي وانكليزي	» » » »
١٥	» » انكليزي وعربي	» » » »
٣٠	» » » » وبالعكس	» » » »
١٠١	النحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية	» » » »
١٢	الهدية السنية » » والعربية	» » » »
٧	قاموس عربي وانكليزي (باللفظ)	تأليف سقراط سيبرو
١	القصص المصرية (٨٠ قصة مصورة)	ترجمة توفيق عبد الله
١٠١	رواية نايدس مصورة (لاماتول فرانس)	ترجمة احمد الصاوي محمد
١٥	» الزينة الحمراء » (» »)	» » » »
٥	خواطر حمار (مصور للاولاد والرجال)	ترجمة حسين الجمل
١	رسائل غرام جديدة (زين بصور)	تأليف سليم عبد الاحد
١٠	الغربال ، بقلم مخايل نعيمة	عضو الرابطة القلمية بأمريكا
٢٥	علم الاجتماع (الجزء الأول في حياة الهيئة الاجتماعية)	تأليف متولاحداد
٢٥	» » (الجزء الثاني في تطور الهيئة الاجتماعية)	» » » »

تغلب هذه الكتب من كل المكاتب في مصر والسودان والسيليب وسوريا والدراق ، او
أرأها باموان الآتي : —

الياس انطون الياس — صاحب المطبعة المصرية — المطبعة (مصدق للبريد رقم ٩٥٤ بمصر

١٥	اسرار الحياة الزوجية	ترجمة الاستاذ قوللا حداد
١٥	الحب والزواج ، فلسفةً وسنة	» » » »
٢٠	ملقى السبيل (في مذهب النشوء والارتقاء	الاستاذ اسماعيل مظهر
١٠	حصاد الهشيم (مصور)	للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
١٠	مختارات سلامة موسى	(تأليف الكاتب لاجتماعي الشهير)
١٠	نظرية التطور وأصل الانسان	تأليف الاستاذ سلامة موسى
١٠	اليوم والغد	» » » »
١٥	في أوقات الفراغ	تأليف الدكتور محمد بك حسين هيكل
١٠	عشرة أيام في السودان	» » » » » »
١٢	مراجعات ، في الادب والفنون	تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد
١٥	الدينا في اميركا (به نحو ٤٠ صورة بديعة)	للاستاذ امير قطر
٢٠	اناؤل فرانس في مبادله	لصاحب المطوفة الامير
٢٥	» » » (ورق مخصوص)	شكيب ارسلان
٣	كتاب الحقوق الوطنية ، كتاب مدرسي	لفرنسيس ميخائيل
٢٠	روح الاشتراكية	تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر
١٠	الاراء والمعتقدات	» » » » » » » »
١٠	فاتنة المهدي ، أراستمات السودان	(نشرت تباناً في الاهرام)
٨	رواية الانتقام العذب	ترجمة الاستاذ اسعد خليل داغر
٢٠	رواية باردليان (٣ اجزاء متوسطة الحجم)	ترجمة المرحوم طانيوس عبده
٢٠	رواية الاميرة فوستا (جزآن كبيران)	» » » »
١٦	» كايتان	» » » »
١١	» الساحر العظيم	» » » »
٩	» فارس الملك	» » » »
١٥	» قلمبرج	» » » »
	» عروضة الاحود	» » » »

رواية رو كابلول (في ١٧ جزء كل منها مستقل) ترجمة المرحوم طانيوس عبده	٥
التربية الاجتماعية	١٠
تأليف على فكري	١٠
مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)	١٠
تأليف خليل بيدس	١٠
الحضارة المصرية القديمة (لغوستاف لوبون)	١٠
ترجمة صادق رستم	٨
مقدمة الحضارات الأولى	٢٠
« » » » » »	٢٥
المرأة وفلسفة التناسليات (مصور)	٣٠
تأليف الدكتور فخري	٢٥
« » » » » »	٣٠
الامراض التناسلية وعلاجها وطرق الوقاية منها	٨
« » » » » »	٥
التعليم والصحة	١٠
تأليف الدكتور محمد عبد الحميد	٢
مركز المرأة في شريعة حمورابي وموسي	٥
تعريب الأستاذ سليم العقاد	١٠
المرأة الحديثة وكيف نسوسها	٢
تأليف الأستاذ عبد الله حسين	٥
بول دي سوييف الفاجرة	١٥
ترجمة توفيق عبد الله	١٠
النفس الخائنة	١٥
تأليف الأستاذ فريد حيش	١٠
مكايد الحب في قصور الملوك	١٥
ترجمة الأستاذ أسعد خليل داغر	١٠
رواية احوال الاستبداد	١٠
ترجمة الأستاذ خليل بيدس	١٠

مقدمة

وضع هذه الرواية الكاتب الروسي البائع والشاعر الذائع الصيت
الكونت ألكسي تولستوي ابن عم فيلسوف الروس العظيم الكونت
لاون تولستوي

وهي من خيرة الروايات التاريخية الأدبية الغرامية ، العظيمة
بموضوعها ، الجلية بمفزاها ، لما تستبطنه من الحكمة والأدب ، وما تتضمنه
من العبر والمواعظ في تهذيب الاخلاق وتنوير الازهان وحث النفوس على
الكالات الانسانية

فانها تمثل للقارىء فضاة الاستبداد والمستبدين وعاقبة الجور والمسف
والظلم ، وغير ذلك من الفظائع والكبائر التي تعافها الانسانية وتنفر منها
القلوب السليمة . وانها لتظهر ذلك كله بأجلى بيان وبني اسلة من الحوادث
الغريبة الهجبة التي لا يخرج القارىء من غريب منها الا الى أغرب
وأعجب ، ولا ينتهى من عظة الا الى أبدع وأنفع ، ولا ينتقل من عبرة الا
الى أكبر وأروع

ربما يدل على شهرتها الطائفة في عالم الروايات أنها تمت الى الفرنسيين
والانكليز والالمانية والايطالية والبولونية وغيرهما من لسان اوربا ، وأصبح
لها من الروايات المسورة في عالم الادب المقام الرفيع والمكانة السامية

والتي لم يزلت في تزايد واستناط وتغيير وإبدال وتبويب

لتكون ملائمة للذوق الشرقي ، فزدت مثلاً فصلاً عن مدينة « موسكو »
وفصلاً آخر عن ملوك الروس ، وغيره في تاريخ الملك يوحنا الرابع أحد
أبطال الرواية ، الى غير ذلك من الشرح والوصف الذي لا بد منه لتعريف
القارئ العربي بأحوال الامة الروسية في اكثر أدوارها

ولم اغير فيها الاعلام لأنها كلها حقيقية ، والحوادث التي جرت لاصحابها
واقعية لا ريب فيها . وهذه الرواية ، لولا بعض الحوادث الغرامية فيها ،
لكانت يحملتها تاريخاً مسهباً لكثير من الحوادث المهمة من أدوار دولة
القيصرية ، فهي من هذه الجهة كتاب تاريخ لعصر كامل من عصور هذه
الدولة العظيمة ، وهي من الجهة الاخرى كتاب أدب تراض به النفس على
مكارم الاخلاق والمزّة والاباء ، وكتاب فكاكة تقطع به الاوقات
على غير ملل

أما اسمها الحقيقي التي عرفت به في روسيا واوربا فهو « كنياز
سيريرياني » أو « الامير سيريرياني » وهو الامير « نيكيتا » أحد أبطالها
بل بطلها الاكبر . وقد نشرتها سنة ١٩٠٩ وقدت طبعتها منذ سنين عديدة
ولما رأى حضرة الصديق الكريم الاستاذ الياس افندي انطون الياس
أن يتولى تجديد طبعتها ونشرها قدمتها اليه بسرور وامتنان ، ولكن به أن
كتبها من جديد ونسبتها تسمية تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي
ظهرت بها في طبعتها الاولى ، وأنا أشكر مع الشاكرين همة الاستاذ الياس
لما بذله من الدأب وما ينفعه من المال في نشر المطبوعات الفيدة وابرار ما
في أحسن قالب ، وما يروّاه في ذلك كل من خدم العلم والأدب
فملت ذلك وبني من نفسي ما يحتمني على الجهر بأن « أهوال الاستبداد »

هذه هي من الروايات القيمة التي يجب أن يحرص عليها ، ويتنافس بها ،
ويعنى نشرها ، ويقبل عليها الاقبال العظيم ، وتطالع بالتدبر والاستبصار ،
وأنها من حيث الروعة والجمال والفائدة والكمال منقطعة النظير نادرة المثال
فسي أن تقع عند جمهور القراء هذا الموقع من القبول والارتياح ،
والله سبحانه ولي التوفيق ، وهو حسي وعليه الاتكال ؟

فليل بيرسي

القدس ٢٣ ايلول (ستمبر) سنة ١٩٢٧

الفصل الأول

الامير نكيتا

على بعد نحو خمسة واربعين كيلومتراً من مدينة موسكو ، حاصمه
الروس الشهيرة ، قرية يقال لها « قرية الدب » . وهي في بقعة جميلة ، تكتنفها
السهول والنباض ، والمروج والرباض ، الحافلة بكل قتان ورائع من
المناظر الطبيعية

ففي سنة خمس وستين وخمسة الف ، في الثالث والعشرين من شهر
حزيران ، وهو اليوم الاول من حوادث هذه الرواية ، كان الامير « نكيتا
سيريرياني » يسير في طريق هذه القرية ، تتبعه كوكبة من الفرسان ،
وهو يتقدمهم اكبا جواداً كريماً مطهماً عليه سرج من الدباج الاحمر الثمين
كان سـ ١٠٠٠ الاير له قضى الى ذلك المهد خمس سنوات في بلاد
« لتفا » الواقعة على التخوم الشمالية من روسيا . وكان الملك يوحنا الرابع
الروسي قد أوفده في ذلك الحين على رأس سفارة الى « جيغومند » ملك
لتفا لايرام معاهدة الصلح ، على اثر الحرب التي كانت مضطربة بين البلدين
وسفكت فيها دماء الالوف من الفريقين مدة طويلة

غير أن نكيتا لم يكن من رجال السياسة ، ولم يكن طبعه ليحتمل
درغان اسيسيين وتفنهم في اساليب الدهاء والحيلة ، وكان يؤثر الصدق
في القول والاتصاف في العمل ، لا يظهر خلاف ما يبطن ، وهو يريد أن
يتباه به بمثل ذلك كما انما



الملك ميخائيل رومانوف

أول قيصرية الروس من اسرة رومانوف

(١٦١٣ — ١٦٤٥)

ورأى رجال الملك جيفموند فيه هذه الصفات ، فهدوها سداجة ،
واضربوا أن يتوسلوا بها لينالوا الشروط التي توافقهم . فكانوا كلما اتفقوا على
شيء من الشروط ، تقضوه وحاولوا تبديله وتغييره ، وكان الامير كلما
تساهل في شيء طمعوا في غيره او طلبوا المزيد . . . وما زالوا بين أبرام



الامبراطور نقولا الثاني
آخر قيصرية الروس من أسرة رومانوف
(١٨٩٤ — ١٩١٨)

وتقضى وتغيير وتبديل ، حتى ضاق الامير ذرعاً بالامر ، فأعلن عدم رضاه ،
وتقضى في لحظة ما كان الفريقان قد وضعاه في أيام واساييغ ، وقطع المفاوضات .
وعادت الحرب فنشبت من جديد بين روسيا ولتفا ، — وهي لم تضع أوزارها
الا بعد خمس سنوات

وقد خشي نكيتا أن يكون اخفاقه في ابرام المعاهدة سبباً لتغير الملك
يوحنا عليه وعدم رضاه عنه . غير أن الامر كان بعكس ما زعم ، لان يوحنا
قابل خطته بالارتياح والسرور ، وأثنى على همته وحزمه ، وقد عينه قائداً
للجيش وأطلق يده في العمل بما ترشده اليه بصيرته

فهنض نكيتا بما فوض اليه أتم نهوض . وكان له قلب لا يهاب المنية
وساعد لا يرهنه طوق الجلاد ، نخاض المعامع وأبلى فيها بلاء حسناً ، وفاد
الجيش بمحاصرة عقل وحسن رأي ، فرافق النصر اعلامه وأحاط للفوز بركابه .
وقد تقهر امامه جنود الملك جيغموند في أكثر المارك ، فلم تهم لهم قائمة .
واتمته الحرب بانتصار الروس ، فأمل نكيتا على حكومة لتفا شروط التصالح
ثم عاد الى بلاده وكله آمال

وكان هذا الامير طويل القامة جميل الصورة شائق الطامة ، له من
العمر خمس وعشرون سنة ، تبدو عليه سبب العظمة وجلالة الشأن ، وبني
منظره بملو الهمة وثبات العزيمة والاقدام

وكان كلفاً بالاسفار . يبدن تردنه الى برشته . يدور كدت وقع
في قلبه وأدعى لسروره . فقد كان مشتاقاً الى هذا الوطن ، يحن منذ زمان
الى الرجوع اليه . ولكنه كان في الوقت نفسه مغالماً للملك يوحنا : أمينا في
سببه له . فلو أمره الملك ، وهر في طريقه هذه وقت . كاد يصل الى موسكو ،
أن يعود الى حيث كان ويستأنف القتال ، لثنى عنان جواده في الحال ،
وعد اندراج به بلا تضر أو شكوى ، وعاد الى جهاده بالبلاد اليهود

يكون كجسيم معاصريه . في الاسرة الروسية . يجب الملك كذا بمسب الله

وينظر الى الملك كالى نائب الله في هذه الارض ، - مهما كانت صفات هذا الملك وأخلاقه ، ومهما صدر منه ، من خير او شر -

وقد أحبّ الروسيون قاطبة يوحنا الرابع حباً يقرب من العبادة ، لان عهده في نظرهم كان أسعد عهد ، بل هو العهد الذهبي الذي اتحدت فيه البلاد وأصبحت كلها مملكة واحدة واسعة الارزاء ، بعد ان كانت أمارات كثيرة متقاطعة متدايرة ، لا حول لها ولا قوة . .

وكان النهار جميلاً والسماء تقية ، وقد ارتدت الطبيعة كلها رداً العيد ، فلم يكن فيها الاكل ما يروق البصر و يأخذ بمجامع القلب ويدفع النفس الى الهذيد والتأمل في ما أبدعه الحكيم المنان

غير ان نكيتا لم يلبث ان بدلت امائر السرور التي كانت ظاهرة في وجهه ، وغلب عليه التأمل والوجوم ، وأخذ يسير منفرداً وقد غاص في بحر التأملات . ولم يكن شيء من تلك المشاهد الطبيعية ليستميل بصره ، ولم تلت تلك المحاسن والبساتع لتشتغل عقله ، فلم يله بشيء من ذلك ، وظلت الافكار تتجاذبه والهواجس تنقسمه ، وهو لا يقيق منها الا ليعود اليها ، وكان يقطب تارة وبيتسم تارة اخرى ، كأنه ينظر الى ما خباؤه له المقدور في مطاوي الايام . .

ثم تهد وفاض صدره بشيء مما كان يناجي به نفسه فقال : لم يبق الى العاصمة الا مسافة قصيرة ، سأطويها بالمجل ، وأطير الى من وقفت عليها جميع عواطف وأحالتها من قلبي في شغافه . . لكن ترى ، هل تحقق الايام هذه الالمنية ، فأرى الحبيبة بعد هذا الفراق الطويل حريصة على العهد تتوقع قدومي ؟ . . أو لم يجر في غيبتني ما قطع تلك المرى وحل تلك الموانيق

التي ارتبطنا بها؟ .. أهيلانة يافانتي؟! لو علمت بما يخامر قلبي من الجوى
وما أعانيه من الأسى وفرط الشجن، لرأيت قلباً يتلظى على نار الغضا، وصباحاً
ضاق به الغضا، وهو لا يدري أين المصير...

وما زال في مثل هذه التأملات، الى ان بلغ برجاله قرية الدب

الفصل الثاني

قرية الدب

وكان الامير بحال وصوله الى بعض اطراف القرية قد سمع اصوات
غناء، ثم رأى جماهير غفيرة من أهل القرية يؤمون ساحة كبيرة فيها. وكان
الفتيان منهم والفتيات قد انتظروا حلفتين واخذوا في الرقص والغناء، ومن
حولهم الشيوخ وجهور من الرجال والنساء والاولاد يشاركونهم في طربهم،
وقد ارتدى الجميع الملابس الزاهية وبدأت عليهم علامم البشر

وكانت نكتنا، حالاً وطشت قدماه ارض القرية وسمع ذلك الغناء
الشجي، قد شعر بأنه أصبح في وطنه، وكانت هواجسه قد تبددت وعاد
السرور فأفغم قلبه، فابتسم وطابت نفسه وشعر بارتياح الى هذا المشهد

وكان خادمه الخاص، وكان اسمه ميخائش وهو قديم العهد في خدمته
وكان قد خدم أباه من قبله، ادرك ما يجول في صدر سيده، وكان هو قد جهده
النعب، فتقدم اليه وقال - ان اهل القرية في طرب كما ترى، واليوم عيد
من احتياهم الوطنية، فهل تأمر يا سيدي بالنزول هنا لناخذ نصيباً من الراحة،
لنا ونخيولنا. ثم نستأنف السير بعد أن نكون قد استمدنا نشاطنا وقوتنا؟

قال - ولكننا غير بعيدين عن موسكو
قال - نعم ، اذا -مرنا الليل كله . . غير أن الخيول قد تعبت ، وتعب
فرسانها أيضاً ، فلا غنى لنا عن الراحة بعض الوقت
قال - لا بأس ، فافعل ما يترأى لك
فأشار ميخيش ، فترجل الفرسان وربطوا خيولهم الى بعض الاشجار
القريبة واخذوا في الاستعداد لاعداد الطعام . وكانوا كلهم يحبون ميخيش
ويحترمونه ، والامير نفسه كان يحبه ويحترم رأيه ويتقاد الى نصائحه ويكل
الى عهده اكثر شؤونه . .

ورأى اهل القرية الامير وفرسانه فكفوا عن الرقص والغناء وظهرت
عليهم الحيرة . وكان الامير قد دنا منهم وقال - اننا لم ندخل قريتكم لنعكر
عليكم صفاءكم ، ففنعوا واضربوا ولا يهكم امرنا
فقال له شيخ منهم ، وقد أدرك أنه من كبار النبلاء - اذا كان في
ذلك سرورك يا سيدي ففضل اجلس بيننا فتقدم لك ولرجالك ما لعلكم
تكونون في حاجة اليه من الطعام والشراب

وقال له آخر - واننا لا نكتمك أن فتياننا وقتياتنا ما رأوكم مقبلين
حتى أوجسوا خوفاً شديداً وكادوا يلوذون بالفرار من وجهكم ، لانهم
حسبوكم من « رجال الحرس » . ولم تطمئن خواطرم ويهدأ روعهم الا لانهم
لم يروا معكم العلامة المختصة بأولئك القوم

وقال غيره - ولا يعلم الا الله يا سيدي ما ذقناه وذاقه غيرنا من المرارة
والبلاء من رجال الحرس هؤلاء ، حتى بتنا نتوقع شرهم كل يوم بل كل ساعة .
فاننا لا نأكل ولا نشرب ولا نظرب الا وأشباح اولئك الرجال تهددنا ،

فتنقص علينا كل سرور وتمكر كل صفا . . فلا تتعجب بعد هذا اذا رأيت
فتياننا قد ذعروا حين أبصروكم وتحفزوا للفرار

وكان الامير قد جلس بين القوم وهو يسمع كلامهم ويتمجب لأنه
لم يكن قبل اليوم قد عرف شيئاً عن « رجال الحرس » فقال - ولكن من
هم هؤلاء الرجال الذين تحدثوني بأمرهم ؟

فقال احد الشيوخ - ولا نحن نعرف شيئاً من امرهم . . يدعون انهم
رجال الملك ، وهم لا عمل لهم الا ما ذكرنا

وقال آخر - ويدعون أن الملك نفسه أمرهم بذلك . . فهم ان جالوا في
البلاد يهبون الاموال ويسبون النساء والاولاد ، فانما يملكون ذلك كله
بامر الملك وتديره

فازداد الامير ذهولاً وقال - وهل بلغ من خفكم انهم ان نصدقوا
امثال هذه الترهات ؟ فكيف تستسامون لهم صاغرين ؟ ولم لم تطردوهم
وترفعوا امرهم الى القضاء ؟

فابتسم احد الشيوخ وقال - يلوح لنا يا سدي انك انت من بلاد
نائية ، والا لما خفي عليك امر هؤلاء الحرس ، الذين سابع وربع وصد
الاسماع ولم يخف على الكبير والصغير ، حتى الطفل في مهده والراغب في
صومته . . فن بجراً ان يقف في وجه هؤلاء العتاة السفاحين ولا يؤدي لهم
الطاعة وانخضوع ؟ او من يحسر أن يناوئهم ويناقشهم الحساب ، وهم يستطيعون
كل ما حرم الله والتناون ، لا يخشون قضاء ولا يرتبون تريعة

وقال آخر - وقد جاءت شرفة من منبرهم من عهد نواب الولاية فبيننا هذا ،
مضربون من ضروب السرايا ، ثم هجسوا على منزل شيخ القرية

الأكبر ، ولم يكن هو اذ ذاك في المنزل ، فطلبوا من زوجته كل ما كان لديها من المال والشراب ، ثم ذبحوها كما تذبح الاغنام وهما بالانصراف ، واذا بزوجها قد حضر ، وقد هاج هائج حين رأى زوجته جثة هامدة ، فما كان منهم الا ان طعنه احدى بحسامه فأرداه قتيلًا الى جانب زوجته ، ثم أحرقوا المنزل وانصرفوا بلا اقل مبالاة كأنه لم يكن شيء .

فزاد ذلك في غيظ الامير وقد صعد الدم الى رأسه فضرب الارض برجله وقال - وكيف بلغ من هؤلاء الاثمة ان يحتاجوا عباد الله حتى في ارباض العاصمة ؟ . . . وأشد ما يذهلني انكم صدقتم اقاويلهم ولم تهضوا لتأديبهم قال - ولكن لا قبل لنا بذلك لانهم رجال الملك ، وقد تحققنا الامر من العلامة التي يتسمون بها ، وهي مكينة ورأس كلب من المدن يحملونها على سروج جيادهم اشارة الى انهم يبنون ان يكنسوا من البلاد كل مؤامرة ضد الملك وينهشوا اعداءه نهشًا

فأطرق الامير هنيئة وقد قدحت عيناه شرارًا وأضمر ان ينيء الملك بكل ما سمعه من هذه الغرائب والفضائح

وكان القوم قد عادوا الى الرقص والغناء ، وهم يمثلون عرسًا تارة ومأدبة تارة اخرى . وبينما هم في هرجهم وسرورهم ، ونكبتا مطرق يتأمل ، اذ به يسمع بقة صوتًا ضعيفًا يستغيث ، وما هي الا لحظة حتى رأى فتى يسيل الدم من اطرافه ، وكان يمدو الى جهة الراقصين ويصيح بملء صوته فأقبل عليه القوم يسألونه ، فقال بصوت منخفضه العبرات - بينما كنت أرعى الغنم مع شقيقتي واذا بهم ... قد هجموا علينا ، ولا ندري كيف ومن اين ، وأخذوا ينحرون الاغنام ، وقد اختطفوا شقيقتي ، وسلمت انا بأعجوبة ..

وما كاد يفرغ من كلامه حتى قاطعته اصوات اخرى . فان نساء كثيرات
هرعن من اطراف القرية وهن يولدن قائلات - يا للقاحه العظيمة ! ..
يا للداهية الشديدة ! .. أحجبوا البنات .. فان رجال الحرس قادمون الى
هنا وقد اخذوا دونكا وحنة ، وقتلوا اولغا وماريا .. و .. و ..

فنظر الامير فرأى عن بعد فرقة من الفرسان لا يقل عددهم عن الحسين
وقد امتشقوا السيوف وساروا جهة القرية ، وفي طليعتهم شاب حسن اللباس
نيط بسرج جواده مكنسة ورأس كلب ، وهو يسير بأثقة وخيلاء ويخاطب
من وقت الى آخر الفرسان الذين معه قائلاً بصوت جهوري -- انمحروا المواشي !
امسكوا الفتيات ! .. اجلدوا الفلاحين ! وأذيقوا شيوخهم مر العذاب ! ..
ثم احرقوا القرية ولا تشفقوا على احد ! ..

وكان اهل القرية قد سمعوا ذلك فلهمت قلوبهم وايتنوا بالويل العظيم
وقد كبر عليهم الامر

رأى الامير بعينه وسمع بأذنيه ذلك كله ، فأشار الى الناس ان يتصرفوا
الى منازلهم . ثم تلم قاطع ،
الحرس ويتأهبون لدفع عائلاتهم

وكان الحرس قد وصلوا الى ساحة القرية ، فلم يروا الا شتتاً مائة
في السن كارلا زال في بعض اطرافها وقد خاتت رجلاً عن التراد والاختفاء
فنادى زعيم الحرس قائلاً -- قد سمعنا من بيده اصراوات غناء يطرب هنا ..
من "متيات اللاتي كنن بنات ريلعين"

ثم اندفع سواراً ، ودوقف وهو يرتجف من شدة الملح ، فاستض

عليه الزعيم يضربه بسوط كان في يده ويقول - يظهر انك بلا لسان ايها
الاحق .. فيجب ان ينالك العقاب الذي تستحقه ! ..
ثم أوماً الى بعض رجاله ، فوضعوا في عنق الشيخ حبلاً وجروه الى
شجرة قريبة يريدون أن يشنقوه عليها . وكان المسكين يصيح ويستغيث
ولا من يجيب . غير أنه ما كاد يصل الى الشجرة ويبادر الحرس الى عملهم
حتى فوجئوا بطلقات نارية متوالية ، تلاها هجوم عشرة من اشداء رجال
القرية ، وفي أثرهم فرسان الامير نكيتا شاهرين سيوفهم ، وقد صاحوا برجال
الحرس صيحة تزعزع الجبال

الفصل الثالث

رجال الحرس

لم يكن رجال الحرس يتوقعون مثل هذه المفاجأة ، ولم يكن ليخطر
في باسهم ان احداً يجترأ على مقاومتهم أو اعتراضهم في ما يفعلون . ولذا
فلما رأوا فرسان الامير قد أطبقوا عليهم من كل جانب وهم يتوعدونهم بكل
ويل ، وقع ذلك عليهم وقوع الصاعقة وأسقط في ايديهم
وكان رجال الامير خمسة وعشرين ، ولكنهم باغتوا رجال الحرس
مباغتة ، وقد اقمضوا عليهم كالبواشيت وسدوا في وجوههم كل سبيل وكانت
معركة دموية قتل فيها اكثر من نصف رجال الحرس واعتقل الباقون .
وكان نكيتا في اثناء هذه المعركة قد التقى بزعيم الحرس فعاجله بضربة كادت
تكون القاضية ، فسقط عن جواده ، وترجل الامير في الحال وقال - من
تكون ايها الرجل ؟



{ فارسان }

فنظر اليه الزعيم
بشراسة وقد
قدحت عيناه شرراً
وقال - وانت من
تكون حتى تجسر
على اهانة رجال
الملك وتقل ما
فعلت ؟

وكان السيف
لا يزال مصلاً في
يد الامير ، فكاد
يجهز عليه به لو لم
تمجبه شجاعته

وعدم جبته وهو في هذه الحالة ، فامر بعض رجاله فشدوا وثاقه ، ووقف
هو يتأمل مستغرباً

وانه لكذلك واذا بخادمه ميخيش قد أبول يحمل مكنسة ورأس
كلب ، فتقدم اليه وقال وهو يضحك مقهقهاً - قد وجدتهما يا مولاي
مسلتين على سرج جواد هذا اللص (وأشار الى زعيم الحرس)

ثم اقبل على الأرض مض فرسائه يتودون جوادين كان وثقاً على
سرجيهما رجلان يظهر من زهماهما من القوزاوي ، وكان احدهما شيخاً
بلجة كبيرة ، والآخرفتي في عفوان الشباب ذاعينين سرداوين حادثين

فالتفت الامير الى رجاله قائلاً - ومن هذان الرجلان؟ ولماذا اعتقلتموهما على هذه الصورة؟

فقالوا - لم نعتقلهما نحن ايها الامير ، ولكننا وجدناهما كما ترى في طرف هذه البقعة وكان بعض رجال الحرس قائمين على حراستهما فتولينا اتقاذهما منهم وقدناهما اليك

قال - حلوا اذاً منهما الوثائق وأطلقوا سراحهما

بيد أن الاسيرين لم يبرحا المكان ، ولبثا بعد أن شعرا بالحرية واقفين وأبصارهما شاخصة الى رجال الحرس كأنهما يودان أن يريا ما يكون من امرهم وما تكون نتيجة هذه الحادثة

وكان الامير قد تحول بنظره الى رجال الحرس وقال - والان ، افلا تطلعوني على سرهم وتنبئوني بجملة امرهم؟ وكيف دعوتهم انفسكم رجال الملك ولستم في الحقيقة الا لصوصاً أثمة؟

فأجابه واحد من الحرس - ان سؤالك ليذهلنا . . أقلم تدر بمد من نكون؟

وقال آخر - فهل هبطت من السماء حتى انك لم تعرف رجال الحرس؟ ومن من الروسيين قاطبة لم يعرف أننا رجال الملك وأنا اخصاؤه واعوانه؟

وقال الزعيم - نعم ، وهكذا يخيل الي . . انه هبط من السماء او خرج من الجحيم . . والا لما جملنا وغرر بنفسه هذا التغير الذي سيفضي به الى الاعداء لا محالة

فازداد ذهول الامير حين سمع كلام هذا الفتى الجريء . وقال له -

ولكن اعلم يا هذا ان للصبر حداً . فاذا بقيت مصرّاً على عدم التصريح باسمك فاجزاؤك الا الشئ قليلاً

فخدجه الزعيم بنظرة خيلاء وقال - انا « متى خومياك احد » رجال النبيل
مليوتا سكوراتوف ، أخدم سيدي بامانة وابذل مهيتي في سبيل رضى الملك .
ولقد شرفنى الملك بان جماني واحداً من زعماء حرسه اخاس وأطلق ايدينا
في الضرب على ايدي العصاة المتمردين عل جلالته واستثنائ شأفتهم .
البلاد .. هذا هو اسمي عرفتك به وانا أرجو ان تعرفني انت ايضاً باسمك
لادكرك حين الحاجة ، اذ لا بد من استدعائك غداً او بعد غد وهما عليك
على ما جنته يدك

فاستشاط نكيتاء ضاً وأمر رجاله فبادروا بترميمهم ، أزميم المدارس وهو به
 حبلاً في عنقه يريدون جره إلى الشجرة التي أراد هو أن يشق عليه ، الشيخ
 القروي . غير أن صغير الأسيرين قد حال دون إنفاذ هذا الأمر ، وتقدم إلى
 الأمير فقال - لا تفسد ذكراً ، لا سيدي ، لا لك لا تدري ما يجري في البلاد
 الآن . . . ولوح لي أن تقدم من ذلك ،
 تعلم بالذي جرى في هذه المدة من الأسراب لعدم ترميمها . . .
 وعلمه ، فإذا كنت راعياً في حياة طويلة لا تفر سبيل هذه النحل . لا حياً
 بحياتها بل حياً بمحباتك التي وحدها أجم يتب أم من هذا المرض لرحمة المدرس
 من الكبت وإريالات . . . عقاب ثم ينفذ بنا ونحن نراه في فردة
 في نساء لم يأت على سارزم ، ونحن نعرف الناس باللاتة لا

وكان نكتنا مطرقاً يتأمل ، وقد أدهشه هذا التحذير ولم يشك في
صدق قائله واخلاصه . وقد لاح له ايضاً ان هذا الاسير قد اعتاد الامر والهي
وانه قد يكون رعيماً لفرقة من القوزاق ولمصابة من اللصوص ، فقل له -
ولكن كيف تلتبس الفروع هؤلاء الاوغاد بمد الذي قاسيته منهم من مضض
الاسر والبلوى ؟

قال - أفعل ذلك اعلمي بالامر . . وابتد بحال بصرك الى موسكو
ووقعتك على ما عنالك من الزرائب لا تندم على اطلاق سراح هؤلاء . .
وهياك فتميت عليهم الان كما قسيت على رفاقهم في هذه المركة ، أفى مأمن
انت من غيرهم ، وهل تزعم ان رجال اارس هذه الشريفة فقط ؟ كلا ايها
الامير ، فانهم كبروا امدد وقد استغرق شهرهم واشتدت شؤنهم حتى عمت
بهم ابلوى ولم يسلم من اذاهم أحد

كان كرتان قد سكن هيج ، وممر ارياح الى كلام رجل ولعل
بسمه وشأنهم بعد ان يجردهم من
سلاحهم ركائز في بنية امل بان الملك وكبار رجال الامن والضبط
في العاصمة سيتلفون هذه الفضائح ويكبحون حماحها ، ولم يكن قد
صدق كل ما سمع عن ارياح انك انى هذه الجرائم والوفيات اتى تقوم بها
رجال الحرس باسمه ، فأرجأ الامر الى ان تنجلي له حقيقة بتمامها

رينما مررتي هذه لتأملات دنام ، ميخيس وقال - لقد اصاب هذا
رجل ايرلاني في اثنا عشر الفون هؤلاء الاشقياء وسكني أسألك ان تاذن
لنا قبل اخلاص سراحهم ان نبجلد كلاً منهم خمسين سوطاً ليكون ذلك درساً
منيداً لهم في المستقبل

فلم يفه الامير ببنت شفة ، بل ظل غارقاً في تأملاته يسمع وكأنه لا يفهم . وظن ميخيش انه موافق على ما طلب ، فاقتاد رجال الحرس ناحية وجلدهم بمساعدة رفقائه واحداً واحداً ، ثم عاد يمشي الهويناء ، والسكينة بادية على وجهه ويداه وراء ظهره ، كرجل فارغ البال راض عما صنع . واذا رآه نكيتا على هذه الحالة لم يتمالك من الضحك رغماً عما به من تلاطم الافكار ثم نهض فأمر رجاله بالاحتفاظ برجال الحرس الى الصباح وان يوافوه هم في القد الى موسكو . وقد عزم على ان يخرج من قرية الدب وليس معه من رجاله الا ميخيش . غير ان الرجلين الثريين استوقفاه وقالوا - ونحن ننضم اليك ايها الامير اذا أذنت ، ليس لاننا نخشى عليك مكروهاً ، بل لان وجهتنا واحدة

قال - لا بأس ، فهيا بنا

الفصل الرابع

في الطريق

كان ميخيش يحاول أن يعرف شيئاً من احوال الرجلين الثريين اللذين أعاد لهما سيده حريتهما ورافقهما في خروجهما من قرية الدب ، وقد بذل جهده ليسبر غورهما ، فلم يفلح ، لانهما كانا شديدي الكتمان قليلي الكلام . وكانا يسيران احدهما الى جانب الاخر ، ويتكلمان حيناً بعد آخر بلغة ورموز لم يفهم ميخيش منها شيئاً

وكان الليل قد أقبل ، فدنا ميخيش من الامير وقال همساً - لقد



فعلنا حسناً باصطحاب
هذين الرجلين في مثل
هذه الطريق المقفرة وهذا
الليل المدهم ، غير اني
أرى أن نكون منهما على
حذر، لانهما قد يكونان
من اللصوص أو قطاع
الطرق أو المجرمين

فقال الامير وهو
يظهر عدم المبالاة -
دعها وشأنهما، ولا تخش
سوءاً ، فقد يكونان
أوفى الناس لنا بعد حادثة

﴿ جماعة من القوزاق ﴾

القرية ، وقد يدافعان عنا أجهل دفاع وربما بذلا ارواحهما في خدمتنا ، اذا
اتفق وقابلنا بعض سرازم الحرس في الطريق

وكان الظلام قد اشتد ، فلم ير الراكب على جانبي الطريق الا اشجار الغابة
التي كانوا يسرون فيها ، ولم يسموا غير صوت وقع حوافر خيولهم ، وكان
الصدى يردده ، فيخيل اليهم احياناً أن فرساناً آخرين قادمون ، ثم لا
يلبثون أن يرددهم الانتباه الى الحقيقة

وكان نكيتا يسير في طليمة الراكب وقد ارتاح الى السكينة فاطلق

لافكاره العنان

وميخاش يسير في اثره ، وقد أخذ ايضا الى السكوت وشخصت عيناه
الى كل جهة كأنه يتوقع محذورا

والرجلان الغريبان يسيران في اثر ميخاش ، وهما يتساران تارة ،
ويعسكان عن الكلام تارة اخرى . الى أن رفع احدهما صوته بالغناء ، فأنشد
اغنية وطنية شجية كان لها وقع في نفس الامير ، لانها ذكرت بهوادث
الماضي ، يوم هم أن يخرج من موسكو الى ساسات القتال في بلاد لثا ، وقد
جتمع بحبيته هيلانة قبيل السمر وسمع صوتها العذب حين خربت تشيمه
وتوصيه بنفسه خيرا ، تهزل . « سربها الحبيب على بركات الرجن دلا . نس
سروا لاني مرافقتك بداعي وصلواتي . . . وكن واللها بحبي ووفائي ، نس توجد
قوة بشرية تستطيع أن تسلب من قلبي حباك . . وما أنيتي الا أن نود
الى غائما متصرا ، لا ضمرا على رأسك بيدي ، كأبل النخار والجبد . . »

وظل الرجل يغني . . وقد انتقل في وصف سهول روسيا الروسية
وعابته ' السكينة والبراهمة المنظمة وحياة البطولة والقروسية والحريه . . ركان
صوته بشدة سيناً وينتدح سيناً فيسندك . . . في اساه نفسه
وكان الامير قد سره هذا الغناء ، ولكنه ظل متبردا الانكار
في الغناء ، معناني في السامر والليل

راه السكندناف اذابه قد سمع بفتة صوت جبهة ، وفي ال من لطاة
دهما ثنائية رجلين يغير لطم فيمكنك انناك الرجال . . .
سندله اصبه را عليه ، راخذوا بزمام جوادده ، ولما مثل ذلك في غيبه
يكمن سير متخفين عنه ، ولكنه

جواديهما وهجما كالبرق الخاطف وقد سلا السيوف وهما يعيحان : خستم
ايها الانذال...! اننا لنذيقنكم الموت الزؤام...!

ولكنهما ما كادا يتمان هذا الكلام حتى قهقه احد الفرسان المحدثين
بالامير ثم تبعه رفقائه ، وقد علا منهم ضجيج السرور

وما وصل رفيقا الامير حتى قابلهما الفرسان بالتحية والتهانف ، ثم
ترجل الجميع واخذوا يعاقون بعضهم بعضاً ، ونكيتا واقف ينثر اليهم ، مستعرباً
وقد ادرك انهم عصابة واحدة . ولم يطل وقوفه وهو في حيرته تلك حتى
اقبل صغير رفيفه وقال - عفراً ايها الامير...! فقد أساء اليك رفقائنا .
وهم لا يدرون من امرنا شيئاً ، ولما بلغهم امرنا اننا انتشروا في البراري ينسبون
اخبارنا ويكتمون لرجال الحرس في كل مكان ، وقد ضلوك واحداً منهم

ونافرخ اقبل رفقائه يحيون الاسير ويستكرون له فضله في انقاذ رفيقهم
من ايدي رجال الحرس ثم قالوا - وانا ايها الامير قد آتيناك ان تتبرك كل من
نظروا من رايك اننا رزاقك من بلاد كثيرة التي تحت بالبلاد منهم ،
وقد تعاهدنا مع جميع رجال عصابتنا على الانتقام الى ما شاء الله

ثم صاحوا كلهم : « اتيح رجال الحرس عن وجهك ، لا يصح ، وليت
مريدوهم...! » وكرروا هذا الكلام ثلاثة مصرات واحدة ، وكان له في تلك
الغابة صدى بعيد عقبه سكوت عيبى

رساروا بعد ذلك والامير في اشد الاستعراب من هؤلاء النجوم ، وقد
غلب على نفسه انهم من القوزاق ، وامهم فرقة كبيرة قد است تناوى فرقة رجال
الحرس التي تشبه الملك . وان نار الحرب بين الفريقين سيزيدها الايام
انتمداً الى ان يفتي احدهما ازبانياً

ويبينما هو يتاجي نفسه بهذا ومثله آنس نوراً عن بعد ، فسأل الجماعة عنه ، فقال له صغير رقيقه السابقين - انه نور طاحون في ذلك المكان ، فاذا شئت ان تبيت فيها الى بزوغ الفجر أوصلناك وقفلنا راجعين نطوف الغابات علنا نظفر باحد من رجال الحرس .. اما المسافة التي تبقى من الطاحون الى موسكوفهي دون القليل

وكان الليل قد تناصف وغلب التنب والناس على ميخيش ولحظ الامير منه ذلك ، كما لحظ ان هؤلاء القوم لا يجسرون ان يرافقوه الى العاصمة فقال - لا بل نتحول الى الطاحون ، لاني أوثر الوصول الى موسكوف صباحاً على الوصول اليها ليلاً .. ولكن هل نجد في هذه الطاحون مبيتاً ؛ قال - نعم ، وانا اعرفها واعرف صاحبها وهو من أوفى اخلائي قال - حسن .. واني أشكر لك البسالة التي أبديتها مع رفيقك في هذا الليل الدامس . واذا قدر لي كافأتك احسن مكافأة

قال - بل نحن نشكر فضلك واحسانك ايها الامير ولن ننسى ذلك ما حيننا ، وثق باخلاصنا لك وورغبتنا في ان تقوم بشيء من الخدم تفيك بها بعض مالنا علينا

قال - ولكني أسألك قبل ان تفترق ان تنبئني باسمك قال - اذا لم يكن بد من ذلك فاعلم ايها الامير ان لي اسماً كثيرة تتقلب وتبديل بتقلب الظروف والاحوال ، فاعرف الان باسم « برستن » ولا أعلم متى يكون غير ذلك ..

وما زالا يتجاذبان اطراف الحديث وبقى الجماعة يتبعونهما فرحين حتى ماتوا الطاحون . فصفر برستن ثلاثاً ، فسمع في الحال صغير آخر من

جهة الطاحون ، ثم خرج منها شبح في يده مصباح ، فحدق نكيتا بنظره فاذا به يرى رجلاً قصير القامة كبير الرأس دميم المنظر يسير على مهل ويقول مخاطباً برستن - لم اكن أنتظر كايها العزيز في هذه الساعة ! .. ولكن ما هذا ؟ انك آت الي ومعهك رفقاء .. وليس عندي كما تعلم مايكفيكم ويكفي خيولكم ! ..

فدنا منه برستن وقال - ليس مرادنا ان نبيت عندك كلنا ، وانما اطلب منك ان تهنيء مبيتاً لامير صديق لي وخادمه فأجاب الطحان بصوت لم يسمعه احد - الامر امرك ايها الصديق .. ولكنني أنتظر هذه الليلة قدوم امير آخر من موسكو ، وقد أوعز الي ان لا أقبل احداً هذه الليلة ، فكيف العمل ؟

فقال برستن همساً - لايهمني امره او امرك .. وانما يهمني ان تقوم بضيافة الامير الذي جئتك به الان قياماً حسناً ، ولا تنبيء اميرك به اذا كنت تخشى سطوته وبأسه قال - ليكن ما تريد

ثم تقدم الى الامير نكيتا فحياه ودعاه وهو يرحب به وكان ميخيش قد نادى برستن قبل ان دخل وقال له - واذا احتاج سيدي الامير الى تهود يشهدون له بما جرى في قرية الدب فكيف نجذك ورفيقك وفي اي مكان ؟

فأجاب برستن ضاحكاً - سل الريح من اين تهب والى اين .. وسل امواج البحر كيف تسير .. لاننا ايها الصديق الشيخ كالرياح العاصفة ، وكالامواج المتلاطمة ، لا مأوى لنا ولا قرار .. وفضلاً عن ذلك فان حضرة

الامير لا يحتاج الى شهادة امثالننا .. ولكنه اذا احتاج الينا في شأن آخر
فاسأل الطحان عنا يندبك بمكاننا في الحال

ثم اقتربا . فراح برستن ينهب الارض وراء رققائه ، وتبع ميخيش مولاه
وكان الطحان قد سار بهما الى غرفة صغيرة في الطاحون ، ثم قدم
اليهما كل ما كانا في حاجة اليه من طعام وشراب ، وتركهما وخرج
فقال ميخيش - ما هذا الطحان يامولاي الاجني من الجان التي
تسكن المغاور والكهوف .. ولقد كانت الاجدر بنا لو واصلنا سيرنا
الى موسكو ..

قال - واي خطر تخشاه هنا في هذه الطاحون ؟

قال - يكفي ان يكون صاحبها طحاناً .. نعم انه قدم لنا طعاماً جيداً
ونخلينا شعيراً كثيراً .. غير انه طحان
قال - وما الذي يخيفك منه ؟

قال - ألا تعلم ياسيدي ان كل طحان يكون رفيقاً للابالسة والجان ؟
وانه لا يأتي عملاً الا بمساعدة هذه الارواح الشريرة .. ولست انا وحدي
ازعم هذا الزعم ، بل الناس كلهم ينظرون الى البلحايين كالى اصدقاء الارواح
النجسة وعشراء الابالسة والشياطين

قال - مالنا ولمزاعم الناس .. فدفع هذه الخزعبلات جانباً ووقع بما
قسمه الله لك ونم مطمئناً

فصمت ميخيش وقد غلب عليه النعاس فنام .. اما نكيثا فبات ينتظر
صباح "نمد انتظار الظمان للماء ، فلم يتمض له جنن وهو يتأمل في ما وقع له
من حوادث النهار وحوادث الليل ، حتى أقبل العجبر قدم قليلاً

الفصل الخامس

الدمال^(١)

في اواخر ذلك الليل ، وقد ساد السكون ، كان رجل في نحو الثامنة
والعشرين من العمر يسير وهو في صهوة جواده جهة الطاحون سيراً حثيثاً .
ولما انتهى اليها ترجل وبادر الى الباب فقرعه بعنف وصاح : الي ايها
الطحان بالمجل !

ولما لم يسمع جواباً ، وكأنه لم يمتد ! لا تتظار ولم يكن في طاقته الصبر ،
عاد فصاح بأعلى صوته . أين انت ايها الساحر ! أخرج حلاً . . والا فاني
ممزقك تمزيقاً !

وما كاد يفرغ من تهديده حتى سمع الطحان يقول بصوت ابحج :
رويدك ايها الامير ! فهاء نذا بين يديك . ولكني أسألك ان تخفض صوتك
لان عندي ضيوفاً . . ولا بد للامر من تمام الهدوء والكتمان

فاحتمد الرجل الذي دعاه الطحان اميراً ، وقال - ومن أذن لك ايها
الدجال ان تقبل هذه الليلة احداً ؟ أولست عالماً بقدومي ؟ هيا فاطردهم
في الحال ! . .

فقاطعه الطحان نادماً على تصرّحه وقال - عفواً ايها الامير ! فما انا الا

(١) اذا رأى القراء في هذا الفصل وفي فصول اخرى من هذه الرواية شيئاً من الاوهام
والخرافات فلا يضرّوا بها عرض الحائط بحجة انها تنقل من شرف الرواية وتمحط من شأنها . . ونحن
اذا حاولنا تجميع الرواية من هذه الاوهام ، لان فيها شيئاً فاسداً ، كنا كمن ينوء جبال الحوادث
التاريخية المتسلسلة فيها ، لان مؤلفها انما قصد بآرادها بيان ما كان عليه الروسيون في ذلك العصر
من الجهل والغبوة . . ولا ريب أن تلك الرؤى والاباطيل كانت محترمة عندهم وشائعة في بلادهم ،
ليس بين السوفية فقط بل وبين الملوك والامراء ايضاً — كما يتضح ذلك من سياق الرواية

أوفى عبيدك ، ولا أبني في اعمالي كلها الا مرضاتك .. فلا تضطرب ، ولا يسوءك امر ، لكلا تقسد ما نحن مزعمون ان تقوم به من العمل الذي جئت لاجله .. وأما الضيوف فلن يزعمونا بشيء لانهم غارقون في سبات النوم ..
فها بنا !

فلم يهتم الامير بعرفة الضيوف ، اذ كان له من افكاره شغل شاغل ، بل قال - أنظر يا هذا ! اني موطن النفس على أن اسمع منك هذه اليلة ما يسرنى ويكون لدائي بلماً شافياً .. ولكنك ان علت تماطلني وتعلماني بالفارغ ، فلا يكون جزاؤك الا الخلق او الشنق .. فاختر لنفسك ما يحلو فقال الطحان - مهلاً يا مولاي ! .. فاتي مطلمك على ما سينجلي لي حرفاً حرفاً ، وليس من شأني أن أحول دون تصاريق القدر او أرد قضاه لان ذلك بيد علام الغيب والخفاء .. اما اذا كنت معولاً ماذا لان على معاقبي خيري ان أربأ بنفسي من اول الامر ، فلا أقدم على شيء ، وانت بعد هذا وما ترى

فتبسم الامير وقال -- حسن ، فلا تخش سوءاً .. وأنا انما اردت المداعبة لا غير

وفي اثناء ذلك كان الطحان قد خرج الى ضيفه ، فأخذ جواده وربطه الى شجرة قريبة ثم عاد اليه وكان الضيف شاباً طويلاً القامة عليه ملامح الغنى وابهة الكرامة والسؤدد ، فقال له الطحان - هل استظهرت ايها الامير الكلمات التي لفتتك أياها ؟

فقال - نعم استظهرتها ، وعلقت في عنقي حسب اشارتك قلب السنور
قل - وماذا أجداك ذلك ؟

فأجاب الامير بحزن وتلف - لم يجدني قعاً . . . ولقد شاهدتها اليوم
في حديقة قصرها ، ولكنها ما وقع بصرها علي حتى تفرت كالظبي المذعور
وأسرت فدخلت منزلها

قال - يخيل الي اداً . . .

قال - قل ولا تخف شيئاً

قال - ولكنني أخشى غضبك !

فرفس الامير الارض برجله وصاح - قل بلا تردد ايها الاحق !

قال - يخيل الي . . . انها تحب سواك

قال - ومن ترى ذلك الحبيب ؟ أزوجها الشيخ ؟ ان هذا من المحال

قال - وقد يكون غير زوجها . .

وما سمع الامير هذا الكلام حتى انتفض كالصفور وقد بلله القطر
وصاح - حسبك هذياناً ايها الشيخ الاحق ! الا تعلم اني لو عرفت لها
حبيباً لكنت مزقه ريباً لرباً ؟ . . فهذا لا يمكن ان يكون ، ولست أتصوره
في الاحلام ..

قال هذا وسكت ، وقد سكن جأشه . ثم تنير بغتة فتهد وقال -
ارحمي ايها الطحان وارث لي فقد بلغ اليأس مني وأنحل الغم بدني وأحرق
الوجد فؤادي ، حتى أمسيت على شفا الوبال . . . ولقد حاولت مراراً أن
اصرف افكاري من هذا الحب ، وألهو عنه بالصيد والقنص تارة ، او بمعاورة
الحمرة ومنادمة الاخوان تارة اخرى ، فلم يجدني ذلك كله راحة ، ولم يخمد
ما اضطرم في من سعي الهوى . . وكان من امري بعد ذلك أن انخرطت

في سلك رجال الحرس ، فقربت من الملك واصبحت من اخصائه وندمائيه المختارين ، وشرعت منذ ذلك الحين أعيث في بلاد الله كغيري من افراد هذه العصابة ، لا يردعني عن اجراء المآثم والمحرمات رادع ، وقد مات ضميري ، ولكنني أضحيت مهيباً وعظيماً جداً في عيون القوم ، يرهبنني ويخشون سطوتي وبأسي كل انسان ، حتى صار مجرد ذكر اسم « اناسي فيازيمسكي » يملأ القلوب رعباً وهولاً . . . بيد ان كل هذه الصولة وذلك الجبروت لم يكونا والأسفاه شيئاً . . . لاني لم اتقدم بهما قيد شعرة في سبيل الحصول على « هيلانة » . . . فلم يبق لي للوصول اليها الا من طريق السحر ولو كان في ذلك معصية الله والخروج على الملك . . . وقد التجأت اليك لما اشتهر من دهائك ومهارتك وانا أرجو أن تنيلني انت البدم الشافي ، فهات ما دبرت

فأطرق للطحان وقد هاله منظر الامير وخشي على نفسه من تهيجه وغضبه ، فأخذ يقلب وجوه الوسائل بغية تليق خاطره بشيء

وكان الامير قد نقد صبره فصاح به قائلاً - وبحك ايها الشيخ الساحر فهل أتيت بي الى هنا لتعذبني ؟ أفلم تمدني بالبحث عن الاعشاب السحرية التي تبلغني أمنيدي ؟ فأبها أنمبت ؟

فأجاب الطحان وهو يرتعد فرقا - ان هذه الاعشاب كثيرة ياسيدي . . . فيها ما اذا حماله المرء في عنقه أمن شر الضواري ، او فاز برضى الملك وحظي عنده ، او أصبح مهيباً محترماً ، ويخشاه كل من يراه . . . ومنها . . .

فقاطعه الامير قائلاً - ولكن الملك راض عني كل الرضى ، والقوم يخشون بأسي وسطوتي بدون ازهارك واعشابك . . . فاذا ذكر انواعاً اخرى فاستأنف الطحان كلامه بقوله - ومنها ما يسمى « رأس آدم » وهو

عظيم النفع اذا حله المرء طاب عيشه ، اوكثر محبوبه وقل مبغضوه ، او انهالت عليه هدايا الاخوان .. ومنها ما اذا مضفته نجوت من الدبة والذئاب فلن تقربك او تؤذيك .. ومنها ..

فتبرم الامير بهذا التعداد واضجره خروج الشيخ عن حدود الموضوع واياله في فلسفة اعشابه فقال - ولكن ما لنا ولكل هذا ؟ .. فانا انما اود ان تطلعي على ماجئت لاجله من هذه الاعشاب

فأجاب الطحان باهتمام - سمعاً وطاعة يامولاي ! تمهل علي فاني منبتك بكل مالمدي .. فمن تلك الاعشاب ايضاً ما اذا أحرزته أحرزت كل ماتصبو اليه النفس من الثروة والجاه .. ومنها ما اذا علقته على صدرك تحت الدرع أصبحت أمهر اهل الزمان في الفروسية واساليب الطمان ، لايجاريك احد من الابطال والفرسان

قال - وهل وجدت منها ما يجعل الفتاة تحب متيمها وتهواه وترق لحرقة وجواه ؟

فاطرق الطحان هنيئة ثم قال - كلا ، لم اجد شيئاً من هذا

قال - وما يخفف آلام الحب او يخمد سميره المتقد ؟

قال - وهذا ايضاً لا اعرفه .. ولكنني أعرف غير ما ذكرت من الاعشاب ما لو وضعته على الاقفال لتحطمت امامك في مثل طرفة عين .. وأعرف ..

فقاطعه الامير وهو يتلذع غضباً - اخرس ايها الدجال اللعين ! .. فاني في غنى عن هذه السفاسف التي تسردها علي ، وقد جعلت آمالي هباءً منثوراً ، فبئس ما نطقت به

ثم هجم عليه فوضع يديه في عنقه وهزه بهتف وصاح - يجب ان
تخضرها الى حالاً...!

فَارْعِدِ الطَّحَانَ وَهْلِعْ قَلْبَهُ وَأَيُّقِنْ بَدَنَهُ الْإِجْلَ . .

غير ان الامير لم يلبث ان تركه بقعة ، ثم اكب على قدميه وهو يستغيث ويقول بذلة - أستحلفك بالله ان ترحمني وتدفع عني هذا العذاب ؟ .. اني اشعر بنار آكلة تتقد في احشائي !.. ويلك ايها القلب الشقي ! . كيف تطمع في الحب وقد قضي عليك ان تحيا شقياً وتموت منسياً ! . فهل في امكانك لبها الطحان ان تبرد لوعتي وتكف كف دمعتي ؟

فازداد الطحان خوفاً واضطراباً ، وقد ادركته الشفقة على الامير ،
فعمط عليه وقال - هون عليك ياسيدي ولا تقنط من رحمة الله .. أفلا
تستغرب حالتك امام الطحان داود المسكين ، فند الى رشكك وأشفق
على نفسك

فقال الأمير وهو لا يزال مضطرباً - وأنى لي أن أعود إلى رشدي
وقد شردني القتل ! . بيت أشد الموت كل ساعة ، فيه لاغير - الشفاء
من هذا الداء ، وبه تسرية هذا الشتاء .

ألا موت يباع فأشتره فهذا العيش ما لا خير فيه

وكان الطحان واقفاً كالأخوذ ، لا يدري بماذا يسلي الأمير ويخرج
كربته ، رقدتظم عليه الأمر وخاف سره العاتبة فقال - هيا بنا الآن يا مولاي
قبل أن يشرق نورا - مباح - نعلم ينكشف لنا في الماء شيء من غواص الغيب
ثم اقتاده إلى الماء حيث كانت سدور وحري "طاحرون وقال - أنظر معنا

يا بني ولا تحول بعدي عن الدنيا أفريح من مرد قرالى

قال هذا وانبطح على الارض وأخذ يتعم كلاماً مجهولاً ويدي اشارات
شئى ، والامير شاخص في الماء كمن يتوقع ان يرى شيئاً
فقال له الطحان بمد قليل - ماذا ترى ايها الامير ؟
قال - كأن لؤلؤاً يتناثر او جليناً يسطم
قال - ستكون اذا أغنى رجال روسيا وأعظمهم
فهز الامير رأسه ولم يرفع نظره عن الماء . فقال الطحان - والان
ماذا ترى ؟

قال - كأن سيوفاً تلمع وصوألجة تنوص ثم تطلع
قال - وستكون مظفراً في الحروب مؤيداً في خدمة الملك
قال - ولكني أرى الان الماء قد اعتكر .. وها هو آخذ في الاحمرار
وقد صار كالدم . فما معنى ذلك ؟

فحمد الطحان ولم ينبس بكلمة
فقال الامير - راني أرى الان خيوطاً ارجوانية او أوردة دموية ..
وكان هناك كلاليب من الحديد بلون النار تروح وتجيء
فقال الطحان - حسبك ايها الامير ، لان طول التحديق الى
الماء يؤذيك

ودنا منه يريد انهاضه ، وهو يخشى ان يظلم عقله او يصاب بمس من
الجنون . فدفعه الامير وهو لا يتزحزح من مكانه ثم قال - وكأنني ارى الان
آلة كبيرة ذات اسنان كالمنشار وتحتها الدم يتفجر
فقال الطحان - أسألك بالله ياسيدي ان تقنع بما رأيت لئلا
يصيبك مكروه

قال - مهلاً .. مهلاً فاني أراها .. نعم أرى هيلانه بينها ، وعليها رداء
من القطيفة الحمراء .. وقد وقف الى جانبها فتى من الفرسان .. في ثوب من
الارجوان . وهما يتمشيان . انهما يتعاقبان .. نعم يتعاقبان .. فالويل لي ولهما ..
قال ذلك ونهض وهو ينتفض ، وقد احمرت عيناه ، فأن أنيناً محرقاً
ثم قال - فهل في طاعتك ان تعرف اذا كانت تحب سواي ؟
قال - هذا ما أخشاه .. وسأنبئك بعد ايام بما يفتح علي
فأخرج الامير من جيبه قبضة من الدنانير ، فوضها في يد الطحان
وقال - رأيك الموفق الى الصواب ايها الصديق في جمع شملي بهيالة وعليك
التدبير .. فانه الدنيا دون هيلانة سجن مظلم في عيني ، والحياة عذاب واصب ..
فآه من الحب ، ما أحلاه رما أمره .. وقد علمت اني قد وقفت نفسي على
هواها وآليت ان أبذل مهجتي فسادها .. فويل لمن يناظرني فيها او يزاحمني
عليها ، فاني لأعلن رأسه عمصام يهوي به الى جهنم النار ولو فرأى السبع
الطيار الشداد ..

وكانت سيدة تنسب نفسها لنبيل سدره ، فب الى جوارده فتمتطاه
وهمزته كمن يطرد عدواً ، وانسحب يتهرب الى الارض علة آفة من حينه ، اني

الفصل السادس

سوسكو

في مدينة الروس المتدسة ، وقلب بلادهم لنابض ، وعاصمتهم القومية
م تكن منذ نحو ثمانية قرون شيئاً مذكوراً ، ولم تعرف بهذا الاسم

قبل سنة ١١٤٧ - وهو انما أطلق عليها نسبة الى نهر يجري فيها يقال له « موسكو » ايضاً ، فدعيت المدينة باسمه ، ثم عرفت البلاد كلها بهذا الاسم وكانت البلاد الروسية في ذلك العهد وقبله ببضع مئات من السنين امارات مستقلة بعضها عن بعض ، وقد سادت القوضى واستمرت بينها نيران الفتن والحروب الاهلية دهرًا طويلاً

واول من ولي الامر فيها امير من اصل أسوجي يقال له « روريك » من أسرة « روس » فدُعيت البلاد باسمه ، ومنه تسلسل الامراء والملوك . وكانت عاصمتهم في اول الامر مدينة « نوفغورود » ثم مدينة « كياف » . وكان أشهر هؤلاء الامراء - حتى اواخر القرن الماضي - الامير « فلاديمر » وهو الذي تنصرت وأدخل النصرانية الى بلاده

وترى في الامير فرديمر هذا من انبي عشر ولداً ، وكان قد قسم البلاد فيما بينهم على ان يعيشوا بالسلام بالاتحاد ، غير انهم لم يلبثوا ان اثاروا الحرب بينهم على بعض ، فكان من بينهم قتل وحماً بعد آخر ، وأفضى الحكم أخيراً الى واحد منهم يدعى له « ياروسلاف » وكان أشدهم بأساً وأفرهم حكمة ، وهو اول من سن لبلاده الشرائع والاسكام . وفي أيامه بلغت البلاد مبلغاً عظيماً من المنعة والقوة والاتساع ، فامتدت من البحر الاسود جنوباً الى بحر البلطيك شمالاً . وقد جنس هذا الامير على سرير اسرة كياف سنة ١٠١٩ وكانت تلعب في عهده بالامارة العظمى

وكانت العادة التي جرى عليها امراء الروس وقتئذ ان تقسم البلاد بينهم فبستولي كل امير منهم على اقليم من اقاليمها ، الا امارة كياف فكان يستولي عليها عادة اكبر الامراء سنًا ويلقب بالامير العظيم . وكان ذلك علة لعدم

والشعناء وسبباً من اعظم الاسباب لتواتر الحروب الاهلية التي اضططرت في البلاد بين ابناء ياروسلاف وحفدته وابناء حفدته من يوم وفاته (سنة ١٠٥٤) الى سنة ١٢٢٤ . وقد قام في هذه المدة نحو اربع وستين اماراة تولى عروشها نحو مئتين وثلاثة وتسعين اميراً وانتشبت بينهم نحو ثلاث وثمانين حرباً أهلية اشتركت في بعضها البلاد بأسرها من اقصاها الى اقصاها وتقل بعض الامراء في خلال ذلك سرير الامارة العظمى من مدينة « كياف » الى مدينة « فلاديمر »

وفي سنة ١٢٢٤ ازحف التتر المنول الى بلاد الروس واجتاحوا اقاليمها الشرقية ثم قفلوا راجعين الى بلادهم في اواسط اسيا . وعادوا بعد ثلاث عشرة سنة فجددوا الغارة على روسيا ، وقد افتتحوها معاقلاً ودمروا مدنها ، وموسكو في الجلة ، وضربوا عليها الجزية . وأنشأ ملكهم - الملقب بالخان - في القسم الجنوبي الشرقي من البلاد سلطنة تترية عظيمة ، خضع لها الروس زمناً طويلاً وكان لا يتولى من امراءهم احد الا بأمر « الخان » ورضاه

وكان اسم الامراء : جدد ، و « مويسكو » في خلال ذلك راخنظها داراً لنفسه . وكانت الهارة تزايد فيها كلما تذكر ادما ، و « باب » على سريرها الامراء ، الى ان كان عهد الامير ديمتري دونسكوي (١٣٦٣ - ١٣٨٩) فعظم شأنها واتسع نطاقها واصبحت عاصمة الامارة العظمى . ثم عاصمة « بلاد كلها » مركز قوتها واتحادها

وكان الامير ديمتري المذكور قد وحد كلمة الروس وجمع اكثر الامراء تحت لوائه . ثم حارب التتر فانصر عليهم . ولكنهم عادوا بعد سنين فزحفوا بمجموعهم اكنيفه واحرقوا موسكو وضربوا عليها الجزية من جديد . ويب

ان انتصار الامير ديمتري كان قد ملأ قوس الروسيين أملاً وأفعم قلوبهم رجاء فلم يفسلوا ولم تخزعائهم ، وكانوا قد أدركوا معنى الاتحاد ورغبوا فيه

ولما كانت سنة ١٤٦٢ جلس على سرير الامارة العظيم الامير يوحنا الثالث ، وكان من اجل الامراء وأفضل اهل الرأي والتدير ، فانتقاد اليه جمهور الامراء ودان له البلاد فحكمها بالحزم وأصلح شؤونها ، ثم حارب التتر سنة ١٤٨٠ فقهروهم وخلص نيرهم عن البلاد ، فلم تقيم لهم قائمة فيها بعد ذلك وكانت موسكو قد تجدد بناؤها وعادت الى احسن مما كانت عليه .

وكانت فيها في عهد يوحنا الثالث اسباب القوة والمنعة وتعددت الابنية العظيمة ولا سيما الكنائس والقصور مما لم يكن له مثيل في غيرها . وكان أهم اقسامها وهو لا يزال الى اليوم اشهر ما فيها ، القسم المعروف بالكريميل (او الكرملن) اي الحصن ، وهو في منتصف المدينة على رابية كبيرة قامت فوقها قصور الملوك والكنائس العظيمة والاديار الفخمة . ولاكريميل عند الروس مقام عظيم ومكانة فائقة حتى جرى اسمه مجرى الامثال ، فقالوا ان الكرمليل يعلو كل شيء ولا يعلوه غير السماء

وتوفي يوحنا الثالث سنة ١٥٠٥ خلفه ابنه باسيل الثالث . وخلف هذا ابنه يوحنا الرابع (١٥٣٣ - ١٥٨٤) أحد أبطال هذه الرواية . وفي عهده عظم شأن روسيا فأصبحت مملكة ، وكان هو اول من سمي ملكاً عليها

وكان يوحنا الرابع هذا من اسعد الملوك والامراء طالعاً ، فقد حارب التتر واستولى على ممالكهم ، وأشهرها وقتند قازان وأستراخان وسيبيريا ، وأصبحت موسكو في ايامه اعظم مدائن البلاد الروسية وأبعدها ذكراً وأكثرها

ثروة وعمراناً وأمنها عزة وسلطاناً . غير انه غلبت عليه الخلاء والزهو ،
فأذاق الجماهير من رعاياه البلاء والشقاء ، مما سيقف عليه القارىء تفصيلاً

الفصل السابع

النبيل موردوزوف ونوجنه

من سرح طرفه في مثات المنازل التي كانت في ذلك العهد قائمة في
موسكو على جانبي نهرها ، رأى قصرًا جميلًا يبدو عليه من الفخامة والابهة
ما لا يرى الا في قصور الملوك ، وتحيط به حديقة غناء واسعة الادراج فيها
من جميع اصناف الاشجار والرياحين والازهار

وكان هذا القصر لشريف من نبلاء موسكو وعظماها يقال له دروجينا
موردوزوف ، وكان شيخاً واسع الثروة بسيط الجاه كريماً هماماً طيب
الخصال كثير التبذل والسخاء ، وقد خدم وطنه ببسالة نادرة في الحروب
التي خاض غمارها وهو كفائد من اشهر قادة الجيوش ، وقام عند ذلك بما
لا يحصى من اعمال نبل والاحسان ، حتى لم يبق في تلك البقعة من لم يحترمه
ويدع له بطول البقاء والخير

وكان قد اقترن من أمد غير بعيد بفتاة حسنة من فتيات موسكو يقال
لها « هيلانة » لا ينافسها في جمالها منازع ولا تفوقها في أدائها كريمة من
كرائم السراة وانوجها . وهي ابنة احد مشاهير القواد الابطال ، وقد مات
ابوها شهيد الوطن والامة في بعض المعارك المشهورة التي نشبت بين الروس

والتر واسفرت عن انتصار الروس واستيلائهم على مدينة قازان احدى عواصم السلطنة التتارية ، ثم لحقته والدتها وكانت من فضليات النساء وأحصنهن عقلا واكملن ادباً

ولم يكن لهيلانة يوم وفاة والديها اكثر من عشرين عاماً . وكان



﴿ النيل موروزوف ﴾

كثيرون من الامراء والنبلاء وزعماء الحرس الملكي ، وفي مقدمة الجميع الاميرة ثناسي فيازيمسكي قد هاموا بها ، وكل منهم يتمنى ان يحظى ولو بنظرة الى جمالها اللفتان . ولكنها لم تمل الى احد منهم ، وآثرت ان تزف الى رجل شيخ يفوق اباها سناً . وقد أدهش ذلك الناس ووقع في نفوسهم اغرب موقع ، وكان موضوع

احاديث وتقولات بينهم لانهاية لها

اجل ، ان فتاة بسن العشرين ، وقد جادت الطبيعة عليها بأجل الصور ، لا تقترن - برضاها واختيارها - برجل طاعن في السن - الا لسرخي ومهما كان موروزوف عريقاً في الحسب والنسب عظيماً في الثروة

والجاء ، ولكنه كان شيخاً ، في نحو الستين من العمر ، وقد كله الشيب
وكادت الايام تحني ظهره

واين موروزوف هذا من الامير اثناسي فيازيمسكي ، وقد كان في نضارة
الشباب وكمال الفتوة والجمال والقوة ، وكان فضلاً عن هذا كله صديق الملك
وحبيبه وندمه . . .

ان الامير اثناسي قد احب هيلانة وكلف بها شديداً وهب يتقرب
اليها بالهدايا النفيسة والطرف النادرة ، ويتوسل لذلك بكل ما استطاعه
من الوسائل الاخرى ، لتهب قلبها وترضى به رفيقاً لحياتها . ولكنها صدته
صدّاً جافياً ورفضت هداياه بالاحتقار والازدراء . . . فهل فعلت هيلانة ذلك
لعدم ارتياحها الى الامير اثناسي ، ام لان قلبها كان مشغولاً بحب سواه . . ؟
ولكن مهما كان سبب امتناع هيلانة فان الامير لم يطق احتمالها ، وقد
اخذه من المص والياس ما كاد يذهب بعقله ، فاستجار بالملك يوحنا الرابع
شاكياً ، ففرق الملك لحاله ووعدته خيراً ، بل وعده أن يخطف له هيلانة
بنفسه ، ويرفها اليه بعد ايام ، مشردة

وتناقل رجال البلاط هذا الامر ، وعلقت به هيلانة فقامت فيا، نهبا
وتحيرت فما تعمل واين تختبئ ، وقد صممت على مواصلة الرفض وعدم
الاقبال ، وهي ترى اسهل ما عليها الانتحار تخلصاً مما لا يطيق صدرها احتمالها
وخرحت على أثر ذلك من منزلها في بعض الايام وسارت وهي لا
تدري الى أين ، ورأسها مشوش بالهمم ، الى أن قادتها قدمها الى كيسة
في بعض حرات انهر ، نسجت انعاماً شجية كانت تنبث منها ، فعادت
الى سائرته ريت بارنياس عظيم الى الصلاة . وهي ترجو أن تنال فيساراً

لنفسها ، فدخلت وجثت في بعض جوانب الكنيسة وغرقت في الابهال
وكان في جملة الواقفين اذ ذاك في الكنيسة النبيل موروزوف الآنف
الذكر ، وكانت له معرفة تامة بالفتاة وقومها . فما تأملها وهي داخلة على الحالة
التي وصفناها ، حتى رق لها ، وقد شعر بالكسار نفسها ، وعادت الى ذهنه
ذكرى حوادث كثيرة من حياة والدها البطل وكان من اوفى اصدقائه ..
ثم عاد بتأمله الى هيلانة وقد اصبحت بعد وفاة والدها يتيمة وحيدة ، لا
ترى والداً شقيقاً يخفف من بلواها ولا والدة حنوناً تمسح دموع حزنها ولا
اليفاً تبثه شكواها ، ف شعر بدافع داخلي عظيم يدفعه الى محادثتها والسؤال
عن حالها

وكان المصلون قد فرغوا من الصلاة واخذوا يخرجون من الكنيسة ،
فبادر الى حيث كانت هيلانة لا تزال جاثية تناجي ربها ، فحياها بحنو الوالد
الشفيق وسألها عن حالها

وكانت هيلانة تعرف موروزوف وتحترمه ، وكانت تزوره مع اهلها
ويزورهم هو في منزلهم ، وكانت تقضي اليه بكثير من حوادثها وشؤونها ،
الا امراً واحداً كتمته عنه فلم تبج به لاحد ...

فلما رأت الان الشيخ أنست به وشعرت كأنها الى جانب والدها وأيقنت
أن السماء قد أرسلته اليها لتبثه شكواها وتقضي اليه بمخاوفها وقلقها ، فأخبرته
الخبر وعيناها طاحتان بالدموع ثم قالت - وان رسل الملك سيفدون علي
ليكرهوني على الاقتران بالامير اثناسي ، ولكن هيهات ذلك ، لاني مصممة
على عدم التسليم ما دام في رمق من الحياة

فقال موروزوف - أما أنا فلا أري رأيك با بنية ، وما الامير اثناسي

الا نعم القرين لك ، لأنه من اشرف الاسر العريقة في النبل ومن افضل
رجان المملكة مقاماً وثروة ومن اقرب اخصاء الملك ، فلم هذا الالباء وهذا
الاصرار . . . واذا كنت لا تميلين اليه الان لانك تجهلينه ، فلن يمضي الا
الزمن القصير حتى تألفيه وتمحيه

فقلت - كلا ، كلا . . ان هذا لن يكون ، واني لا أؤثر الموت الف
مرة على أن اقترن بهذا الرجل . . وها اني اتوسل اليك يا سيدي بحتى ما
لوالدي عليك من صلة المودة والصداقة ان تعطف علي وتجبرني

فاطرق موروزوف هنيهة ، وقد بدت على وجهه علام التفكير والاهتمام
ثم رفع رأسه وحدث الى الفتاة ملياً وقال ، وهو غير عالم بما خبأته له يد
الاقدار - ليس لدي الا وسيلة واحدة أحبك بها . . فتأمليني يا هيلانة ثم
أجبي . . اني رجل شيخ ، وقد احببتك حباً يفوق حب الالباء لابنائهم ،
وكنت الى الان سيء البخت في الحب ، وشاء الله أن أبقى الى الان
عزباً . . فهل ترضين بي زوجاً لك ؟

نسحت هيلانة الدمع التي كانت تترقق في عينيها واندفع من صدرها
تمهد عميق وقالت - نعم . . واني راضية اتم الرضى
ولم يملك موروزوف ايضاً عبرته ، فسح دموعه ثم اخذ الفتاة فقبلها في
جبينها وهو لا يعلم ان الذي اظهرته كان سرور امرى اشرف على الفرق
فأبصروا هن الاعشاب فتشبث بها لينجو . .

ولما سكن جأش هيلانة عاد موروزوف فقال :

- فان كنت راضية كما تقولين ، فأقسمي لي هنا بحضور الله على
الامانة والاحلاص ، وانك لن تخونني عهدي ولن تداسي شفتي

فوعدت هيلانة وافسدت ، وهي لا تزال خائفة مضطربة ، ولعلها كانت لا تدري ما تقول ..

ثم خرج الاثنان من الكنيسة ، وكان الظلام قد أقبل ، فتأبط موروزوف ذراع هيلانة وسار الى جانبها يشيئها الى منزلها ، وهو في اشد الارتياح اليها ، وهي تشعر كأن حملاً ثقيلاً ازيح عنها

وفي اليوم التالي عقدت خطبة هيلانة للشيخ . ولما جاءها رسل الملك يسألونها الرضى بالامير اثناسي وعلموا بما تم عادوا بالخيبة ..

وكان بعد ايام ان ثابت الى هيلانة عافيتها ، فزفت الى موروزوف ، وأقامت في عصمته مطمئنة الخاطر ناعمة البال

وأدرك موروزوف ما سيكون لعمله هذا من الوقع السيء في نفس الملك ، وانه لا يلبث ان ينتقم منه ، فأقام ينتظر ماعسى ان تجي به الايام .. وكان الشيخ أعرف الناس بيوحنا الرابع وأحواره وارتياحه الى الانتقام من الاشراف والنبلاء على اقل المفوات .. وكان الامر كما توقع ، لان الملك كاد يبلغه خبر اقتران موروزوف بهيلانة حتى اشتعل غيظاً ، وقد رأى في هذا العمل خروجاً عليه ومقاومة لارادته ، فدعاه بعد ايام قلائل الى مائدة وأجلسه بعد الامير اثناسي فيازيمسكي وبوريس غودونوف ، وكان موروزوف معدوداً في الرتبة الاولى من طبقة النبلاء ، فلم يكن لاح تقدمه ، وكان بوريس غودونوف حديث النعمة لم يبلغ بعد المكانة بلغها بعد ذلك بفضل ذكائه ودهائه واستعداده الفطري المعجيب الذي امامه كل عسير ، فاستبد بالاحكام بعد وفاة يوحنا الرابع ، ثم رقي الى الملك وأصبح سيد البلاد الروسية بأسرها ..

ورأى موردوزوف ان الملك يريد العبث به والخط من كرامته ، فلم
يحتمل ، وشعر كأن سهماً اخترق قواده ، فوثب على قدميه وصاح بالملك :
ليس لك ولا لاحد ان يزدريني ويدلني الى هذا الحد . . فلن أجلس بعد
غودونوف ولا بعد فيازيمسكي . .

وكان الملك كان ينتظر مثل هذا الجواب فأمر موردوزوف ان يغرب
عن وجهه وبرخي شعره فلا يقصه ولا يرى وجه الملك الا اذا نال غفوه
ورضاه . . فخرج موردوزوف وعاد الى قصره وهو منزعج الخاطر حزين
النفس ولكنه لم يكن نادماً على ما فعل ، لانه لم يعرض نفسه للامتهان ،
فلم يجلس بعد من هم دونه رتبة ومقاماً

وكان لهذا النبيل حاشية كبيرة من الاعوان ومئات من العبيد واخدم .
.. وكان الجميع يتسابقون الى خدمته وقضاء كل اشارة تبذرها ويستسهلون
في جانب رضاه كل صعب . وكان هو يعاملهم بمنتهى الرأفة واللطف ولا
يخل على احد بشيء مما كان يحتاج اليه . وكان له منازل كثيرة في موسكو
ارباضها ومئات من القرى والفياض ، فلم يكن ينقصه من خيرات الدنيا
شيء . . وكانت هيلانة في نظره فوق هذه الخيرات كلها ، وقد رأى
انفساً عالية وجمالا لا يجارى وخلفاً دمثاً ووداداً ونطقاً ، فأحبها كثيراً
لأن بها وهو يرى انه ملك ناصية السعادة بقرتها ، وانها ملاك الخارس
غير ان هيلانة لم تقترن بموردوزوف عن شغف وهيام ، وانما فعلت ذلك
وبنفسها من الامير اثناسي ، فهي اذا قد اختارت أهون الشرين . .
.. وصارت اليه ، ورأت منه ما رأت من المروءة واللطف والحب لم ير الا
تقربه والذل ، فاسترته وأحبته ولكن حب البنين للآباء . .

ان هيلانة قد أقسمت لموروزوف على الامانة والاخلاص ، وعقدت ضميرها على البر في قسمها ، فهل ترتكب اثماً اذا كان يترأى لها حيناً بعد آخر فارس باسل في ثوب من الارجوان وفي عنفوان الشباب ومنتهى الجمال والقوة ، فيملاً قلبها سروراً ويفهم نفسها تذكارات شائقة ؟ .. وهل تبجي ذنباً اذا كان خيال ذلك الفارس لا يريح نصب عينيها ، فتذكره في كل ساعة من حياتها في اليقظة والنم ، وترأه وقد امتطى جواده واندفع يحترق الصفوف في بلاد « لتفا » البعيدة ويدحر الاعداء كالاغنام ؟ .. او تتمله جالساً اليها يتشاكيات مرارة الفراق ، او مائلاً امامها يرنو اليها بين اللوم ، وكأنه يقول لها : « كنت أظنك يا هيلانة موضع آمالي وقبلة امانتي ، ولكنك غدرت بالحب وتقضت العهد ؟ .. فاين الموائيق التي عقدناها قلباً بقلب لا يداً بيد ؟ .. واين الاقسام التي اشهدنا الله عليها وملائكته ؟ .. واين كلمات الوداع التي سمعتها منك يوم فارقتك ووقعت في قلبي المنى موقع البرء من ايوب ، فشددت عزمي وأعانتني على مقارعة الاموال واقتحام المنون في ساحات الصدام ؟ .. أكذا يكون رباط حبك أوهن من خيط العنكبوت ؟ .. أكذا تنيرك النوى ويقلبك الهوى ؟ ... »

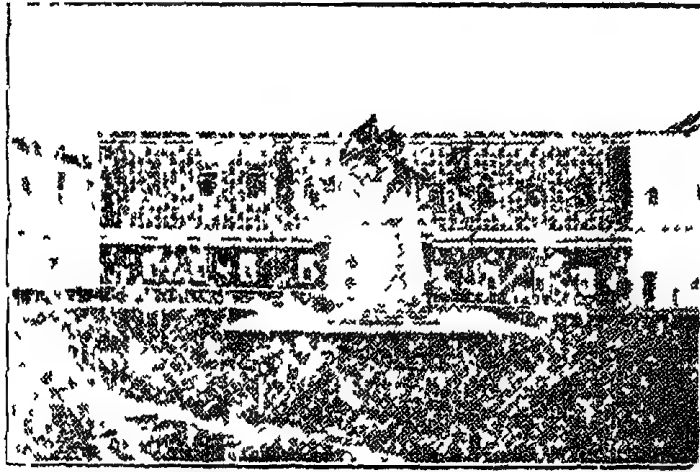
الفصل الثامن

الاناسك

كان اليوم الرابع والعشرون من شهر حزيران سنة الالف والمئة وخمسة والستين عيداً حافلاً في موسكو ، وقد قرعت مئات الاجراس فيها قرعاً

متواصلاً ، وغصت الكنائس بالجمهير الفقيرة ، وهم بعدان قاموا بفروض
العبادة خرجوا فانتشروا في الشوارع فرادى وازواجاً ، ثم اخذوا يمدون
الى منازلهم . وما تناسف النهار حتى كنست الازقة والشوارع وخيمت
السكينة على المدينة كلها

كانت ساعة القبول . وقد اعتاد اهل العاصمة ان يأوي كل الى فراشه



﴿ منزل من منازل النبلاء في موسكو ﴾

في مثل هذه الساعة من النهار في ابام الصيف ، ولا سيما ابام الاحاد والاعياد ،
فترقد المدينة كلها ، وتقف كل حركة فيها . . غير ان الحالة لم تكن كذلك
في الضاحية الغربية من المدينة في هذه الساعة من النهار ، فقد عبت هناك
بالسكينة ، وكانت الحركة على أتمها

كان في تلك الضاحية حانة كبيرة مشهورة ، وقد احتشد فيها جمهور كبير
من الناس ، اكثرهم من الفتيان . احتشدوا كما يظهر للتصيف والهوى ، فمربوا
كثيراً ثم رفقوا اصواتهم بالغناء . . . وكانت الحمرة قد دبّت في رؤوسهم .

فعلت جلبتهم وكثر صخبهم، ثم اتشروا فرقا في فناء الحانة وعلى جانبي الطريق المؤدية الى العاصمة، يضجون ويفنون ويعربدون، وقد أعمام السكر وملاً ضوضاؤهم الفضاء... وكانوا كلهم على اهبة السفر، لان خيولهم كانت تنتظرهم في فناء الحانة، وقد نيط بسرج كل منها مكنسة ورأس كلب

في هذه الساعة من النهار، والحالة على ما وصفنا، ظهر في أقصى تلك الطريق فارسان، كانا كما يبدو من هيئتهما قادمين الى موسكو من سفر بعيد، وكان احدهما شاباً وضىء الطلعة مرتدياً ثوباً ارجوانياً، وقد وجه خطابه الى رفيقه فقال - أناظرات يامينخيش اولئك السكاري؟

فاجابه رفيقه - نعم يامولاي... واني أرى على خيولهم تلك العلامة الدنسة التي وسموا بها... فهم أذاً من اولئك اللصوص الذين ظفروا بهم أمس في قرية الدب... ولعلمهم رجال الملك حقيقة... والا لما اجتروا على الظهور في ضواحي العاصمة، وقد خامرني الان الوسواس والخوف بسبب ذلك - أدنُ منهم واسألهم عن أنبيل موروزوف، وأين يقيم هذه الايام - سمعاً وطاعة!

قال مينخيش هذا وهمز جواده فطار به جهة الحانة، ثم وقفه قريباً من رهط من اولئك القوم وسألهم بلطف عن منزل موروزوف، فقالوا له وهم يهتمون - وما مرادك من هذا الشيخ الخرف؟

فكظم مينخيش غيظه وقال - ان مولاي الامير نكيتا سيربرياني يحمل اليه رسالة من قائد الجيش العام الامير برونسكي قالوا - سلمنا الرسالة!

وتقدموا يريدون ان يعثوا به وهم يترنحون ويصخبون، فصاح بهم: -

وهل بلغت منكم القصة ان تستخفوا بمخبرات كبار قواد المملكة ؟
فكيف أسلمكم رسالة الامير ؟

فقالوا وهم يتقدمون اليه وينضم اليهم غيرهم من رفقائهم - قلنا لك
سلمنا الرسالة لنطلع على ما فيها .. لان هذا الشيخ موروزوف المجنون قد
خرف هذه الايام ، وقام يتآمر ورهطاً من النبلاء امثاله على الملك ، ويشير
الفتنة في البلاد



﴿ منظر من مناظر مدينة موسكو القديمة ﴾

قال - حسبكم من مثل هذا الهذيان ايها السكارى ، لانه من
المستحيل ان يكون لمولاي الامير نكيتا صلة باعداء المملكة
ولكنه ما كاد يفرغ من كلامه حتى انقضوا عليه وهم يصيحون - هات
الرسالة ! هات الرسالة !

وكان الامير نكيتا في هذه اللحظة قد وصل اليهم وسمع هذا الحوار

فصاح - مكانكم ايها الاوغاد! .. فان من يسه طيرت رأسه في الحال
وشكوت الباقيين الى الملك

فدعر رجال الحرس لهذه المباغثة .. ولكنهم لم يبطئوا أن عادوا الى

صخبهم وزججرتهم ، وهجموا على الامير وخادمه وهم يتهددون ويتوعدون
واتهم كذلك واذا بهم يسمعون رجلاً ينشد بصوت شجي . فالتفتوا
ووقفوا كأن على رؤوسهم الطير . والتفت الامير ايضاً فرأى رجلاً كهلاً في
نحو الاربعين من العمر وقد ارتدى اثواب النساك وحمل على صدره بعض
صور القديسين وفي يده سبحة ، وكان وجهه يتدفق صلاباً وخيراً

وما دنا هذا الرجل من الجماعة ورأى الامير نكيتا بينهم حتى وثب اليه
وقد فاضت دموع الجذل من عينيه وقال - اهذا أنت يا نكيتا؟ .. لله ما
أكبر حظي ببقياك! .. ولكن مالك ولهم ، ولم أنت واقف بينهم؟ ..

ثم وأصل نشيده بقوله : « طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة
الكفرة وفي طريق الخطاة لم يقف .. »

وكان رجال الحرس قد اجلجوا ، فوقفوا صامتين متهيئين . وكان الناسك
قد أعرض عنهم ووقف يتفرس في نكيتا ، ثم هز رأسه وقال - والى ابن
أنت منطلق الآن؟

وكان نكيتا قد ذهل لدى مشاهدته هذا الرجل ولا سيما لأنه دعاه
باسمه ، ولم يكن هو يعرفه من قبل فقال له - ومن ابن تعرفني يا رجل الله
فبش له الناسك وقال - وكيف لا أعرفك وانت اخي؟ .. ولقد
رأيتك من بعيد بين هذه الذئاب المفترسة فعرفتك وجئت لنعجذك! ..
فالى ابن انت منطلق؟ .. وماذا تريد ان ترى في موسكوبد ان غبت

عنها هذه السنوات الخمس؟ .. لقد تبدل كل شيء الان .. فزال الحق والعدل والصدق والمروءة ، وحل الظلم والعسف والكذب ، وانتشرت الرذيلة والاضاليل وعم الفساد وأظلمت العقول وتحجرت القلوب ... فالويل للقوم الاشرار العائنين في بلاد الله! .. الويل لهم ، ثم الويل لهم ...

وكان رجال الحرس لا يزالون صامتين واجمين يسمعون كلام الناسك ولا يبدون حركة . فلما فرغ تقدم اليه رجل منهم وقال - وهل في امكاننا ايها الاب باسيل ان نخدمك بشيء ؟ فاملك تكون في حاجة الى المال .. فاطلب ما تشاء تقدمه اليك في الحال

فنظر اليه الناسك شزراً وقال - لا . لا اطلب شيئاً ، ولست في حاجة الى شيء .. ولكنني اريد ان تجيبوا الامير الى ما سأل ولا تؤذوه فقال الامير - سألناهم بارجل الله ان يرشدونا الى منزل النبيل موردوزوف فصدق اليه الناسك طويلاً ثم قال - فانت اذاً تروم مقابلة موردوزوف ؟ انه من الابرار الصادقين المخلصين للبلاد ، ولكنه انبرى يقاوم الشر والفساد بالعنف والقوة جهاراً ، فلم يجد عمله شيئاً .. وسوف يحل به سن الوبال والدمار ما حل بسواه من اهل الفضل والوفاء والصلاح فسأله نكيتا متمجياً - وأين منزله ؟

قال - لا أود ان ارشدك اليه .. لا اريد ان أرسلك، انى مكان يكون مصدر شقائك وحزنك .. فليرشدك غيري

قال ذلك وسار في سبيله
ووقف الامير وقد تولاه ذهول شديد من امر هذا الرجل الغريب

الاطوار ولم يدرك كيف يؤول كلامه . . . ثم التفت الى رجال الحرس وقال -
والآن فهل ترشدونا الى منزل النبل ؟

فقال بعضهم - سر في هذه الطريق حتى تبلغ النهر ، ثم سر سيرة
مسافة قصيرة . .

فارتد نكيثا وخادمه عنهم وسارا يقصدان المكان المشار اليه ، وعاد
رجال الحرس الى صخبهم وجلبتهم . . وكانوا يشتمون الامير ويهددونه بكل
ويل . . ثم ناداه واحد منهم قائلاً - اهد صديقك موروزوف السلام وقل
له ان حبل المشتقة ينتظره !

وقال آخر - وحسبه حياة فقد شبع من الايام !
وقال ثالث - وليودع زوجته الحسناء الوداع الاخير ، فانها لا تليق به !
وقال رابع - وجهز انت أيضاً حبلاً لنفسك ! . . .
غير أن نكيثا لم يعرهم اذناً صاغية ، وظل سائراً وهو مشرد الفكر شاخص
البصر . . . وقد رأى في طريقه شراذم كثيرة من رجال الحرس ، كانوا
يسرون هنا وهناك ، وهم يترنحون من السكر ، ويمطرون كلام الخشونة
والبذاءة ، ولا يقابلون احداً من المارة الا اوسعوه شتماً وسباباً . . كأن وظيفتهم
انما كانت لامثال هذه الاعمال الشاذة . .

الفصل التاسع

قصة

كان النبل دروجينا موروزوف راقداً في سريره وقت الظهيرة . وقد
خرجت زوجته هيلانة تتشى في حديقة القصر ، ومعهما رهط من الفتيات



﴿ هيلانة ﴾

صويحباتها ووصيفاتها ، وقد كسفت طلعتها وجوههن وهي تتخطر بينهن بقامة
تفضح خطرات الانغماس على حركات النسيم ، وكان عليها من الحلي والجواهر
ما يهيج الناظر ويدهش الخاطر . ثم جلست واياهن تحت شجرة زيزفون
كبيرة ، واخذن في الحديث واللهو

كانت هيلانة مشردة الفكر مبدلة الخاطر ، فلم تضحك لشيء ولم تله

بشيء ، وكانت عيناها شاخصتين في الفضاء ، كأنها تبحث عن شيء لم تره منذ سنوات . . واجتهدت رفيقاتها في تسليتها بكل مفك من الحديث وبكل مضحك من النوادر ، فلم تكثر لهن ، وظلت مستغرقة في افكارها
فقلت احدي الفتيات - ما بال سيدتنا اليوم كثيرة التفكير والتأمل ؟
أفلا تقترح علينا العوبة نسلي بها خاطرها ؟

فقلت هيلانة - آه يا عزيزتي أولنا ! ان قسي لا تميل الى شيء من ذلك
قالت - قومي بنا الى البركة نطعم الاسماك ، أو الى اقفاص الطيور
نسمع اغانيها ، او نعود فسير بين خمائل الحديقة نشم ريحها وازهارها
قالت - لا رغبة لي اليوم في شيء من هذا

قالت - ولكن لا بد من تفكيه خاطرك بشيء . . لان مولانا النبيل
ان علم انك لم تكوني مسرورة بيننا لامنا اشد اللوم

فتهدت هيلانة وقالت - اذا كان لابد من ذلك فأنشديني الاغنية
التي سمعتها منك بالامس فاني أرتاح اليها

- عجباً يا مولاتي ! وكيف تشوقين اليها وليس فيها الا ما يزعج
الخاطر ويشير الاشجان ! . .

- لا أبني سواها يا أولنا فأنشدينيها

ولم يسمع أولنا الا الاذعان فاندفعت بما تعريبه :

ألا ما لنفسي والسرور، وأشجاني	زريد، ودهري في هوى لهم ألقاني
وما لي وتغريد الصوادح، والامسى	بواده تهل من مدمعي القاني
وما لذتي، والوجد ملء حشاشتي،	بنشق أريج الزهر او ميل اعصان

ولي كبد تصلى بنار النوى وما يرق لها دهري فينسخ حرمانى
 قضى الله لي بالبعد عن احبه وأن كان لا ينفك من مهجتي داني
 حبيب أفديه بروحي وان يكن رماني بسهم من نواه فأصماني
 اكتم وجدى فيه والدمع فاضحي وهيهات لا يجدي اصطباري وكتماني
 ألا في سبيل الحب نفس أضعتها ولم أر الا داعي البين يلقاني
 معذبة في الحب ذاب فؤادها فله ما اشقى فؤادي وأشقاني
 أروح بدمع العين غرقى وان يكن بقلبي من فرط الجوى وقد نيران
 وما كادت الفتاة تفرغ من انشادها حتى غطت هيلانة وجهها بيديها
 وبكت . . وقد ذعرت الفتيات للامر وأقبلن على اوانما يلمنها ويوبخنها .
 وتقدمت فتاة اخرى يقال لها دونياشا وقالت - لتسمح لي مولانا بان
 أنشدها أغنية لطيفة ارجو ان يكون لها الوقع الجميل في نفسها . فأومأت اليها
 هيلانة بالقبول فانشدت ما معناه :

روض أنس جمعت فيه المنى خضرة والماء والشكل الحسن
 جمعت افراحنا ذات سنى ما رآها ناظر الا افتن
 صرمت من لطفها جبل العنا حين جالت معنا في كل فن
 ملك في الارض او حورية تقفن الالباب من حور عدن
 لو . رآها عابد منقطع هجر الزهد واطراف القن
 كم امير راح فيها والمأ مستهام القلب مهزول البدن
 تأمها في مهمه الحب فلا يرتضي منها بديلاً او سكن
 فلتدم مولانا راتمة في رياض الصفولا تدرى الشجن
 من كهيلانة مولاة سميت من كهيلانة بدر التم من

غير ان هيلانة ازدادت حزناً واكتئاباً ، فتهتت من قلب جريح
وخرجت من بين شفيتها زفرة تدل على حرارة النار المتأججة في صدرها ،
ثم فاضت عيناها بالدموع

فارتاعت الفتيات ووقعن في حيرة وارباك وخوف شديد ، ولم يدرين
ما يعملن . . فقالت احدهن - وكيف تبكين يا مولاتي وانت في بحبوحة
الرخاء والنعيم ؟

قالت - أبكي ، ولا أعلم سبباً لهذا البكاء . غير اني كنت منذ الصباح
منقبضة النفس مضطربة الفكر ، أشعر بضغط شديد على قلبي وأرى الدنيا
على رجلي ضيقة في نظري

ثم أنت ايننا محرقاً وقالت - ولم هذه الحلي والجواهر ؟ .. اترعنها عني
واضفون شعري كغداً كن

- كيف تقولين هذا وانت زوجة النبيل موروزرف صاحب المجد
الباذخ والشرف الرفيع ؟ .. فاذا اضفرت غداً كما تضرها البنات وراك
على هذه الصورة مولانا النبيل فاذا يكون جزاؤنا منه ؟

- انه نائم الان فلا يراني قبل ان تفرغ ويعود شعري الى ما كان عليه

- واذا لم ير النبيل ذلك ، فهو على كل حال اثم نسائك انت

لا تحملينا تبعته

فأطرت هيلانة وهي تقول في نفسها : « وهل يعد تذكر الماضي
اثماً ؟ .. » ثم قالت - حسن ، فليكن ما اردتن . ! ولكني أدعو اولغا
فأضفر شعرها كما كان يضفر شعري قبل زواجي

بحث اولنا امامها ، وشرعت هيلانة في العمل ، وما هي الا هنية
حتى كان لاولنا صغيرتان شائقتان

فقال هيلانة - انظرن ! أليست ضفائر البنات أبهى واجمل من
عقائص النساء ؟

فقال واحدة من الرفيقات - كل شيء حسن في وقته يا مولانا :
فانت تمني الضفائر ، وهذه رفيقتنا دونياشا تمني العقائص

فقال دونياشا وقد صبغ وجهها بحمرة الخجل - اليكن عن مثل هذا
الكلام ! .. فانا أود ان أظل عذراء عمري بطوله !
فضحكت البنات ضحكا عاليا

وقالت هيلانة لاولنا - انحنى الان امامي فأربط بصفيرتك هذه
الانشوطة (الشريطة) الزرقاء لتصبجي كاحدى عرائس الماء .. فهن
يضفرن شعورهن ويتزينن بكامل زينتهن في هذا العيد على الخصوص

فقال احدى البنات -- وهمت ياسيدي .. فان عرائس الماء لا يملن
ذلك الا في عيد الغطاس .. اما اليوم ، في هذا العيد ، فانهن يمرحن
بسترسلات الشعر فقط ، ولكنهن يفتن الناس بهن وجمالهن

فقال اولنا تخاطب البنات - بالله دعنا من هذا الحديث ! .. فان
عرائس الماء يملن اليرم اسوداً يشيب لها الاطفال وترتعد لهولها الفرائص
فقال هيلانة - وهل تخشين عرائس الماء يا اولنا ؟

قال - وكيف لا أخشاهن ياسيدي ؟ ومن لا يخشاهن ، او يجترىء
ان يذو من اثاباته او الاترار في هذا النهار او في عيد الغطاس ، ولو كان

في ضواحي موسكو؟ .. لانهن اذا أبصرن فتاة خطفنها ، او شاباً خلبن
ليه وأسرن قلبه ..

فقاطعتها رفيقاتها فائلات - لا تخشي سؤاً يا اولنا ، ولا تهرفي بما لا
تعرفين .. فليس لعرائس الماء وجود في جهات موسكو البتة ، وإنما هن
يكثرن في الولايات الجنوبية من بلادنا وفي الشمال الاقصى .. وأما انهن
فاتنات خلابات فهذا مما لا ينكره احد . فكم من عاشق استهوينه فنسي بهن
حبيبته ، ووالد هجر اولاده وزوجته ، وعائل أضاع رشده ؟ ..

ولما سمعت هيلانة ذلك أطرفت بمفكرة وهي تتأمل في هذا الكلام ،
ثم رفعت رأسها وقالت - وهل توجد عرائس الماء في بلاد لتفا ؟

قالت هذا وهي توجس خوفاً على حبيبها أن يكون في عداد من وقعوا
في أشراك عرائس الماء .. ولذا سألت عما اذا كان لهن وجود في البلاد التي
ذهب اليها الامير نكيتا من خمس سنوات كما علم القاري . فذمنا

تلفها الى نجد دليل على ان الغرام بأرض نجد

فاجابتها احدى الفتيات - ان بلاد لتفا هي الموطن الاصلي لعرائس

الماء ، فهن هناك الوف لا تحصى

فتنهت هيلانة ومسحت دموعاً انحدرت من ماقيها . ثم نظرت الى
الرفيقات تريد أن تتكلم ، فسمعت فجأة صوت وقع حوافر جواد ، وظهر
من وراء سياج الحديقة فارس بهي الطلعة ، ما وقع نظر هيلانة عليه حتى
اخذتها الرعدة وخفق قلبها شديداً ، لانها تحققت أنه هو حبيبها الامير نكيتا ،
فصاحت بالفتيات - أغربن عني .. ولا تعمدن الى هنا الا اذا دعوتكن ! .

فأُسر عن وتوارين عنها ، وهن لا يجسرن ان يخالفن لها أمراً او يستفهمنها السبب . .

ورأى نكيتا هيلانة فجحظت عيناه وجد في مكانه
ولما ملك روعه عاد فتنفس فيها ، فرأى شعرها ممقوصاً على رأسها ،
وكان عقص الشعر مختصاً بالسيدات المتزوجات فقط ، فلم يصدق نظره
وشعر كأنه في حلم . . . ثم اخذت تظهر له الحقيقة شيئاً فشيئاً فكاد يفقد
عقله ، وقد أيقن بتقوض صروح امانيه واضمحلال آماله . . ووقف فليلاً
يناجي نفسه بقوله : « أهذه هي هيلانة التي وقفت عليها قلبي وروحي ،
وأقسمت لي أن تبقى حريصة على الولاء . . ؟ فماذا اعترافها حتى أنكرتني
وجحدتني وآثرت علي غيري ؟ . . فالوداع ايها الآمال والاماني فقد عبثت
بك الايام وطونك ا كفان الدهر ! . . والوداع ايها الحب ، فقد تحوات
سعادتك الى شقاء وحلاوتك الى مرارة وعناء . . . »

ولم تكن هيلانة اقل يأساً من نكيتا ، وقد ضاق بها الفضاء وودت لو
فتحت الارض فاها وابتلتها ، من أن تقف هذا الموقف
غير انها بعد أن أقصت البنات عنها ولم يبق في الحديقة سواها تقدمت
الى السياج ، الى جهة الامير ، وهي مطرقة الرأس منصدة القلب
فابتدرها نكيتا بقوله - استحلفك بالله يا هيلانة أن تقولي لي كلمة
لا غير . . . أنت متزوجة ؟

فاطرت ولم تجد كلاماً تقوله

فقال - تكلمي يا هيلانة ولا تمدينني !

فقال وهي ترتجف ، كأنها امام الجلاد - عفواً يا نكيتا ! فاسمع ما اقول

قال - لا اريد ان اسمع شيئاً، لاني عرفت كل شيء... فأستودعك الله!..
قال ذلك وأطلق لجواده العنان

فاستوقفته هيلانة بلسان يلغشه الحزن وصوت متهدج تقطعه الزفرات
وقالت - أسألك بالشرف أن تسمع مقالتي ، ثم اقتلني بعد ذلك ..
ولم تستطع أن تتم كلامها ، فاصطكت اسنانها وأصابها نوبة عصبية
ولم تلبث أن سقطت الى الارض مغشى عليها ، وقد مدت ذراعها الى الامام
كن يستغيث أو يطلب شيئاً

فلما رأى نكيتا ذلك انصدع قلبه ، فوقف جواده بعد أن هم بالسير ،
ووقف حيران كمن تكسر النصال على أوصاله وهو لا يدري ماذا يفعل ..
وأفاقت هيلانة من غشيتها فتهدت من كبده حرى ، ثم شرعت تقص
على الامير ما جرى لها مدة غيابه ، فأخبرته بمحدثها من أوله بكل تفاصيله
وذكرت ما كان من الامير انساني فياز يمسكي وترصده اياها ، وما تلا ذلك
من تصدي الملك للامر واعلان رغبته في اكرامها على الزواج .. ثم قالت -
ولما لم أرى نصيراً سلمت نفسي للنيل موروزوف فكان ابراًني من الجميع ...
هذا هو حديثي ايتها الحبيب ! .. ولقد أحبتك ولا ازال احبك .. ويشهد
الله انني لم أعرف في حياتي الحب قبل أن رأيتك ولن يدخل صدري هوى
بعد هوائك .. فان شئت أن تغفر لي كان ذلك منك رحمة ، والا فهدء حياتي
بين يديك فافعل بها ما تشاء

فلم يحرر الامير جواباً ، وظل ضائع الرشد لا يدري ما يصنع أو ما يقول
وكانت هيلانة شاخصة اليه ببصرها ، تنتظر كلامه وهي بين الخوف والرجاء
ولبت الامير في مكانه يتأمل في حالته وحالة هيلانة ثم قال - اجل ايتها

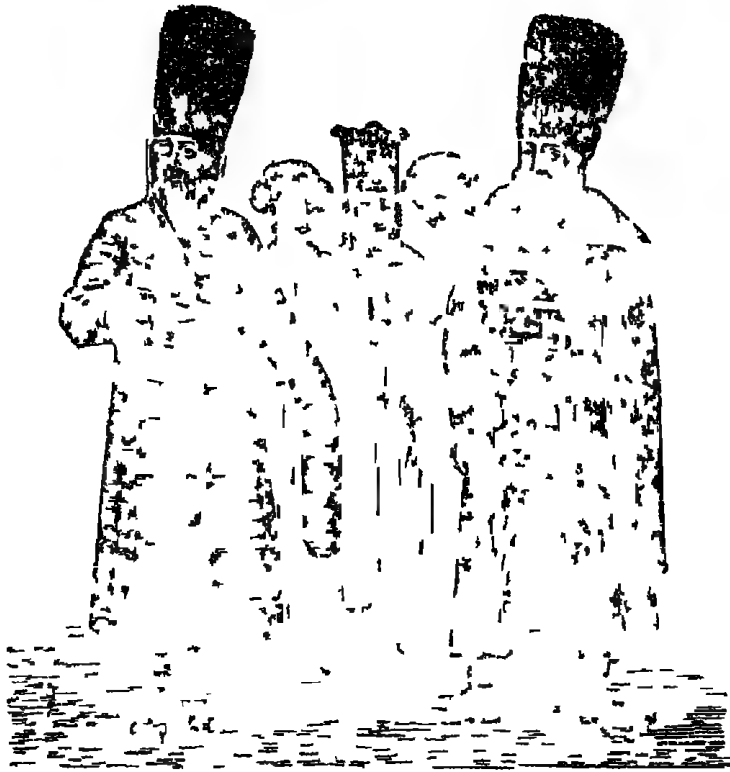
الحبيبة... ان الله انما بذلك قضى، فلم يكتب الحب في سفر نصيبنا.. فانت اذا برثة ولا تستحقين اللوم، لانك لم تقترفي ذنباً.. واعلمي ايها المفداة اني لا ازال مخلصاً لك، أجدد بحياتي في سبيلك.. واني ما زلت أحبك وأهواك ولن أنساك، وقد ملكت قلبي فهو لك دون سواك ووقف عليك ماحييت... حلت هذه الكلمات كالبلسم الشافي على هبلانة وسرت في عروقها فأحييت ميت آمالها وأنعشت نفسها.. وما درت الا وقد وقفت على متكأ ملتصق بسياج الحديقة فاستقباهما نكيتا بوجهه، وبدون اقل تبصر أو حذر اطرح كل منهما على الآخر وتماثقا..

ان هبلانة قد قبلت الامير وغدرت بعهد زوجها.. فما عسى أن تكون حالتها اذا اكتشف الشيخ سرها؟.. فقد كان موردوزوف شديد الغيرة ومن اكبر الناس حرصاً على الشرف وصيانه للمرض.. أفلم تخش هبلانة أن يطلع على خفاياها؟.. ألم يخامرها الخوف من الاقدام على عمل ربما ذهب بحياتها وحياته حبيها؟.. ان هبلانة قد اجابت داعي هواها، فغمت في يمينها، وامر في امواتب..

الفصل العاشر

الامير وانجيل

كان السير د ورجينا موردوزوف يعرف الامير نكيتا من عهد طويل وتدهالت الحرب بين ايامهما عتس سنوات متوالية، قضى موردوزوف جزءاً منها نائداً للجيش، الذي كان يحارب انتزاع الجبال الشرقية من البلاد.. وقضى نكيتا الخمس سنوات الاخرى في الجبال الشمالية، في بلاد لندا



{ سلا، روسيون برسيم اوطني }

غير أن موردورف اعتبره هذه السنون ، رجل كم ربه ، نكيتا لسيطاً
 قوياً ماضي الثريمة سديد - سكية - استل رأسه ، ياصاً في مقارعة الابطال
 ومكافحة الكمأة ، حتى داع صيته في كل مكان ، واعرّف بفضلله ومآثره
 الخالدة في خدمة الوطن الخاص والعام . وقد كان مصافاً جرّاداً متصفّاً بكل
 ما يحمل افراد الناس من افضائل ولا آداب . ركن تمصره جاء ، لما يحز
 الاثر ، وصفه من اسباب الهنا زرفاهيه . لا يجد ضيف او دار الا
 اتعست درجاً ، وسهر كاه في منزله بين ادله رذرة ...

- اهلاً وسهلاً لك ايها الأمير ! رائد شاعلي بازمة تلتك ايها الأمير .
 الحبيب ! ... - بهذا الكلام استحسن موردورف ضيفه لا مير نكيتا ، ودخل

به الى ردهة في التمسرفسيحة ثمينة الرياش فاخرة الاثاث ، تتلألأ على
جدرانها انواع الاسلحة في أغمداد مرصعة بالجواهر والحجارة الكريمة
ولما استقر بالامير المقام استأنف النبيل كلامه فقال - مرحباً بك ايها
الامير! . . اني وحقك لفي غاية السرور بلقياك بعد أن فارقتك هذه المدة
كلها. . ولكني كنت أتسم اخبارك وأعجب بكفاحك وجهادك وظفرك
المتواصل واخلاصك للملك وتقاييك في خدمة بلادك

فشكره الامير رجاء بمثل تميته ثم قال - ان الامير برونسكي قد اقذ
معي اليك رسالة يا سيدي . . نها كها

فناولها مورو زوف وقال - سأتلوها فيما بعد . أما الان فدعني أمتع
عيني بمراك وأطرب لحديثك

ثم نادى خادماً كان على الباب وقال له - أدع السيدة هيلانة الى هنا
وقل لها ان ضيفاً عزيزاً جداً زارنا

ولم يمض الا القليل حتى دخلت هيلانة وقد امتقع لونها واضطربت
ولكنها تقدمت فسلمت على الامير كأنها تراه اول مرة . ورأى مورو زوف
ارتباكها فنسبه الى حيائها من الامير، وقال لها - لا تحسبي الامير غريباً
عنا ، فهو صديقي ، كما كان والده من قبله ، وأنا احبه حب الاب لابنه ، وهو
مثال الشهامة وآية الاخلاص والوفاء

وشمرت هيلانة بان عيني زوجها شاخصتان اليها تستشفان ما في
بيناتهما ، فتجلدت وأبدت بعض الالاس والبش . غير أن ذلك لم يخف عن
مورو زوف ، وقد لمح في بشاشة وجهها تصنعاً فقال - واني أسألك يا عزيزتي
أن تهتمي بأعداد طام المشاء قبل مواعده ، لاني اخشى أن يكون الامير جائعاً

وما صدقت هيلانة أن سمعت هذا الكلام حتى خرجت وهي تكاد
تتمتر باذيا لها

وكاد نكيثا يظهر عليه مثل ما ظهر عليها من الارتباك ، فلما خرجت
تنفس قليلاً ثم قال - ولكني أسألك يا سيدي أن تعفيني من الطعام ،
اذ لا بد من الذهاب الان لمقابلة الملك

قال - ولم هذه العجلة ؟ . . . اني لا ادعك تخرج قبل أن تؤاكلني
فلا تزدري شيخاً اقصاه الملك من امام عينيه . . . أفلم تر شعري الطويل ؟
قال - بلى ، وقد دهشتُ لذلك ، لان حياتك كلها بيضاء كالثلج ، لم
توصم قط بمار ، وقد قضيتها في خدمة الملك والوطن فكيف ياملونك هذه المعاملة ؟
قال - لاني لم اشأ ان أخفض جانبي وأطأ طيء رأسي للظلم واستخف
بشرفي وعزة نفسي . . . ولاني لم اكتم استيائي من انشاء فرقة رجال الحرس
وما هي الا عصابة جهنمية افلقت الافكار وروعت القلوب ودمرت البلاد
فقاطعه نكيثا قائلاً - ولكني لم ادرك ثلثاً من شئنا من امر هؤلاء
الناس . . . ولقد رأيتهم بعيني ، ورأيت من بذاتهم وجورهم هذين اليوميين
ما ملأ نفسي ألماً . . . فأسألك يا سيدي أن تزيدني اطلاعاً على حقيقة امرهم
والغاية من انشاء فرقهم

قال - لبيك ، فلا أحب الي من مكاشفتك بالامر ، حتى اذا اردت
أن تعمل على الاصلاح ودفع الاخطار عن الوطن عرفت كيف تجري فيه
وكيف تحتاط لنفسك . . . ونحن اذا شكونا من فرقة رجال الحرس ، فانما
نشكو في الحقيقة من الملك نفسه ، لانه علة جميع هذه البلايا والنكبات ،
ولولاه لما كانت هذه الفرقة او لم تكن شيئاً مذكوراً . . . فالملك يوحنا سي .

الظن سريع الغضب وقد طبع على الشر والفساد من صفته ، فالتف حوله بسبب ذلك رهط من الوشاة من رجال الحاشية ، رأوا فيه هذا الميل فأخذوا يسعون لديه بكل نبيل لا يجاريهم في أهوائهم ، ويفسدون ما بينه وبين المخلصين من رجاله ، الى أن أوغروا ممد يده على جهور منهم ، قفقتك بعضهم وأقصى البعض الآخر ، وأظهر ارتياحه الى الوشاة والباطل . فلما عددهم حتى صار حوله منهم بعيش كبير ، رتد أجرى عليهم الارزاق ومنهم الرب وأغدت عليهم أنتم بلا حساب ، وسرو في أثناء ذلك يتنزه في اوراق وقربة والارهاق حتى ملأ السجون بالثالث والالوف من الابرياء ، وقتل المئات منهم لجرد الظن اولوشايات كاذبة كان يختلفها اخصاؤه وذووه . . أفلم تسمع يا حضرة الامير بهذه الحوادث ؟

قال - بلى ، سمعت بعض الشيء منها وأنا في بلاد لتفا ، ولكني كنت أعتقد ان الحق في جانب الملك ، وأن له مطلق الحرية في الانتقام من التهمة

قال - - وليس لا احد أن ينكر ما له من الحق في ذلك . . ولكنه لم يكن يماق الخونة حقيقة بل المخلصين والابرياء كأداسف وسلفستر وششكين وساتين واباسهم وذويهم وامثالهم من مشاهير رجال الممكة الذين يسطرون التاريخ الاعمال المجيدة والمآثر الخالدة ، وكلهم ابرياء تسها لهم أنت وغيرك ، ويجب ابراءهم بشبهات زائفة ، وليس في البلاد من ينكر فضلهم وابادهم البتة .

فأطرت نكبتهم كرم نيل - . . بت . . فالذنب اذا هو ذنب رجال
فانهم تتع نبتهم جميع هذه النكبات ، وهم علة هذا الدمار

قال - انهم كذلك .. ولكن يوحنا مستسلم لهم كل الاستسلام ،
فهو يصني اليهم ويصدق وشاياتهم ودسائسهم ويشتط في العقوبة دون ان
يتروى في شيء .. وهاك واحداً من الوف الادلة على ذلك . فقد كان
جالساً ذات يوم الى مائدة الطعام ومعه رجال بطانته وبعض النبلاء المدعوين
وبينهم الامير أوبولينسكي . فتقدم ثيودور باسمانوف رئيس السقاة وهمس
في أذن الملك كلمة بحق الامير ، فما كان من يوحنا الا ان طعن الامير بمخنجر
حاد في صدره أفاض روحه

فدعر نكيتا لهذا الكلام وقال -- لو قال لي احد غيرك يا سيدي مثل
هذا لدعوته واشياً والتيت عليه القبض بنفسى ..

فتبسم موروزوف وقال - لا ترتب ايها الصديق في شيء مما أقول ،
وليس لي غاية الا اظهار الحقيقة لك لا لسراك . وهيهات ان ينأى لي وصف
الحالة كلها .. وستقف انت بنفسك على امره ، اذوال لا تصدق فيها
سمعتك وصرات

قال - خفوا ايها الديبل .. فان الذي قلته لم يكن الا لشدة استغرابي
وعدم تصوري امكان حدوث مثل هذه الفضائع والمنكرات التي يبعد
تصديقها لاول وهلة .. فلعل الملك بصاب حيناً بعد آخر بمس من الجزر
يفقد منه صوابه

قال - ليس ذلك ببصيد .. وقد يكون جنونه حياناً مطبقاً .. واسمع
أحك ذلك شيئاً آخر من المؤامره وغرائبه كتوطئة لما ستقف عليه من احوال
فرقة رجال الحرس .. فقد دعا يوحنا ذات يوم رجاله الاخصاء واخذ يرقص
ولايهم في أثواب الساخر ، وكان في جملة الحضور النبيل ميخائيل ربنين ،

فأراى هذا القصف حتى هطلت دموعه حزناً ، ورأى الملك منه ذلك
فأمر قسدم الى النبيل زى من تلك الازياء ودعى لىشارك القوم
فى خلاعهم ..

فصاح نكيتا - وهل ارتدى النبيل هذا الزي ؟

قال - كلام يرتده بل داسه بقدميه وقال للملك : « لقد ساء فالك
ايها الملك ، فاني لن الطخ شرفى ومقامى بهذه السخرية ... »
قال - وهذا اقل ما ينتظر من النبيل مهما كانت العاقبة

قال - نعم .. وقد كانت العاقبة أن الملك بطش به بعد ذلك ببضعة
أيام وهو فى الكنيسة ... واختلاصة ايها الامير انه لم يكن يمر يوم الا
وتهرق فيه الدماء الزكية ، حتى خيل الينا اننا فى عصر دهوي ، لاعمل للملك
فيه الا التجنى على الابرياء واهراق اليماء ، ولاعمل للرعية الا أن ينتظر كل
فرد منها مينته .. وكان يقتك بالناس فى منازلهم وسعابدهم وفى السجون
والشوارع وفى كل مكان ، حتى زهقت الادواح وأظلمت السمول . وكان
معظم البلا ينزل بالبلاء ، وقد بث عليهم الملك العيون والارصاد وأخذ
يحسب عليهم أفساسهم ويعزو اليهم ما شاء من الاكاذيب والتهم ، وكان
اعوانه قد ابتكروا اساليب كثيرة للايقاع بهم ، ومن ذلك انهم كانوا اذا
ارادوا الانتقام من نبيل قبضوا فى الحال على خدمه وعبيده وساقوهم الى
السجون ، حيث كانوا يكرهونهم بجميع انواع العذاب على الشهادة الكاذبة
التي كانوا يملونها عليهم ، وكانت كل شهادة من هذا النوع كاعية لقتل ذلك
النبيل وتبديد شمل أسرته - مصادرة ما اكتسبه . ومن كان من ادلائك
الخدم أميناً لسيدته ، ولم تكن ذمته تبيع له اليهتان وشهادة الزور ، كان يندب

أشد تعذيب الى أن يموت اشنع ميتة . . . ولا أكتفك أن يوحنا كان في بعض الاحيان يعود الى رشده ، فيندم ويبكي ويدعو نفسه ظالماً وسفاحاً ويوزع الصدقات على الاديار والكنائس والفقراء . ولكنه كان لا يلبث أن يعود الى طبيعه وعاداته ، فيزيد على اعماله من الشدة والتفنن في المنكر ما لا يحيط به وصف . . . وبينما كانت هذه الحوادث تجري شاع في العاصمة أن الملك قد اعلن تنازله عن العرش وعزم على مغادرة موسكو الى حيث لا يعلم احد . وكان لهذا الخبر اشد وقع في النفوس ، فركبت وبض النبلاء والامراء جيادنا واسرعنا الى قصر الكريمل لتتحقق الامر ، فرأينا الجماهير منتشرة في الطريق والشوارع وقد ملكها اليأس واستولى عليها الذعر . وما كدنا نبلغ ساحة القصر حتى رأينا المركبة الملكية خارجة تفل الملك والملكة وولي العهد ، يتقدمها كوكبة من الفرسان ، ويتبعها مركبات أخرى تحمل اثاث القصر ورياشه وامواله وفي اثرها زعماء الجنود وأخصاء البلاط . فأسقط في ايدينا روثنا منبهة تأمل في الخالة ثم انفسنا الى مركبة الملك نريد أن نستعطفه لينتهي عن عزمه ، فحيل بيننا وبينه ، وأعلن لنا الفرسان الذين كانوا يواكبون المركبة أن الملك يأبى مصالحتنا ولا يريد أن يرى منا اهدأ . فارتدنا القهقري ، وسار الموكب في طريقه يحترق شوارع المدينة حتى توارى عن الابصار ، وعدنا كل الى منزله ونحن سكارى من الخم والطم . . . وكان في اعقاب ذلك أن ورد بلاغ من الملك يقول فيه أنه قد تجرد عن الملك ولا يريد أن يعود الى العاصمة ، لانه لم يعد يحتمل غصرة النبلاء . وتجبرهم . . . وما كاد يشيع هذا البلاغ حتى قام الناس له وقعدوا ، وقد شكوا وبكوا ، وكان الحزن عاماً ، وكانت العاصمة كأنها في ماتم . . . ولا يخفى عليك

ايها الامير ان يوحنا ولئن كان عاتياً وشريراً ، غير أن الله هو الذي « مسحه » ملكاً وأوجب علينا طاعته والاذعان لاحكامه . . . ويظهر أنه تعالى انما اراد بذلك كله أن يعاقبنا على آثامنا ، فسلط علينا هذا الطاغية ، يستبد بنا ويقتل اباؤنا وعزة نفوسنا وينتهك حرمانا لنعود عن الضلال ونسلك سبل الصلاح . . . وكان النبلاء يجتمعون كل يوم للنظر في هذه الحالة الى أن استقر الرأي أخيراً على ان ن شخص كلنا الى حيث كان الملك ونبتل إليه أن يعود الى العاصمة لتدير شؤون الملكة . . . وقد عرفنا انه مقبب في قرية « الكسندريفنا » - وهي على مسافة نحو مئة كيلو متر من موسكو - فنهينا على بركات الله ونحن نملل النفس بانسراج هذه الكربة . . . وقد اذن لنا الملك بمناداه ، راكمه استقبانا بالخشونة والتجهم واخذ يوجه الى كل منا هفوات وذنوباً لم يكن لنا بها شيء منها ، فنهينا بالمردق من طاعته والآخر على حياته والنزم على تسليم البلاد للتر . . . وغير ذلك مما لم ندر الا في خلده . . . رخم كلامه أخيراً بقوله : « ولكنني مع هذا سأعزذ الى العاصمة وأعود الى تدير امور الية ، ولكنني لن اذل ذلك الا بشرط . سوف تقفون عايناً ! » وكان نكيتا يسمع الحديث أتم الاصفاء تنال - ربما نبي . هذا الشرط ؟ . لا ملك ايها ايذاً س امثال هذه الفرائب التي سردها علي . حتى خيل الي اننا بدنا بمحضار تما ان عصر انظامات والترحش ، يوم كاف الناس يا كل

تمت
تمت سرد ذنوبنا . . . فنهينا كانه شرطه عنوان
التي ربا بين والبر . . . وأهمها تأليف زينة رجال الحرس . . . والتمسنا
. . . على جهة التماس . . . والتمسنا . . . عبر الملك في وعه

فعاد الى موسكو ، وكان سرور الناس بقدومه مما يعجز اللسان عن يانه ،
وقد خرجت المدينة باسرها لاستقباله . . وكان بعد ايام انه استدعى جمهور
النبلاء وصرح لهم بما في نفسه فقال : « لقد عدت الان الى الحكم وفي عزمي
ان أضرب على ايدي الخونة ومثيري الفتن بعضاً من حديد ، فلا أرحم احداً
ولا أحقن دم احداً . . وسأصطفي بئ حرساً خاعاً يذودون عن حقوقي
ويرصدون الخونة والمفسدين لاستئصال شأفتهم ومحو آثارهم ، وسيكون
لي ولهم مدن خاصة وغياض وأرزاق لا يشاركنا فيها احد » . . ولم يبطئ
بعد هذا القول ان أنشأ فرقة الحرس ، جامعاً فيها كل من راق في عينيه
وحظي عنده من الرجال والفتيان الاغرار ، وكلهم من اهل الدعارة والفساد
والشر ، وكلهم الا النفر القليل من حشالة القوم . . وكان كل من انتظم في
سلك هذه الفرقة يقسم امام الملك على تطع كل علاقة له بالنبلاء ، ويمازله
على البحث عن كل خائن منهم . . ثم ترك الملك رجال حرسه هؤلاء الخيل
على المنابر ، فاستحل امرهم وتقدم شرهم ، يكلموا على البلاد بلية لم تبلى بأشد
وطأة منها لا من التدر ولا من غيرهم من الاعداء والمحاربين . . وها انهم
يطوفون الان شراذم كثيرة في جميع انحاء المملكة ، وشارتهم الكنيسة
ورأس الكلاب ، يكنسون الشرف بدل الخيثة وينبشون المخاضين والابرار
من الرعية ، لا الخونة وأعداء الامة كما بدت من . . . فانه ذات كلة ولا
يخشون احداً ولا يعرفون شريعة ولا يجري عليهم حكم واحد
فقال نكيثا وقد ظهر عليه الانزعاج الشديد - وكيف ذعنتم انتم هذه
الشروط وصغرت نفوسكم الى مثل هذا الحد ؟
قال - وهل لنا غير ذلك . . أفنقاؤه المالك وهو من الله ؟

قال - صدقت . . انه من الله . . ولكن كان يجب ان تظهروا له على
الافل استياءكم من فرقة رجال الحرس هذه ، ولا تكفوا عن التنديد بها
وتشهير مساوئها وفضائلها ، فلعله يلغيا او يصلح فاسدها ويخفف وطأتها
عن العباد

قال - انه أعرف مني ومنك ومن كل انسان بذلك ، ولكنه راض
عن رجاله ، يرتاح الى تفنهم في الشر ويحتم على كل موبقة وفضيحة . . وانا
ايها الامير لا أصمت مادام في عروقي دم يجري ، وطالما قرعت سمع الملك
بالشكوى ، وطالما صرحت له بافكاري ، وقاومت رجاله بكل ما أوتيت من
قوة وحجة . . بيد ان ذلك لم يكن الا صرخة في واد ، وكان من نتيجته
أنني أصبحت في نظر الملك مجرماً وخائناً ، فكبرهني اشد كراهة وأقصاني
عن بلاطه ، ولا يلبث ان ينشب في مخالب نقمته . . وقد خلا البلاط من
النبلاء وأصبح مسرحاً لاولي التهنك والدعارة ، وصار كل عابر سبيل أقرب
اليه منا . فهناك الان اليكسي باسمانوف وابنه ثيودور ، وهما يتجاربان في
حلبة الشقاء والدناءة كفرنسي رهان . . وهناك مليونتا سكوراتوف ، وهو
أشهر جلالد وأفظع جزار عرفه الناس حتى اليوم ، بل هو الوحش الضاري
الذي لا تراه كيفما قابلته وفي كل ساعة من ساعات الليل والنهار الا ملطخاً بدماء
الابرياء . . وهناك باسيل غريازنوي وبوريس غودونوف ، والاول لايحه
من دواعي الشرف شيء رقد مات ضميره وتحجر قلبه ، والثاني يبيع اباه وامه
واولاده في سبيل العظمة والسؤدد ، ولو كان هذا السبيل حجاجم المئات
والآلاف من البشر . . وليس في البلاط من ذري المقامات الرفيعة الا الامير
اناسي فيارييمسكي ، ولكنه فقد رشمه فأهان شرفه وأهاننا جميعاً به . .

والخلاصة ان البلاط ايها الصديق قد أمسى في أحط دركات الهوان، والملك معرض عن الاصلاح غير مبال بشيء من شؤون البلاد، وهو ابدأً منقطع مع ندمائه وأخصائه الى المآدب والتقصص منغمس في الملاحى والمعاصى، ولاعمل له يتلهى به الا الانتقام والتشفي والتجني على كل ذي فضيلة وحسب... وأمسك موروزوف عن الكلام وهو يتنهد من كبد حرى وقد شغلته افكار اخرى فأمن في الخيال... ولبت الامير نكيتا في مكانه وقد بلغ منه الحزن واليأس مبلغاً عظيماً وهو لا ينفقه سر انقلاب الملك وماذا طراً عليه حتى كان علة جميع هذه الشدائد والرزايا التي نابت البلاد وقوضت اركانها...



وكان الخدم في اثناء ذلك قد بسطوا مائدة الطعام، فتمض الاثنان اليها وكان عليها شيء كثير من المآكل الفاخرة والمشروبات المعتقة الطيبة، فأترع موروزوف قدحين من الشراب، قدم للامير قدحاً وتناول هو القدح الآخر، ثم قاما فشربا نخب الملك وهما يدعوان له بطول البقاء وسلوك سواء السبيل. وعادا فجلسا وخاضا عباب الحديث، وقد سأل النبيل ضيفه ان يسرد عليه اخبار الحرب التي قام بها في بلاد لتفا، ففعل واستطرد في حديثه اخيراً الى ذكر المعركة التي نشبت بينه وبين رجال الحرس في قرية الدب بجميع تفاصيلها، ثم ذكر له مقابلته لبعض شرادهم وهو داخل الى العاصمة، وما كان من امره مع الناسك باسيل

وكان موروزوف مقبلاً عليه يسمع حديثه بملء الاعجاب ثم قال: -
الك ايها الامير لمن يبخل الدهر بامثالهم ومن يوطد الملك بهم ويعزز،
غير ان الذي فعلته في القرية قد أفسد عليك كل امر وجعل لك سيئة

لا تتعز في نظر الملك وأعوانه .. انك ايها الحبيب قد اوقعت برجال الحرس ،
وأقل مقاومة لهم تحسب الان مقاومة لشخص الملك نفسه ، ولا تكون
حافيتها غالباً الا الموت .. ان هؤلاء الناس قد هجموا على قرية الدب لانها لي ،
فلا تعجب لبعثهم فيها ، لان كل من ناله سخط الملك من النبلاء تصبغ
عقاراته وضيا عنهباً مقسماً ، يتوافد اليها رجال الحرس في كل حين ينهبون
ويسبون ويرتكبون ما شاءوا من الفظائع والكبائر .. واما الناسك باسيل
فهو رجل صالح وبار يحترمه كل انسان ، حتى الملك نفسه يحذر جانبه ويخشى
انذاره ووعيده ، وهو لا يقبل على الحق رشوة ، فيسخط ويتمدد ويستنزل
غضب الله على كل من فعل سيئاً وركب شططاً ولو كان الملك نفسه ، ولو
كان عندنا رعط من امثاله لكنست البلاد من رجال الحرس وطهرت
من بداعتهم وفجورهم .. ولكن مالي وللعودة اليهم في مثل هذا المقام ..
هات فأخبرني اذا كنت لا تزال عازماً ان تقابل الملك

قال - بلا بد ان شاء الله .. وسأطلق لمقابلته صباحاً

- « كان لا يتاح لك ذلك ، لانه لا يقيم الان في موسكو

- وكيف ذلك ؟ فهل جاد بنضب

- نعم .. وعاد الى قرية الكسندروفا ، وفي صحبته رجال حرسه

- اذاً لا بد لي من الاسراع ! فيجب ان انطلق هذه الساعة الى

منزلي اتهد فيه بعض الشؤون وأتأمل رجالي ثم اسير الا ابطاء لمقابلة الملك

- ولكنني انصع لاني اقدم لمقابلته ، لاني أخشى عليك

- وماذا تخشى ؟

- تخشى اني امحل بئس الامر فتظلم !

- الموت والحياة في يد الله ، وأنا لا أرى الا التسليم لمشيئته تعالى
- انت تعلم ايها الامير اني أحبك ، وقد أحيت اباك من قبلك
وكنت واياه يداً واحدة في جميع الاحوال ، فلا تعجب من الحاحي عليك
بعدم السير الى الملك لاني متيقن عاقبة الامر . . ان حياتك ايها الامير
كانت مجيدة وهي ستكون اعظم مما كانت ، والحروب ان خبت نارها اليوم
فستستمر غداً ، ولا غنى للوطن عن ساعدك القوي وبساتنك النادرة ،
فلا تعرض نفسك للوبال

- قلت وأقول ان الموت والحياة في يد الله ايها النبيل ، وليس للانسان
ايا كان ان يردّ مقدوراً

- ومع هذا فاني أرى ان تنقاد لمشورتي وتمكث عندي فأفدك كل
ملة وتكون في قصري بمنزلة الابن الحبيب

- اعذرني يا سيدي لمخالفتي اياك في هذا الامر ، لاني أرى عاراً
وسبة في فرار المرء من وجهاً ملكه

- بالصواب نطقت . . وأنا انما أردت ان تبقى عندي بعض الوقت
فقط ريثما يخمد غضب الملك ونستمد لك منه العفو والرضى

- الموت أحب الي من الحياة ولو يرمأ او ساعة في مثل هذه الحالة . .
وعليه فانا أشكر عواطفك الكريمة يا سيدي وأستودعك الله على رجاء ان
تجمعنا الايام على خير

فنظر اليه موردوزوف نظرة الحب والعطف ، وفي دماغه أتون من
الافكار المضطربة خوفاً من مواراة شمس هذا الحسن وذبول زهرة هذا

الفنن ، زقد أثنى في نفسه على ابائه وتصميمه على مقابلة الملك ، وهو لو كان في مكانه لما فعل غير ذلك

ثم نهض فماتقه بلهفة الوالد الحنون ودعا له بالتوفيق وحسن العاقبة ، وخرج فشيعة الى فناء القصر وفؤاده يتفتت ومهجته تنقطع

وكان الخدم قد أعدوا الجواد فامتطى الامير صهوته وخرج وقلبه خافق وافكاره مشردة . ولكنه لم يسر الا قليلاً حتى لاح له شبح عند سياج الحديقة لم يلبث ان تبين فيه شخص حبيبته هيلانة ، وكانت واقفة ترتعش وقد شخصت بصرها الى ابواب القصر ونوافذه خشية الرقيب وما شعر الامير الا وقد أصبح امامها كأن يداً قادرة دفسته الى ذلك المكان ، فوقف وهو لا يدري كيف يهاجمها الحديث

وكانت هيلانة بحال دنوه منها قد نسيت كل حذر ، فبادرت اليه والدموع تترقق في ماقيها وقالت - لقد سمعت كل ما دار بينك وبين النبيل من الحديث وعلمت انك مسافر الان لتقابل الملك ، فتركت مخدعي في مثل هذه الساعة من الليل وعرضت نفسي لن غضب زوجي وأسرعت لأقف بين يديك وأبتهل اليك ان لا تبرح موسكو ولا تقابل الملك لان في ذلك الموت المحتم

فزفر نكيننا وقال - لقد كتب باهيلانة لهذا القلب ان يهدم رجاؤه وتبقى آماله . . ولم يبق لي الا ان ازج بنفسى في كل خطر لا أنجوع كأُس المنوز وأنجو مما انا فيه من اليأس والبارى . . فاللوت هو أخف وطأة علي من حياة انقلبتم مرورهما في عيني فلا أجد فيها ما يحبها اليّ

قالت - وكيف تسمى الى ذلك وانت لا تزال في عنفوان الصبا وشرح
الشباب ؟ .. انهم واويلاه يذيقونك العذاب ألواناً
قل - وهل لي ان أرجو شيئاً بعد ضياع كل ما تعز به النفس ويبتهج
له الفؤاد ؟ .. أواه يا هيلانة يا حبيبتى .. لقد فقدتك الى الابد ، وأصبحت
بعد الذي جرى وحيداً فريداً أنجم غصص الحياة المرة ، وأموت في اليوم
الواحد الف مرة

فشهقت هيلانة وقالت وقلها يذوب التياغاً - اذ كنت لا تشفق على
نفسك فأشفق على من تفديك بنفسها .. اني احبك يانكتيا وانت حياتي ،
فالطف بحياتك اكراماً لي

فانقطر قلب الامير عليها تلهفاً وازداد بها تعلقاً وقال - تجلدي اينها
المفداة .. فلا بد من السفر .. نعم لا بد من السفر صوناً لكرامتي وذوداً عن
حقوقى ، والافأعد ندلاً وجباناً وانت لا ترضين لي بمثل ذلك .. فان مت فتلك
مشيئة الله والافاني وما في من الجوارح والمواطن والحياة وقف عليك الى الابد
فصاحت - آه يانكتيا .. رقعا بي ! ..

ولم تلبث ان خارت قواها وتخاذلت ركبناها وكادت تسقط الى الارض .
ولبثت هنية والعبرات تطفح من عينيها والتنهدات تمنح أقدامها
وكانت النجوم بادية في القبة الزرقاء والجو صافياً نقياً ليس فيه
سوى قليل من النجوم الرقيقة والقمر يسير الهويناء في طريقه وقد حجبت
تلك النجوم ضوءه بعض الشيء . ثم هب نسيم عليل فرنح معاطف الاشجار
وتر على الحبيبين احسن الازهار ، ولكنهما لم يشعرا بشيء من جمال
الطبيعة ، وقد ثارت قساها وهاج قلبهما البلبال

ثم برز القمر من بين الغيوم بكل سنائه ، وحانت من نكيتا التفانة الى
الى ما وراء هيلانة فأبصر شبحاً منتصباً ، يتحرك تارة ويمجد كالصنم اخرى
فمن ترى هذا الشبح ؟ .. أهو خادم من خدم النبيل مر من هناك على
غير عمد ؟ .. ام هو النبيل موروزوف بعينه ، وقد خرج يطلب زوجته
او يروح نفسه بدميات الليل ؟ ..
وما أبصر نكيتا الشبح حتى دعر .. وبادر فهمس في اذن هيلانة كلمة
الوداع ، ثم أطلق لجواده العنان
ووقفت هي شاخصة اليه الى ان توارى عن بصرها ، فسترت يديها
عينيها الداميتين وقالت - ويلاه ! .. انا السبب في هلاكه ! ..

الفصل الحادي عشر

قرية الكسندروفنا

كانت الطريق من موسكو الى قرية الكسندروفنا تمثل صورة رائعة .
امتزجت فيها سميات الناس من سائر الطبقات والتزيمات المتزاوجة عجيبة ،
وقامت الحركة على ساق وقدم بدون انزعاج
نكان يرى فيها السعادة على جياهم السريعة وهم يهبون الارض بين
المرية والساحية ذهاباً واياباً يحملون اواصر الملك وينقلون اليه الاخبار
الزوارقة اندرون زواجات شتى من الجهات المربية والبديعة الى دير
عظيم كان فيه تتصف تلك الطريق يتحلى به « دير الثالوث الاتدس » وهو

من أشهر أديار روسيا وأكبرها وأغناها ، وله في قلوب الشعب على اختلاف الطبقات احترام ديني خاص

والنبلاء والامراء ومن كان في طبقتهم من اهل الغنى والكرامة ، يؤمون القرية لشؤونهم أو يزورون الدير ، ثم يعودون الى العاصمة

والتجار والباعة على اختلاف درجاتهم وهم في مركباتهم او قوافلهم يتزاحمون ببضائعهم وسلعهم ، بين قادم الى العاصمة أو منها الى القرية ، وبينهم تجار الحيوانات الداجنة والادباب وباعة الطيور ولا سيما البزاة والحمام والمنون والمشعوذون واهل الطرب ، وكلهم بأنوابهم الزاهية ، يسرون فرقا بعضها الى العاصمة والبعض الآخر الى القرية ، ويطربون الناس بغنائهم ورقصهم وشعوذتهم

والمسولون يطوفون بالجموع يلتمسون الصدقة ، أو يسرون جمورا الى الدير أو القرية

وجاعات من الشيوخ العميان حرقهم سرد الحكايات والافاصيص ورواية الاخبار والخرافات ، وقد اشتهرت هذه الطبقة من الناس على عهد الملك يوحنا الرابع على الخصوص لانه كان مولعا بالحكايات لا ينام ليلة قبل أن يسمع شيئا منها من بعض هؤلاء العميان ، وكان يكافئ المجيدين منهم المكافآت السنية

وشراذم كثيرة من رجال الحرس يسرون في كل مكان وقد رنحتهم الخمرة ، أو يسطون على الناس ، أو يضجون وينشدون الاغاني البذيئة بأصوات تصم الآذان

وعصابات من اللصوص كانوا يكمنون في الغابات ما بين موسكو والقرية ، وهم كلما اغتتموا فرصة بطشوا برجال الحرس أو أوقعوا بعض التجار أو غيرهم من ذوي الاموال أو ظهروا في الطريق متكررين . . ولكنهم كانوا في كل حال اقل ضرراً وتوحشاً من رجال الحرس ، وكان بين الفريقين حرب عوان يتناحران فيها ويتطاحنان ، وكل فريق منهما يترصد الدوائر بالفريق الآخر ، والويل لكل من كان من الفريقين يقع فريسة في ايدي عدوه

وكان الامير نكيتا يعرف دير الثالث الاقدس وقد زاره في حياته مراراً ، فلما وصل اليه الان وهو في طريقه الى قرية الكسندروفا شعر بارتياح عظيم الى الصلاة وزيارة اقداس الدير ، فدخل ومعه خادمه ميخائش . وقد قابل رئيس الدير الامير وهناك بعودته من ميدان الحرب ، ولما وقف على اخباره وحوادثه الاخيرة باركه كمن يبارك رجلاً خارجاً الى الجهاد او ساعياً الى الموت

ثم سار الامير من ذلك لدير وهو عرضة لتلاعب التصورات . وكان تارة يقنط في تصور المستقبل قائماً متلبداً بالنوائب ، وطوراً ينشط فيتوقع انقراج الكربة وصفاء الدهر . . ولكنه كان لا يلبث ان يعود الى هواجسه وتأملاه ، يري ان آمائه كلها كانت برقاً خاباً وسراباً غراراً ، وانه الآن اتمس خليفه بشرية ، وما من رجل احتمل ما احتمله هو من الحرمان والمراة . . وما زال في مثل هذه التأملات حتى اقبل على مخفر في الطريق على مسافة ثمانية كيلومترات من قرية الكسندروفا ، وفيه خفاء من

رجال الحرس وظيفتهم التعرض لكل قادم الى القرية ، يسألونه عن اسمه ومقامه وغرضه من القدوم ويجردونه من السلاح اذا كان لديه شيء منه . وقد تقدم اليهم الامير فسألوه عما أرادوا ثم صحبه نفر منهم يشيعونه

وكان الامير قد أشرف على القرية ورأى من بعيد قباب القصر الملكي فيها تسطع في أشعة الشمس بزینتها وزخارفها المصوغة من الذهب الخالص هذا القصر بناء يوحنا الرابع واتخذة مباءة لنفسه بعد قصور موسكو ، وكان يقضي فيه اكثر أوقاته في الصلاة والعبادة ، وهو يرجو بذلك الراحة لنفسه والتكفير عن مآثمه . وبلغ به الشغف بالعبادة انه جعل القصر أحيراً ديراً تولى هو بنفسه رئاسته ، واختار من فرقة الحرس ثلاثمائة رجل ، كانوا في طليعة الفرقة كلها شراً ودهاء ، فجعلهم رهباناً يقومون بجميع مهام الطريقة الرهبانية ، وانتدب من زعمائهم الامير اثناسي فيازيمسكي للاهتمام بالموئنة ، وماليوتا سكوراتوف لادارة الشؤون العامة في « الدير » وعين غيرهما في وظائف أخر ، ومنح الجميع قلانس وبندلا رهبانية كانوا يترجون بها فوق الاثواب الثمينة الموشاة بالذهب . ثم سن لهم قانوناً رهبانياً للمعيشة والصوم والصلاة واوقات العبادة ، وكان هو المثال الاعلى في تنفيذه . فكان يهب من نومه في منتصف الليل ، فينطلق الساعة الرابعة صباحاً الى قبة الاجراس ومعه ابناؤه وماليوتا سكوراتوف ، فيقرعون الاجراس اذاناً بصلاة السحر التي كانت تستمر ساعتين او ثلاثاً ، وكان يتحتم على جميع الرهبان (رجال الحرس الثلاثمائة) حضورها ، ومن لا يحضرها منهم كان يعاقب بالجلد او بالسجن اياماً معلومة . وكان الملك في هذه الصلاة يقرأ ويرتل ويظهر من الخشوع والورع ما لم يكن يجاريه فيه احد من المتسدين ورجال الدين ..

وبعد صلاة السحر هذه بساعتين كان القوم يجتمعون لصلاة الضحى ثم يجلسون الى موائد الطعام يتناولون أشهى المأكولات ويشربون اطيب الخمر، والملك يقرأ لهم في أثناء ذلك المواعظ والخطب الدينية لمشاهير الخطباء وعلماء اللاهوت .. وبعد فراغهم كانوا يحملون فضلات الطعام فيوزعونها على جمهور الفقراء الذين كانوا يحتشدون كل مرة في ساحة القصر لهذه الغاية .. وكان من عادة الملك ان يتناول طعامه بعد الجميع ، ثم يقوم فيرقد في سريره او ينطلق الى السجن لتفقد احوال السجناء او ازال العقوبات وأنواع المذاب والتسكيل ببعضهم .. وفي الساعة الثامنة مساء كان رجال الحرس يجتمعون ثانية للصلاة وبعدها لمأدبة العشاء ، ثم يأوي الملك الى مخدعه فيضطجع على سريره وأمامه بعض رواة الاخبار يعكفونه بالحكايات والنوادر الى ان ينام ..

وألف الملك ورجاله هذه الحالة ، فلم يجرؤوا فيها تغييراً او تبديلاً الا اذا كان الملك في رحلة في بعض انحاء المملكة ، او خرج لزيارة دير الثالث الافنس او غيره من الاديار المشهورة ، او خرج لتمهد الحصون على الحدود ، او لاجبيد والقبض .. وكان في أثناء كل ذلك يحل مشا كل البلاد ويصدر أوامره الى كل جهة ، ولم يكن لأحد من المال او الولاة ان يغير او يبدل شيئاً في الاحكام والاحوال بدون أمره واطلاعه

غير ان تلك السيرة الرهبانية التي سنّها الملك وأوجبها على رجاله لم تكن لتردعهم عن شرورهم ، بل كانت باعثاً آخر على انغماسهم في الملاهي والمفاسد وتطوحيهم في الخلاعة والفجور . نعم انهم كانوا يصوون الايام في صلاة وعبادة ، ولكنهم كانوا في خلال ذلك يفعلون من المآثم والمحرمات ما تنفر منه

السباع الضارية . فلم يكن همهم وهم في حالتهم تلك الا الوقعة بكل نبيل صادق والوشاية بكل كبير في الامة واينار صدر الملك على كل مخلص من الرعية ، وكانوا أحياناً كثيرة ينفثون سموم سعايتهم في اذن الملك وهو جاث يهلي ، وكان هو يصدر اوامره بالاعدام وهو في هذه الحالة من المناجاة الروحية



وواصل الامير نكيتا سيره وهو لا يرفع بصره عن القصر ، يتأمل في نخامة بنائه وعظمته وجماله . وقد رأى انه منفصل عن سائر امنية القرية بخندق كبير ، ومن حوله الحدائق والرياض على مسافة بعيدة ، وفيها بالقرب من القصر دار الطباعة ومنازل المال فيها واكثرهم من انكلترا وجرمانيا ، وكانت الطباعة في اول نشأتها في روسيا ، ثم منازل اخرى لعمال القصر كالطهاة والحجازين والكتبة والبنائين والسعاة وانغراسين وسواس الخليل والبيازرة وغيرهم من خدمة ورجال الحاشية

ثم تحول الامير ببصره الى القرية فرأى كنائسها وهي اجل ما فيها من الأبنية بالعظمة وتفخامة ولا سيما « كنيسة السيدة » وهي أجملها على الاطلاق بما كان يسطع عليها من النقوش التي تخلق الابصار ، وكانت الصليبان الذهبية تغطي سطحها كله ، فقد كان على كل قرميدة منه صليب خاص فتبا و الكنيسة على هذه الصورة كأنها مكسوة كلها بشبكة من الذهب الوداج هذه المناظر سرّت من هموم الامير نكيتا شيئاً وبددت ما كان يضغط عليه من الهواجس والافكار المزعجة . بيد انه لم يلبث ان تراهى له مشهد آخر أعاد اليه المخاوف والوساوس . . فقد استوقف نظره فجأة بضع

مشائق كانت منصوبة على الطريق وبجانبا آلات الاعداد وأدوات التنكيل وكلها مصبوغة بالسواد

- .. عجبا من الانسان ما أفضعه وأقساه ! .. الانسان يظما الى شرب دماء أخيه الانسان .. وكل فرد ينصب لغيره جبال الشر وآلات البوار .. والجميع منصرفون الى التنكيل بعضهم ببض بما تقشعر له الابدان .. وقد اتجهت قواهم العقلية كلها الى اختراع هذه الآلات والتفنن في أنواعها وأشكالها .. وفاق الانسان الضواري بشراسته وغلاظة كبده ... غير ان هنا موتا شنيعا بل هو عنوان الازدراء والعار .. وأي عار اشد وازدراء أعظم من الموت على امثل هذه المشائق ! .. وأين هذا من الموت المجيد في ساحات الوغى وميادين الطمان ! ..

هذه الخواطر جالت في مخيلة الامير نكيتا حينما أبصر المشائق وقد ظهرت في وجهه امائر الهلع والاشمئزاز ، ولحظ منه ذلك الحراس الذين كانوا يتولون قيادته فقالوا بلهجة التهكم وهم يشيرون الى المشائق - هذه أراجيعنا ايها الامير ! .. وقد ظهر لنا انها اعجتك كثيرا حتى انك لا تكاد ترفع بصرك عنها !

وسمع ميخيش هذا الكلام فارتعدت مفاصله وتولاه الخوف الشديد . ولم ينبس الامير ببنت شفة ولكنه شمر أن حبل آماله قد قطع وانه يمشي الى التبر بعهده بسرعة

وبلغ لامير أخيراً ساحة القصر الملكي ، وكات على رجليها غاصة بجواهر الفقراء ، وقد اختلطت أصواتهم وارتفعت جليتهم وماجت الساحة بهم مرجاً .. كان احد رجال الحرس يوزع عليهم الصدقات والطعام باسم الملك

يوحنا ، وهم تارة ينشدون بعض آيات من المزامير ، او يهتفون للملك تارة أخرى ، والملك يطل عليهم حيناً بعد آخر من بعض نوافذ القصر وكان الامير قد ترجل عن جواده ووقف يتأمل في هذه الخلائق ، والذهول بالغ منه كل مبلغ . وقد رأى سرازم من رجال الحرس ، وهم بأثوابهم الخاصة يسرون بين الجماهير ، وقد جلس بعضهم على منصات هناك وخذوا يلعبون ويطربون . . واستوقف بصره منهم فتى بسن العشرين وضيء الطلعة جميل الوجه وبشعر اشقر ينال فرعه كتفيه ، وكان يرفل بالوشي والديباج ويظهر كثيراً من حركات التخثث والخلاعة وقد تزين بالجواهر ، وكان بهيئته كلها اشبه بفتاة منه بفتى . . وكان رفقاؤه كلما دنا من زمرة منهم تفرقوا في الحال او تخلوا له عن بعض مجالسهم ، وادا خاطبه بعضهم اظهروا له كل تزلف ورقة . . فالظاهر انهم كانوا يفعلون ذلك اما حرصاً عليه او حذراً منه

وكان هذا الفتى قد أبصر الامير نكيتا وخادمه ، فاستدعى الحرس الذين رافقوهما وسألهما شيئاً عنهما ، ثم أوعز الى بعض رفقاؤه امرأاً طربوا له وأنغربوا في الضحك ولم يبطئوا ان تفرقوا مسرعين ، وصعد هو الى منصة عالية وعاد يتفرس في الامير ثم يضحك بازدياد او ينظر اليه بخيلاء . وكان نكيتا يرى منه ذلك وقد امتلاً حتماً

وانه كذلك اذ رأى بفتة الفقراء قد ذعروا وهاجوا واخذوا يترაკضون ويدفعون بعضهم بعضاً وهم يصيحون ويستغيثون . . فذهل واكنه لم يلبث ان رأى دباً هائلاً قد ظهر في الجهة المقابلة من الساحة وهجم على الناس . . وما هي الا لحظة حتى كنست الساحة من الجماهير ولم يبق فيها الا الامير

نكيتا وحده ، وكأنه أنف من الفرار من وجه الدب فوقف وهو يتحفز
لمنازلة ، ومد يده الى جانبه يريد ان يمتشق حسامه فمادت فارغة ، وقد
نسي انه جرد من اسلحته قبل دخوله القرية . . . فوجم وحار في امره

وكان الفتى الذي سبق وصفه ينظر اليه من أعالي المنصة ويضحك
مقهقها ، ثم ناداه متهكماً - ابحث عن سلاحك جيداً ايها الامير . . .

وكان ذلك اكثر مما يستطيع نكيتا احتماله . . . ولكم رأى نفسه الان
عاجزاً عن تأنيب هذا الفتى ، ولم يبق عنده شك في انه هو الذي امر بادا لاق
الدب ، ورأى انه عاجز ايضاً عن الدفاع عن نفسه ، فاستشاط غيظاً وانتهب
صدره حزناً

وكان الدب قد وصل اليه ، ولم يمهله حتى صدمه برجله فجذله الى
الارض وكاد يطش به

وكان الامير قد غاب عن الصواب . . . فلم يع الا وقائل يقول له بصوت
رخيم - نهض ايها الامير ، فما عليك من بأس

فرفع بصره واذا به يرى فتى من رجال الحرس بسن السابعة عشرة
وكان وسيم الطامة تدل اماراً وجهه على البسالة وعلو النفس والاقدام ، وقد
أبصر في يده سيفاً مسلولاً يقطر منه دم ، ولدب ملق على الارض يتشحط
بدمه ، فأيقن انه هو الذي نجده

واما الفتى غم . رأى ان الامير قد عاد الى رشده حياً وحول يريد
الانصراف ، فاستوقفه الامير وعو يمد يده ليصاحبه وقال - ايها الفتى قل
ما سمك . لا ذكر صنيك وأشكر لك هذه المروءة !

قَالَ - وَلَكِنْ مَالِكٌ وَلَا سَمِيَّ ابْنِ الْإِمِيرِ! .. أَنِي لَا أَحِبُّهُ وَلَا أَشَاءُ
أَنْ يَذْكُرَنِي أَحَدٌ بِهِ .. فَاسْتَوْدَعَكَ اللَّهُ

قَالَ هَذَا وَانْدَفَعَ يَبْدُو إِلَى لُجَّةِ الْآخِرَى ، وَالْإِمِيرُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مَتَعَجِبًا .
وَإِذَا بِمَيْخَيْشٍ قَدْ أَقْبَلَ وَهُوَ يَلْهَثُ عِيَاءً وَيَقُولُ - شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى نَجَاتِكَ
يَا سَيِّدِي .. أَنِي وَحَقُّكَ قَدْ كَدْتُ أَمُوتَ ارْتِيَاءً وَخَوْفًا عَلَيْكَ مِنَ الدَّبِّ ..
وَقَدْ تَذَرَعْتُ بِكُلِّ حَرَكَةٍ وَبِكُلِّ وَسِيلَةٍ لِيَنْصَرِفَ عَنْكَ الدَّبُّ إِلَيَّ ، فَلَمْ يَجِدْ
ذَلِكَ كُلَّهُ تَنْفَعًا .. وَلَوْلَا هَذَا الْفَتَى الْبَطْلُ لَفَتَكَ الدَّبُّ بِكَ لَا مُحَالَةً .. فَانْهَ
اَتَقَضَ عَلَيْهِ كَالشَّاهِدِينَ وَفِي أَقْلٍ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ أَرْدَاهُ يَحْتَبِطُ بِدَمِهِ .. وَلَكِنْ
مَا شَأْنُ ذَلِكَ الْفَتَى انْتَهَبَكَ الْخَلِيعُ حَتَّى أَمَرَ بِإِطْلَاقِ الدَّبِّ عَلَيْكَ وَنَحْنُ لَمْ نَزِهِ
فِي حَيَاتِنَا ؟ .. وَإِنْ نَحْنُ يَا مُوَلَايَ ؟ .. أَفِي قَصْرِ الْمَلِكِ أَمْ فِي
حَضْرَةِ الْوَحُوشِ ؟ ..

وَقَدْ أَصَابَ مَيْخَيْشٍ فِي انْتِقَادِهِ .. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ عَرَفَ شَيْئًا مِنْ
أَحْوَالِ الْمَلِكِ وَأَطْرَافِهِ .. أَنْ يَوْحِنَا الرَّاحُ كَانَ مُوَلَعًا بِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَصَارِعَاتِ
وَالْمُبَارَزَاتِ ، وَكَانَ لَدَيْهِ عَدَدٌ وَافِرٌ مِنَ الدَّبِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ السَّبَاعِ فِي أَقْفَاصِ
مِنَ الْحَدِيدِ .. وَكَثِيرًا مَا كَانَ هُوَ أَوْ رِجَالُ حَاشِيَتِهِ يَطْلُقُونَ هَذِهِ الْوَحُوشَ
عَلَى جَمَاهِيرِ الشَّعْبِ طَلَبًا لِلتَّسْلِيَةِ وَاللَّهْوِ لَيْسَ إِلَّا .. غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ كَانَ لَا يَبْخُلُ
بِالْعَطَايَا وَالْهَبَاتِ عَلَى مَنْ كَانَ يَنْالُهُ إِذَى دَبٍّ مِنْهَا .. وَإِذَا عَتَكَتْ هَذِهِ
الضَّرَارِي بِأَحَدٍ كَانَتْ هَذِهِ الْهَبَاتُ تَمُطِّي لِأَحْلَاهُ ، وَيَتَمِيدُ اسْمُ ذَلِكَ الْمَنْكُودِ
الْحَظُّ فِي سَجَلٍ خَاصٍ لَذِكْرِهِ فِي "صَلَوَاتِ وَالتَّرَحُّمِ عَلَيْهِ فِي الْأَدْيَارِ مَعَ
النَّاتِ الْآخِرَى مِنْ الَّذِينَ ذَهَبُوا ضَحَايَا لِهَوِ الْمَلِكِ وَسُلْوَانِهِ ...

وَلَبِثَ نَكِيَّتًا فِي مَكَانِهِ مُشَرَّدًا الْفِكَارَ . وَإِذَا بِرَجُلَيْنِ مِنْ خِدْمَةِ الْمَائِدَةِ

الملكية قد قدّم ما اليه وقالوا - ان جلالة الملك قد أبصرك من نافذة القصر وودّ ان يعرف من تكون !

فعرّفهما نكيتا بنفسه . فانصرفا ثم عادا وقالوا - ان جلالتك قد سر بقدمك وهو يدعوك لتناول الطعام على مائدته

ولم تكن هذه النعمة لتبهج الامير . . فلعل الملك لم يطلع بعد على مهاجته لرجال الحرس في قرية الدب . . اولاه عرف ذلك وكتبه ليوقع به في اثناء الطعام او في وقت آخر كما حدث مثل ذلك لغيره من الامراء والنبلاء . .

وكان هذا النهار من الايام الخصوصية في قرية الكسندروفا . فان الملك كان يستعد للخروج لزيارة بعض الاديار البعيدة ، وقد أعلن انه يريد قبل سفره ان يدعى الى مائدته رجال الحرس الرهبان ، واربعمئة رجل من رفقائهم ، وبعض النبلاء الذين كانوا لا يزالون متمتعين برضاه ، فأصبح عدد المدعوين سبعمئة ونيّفًا

الفصل الثاني عشر

« التولية »

كانت ردهة الطعام في قصر الملك من الردهات العظيمة المشهورة برحابتها وسعتها ، وقد انتصب فيها عدة اعمدة من الرخام ، مكسوة بضروب الانسجة الثمينة الحافلة بكل نوع من النقوش الرائعة والصور الجميلة ، وبسطت بين الأعمدة موائد مستطيلة في ثلاثة صفوف ، في كل صف عشر موائد ،



(قصور الكرمل في موسكو)

وكل مائدة لعشرين رجلاً . وبسطت في مؤخر الردهة موائد أخرى كانت
معدة للملك وولي عهده وندمائيه وأقرب اخصائه . وقد أعد للضيوف مقاعد
مفروشة بالديباج الثمين ، والمملك عرش رصع بالجواهر وكان قائماً على
اسدين من العاج يعلو مؤخره نسر ذو رأسين وقد بسط جناحيه وكله من
الذهب الخالص

وكان في وسط الردهة مائدة عظيمة جداً صفت عليها الاثنية الذهبية
والفضية وكلها مما ينجذب الابصار ويفتن العقول ، ومن ذلك أقداح على
هيئة الدبة والاسوداو الديوك والطواويس والكراكي والنسور وغيرها
من الحيوانات والطيور مما لا يقع تحت حصر ، وقد نضدت على المائدة
بشكل هرم واصل الى السقف ..

ولما حان وقت الوليمة فتحت ابواب الردهة ودخل رجال الحرس
اولاً فجلسوا في اماكنهم ، ولم يكن ساعتئذ على الموائد الا صحاف اللحم
البارد وأطباق الفواكه والانتثار . ثم دخل خدمة المائدة وكلهم في سراويلات
من القטיפه البنفسجية ، وتلاههم جماعة المدعوين من الامراء والنبلاء . ولما
أخذ كل مجلسه فتحت الابواب وقرعت أجراس القصر ، ودخل الردهة في
ابهة وجلال الملك يوحنا الرابع يتبعه ابنه يوحنا (ولي العهد) ورجال الحاشية

وكان الملك طويل القامة مريض المنكبين ، وقد اتشح برداء من
القטיפه طويل الى الارض تتلأأ عليه الحجارة الكريمة النادرة المثل ،
ويتدلى على صدره صليب من الجوهر تحيط به بعض الايقونات الصغيرة
عليها صرر المسيح ووالدته وبعض الرسل والانبياء ، وكلها مرسومة
بالياقوت واللؤلؤ

وما كاد لامير نكيتا يتفرس في وجه الملك حتى دهش لنحوه وتبدل
نضارته . نعم انه يجبه كان لا يزال جميلاً ولكنه أصبح متفعضاً كثيراً وقد
خف شعر لحيته وعارضيه . وكان له اذ ذاك خمس وثلاثين سنة من العمر
ولكنه كان كأنه في الخامسة والاربعين او الخمسين . وكان على جانب تعظيم
من اللدكاه وانهاء وتوقد الذهن وقوة الحجة ، اذا تكلم أحم ولو كان كلامه
تأنييد مذمب في العسف واظهار معاييه في مظهر الفضائل وجوره في مظهر
العقل واربته . . .

وكان جمهور الحاضرين قد وقفوا جميعاً للملك واستقبلوه بالاجلال
والتعظيم . واسامو فاجتاز صهرف الموائد ، حتى اذا انتهى الى العرش أدار

نظره في الحشد فحيا بخفض الرأس وتلا بصوته الجمهوري صلاة طويلة ثم
بارك المائدة وجلس ، فجلس الجميع
وفي الحال تقدم جمهور الخدم فسجدوا له وخرجوا أزواجاً ، ثم عادوا
يحملون بين ايديهم على جامات من ذهب مثني اوزة مشوية . . . وشرع
في الأكل . . .

وكان الامير نكيتا جالساً بالقرب من مائدة الملك ، وعلى مائدة النبلاء
المدعوون الذين كان يعرف بعضهم قبل مسيره الى بلاد لتفا . . فأجال بصره
في الملك وفي ندمائه وهو يفحصهم واحداً واحداً ويعجب لهذا الانقلاب
الغريب الذي جرى في البلاط ، وقد اكبر اتفرق بين الملك يوحنا منذ
خمس سنوات وبينه الان وهو بين هذه العصابة . . ولم يلبث أن مال الى
اقرب النبلاء جلسائه على المائدة وكان من اصدقائه وقال - اذا صدق
ظني فان ذلك الفتى النحيف الجالس عن يمين الملك هو ابنه وولي عهده
فقال النبيل - نعم ، شو يوحنا ابن الملك

ثم نظر الى كل جهة كمن يحاذر ان يسمعه احد ، وعاد فالتفت الى
نكيتا وقال همساً - غير انه لسوء الحظ أشبه بابيه من جده . . فقد امتلأ
قلبه ظمأ وشراً وهو لا يزال يافماً ، فاذا تنتظر منه متى شب على هذه
الاطوار وصارت اليه مقاليد الامور ؟

فقال الامير - ومن ذاك الجالس الى طرف المائدة ؟ .. أظنني
رأيتة قبل الان ، ولكني لا أذكر أين ومتى

قال - انك تعرفه بلا شك . . فقد كان منذ خمس سنوات حاجباً في
البلاط . . ثم اخذ يرقى في سلم المعالي ويشرق نجمه متلألئاً في افق البلاط

حتى كاد يفوق الجميع .. وهو الان من اهل الشورى ، والمالك يعول عليه في معضلات الامور .. هذا هو بوريس غودونوف ، وهو من اصحاب الذكاء والفطنة وحسن التدبر ، لا يباشر عملاً الا بعد التبصر الكثير والتروي الكثير .. ويدهشك منه على الخصوص أنه لم ينتظم في سلك فرقة رجال الحرس ولم يشاركهم في سفك الدماء ، ولكنه يسد اذنيه فلا يسمع ما يقال حوله وينمض عينيه فلا يبصر ما يجري امامه .. يرى دمآء الا برىاء تفجر حوله وكأنه لا يرى شيئاً ، ولا يجاهر بمقاومة لثلايفة ثقة المالك به وارتياحه اليه ، ولعله لا يريد ان ينبس ببنت شفة في التنبيه والتذكير لانه يش من الاصلاح

ثم نظر النبيل ثانية الى جهة الملك وندمائه وعاد فقال لنكيتا - واما ذلك الضخم الجثة الكبير الرأس العريض المنكبين الوحشي الملامح الذي تراه جالساً الى جانب بوريس غودونوف يأكل بنهم شديد ولا يلتفت الى احد ، فهو مالبوتا سكوراتوف الصديق الحميم للملك والحبيب والنديم والجلاد معاً ... وانظر ايها الاسير الى ذلك الفتى الجميل الوجه الفنج الذي يسكب للملك الخمر ويمارحه بالادلال وهو اشبه بالفتاة منه بالفتى ، فهذا ثيودور باسماوف ..

وما كاد نكيتا ينظر الى وجه الفتى المشار اليه حتى تحقق انه هو الذي امر باطلاق الدب عليه في ساحة القصر ، فهز رأسه وهو يقول لجليسه همساً .. وماعسى ان يكون المسير اذا كان بلاط الملك قد أصبح مسرحاً لاشغال هذه النملام الخنث .. وكيف لنا ان نصبر على امثال هذه الدعارة وننفق ونفجرر ؟ ..

قال هذا وروى لجليسه حكاية الدب .. فابتسم النبيل وقال - لا تعجب لهذا الامر ايها الصديق .. لان الملك قد اختص هذا الغلام بحبه المفرط حتى لا يستطيع ان يعيش بدونه .. وهو في اكثر الاحيان يدعوه باسم ثيودور لا ثيودور .. وقد اباح له ان يفعل ما يشاء .. وهو لو قتلك بهذه المداعبة الخشنة لفضي الامر ولم يسأله احد عما فعل ... وانظر ايها الامير الى ذلك الرجل الذي يتسم لكل حركة من حركات ثيودور ويضطرب لكل كلمة من كلماته .. فهذا ابوه الكسي باسماثوف .. والى جانبه باسيل غريارنوي .. ثم الاب ليفكي رئيس دير المعجائب ، وقد باع دينه بدينار ، فانخرط في هذه الزمرة الشريرة واتعمس معها في الملامح بلا خوف من الله وكان نكيتا يسمع كلام النبيل وهو يختلس النظر آثا بعد آخر الى اخصاء الملك ، فأبصر بينهم رجلاً في نحو الثلاثين من عمره ، وكان طويل القامة تظهر على وجهه علام الغم والاضطراب ، وقد لها بنفسه فلم يكثر لما كان يدور حوله من الحديث .. ولم يره نكيتا قد أكل شيئاً ، ولكنه كان يشرب كثيراً ، وهو تارة يسند رأسه يديه وطوراً ينتصب في مجلسه وعيناه تقدحان شرراً . فسأل النبيل عنه فقال - لا أظنك تجهله ايها الامير لانه من جماعتنا ، ولكنه بانتظامه في سلك رجال الحرس قد أهان نفسه وأضاع رشده .. فهذا هو الامير اثناسي فيازيمسكي ، وهو من يوم دخل الغرام قلبه لا يعي شيئاً ، فقد دله الحب وذهب ببصيرته ونهاه ..

وأراد النبيل ان يسهب في الكلام ، واذا باحد خدم المائدة قد جاء فوقف امام الامير نكيتا ويده صحيفة من الطعام وقال - ايها الامير ! ان الملك العظيم قد اختصك بهذه الصحيفة من مائدته

فهض الامير ، ووفقاً للعادة المتبعة في مثل هذه الحال ، انحنى للملك علامة الشكر . وحينئذ وقف الجالسون على مائدة واحدة مع الامير فانحنوا له ، وفي ذلك اشارة الى انهم يهثونه بنعمة الملك الخاصة ، فشكر هو كلا منهم بانحناء خاص . وفي اثناء ذلك كان الخادم قد عاد الى الملك وقال بصوت سمعه الجمهور - ايها الملك العظيم ! ان الامير نكيتا قد اخذ الصحيفة وهو يشكر لجلالتك تعطفك واحسانك . . .

وكان الفوم قد فرغوا من اكل الاوز فخرج الخدم ثم عادوا يحملون ثلاثمئة طاوس مشوي . . وتلا ذلك اصناف الدججات والقطائف المحشوة لحماً وجبناً . . وكانت الخمر تقدم في اثناء ذلك انواعاً شتى ، حتى لم يكن احد من المدعوين يطلب شيئاً ولا يجده امامه

وكان في جملة الجالوس الى مائدة الامير نكيتا نبيل طاعن في السن . وكان الامير قد سمع من جلسائه ان الملك ناظم عليه

ففي اثناء الوليمة ، والقوم لاهون بمسرتهم وانسهم ، جاء ثيودور باسماوف رئيس السمات ويده كؤس من الخمر ، نادىها الى هذا النبيل وقل - ايها النبيل ! ان الملك العظيم قد بعت اليك بهذه الكؤس ؟

فهض الشيخ وانحنى للملك ثم شرب الكؤس . وعاد ثيودور الى الملك وقال - ان النبيل يا مولاي قد اخذ الكؤس وهو يشكر لجلالتك عطفك ورضاك

وفي الحال نهض جلساء النبيل يحيونه ويهثونه . ولما هم هو بمبادلتهم التحية لم يقر على الكلام ، وقد عسر نفسه واختلج جسمه وامنع لونه . . ثم هوى بجسمه الى الارض فاقد الحركة . .

وكان الملك كمن ينتظر مثل هذه الخاتمة فقال - يظهر ان النبيل قد شرب كثيراً .. فاحملوه من هنا !

فأمسك الجميع عن الكلام .. وأجفل النبلاء وقد تولاهم الذهول وأخذتهم الحيرة .. ووجم نكيتا وقد هاله هذا الامر الفظيع ، ثم تهد تهداً عميقاً وقال في نفسه : « ألا ينتظرنى مثل هذا ؟ .. »

وكان بعض الخدم قد حملوا جثة النبيل الشيخ الى الخارج .. وعاد القوم الى ما كانوا عليه كأنه لم يجر شيء . او كان الذى جرى امر عادي لا يعبأ به .. ولم يضطرب له الا النبلاء الذين ليسوا من فرقة رجال الحرس

ثم تمخ في الابواق وقرعت الاجراس . فخرج الخدم ولم يلبثوا ان عادوا يرفلون في سراويلات جديدة من اللون القرمزي ، وقد حملوا الكراكي المشوية والأدياك المحشوة والفرايج المنقلوة والاسماك والطيور والارانب والقصابر وغير ذلك مما يسجز القلم عن وصفه .. وكانت الحجرة قد دبّت في الرؤوس ، فاختلطت الاصوات وعلت الجلبة وأصبح أكثر القوم سكارى

وكان نكيتا يقلب نظره في الوجوه وهو يستغرب هذه الحالة المحزنة التي صار اليها البلاط .. وقد حانت منه التفاتة الى بعض أطراف الردهة فأبصر الفتى الذي اتقذه من الدب ، وقد اعتزل القوم فلم يشاركهم في هرجهم وسرورهم ، ولعله لم يشاركهم ايضاً في طعامهم وشرابهم .. وقد تبين الامير في نفسه انكساراً وفي هيئته كدأ ، فازدادت رغبته في التعرف به واستطلاع كنه احواله ، وشعر بميل اليه وعاطفة حب شديدة نحوه .. وسأل عنه جلساءه النبلاء ، فلم يعرف احد منهم عنه شيئاً ، فهم ان ان يسأل عن اسمه

بعض الخدم ، فاستوقفته عن الكلام حركة يجاذبه ، فالتفت وإذا برئيس
السقاة يقول له - أيها الأمير نكيتا ! ان الملك العظيم قد ارسل اليك بهذه
الكأس من شرابه !

فدعر نكيتا واضطرب .. وكان ثودور باسماء نوف قد قدم اليه الكأس
وهو يتبسّم تبسم الازدراء .. فشعر الأمير كأن ضباباً كثيفاً نزلت على عينيه ،
فأيقن بالهلاك .. ولكنه لم يبطئ ، ان تناول الكأس ثم حنى رأسه للملك
واحتساها جرعة واحدة ، وقف ينتظر ان يصيبه ما أصاب النبيل الشيخ
منذهنية ، وقد شخصت اليه الابصار وبات الجميع يترقبون غروب شمس حياته
غير ان الأمير لم يشمر الا بسبب الحمرة في عروقه ولم يحس الا بحرارتها
المنعشة في بدنه ، وقد تورنت وجنتاه واشتدت عصابه ، ناطماً ريعه وقبل
في نفسه : « لعل الملك قد عفا عني .. ، أو لعله لا يزال جاعلاً الامر .. »



ومر على الجلوس أربع ساعات متوالية وهم يأكلون ويشربون ، ومع
هذا فلم تنزه الوجبة ، وبقى منها قدر مامضى .. وقد رفع الخدم عن الموائد
صحاف اللحوم والاسماك وخرجوا من الردهة ازواجاً . ثم عادوا بعد قليل
وقد بدلوا بسرائر يلاتهم اثواباً جديدة من الخمل الابيض الموشى بالذهب ،
وحملوا الاثمار والفواكه والحلويات اشكالاً تحير العقول وتشبع النظر . فن
اسرام وقصور كبيرة ومن فرسان وخيول مخافة الاحجام والالوان ، وقد
عمت كلها من السكر .. ومن اشجار لا تقل حجماً عن الاشجار صنعت
من السكر كذلك ، وتلى من اغصانها التفاح والاجاص والفواكه الأخرى
والحاربات .. لان اثوابها .. ومن أسود وأرانب ودبة ونسور وحمام ،

تفنن الطهارة في صنعها حتى يخالها الناظر طبيعية بحجمها ولونها . . وقد حمل كل ذلك الى الردهة ووضع على الموائد غير ان المدعويين كانوا كلهم قد امتلأوا واكتظت نفوسهم فلم يجد اكثرهم يداً الى شيء من هذه الحلويات ، وقد استند بعضهم الى الموائد امتلاء وعياء وانغمض البعض الآخر اجفانهم فناموا وسمع غطيظهم . . ولم يأكل الملك ولم يشرب الا قليلاً ، ولكنه كان يتكلم كثيراً مع ندمائه ويمازحهم

ومثل ذلك فعل بوريس غودونوف ، وقد ظل الى آخر الولاية متيقظاً لم تتغير هيئته قط ، وكان يشاغل الملك ورجال البلاط بكل حديث طلي ونادرة نفيسة ، وهو كلما نظر الى وجوه السكارى التفت الى الملك وتبسم أما يوحنا ، ابن الملك وولي عهده ، فقد شرب كثيراً وأكل قليلاً ، وكان صانعاً في أول الامر بسمع ولا يتكلم ، ثم أخذ يقاطع الجاوس ويمزح ويتكلم ، وكان أكثر تهكمه وتحرسه مريباً ، ماليو تاسكور اتوف بنوع خاص ولم يكن ماليو تاليكثر الكلامه ، فقد كان امامه من الوان الطعام والشراب ما ألهمه عن كل شيء آخر ، وكان لا يأكل الطعام أكلآ بل يلتهمه انهماماً ، وقد جاهد في ذلك حتى تصبب عرق من وجهه وظهور عليه تسب الجهاد

كان ماليو تان رجال الذين لا يدنونه منهم أحد وبأمن جانبهم أو يعود سالماً . ولم يكن أحد من رجال الحاشية ليحتري عليه بشيء من المزاح أو التهكم ، لأنه كان شرس الاخلاق فظاً سيئ الظن سريع الانتقام ، يتصدى للشر ويخلق له ما شاء من الاسباب ، وقد تجرد عن كل عاطفة بشرية

وأصبح ديدنه الفتك والاعتقال وركوب الفظائع والمنكرات ، وكان أبداً ظمآن الى ارتشاف الدماء يسربقبض الارواح كأبالسة الجحيم . وقد اشتهر فخسه ولؤمه حتى أصبح مضرب المثل ، يرتعد كل انسان لمجرد ذكر اسمه وترهب الامهات اطفالهن بهذا الاسم الهائل الخيف . وكان أتبع للملك من ظله ، يرقب كل حركة حوله ويرصد كل رجل ، فلا تقوته فائتة . وكان يتنسم الاخبار من كل ريج ، وقد بث رجاله للكشف عن كل غامض والتوصل الى كل خفي من الاسرار . وكان مطمأناً جشعاً انانياً يستسهل للحصول على مبتغاه وأوطاره كل ضروب المحرمات لا يزعه ضميره ولا يردعه رادع . وكان لا يمر به يوم ولا يوقع بالعشرات من الابرياء ، وهو ينبغي من ذلك كله خدمة الملك في الظاهر ومصلحة نفسه في الباطن . ولم يكن له صديق البتة فكان يبطش بكل انسان بلا تمييز ، ولا تأخذ بأحد رنة وكان له ابن وحيد يدعى « مكسيم » وهو فتى جميل الصورة دمث الاخلاق حلوا الشائل ، لم يقتد بأبيه في شيء من خلاله وكان ينكر عليه أعماله وفضائله وينظر الى كل ذلك بمنتهى الحزن والازدراء . وقد دخل في سلك رجال الحرس مسوقاً الى ذلك بارادة والده والحاحه لأنه كان يطيمه ويحترمه كوالد . غير انه بعد ان رأى ما رأى من جرائم هؤلاء الناس وموبقاتهم وبداءتهم انصرف بفكره الى الانفصال عنهم . . . ولكن أنى له ذلك وورائده واقف له بالرصاد ؟ . . فلم يبق له والحالة هذه الا ان يفر من يده . والده ويعيش بعيداً عن أولئك الائمة الاشرار ، تحت سماء غير سماءهم وفي محيط نقي صاف غير محيطهم . .

وكان مالىوتا يحب ابنه هذا ، ولكن لا تحب الاباء لأبنائهم ، وانما

كان يحبه ويرغب في رقيه واعلاء شأنه لادراك وطرفي نفسه كان يصبو اليه . وذلك ان هذا الرجل لم يكن عريق الحسب ، فكان همه ان يجعل لنفسه مكانة بين النبلاء ويكسب أسرته اسماً مشهوراً وثروة طائلة . فكان لهذه الغاية يضطهد كل ذي ثروة ومقام طمعاً في ميراثه ، ويجتهد ان يتنازع بذلك بعض مراتب الشرف لنفسه ولابنه . وأصبح ذلك بعد مدة قصيرة أحب عمل لديه لا يفكر في غيره ، وأصبح جميع النبلاء وذوي الثروة في نظره اعداء له ولا أسرته . . . فعظمت لهذا السبب سعايته فيهم وهو يعتقد ان لا راحة له ولا حياة لأسرته الا بفنائهم جميعاً . . . وجاء في بعض التفاصيل التاريخية ان ماليوتا هذا كان بعد قتل المحكوم عليهم يذهب فيقطع يده أجسامهم ويطرح تلك القطع للكلاب . . .

هذا هو الرجل الذي تحرش به ولي العهد يريد مداعبته ومما زحته . . . ولعله كان جاهلاً بطبيعة ماليوتا ، وانه لا يصبر على الضيم ، وانه بارع في فنون الانتقام والتشفي ، ينهش عدوه بأسنانه الحادة في أول فرصة سانحة ، ولو كان هذا العدو ولي العهد نفسه . . .

ومما زاد في حق ماليوتا على الخصوص انه قابل الملك قبيل حضوره الى ردهة الطعام ، وقد جثا امامه وذكره بنفسه وجعل يعدد له مآثره وخدمه وأدلة اخلاصه . . . وانه مع كل هذا لم يظفر بشيء من أمنيته ، ولم يحرز قبعة النبلاء التي وعد نفسه بها منذ زمان طويل . . . وكان من جواب الملك انه زجره لأنه كان في نظره لا يزال غير أهل لهذا الشرف . وزاد على ذلك انه احتقره وضحك منه . . .

وعلم بهذا كله ولي العهد . . . فلما رأى وهو على المائدة ان ماليوتا

معرض عنه غير مكثرت لكلامه ذكر امام رجال الحاشية ما كان من أمر القبة .. ثم هنا الخيبة وهو يهزأ به ويضحك بملء فيه وكان ماليوتا يسمع هذا الكلام ويتلذع غضباً ، وقد لمع في عينيه برق الانتقام ، ولكنه تجلد وكظم غيظه وهو يضم لولي العهد سراً ويلاً ولحظ الملك الدر في وجهه فبادر الى تغيير الحديث ، وتحول بنظره الى الامير اناسي فيازيمسكي فراه مقطباً لاهياً بأفكاره ، فقال له - أرك صامتاً يا اناسي كأنت حاضراً الجسد عاب العقل ! .. فهل بلغ سنك الزمان حتى أضمت عقلك وفقدت دماغك ؟ . أو تفلت عليك خدمه الملك في جملة حرسه حتى مللت الإقامة بيننا ؟

فانتبه الامير كن هب من حلم وأراد الكلام فقاطعه ولي العهد قائلاً للملك - ولكن الامير اناسي ليس من - ارس يات الا .. هم ، الا .. يتهد ويتأوه كاحدى الحسان .. فلو أمرته أن يخلق لحيته ويرتدي ثوباً نسائياً ويكون من القيان ، لكان ذلك أدعى الى سروره ورضاه ، ولكانت آلات الطرب ألين به من الحسام ...

فظر الامير الى ولي العهد شراً رقة - ارتسمت على وجهه امائر انضب الشديد ثم قال - نولم تكن يا ولي العهد لاتزان في سن الحلم ولم تكن ابن المات لدعرك على هذا الكلام الى الخروج من هذا المكان ، لئلا ترى من من الاين يابق يا حمل الحسام ، ومن لا يابق به الا آلات الطرب والغناء ...

وكان الملك قد انتهى من حديثه الاين ، فلم تعجبه هذه الحدة فخرج الامير بظنه عبط وقال :

- لا تنس يا أنثاسي المك في حضرة الملك ! ..

فقال - عفواً ياسيدي ! .. فان كنت مذنباً بشيء ، فليُنزل بي عقابك ، لان حياي هي بين يديك ، وانت حر ان تحييني او تميتني .. واما ولي العهد فن اسبح ، بامتهاني !

فقال الملك بلطف - لم يحن اوان عقابك ، لابل لك لا تزال في زمرة العمر ولك في خدمتي الشأن المحدود .. ولكن اسمع فأروي لك شيئاً من الحكاية التي رواها لي ليلة امس فيلكا الاعمى ، وانت اذا تدبرتها وأدركت مغزاها كان لك من ذلك نعم الهادي والداير .. قال : « كان في بعض المدن فتى جميل الصورة يسعى الكسي . فأبصر ذات يوم اميرة بديعة الحسن ، فأحبها ثم اشتد هيامه بها ، ولكنهما لم تمل اليه لانها كانت ذات عقل .. وكان الكسي يذوب جوى في هواها ، وقد توسل كل وسيلة لا يمتلك تليها ، فلم يجد كل ذلك شيئاً .. فذهب اني عشر رجلاً من اخصى اعمى ورده ، وسعى بهم من انزل له يد .. فذهبها وهرب بها الى مكان بعيد .. ناءت اميرة بهائم الكسي في جهائمات اليه ، وابتلاك ان قلت له : « انك قد قتت بوجب المحبة خير قيام وسيتني بمد الحسد ، فاننا لك ما عيت ، وانت منذ الان حياي نورى سنئي سروري .. » ورافرخ الملك من الحكاية حتى باتسم اليه سبي رجل الفرح في عيانه .. رأى الملك منه ذات قتل - وانى سابطا غداً وبعد غد لزيارة بعض الديار البعيدة ، فلا ترائني انت ، بل اذهب الى مرسكو وزر انبين دريجينا موررزوف وقل له المك رسولي به تنباهه عنوي ورضي .. وخذ منك من رجال الحرس جمهوراً كبيراً ! ..

فازداد الامير اثناسي طرباً وبرقت عيناه استبشاراً
وكان الامير نكيتا في هذه اللحظة قد مد بصره اليه ، فرأى انقلابه
الفجائي هذا .. وهو لو درى السبب الذي أطربه واستفزه لوئب من ساعته
فاختطف من جدار الردهة سيفاً حاداً وأطار رأسه عن بدنه ...
غير ان اصوات الابواق والاجراس والجلبة قد أصمت أذنيه ، فلم يسمع
شيئاً مما دار بين الملك والامير اثناسي ، ولم يطلع على ما جال في خاطر كل
منهما اذ ذاك

الفصل الثالث عشر

بين الموت رائب

اخيراً وقف الملك ، فقرعت الاجراس وفتح في الابواق واهتزت الردهة
كلها . واخذ الحضور يتقدمون اليه متى وثلاث ورباع ، وهو يوزع عليهم
بيده الإثمار الجافة

وبينما كان القوم في حركتهم هذه ، اسبل الى الردهة احد رجال
الحرس ، ولم تكن في جملة المدعويين ، فتعلغل في الجمهور حتى دنا من مالبوتا
سكراروف وهمس في اذنه كلاماً انتفض له مالبوتا واقلبت سحته .. ولم
يخف ذلك عن الملك ، فسأله عما به ، فصاح - خيانة يامولاي ! .. بل
مكبدة عظيمة لم يسمع بمثها ! .. يدبرها بعض الخونة لاغتيال عظيمك ..
وكان هذا الكلام شد وقع في نفوس القوم ، فجمدوا في اماكنهم
كأن على رؤوسهم الطير ، وشعر الملك كأن سهماً اخترق قلبه ..



وتابع ماليوتا الحديث
 فقال - لقد أرسلت مر
 يومين بعض رجال
 الحرس ليأتوني أخبار
 العاصمة ، فاعترضهم في
 بعض تطوافهم احد
 النبلاء وهجم عليهم بالخنيل
 والرجل وأثخن فيهم ،
 وكاد يقتل خادمي متى
 خوميالك. وها هو واقف
 بالباب ينتظر اشارة
 مولاي الملك ، وهو
 يكاد يشتط عليه والماً

﴿ الامير نكتنا ﴾

فأجأ الملك نظره في رجال الحرس ، فرأى علام الغيظ وحب الانتقام
 بادية على الجميع ، فنظر الى جهة النبلاء وعويز رأسه منه دأ... ثم امر ،
 فدخل متى خوميالك وعوينن ويتوجع وقد عصب رأسه . ولما وصل الى
 حيث كان الملك أكب على قدميه بقصهما ويكي...

فبهت الجميع لهذا المشهد ، وقد أكبروا الامر
 فقال الملك لمتى - ومن فعل لك هذا ؟ قل ولا تخف شيئاً

فقال - رحماك ياسيدي ! فانا لا أعرف اسم النبل الذي نكل بنا
وفعل بي ما ترى ، لانه أنى ان يذكر اسمه
قال - وكيف حدث ذلك ؟

قال - كنا في تطوفا في ارباض العاصمة ، وقد دخلنا قرية الدب ،
فلم نشعر الا وأحد النبلاء او الامراء قد هجم علينا ومعه جمهور من خدمه
واعوايه ، فسدوا علينا الطرق وأغلوا فينا بالضرب بالسبوف والنباييت . .
وكان من امرنا رامهم اخيراً انهم قبلوا حضنا وأسروا من بقي حياً ، وأراد
زعيهم ان يشتمنا بل كسب لم يفعل . . وقد كان معنا رجالان من الاصوص ،
كما اتفلسهما لتأديبهما ، فامر اطلاقهما

قال متى هذا راعى المصراع على رأس ، نظرت عاير ، آلم الدم . .
وكان السامعون يزددون سغراً ربح لا يكرن في قووسهم . راداب
الملك ايضاً من هذا الكلام فقال لمي ولكن هذا امر لا يمكن ان
يكرن له نسيب من الصفة فلامت تهذي !

قال - حاشا ان اكرن كذا امر الملك ، وانا لم أصف بلالئك الا
البيير فقط ، اأصا ايس وياك القمر . . زكست في شك مما اقول ،
اني ورد في مستحسن امر بضم لد على ذير اغلغل الايمان

قال - نلت ان البديل المحبول ، ارد ان يرقى . . فلماذا عذر ؟
قال - لانه ولد له سباً . . وبك امر رجاله بجلدونا حتى تفجر
اسم من ابرائنا ، سم أم اسراصا

نأجر منفسو لهذا الكلام ثم صرهم ذبل شديد . . وكان الملك
قد ظهريته في وجهه اسأرا السب ، فقال لمي - دكم رجلاً كشم ؟

- نحو الحسين

- وكم كان عددهم ،

- نحو العشرين او الثلاثين

فتطرب الملك وصاح - وكيف ظهروا عليكم وهم أقل عدداً منكم ؟ فهل غلت ايديكم ام ببست سراعدكم ؟ .. ومن هو هذا البيل المحترم الذي قم يسطو على رجال حرسى في راحة النهار ، ويقوم سلطتي هذه المقاومة التي لم يسمع بمثلها ؟ .. ولما كان لا بد لي من معرفته ولو اتحف السحب او غاص في اليم ، فأنا آمرك يامتى ان تسميه ، والا فاستند لعقوبي جزاء كذبك وبهتاك

فارتعش متى وقال - يعلم الله ياسيدي اني صادق ولم أقل الا الصدق
وها ان جميع رفقائي يشهدون بصحة دعواي

قال هذا وأدار نظره في الرده كمن يجرس عر رجل يستجير به .
فأبصر الامير بكيت عرقه . ردت اليه ردفق عار ، واتقدت عيناه بنار الانتقام ، وقال للملك - اذ كنت يامولاي لا تزال في شك مما أقول ،
وتريد ان تعرف الان الرجل الذي دهمنا وبكل ما دلك التمكنيل ، فسأل
هذا النبيل !

واشار بيده ان الامير نكيتا

فاشرأبت الاعنق واتجهت الا صار كلها د لاير .. وكن هو واقفاً
غير مال بي ، وقد ألقى يديه على ظهر كرسيه وأمعن في التأمل
وكان لدين عاشروا الملك طويلاً يتوقعون انفجار بركان غضبه ..
فحبسوا أنفاسهم وجسوا في اماكنهم

- ونظر الملك الى الامير ثم قال - تقدم يانكتينا وقف للمحاكمة ..؟
فهل تعرف هذا الفتى ؟ (و اشار الى متى خوميالك)
فقال - نعم ، أعرفه ياسيدي
قال - وهل هجمت عليه برجالك ؟
قال - نعم .. ولكنه هو البادى - بذلك .. فقد هجم على قرية
الدب وعمد الى الارهاب والسبي والتدمير ..
فقاطعه متى قائلاً -- لا تصدقه ياسيدي الملك ! وسل ان شئت كل
من كان معي من رجال الحرس
فنظر نكتينا الى متى بازدراء ثم التفت الى الملك وقال - ولما رأيت
منه ومن رفقائه ما رأيت هجمت عليهم لارد غائتهم عن القرية وأدفع
شرهم عن اهلها
قال - وهل عرفت حين هجمت عليهم انهم رجال حربي ؟
- كلا
- وهل أنبأوك بحالتهم حين أردت شنتهم ؟
- نعم
- ولماذا تركتهم اذ ذاك ؟
- لارفع امرهم الى القضاء
- ولماذا لم تدعهم وشأنهم من اول الامر وترفع الشكوى عليهم ؟
فوجم الامير ولم يحرج جواباً
وكان الملك ينظر اليه كمن يريد ان يستشف خبايا قلبه ، ثم قال -

انك تركتهم وشأنهم لا لتشكوهم الى القضاء كما تقول بل لانهم عرفوك بحالهم .
ومع هذا ، فانت بعد اطلاعك على ذلك امرت بجلدهم
قال - ايها الملك ؟ ..

فقاطعه الملك قائلاً - حسبك .. فقد عرفت كل شيء
ثم وجه خطابه الى اخصائه وندمائه وقال - انكم تد سمعتم اقرار
الامير .. فليبد كل منكم رأيه بشأنه .. قولوا ماذا يستحق جزاء ما جنته
يداه ؟ .. تكلموا فاني راغب في سماع رأي كل منكم
قال هذا وأجال نظره في جوانب الردهة ، وكان منظره مخيفاً وعيناه
تنبشان بما قد صمم عليه في قلبه من الحكم المبرم . ثم عاد فرفع صوته وقال -
قولوا ايها الناس : ماذا استوجب الامير نكيتا بعمله هذا ؟
فقال ولي العهد - الموت !

وتلاه ماليوتا سكوراتوف ، وباسيل غريازنوي ، والاب ليفكي ، وثيودور
باسماتوف وأبوه ، فقال كل منهم - نعم انه قد استوجب الموت !
وقال كثيرون غيرهم من رجال الحرس مثل ذلك
فقال الملك - فليشرب اذا كأس المنية ، لان من أخذ بالسيف فبالسيف
يؤخذ .. والان خذوه الى موضع الاعدام ، وليحل به العقاب الذي استحقه
فانحنى نكيتا للملك ثم خرج صامتاً ، وقد أحاطت به شرذمة من
رجال الحرس

اما الملك فالتفت الى رجال الحرس وقال ، والجلال يرافق كلماته -
كيف رأيتم حكمي ايها الاخوة ؟ عادل هو ؟ ..
فارتفعت اصوات الذين كانوا على مائدة الملك - عادل ! نعم انه عادل !

وتلتها اصوات كثيرة من وائذ اخرى - انه مثال العدل !
غير ان واحداً من الحضور ، وكان في بعض اطراف الردهة ، رفع
صوته عالياً وقال - كلا ! انه غير عادل .. بل هو مثال الظلم والجور ! ..
وما سمع هذا الكلام حتى اضطرب رجال الحرس ، وقد اخذتهم الدهشة
واندفعوا يتسائلون باهتمام : من قال هذا ؟ .. من قال ان الملك ظالم ،
وحكمه جائر ؟ ..

وكان الجميع قد هاجبوا وماجبوا وبرق الانتقام في عيونهم ، الا ماليوتا
سكور آتوف - ذلك الرجل الذي كان يطرب لكل مصيبه تنزل بغيره -
لم يتزعزع ، هذه المرة من مكانه ، وقد علت وجهه صفرة الموت
وكان الملك تد اضطرب شديداً وصعد الدم الى وجهه ولمع برق الغيظ
في عينيه ، فنظر الى الجهة التي سمع اصوت منها وتل - من قال ان حكمي
غير عادل ؟ .. اني أسأله ان ينفصل عن الجماعة ويتقدم الي ! ..
فقال له ماليوتا وهو يرعد خوفاً - ان بين عبيدك هنا ايها الملك من
دارت نشرة الشراب في رؤوسهم فأفقدتهم عقولهم .. فلا تأمر يا مولاي
بالبحث عن هذا العبد لوك لاني لا يمي الان ما يقول .. ولكنه متى طارت
سورة السكر من دماغه وعاد الى رشده لا يصدق ما نطقت به شفتاه
فنظر الملك الى ماليوتا شزراً وقال - أنت تقول هذا ؟ .. فتى اصبحت
وديعاً ورقيت القلب ؟ ..

وأراد ماليوتا ان يتكلم ، غير ان حادثاً فاجأه فسكت وهو في اشد
حالات الاضطراب لنفسية

وذلك ان ابنه مكسيم قد اخترق الجمع ومثل امام الملك

هذا هو الفتى الذي ألقاه الأمير نكيتا من الدب . . قام الآن يريد
أيضاً ان يدافع عنه بجرأة لم يمهدها نظير في بلاط القياصرة
ولم يكن الملك ينتظر ان يرى امامه ابن ماليوتا . فدهش شديداً
وقال - فأنت اذاً الرجل الفرد الذي تزعم حكيمى . . . فما الذي لم
يجيبك منه ؟

فقال مكسيم برباطة جأش - انك أيها الملك قد قضيت على الأمير
نكيتا قبل ان تسمع تمام كلامه ، فاعل هناك ما يوضح لك السبب الذي
حمله على جلد متى خوميالك . .

فقاطعه ماليوتا بقوله - لا تسمع له . يا سيدي الملك ، لأنه سكران
لا يعلم ما يقول
ثم التفت الى ابنه وقال - انصرف أيها الاحق ولا تعد الى هنا
الا صاحياً . .

فقال ولي العهد - نعم . وهم مـ بوتـ . . فن مكسيم لم يشرب مسكراً
وقد راقبته في اثناء الوليمة فلم أره تناول شيئاً

فنظر ماليوتا الى ولي العهد ، وهو يكاد يحن غيظاً ، وحنقاً
وكان الملك قد أمسك عن الكلام وهو يتأمل تارة في ماليوتا
وحيثاً في ابنه ، وقد أخذ منه كلام مكسيم كل مأخذ من يجب . . ثم
بُسم وقال - نعم ان مكسيم لم يشرب شيئاً . . ولكنه كما يظهر لي قد
سُم صحتنا ، فأراد ان يترك الخدمة في فرقة رجال الحرس . .

وكان بورديس غودونوف في اثناء هذا الحديث لا يرفع نظره من

الملك . . وكان منذ زمان طويل قد درس اماراً وجهه ، فلم يكن ليخفى عليه شيء منها . . فاعتزم فرصة اشتغال الملك بمحادثة ماليوتا وابنه وخرج من الردهة دون ان يشعر به أحد

وكان ماليوتا حين سمع كلام الملك قد طارت نفسه شعاعاً ، فوقع على قدميه وقال - رحماك يا مولاي ! . . انك اكرم من عفا وأعدل من حكم فلا تخيب رجائي ، ولا تكسر قلبي ، بل ارحمني واعف عن ابني ولا تأخذه بطيشه وتهوره . . . لقد جئتك اليوم صباحاً أسألك ان ترفع منزلي وتمنحني لقب النبلاء . . فأين كان عقلي اذ ذاك ؟ . . اني لا أستحق هذه النعمة ، فانس أيها الملك قحتي ومر فأطلع ردائي الموشى واتخذ الى أحط دركات الهوان ، ولا يصاب مكسيم بأذى ، لأنه لا يزن في جامداً لا يدري ما يقول . . أما اذا كان لا بد من معاقبته فلتحل قممك علي أيضاً لأنني أغفلت أمره حتى كاد الشراب يعمي بصيرته . . واني مستعد ان أنطلق في الحال الى النطع قبل ابني . .

كانت ماليوتا يتكلم وفرائمه ترتد ، وقد ارتسمت في وجهه علام اليأس والانعوط . وكان الملك يسمع كلامه مطرقاً متأملاً . ثم رفع رأسه وقال - لا أنت ولا ابنك تستوجبان العقاب . . فان مكسيم قد نطق بالصواب

فخار ماليوتا في أمره ، وهو يظن ان الملك يمزح ، ثم قال - ماذا تقول يا مولاي ؟ بالله الا ما افترجت كرتي بالمفو الصريح !
فقال الملك بصوت سمعه كل من كان في الردهة - خفف عنك يا هذا

فان مكسيم لم يقل الا الصواب والحق .. ولقد تسرعت في حكمي على الامير نكيتا ، اذ لا يعقل انه فعل ما فعل من غير سبب موجب . فانا أعرف هذا الرجل قبل ذهابه الى بلاد لنقا ، وكنت أحبه وأثق بأمانته واخلاصه

ثم التفت الى باسيل غريازنوي وثيودور باسمانوف ووالده وصاح ، وهو في حالة الغضب الشديد - وقد جرى كل ذلك بسببكم أيها اللثام .. لأنكم على الدوام توغرون صدري بفاسدكم وتنظرون الى الدم المسفوك بالمسرة والارتياح .. ولم تكفكم قبائحكم السابقة حتى حملتموني الآن على الفتك برجل باسل شريف لا تساؤون كلكم قلامة من ظفريه ! .. والآن مالكم واقفين جامدين تنظرون الي كالمعتوهين ؟ .. بادروا الى اتخاذ الامير قبل ان يحل به العقاب ! .. ولكن لا .. لا تذهبوا .. فقد قضي الامر ولا مرد للقضاء .. ولكني سأحاسبكم جميعاً انتقاماً لدمه المهدور ! ..

وكان بوريس غودونوف قد عاد في هذه اللحظة الى الردهة وسمع كلمات الملك الاخيرة ، فتقدم اليه وقال - لا تقل قد قضي الامر يا مولاي ! فان الامير نكيتا لا يزال حياً يرزق ، وهو ينتظر أمرك .. وذلك اني حينما كنت أقرب امار وجهك وانت تخاطب ماليوتا رأيت سمات العفو ظاهرة عليك ، فأسرعت الى حيث أخذ الامير ، فرايته قد علا دكة الاعدام ، وكان الجلاد قد شهر سيفه يريد أن يهوي به على عنقه ، فأشرت اليه أن لا يفعل ، وامرته ان ينتظر بلاغاً آخر من جلالته

فما سمع الملك ذلك حتى سرني عنه ما كان قد استولى عليه من النعم

فأشرق وجهه سروراً وقال - بورك فيك يا بوريس لانك عرفت بذكاء قلبك وصحة حدسك ما في ضميري واطلمت على خفايا قلبي . ولا شك انك عرفت ايضا اني لا أسفك الدم حباً بالتشفي والانتقام ، بل لاستئصال الفتنة والقضاء على الخيانة . . فتقدم الي ايها الصديق الشهم لاعاقلك وأشكرك فدنا بوريس وانحنى للملك بوقار ، قبله الملك في رأسه . ثم التفت الى مكسيم وقال - واذن ، انت أيضاً مني يا مكسيم ، فاكفئك على ما بدا منك من النبل والارحية

فجنا مكسيم أمام الملك ثم لثم يده وتأخر قليلاً فقال له الملك - اني سأجري عليك مذ الآت المرتبات الوافية وارقيك الى رتبة زعماء الحرس وأغمرك بكل نعمة فقال مكسيم - ولكني لا استحق شيئاً من ذلك يا سيدي الملك . . . أما اذا كان لا بد من الانعام علي بشيء ، فليكن ذلك ارسالي الى بلاد لتغا أو بلاد التتر ، للاحارب أعداء الوطن والدين فذعر الملك لهذا الكلام وقال - أو ترفض النعمة التي أحبيت أن أوجهها اليك ؟ . . وهل سئمت الممشية في البلاط حتى آثرت عليها خوض المعامع ؟

- نعم يا سيدي !

- ولم ذاك ؟

فأراد مكسيم ان يتكلم ، فقاطعه ماليوتا قائلاً للملك - ان السرور قد هزه يا مولاي حتى لعشه ، فلم يدر كيف يظهر

شكره .. فهو يريد ان يقول لك ان الواجب يقضي عليه بخدمتك الى النهاية ، فاعليك سوى الامر وما عليه سوى الطاعة ولو بسفك دمه
فأنكر ولي العهد ذلك بقوله - لقد وهمت يا ماليوتا مرة اخرى ..
فليس هذا ما أراد مكسيم ان يقوله ، وانما هو أراد ان يظهر احتقاره
للبلط ، فأظهر رغبته في التخلي عن كل خدمة فيه ، ليكون حراً مطلقاً في
غير هذه الدائرة

وقال الملك - وهذا ما أراه انا ايضاً .. فان مكسيم أرفع من أن
يكون في خدمتنا ، ولعله يرفض البقاء في فرقة رجال الحرس ، لانه يتطال
الى ما هو أشرف من ذلك .. فعلينا ان ننظر في أمره في فرصة اخرى
فمض ماليوتا شفته حتى أدامها وقال للملك - ان مكسيم هو أحقر
عبيدك يا مولاي ، وهو أبداً رهن اشارتك ، ولن يخطر في باله ان يحرم
مشاهدتك ويكون في غير رضاك

ثم التفت الى ابنه فقال - انطلق الآن الى ألبيت وقل لوالدتك ان
لا تنتظرنني ، لأن علي هام اخر في السجن لا بد من قضائها
فحيا مكسيم وخرج

وكان بعد ذلك ان الملك امر باستدعاء الامير نكيئا . فجاء به وهو
لا يزال موثق اليدين ، وقد دخل في اثره الجلال وهو لا يعلم شيئاً من الامر
فأمر الملك بحل وثاق الامير ، ثم بش له وقال - لقد تسرع رجالي
في الحكم عليك يا نكيئا شأنهم في أكثر الاحوال ، ولولا مروءة بوريس

وبعد نظرم لكنت الآن في العالم الآخر ، ولم يبق من يستطيع ان يكشف
لنا القناع عما أراد متى خوميالك أن يفعله . . فهاث الآن مالدبك من الخبر ،
وأوضح لنا أولاً السبب الذي حملك على الهجوم عليه

فقال الامير - أما السبب فهو لانه كما ذكرت قبلاً قد هجم على
القرية واخذ يفتك بالابرياء . ولم اكن أعرف انه من رجالك أو أعرف شيئاً
عن رجال الحرس ، لاني كنت عائداً من بلاد لتفا . . فرأيت قد أطبق برجاله
على القرية ، وأخذوا يفتكون بالناس ويسومونهم كل انواع الاهانة والمذاب
قال - ولوعرفت انهم من رجالي أفكنت تهجم عليهم وتعمل ما فعلت ؟
فأجاب نكتنا بلا تردد - نعم . . لاني لا أصدق ان رجال الملك
يأتون مثل هذه الفظائع والمنكرات

فنظر اليه الملك طويلاً ثم قال - اصبت . . فاني لم انشئ فرقة رجال
الحرس للشر والفساد ، وانما أنشأتها للدود عن البلاد والضرب على ايدي
الاثمة . . ان كلامك ايها الامير لهو عين الصواب ، بل هو دليل حدة الذهن
وقوة الاهراك . . واعلم انه لم يعرفني حق المعرفة الا انت وبوريس غودونوف .
اما غيركما فقد يزعم اني ارتاح الى سفك الدماء وأجد فيه كل لذة وسرور ،
مع ان ذلك يؤلني وبورثني اشد الاحزان . . والآن فاني أعفو عنك
وأهيك حياتك

ثم قال للجلاد - انصرف يا هذا ، فلسنا في حاجة اليك الان . .
ولكن لا . . فانتظر ديثما تفرغ من المحاكمة

قال هذا والنفت الى متى خوميالك ، فالتى عليه نظرة حادة وقال -
ومن اين لك هذا الحق حتى هجمت على قرية الدب وفعلت فيها ما فعلت ؟

فنظر متى اولا الى الجلا دثم الى الامير نكيتا وهو يرتعش فرقا وقال
للملك - عفواً يا سيدي . . فاني لم اهجم عليها الا لانيها للنيل دروجينا
موروزوف ، وقد فعلنا ما فعلنا بقصد تنسم اخبار هذا الخائن واستطلاع
ما يكيده لجلالتك

فلما سمع الملك ذلك سكن غضبه وقال لمتى - وانت ايضا قد عفوت
عني فلا تعد الى مثل ذلك

ثم عاد فالتفت الى الجلا د وقال - يظهر اننا في غنى عنك . .
فاذهب بسلام

وكان النبلاء عند صدور الحكم على الامير نكيتا قد وجوا وظهر
الاستياء الشديد على وجوههم . فلما عفا الملك عنه اشرقت وجوههم سرورا
وتبادلوا همسا بعض كلمات الابتهاج . فلم يخف ذلك على يوحنا . وكأنه ساء
ظهور النبلاء بهذا المظهر وحسبه انتصارا لهم ، فانقلبت سحتته وقال لهم -
لا تحسبوا عفوي عن الامير ضعفا . . ولا تزعموا ان في ذلك تساهلا معكم
واغضاء عن مساوئكم . . فكن زلة منكم اذكرها ، وكل نية سوء اعاقب
عليها بمنتهى الشدة

وكانه ندم على عفوه عن الامير واطرائه اياه ذلك الاطراء ، فقال له -
وأما انت فاعلم يقينا بأنني لم اعف عنك اليوم الا لما عهدته فيك من الصدق
والاخلاص والجهاد في سبيل الوطن ، ولكن اياك ان تزل بك القدم الى
ما يقربك الندم ، لانك لن تنجو من يدي بعد الان ويكون عقابك
مضاعفا . . ولذلك يجب عليك ان تكون من هذه الساعة على تمام الحذر ،
وان تقسم لي يمينا على ان تظل على الدوام دهن اشارتي ، حتى اذا انحرفت

عن جادة الاخلاص أو صدر منك ذنب لا تفكر في الفرار من وجهي ، بل
تنتظر عقوبي

فأجاب نكيثا - ايها الملك ان حياتي بين يديك فلن افر منك الا
اليك ، وهذا فرض مقدس انا شديد المحافظة عليه منذ حدثني ، وقد
شبيت على هذه المبادئ فلن اغيرها . وها اني اقسم لك بشرفي على ان اتم
ذلك بمتهى الدقة والامانة ، ولا اخالف لك رغبة

فقال الملك - حسن . . وانا اريد ان أراك في فرصة اخرى لتطلعي
بالنصيل على اخبار الحرب التي خضت غمارها في بلاد لنفا وما تلا ذلك
من الصلح المجيد الذي عقده

قال هذا وعاد مخاطب النبلاء قائلاً - لقد سمعتم ايها السادة كلام
نكيثا وقسمه ، فاذكروا على الدوام اني لن انسى شيئاً . . واذكروا كذلك
ان عيني تراقبكم واذني تسمع كل ما تفوهون به مهما اجتهدتم في التخفي
ثم تحول الى رجال الحرس وقال - واما اتم ، فلا يثقلن عليكم صفحي
عن الامير ، لاني احب المدل واكره العذر ولا اميل مع الهوى

ولما فرغ من كلامه اخذ الحاضرون يحيون ويتفرقون ، وهم بين مشرد
الافكار وثل من الشراب . . ثم ساد السكون في قرية الكسندروفا وخيم
الظلام على ارجائها ، فأوى الملك الى مخدعه ، ولكنه لم ينم بل جثا يصلي وقد
أطال الصلاة ولا يتهال ، وهو يسأل الله ان يلهمه الحكمة والسداد ويظفره
بكل خائن ومارق من رعيته ، ليسود السلام ويعم المدل

الفصل الرابع عشر

المولد والمولد

عاد مالبوتا الى منزله بعد ان تفقد السجن وعذب جمهوراً من السجناء ليحملهم على الاقرار ويطلع منهم على بعض الاسرار . وقد اظهر هذه اليلة تقنناً وبراعة في التعذيب والتنكيل ، فصب جام غضبه على رؤوس اولئك المساكين انتقاماً لنفسه على الاهانة التي وجهت اليه من الملك وولي عهده . ولما شفي غليله عاد الى منزله ناعم البال وقد رنحته الخيلاء .

وكان جميع من في المنزل قد رقدوا ، الا مكسيم ، فإنه كان جالساً في مخدعه ينتظر اباه وهو قلق البال مشئت الفكر

فلما دخل مالبوتا خريج مكسيم فاستقبله وقال - اني بحاجة الى الكلام معك يا والدي ، ناسألك ان تسمح لي من وقتك ببعضه فنظر اليه مالبوتا شزراً وقال - وعن اي شيء تريد ان تكلمني ؟ هيا بنا !

ثم دخلا غرفة في المنزل . فقال مكسيم - قد عزمت على الرحيل غداً . . فاستودعك الله يا ابت !

فأجفل مالبوتا لهذه المفاجأة وقال - والى اين ؟

- الى حيث تسوقني الاقدار

- وما الذي حدث لك حتى سئمت حالة الرغد والصفاء التي انت فيها . . ومن اين لك هذه الحرية في قيادة نفسك . . أو لم يكنك

ما أظهرته اليوم أمام الملك من التمرد والقحة ؟ .. الا تعلم من تكون انت ومن هو ؟ .. ومع هذا فانه قد عفا عنك ولم يعاقبك

- نعم اني أعلم ذلك كله . واعلم ايضاً انه شكرني واثني على صدقي وصراحتي في القول .. ولكن لا بد من السفر

- اني لني غاية المعجب من هذا الهديان ؟ .. وكيف هبط عليك هذا الفكر الآن بعد الذي سمعته من الملك عن رغبته في ترقية واعداء شأنك ؟ .. فأني شيء دهاك بعد هذا كله ؟

- لا شيء .. سوى ان نفسي قد سئمت الحياة في هذه البيئة .. فلم يبق لي فيها راحة ولا دعة ، ولم اعد اطيع صبراً عما هو جار هنا .. فنذ حدائتي وانا اسمع منك ومن رجال الدين ان ارادة الملك هي ارادة الله ، وان معصية الملك أو مجرد التفكير في ذلك جريمة لا تغتفر .. وقد كانت أفكاركم كل هذه المدة مخالفة لأفكاركم ، وأعمالكم وأقوالكم غير أعمالكم وأقوالكم ، ولكنني لحدائتي سني كنت متردداً بين ان يكون الحق في جانبي أو في جانبكم ، الى ان كانت حوادث هذا اليوم ، ورأيت الامير نكيتا وسمعت أقواله ، فاتضح لي الحقيقة بكاملها . وعرفت ان الملك ورجاله قد ركبوا متن الضلال في جميع أقوالهم وأعمالهم ، وانهم انغمسوا كلهم في القبايح والذائل .. ان الامير نكيتا ، وهو الذي دافع عن الحق وكبح جماح رجال الحرس الطفلة ، قد عد جانياً اثماً ، وحكم عليه بالموت وكاد يذهب فريسة الاستبداد والجور .. فلم يبق لي بعد هذا الحادث ، وهو واحد من المئات والالوف من امثاله ، الا احد امرين ، اما الإقامة بينكم والانغماس مثكم في هذه الخمازي ، وهذا ما لا أستطيع القرار عليه ولا قبل لي به ،

أو الحرب منكم الى اقصى ما يمكنني بلوغه من اطراف البلاد، وهذا ما عولت عليه ولا يثنيني عنه شيء

فلما سمع مالىوتا هذا الكلام جحظت عيناه وصاح بابنه - فالامير نكيتا اذا هو الذي أضلك وأغواك ! . . . وقد كنت اجهل حتى الآن ان لك علاقة بهذا الرجل الثائر ! . . . فلا تأرن منه واذيقنه مر المذاب !

نخاف مكسيم على الامير من غدر والده، ويكون هو السبب فيه ، وقد شق عليه ذلك جداً ولا م نفسه لتعرضه لذكر الامير في مثل هذا الموقف ، فأطرق قليلاً ثم قال - أعوده بالله منك ! . . . لانه أشرف رجل رأته عيني وسمعت به اذني . . . وقد رأيت اليوم فقط ، ولكنني قرأت في وجهه أمائر المروءة والشهامة ، فأحببت ان انضم اليه وأتهالك في حبه وأكون له خادماً . . . بيد ان عيني لا تجسر ان ترتقعا اليه ما دمت متقلداً هذه الملابس (ملابس رجال الحرس)

فصمت مالىوتا هنيهة جالت في اثنائها افكار كثيرة في رأسه ، وقد عزم على ان يلطف حديثه ويتملق ابنه باللين والمواعيد ، فنظر اليه وهو يظهر العطف والحنو وقال - مهما تكن الاسباب فاني لا أسمع لك بمغادرتي لانك وحيدى وفلذة كبدي ، ولا سيما وانت لم تعتد الاهانة والمشاق . . . فابق هنا ايها الحبيب ، الى جانبي ، لان امامك حياة كلها سعادة وهناء . . . وقد احبك الملك وصمم على أن يرفئك الى المقامات العالية وينمرك بالانعامات السنية ويمجلك من أقرب المقربين اليه ، فيشرق نجم مجدك في البلاط وتصور الى حالة يحسدك عليها كل انسان

فانطرح مكسيم على قدمي والده وقال - ابق انت في هذه الحالة

يا والدي ما شئت .. واما أنا فلا اريدها .. بل أريد الحرب والابتعاد ،
اذ لم يبق في وسمي أن اسمع على الدوام العويل والنحيب ، وأشاهد الحجازر
والمذابح ، وأرى والدي ...

وهنا توقف عن الكلام . فقال ماليوتا - وترى والدك .. ماذا ؟
- وأرى والدي جلاداً سفاحاً ، لا عمل له الا السعاية والفتك والاعتقال
فتبسم ماليوتا وقال - وأي عار في ذلك ؟ .. أفلا تعلم اني عضد الملك
وسيف تقيته ، بل صاحب امره ونهيه ؟ وقد خدمته أحسن الخدم ، فضربت
على أيدي النبلاء المصاة الذين كانوا يتآمرون عليه ويكيدون له ، ولا أزال
أبحث عن كل عاص متمرد لا ذيقه الموت ، فلا تمضي بعد هذا الامدة قصيرة
حتى تطهر البلاد من كل من ينوي شراً أو ينطوي على مكيدة

فهز مكسيم رأسه لدى سماعه هذا الكلام وقال - أصمت يا والدي
ولا تتر أشجاني ، لانك لا تنطق بالحق ... فمن من اولئك المنكودي
الحظ الذين قتلهم كان يتآمر على الملك ؟ .. من منهم بلبل البلاد وزرع
فيها الفتنة .. لا أحد .. وانما انت تقتال الناس وتوردهم هذه الموارد حياً
للاغتيال والتشفي ليس الا .. وانت على الدوام تفسد ما بين الملك ورعيته ،
ولولاك لكان الملك أرحم وأراف . فلا تغضب الله بهذه الدسائس المتواصلة
والقبائح المنكرة ، ولا تكن خالي القلب مجرداً من كل عاطفة

فتفرس ساليروتا في ابنه طويلاً ثم قال - ايس لي أن ادرك شيئاً من
هذه الحكم التي تسردها علي ! .. فما الذي يهيك انت من امر اولئك النبلاء
ويدفعك الى المحاماه عنهم ؟ .. دع القضاء يجري مجراه ، ولا يهيك الا
تسك ... ونل لي بربك : أتريد أن تظل حياتك كلها وانت دون اولئك

النبلاء؟ .. وبأي شيء ترى انت منحط عنهم؟ .. فهل جبلهم الله من غير التراب الذي جبلك منه ، أم أجرى في عروقهم دمًا لا يجري مثله في عروقك؟ .. لا شك اذاً ان المال هو علة نفخهم وجبروتهم ... ولكن مهلاً فانك عما قليل ستصبح كأحسنهم ثروة وجاهاً ، لان كل من يصدر عليه حكم الاعداء منهم ينالنا من ثروته النصيب الاوفر ... وقل لي الآن : الاجل من أسمى انا وأدأب ؟ اليس لاجلك يا ولدي؟ .. فكم احتملت من المصائب والمشاق ، وكم عانيت من الجهود والاعطاش ، وليس لي من أمنية الا ان أراك في اعلى درجات المجد والغنى ... ومع هذا كله ، افلست والدك الحبيب ؟ او ليست طاعتي واجبة عليك ؟ او لا تشعر بنحوي بمواطف المحبة والبنوة ؟

فتنهذ مكسيم من كبد حرى وأجاب - كلا ، فاني لا اشعر بشيء من هذا فارتعش ماليوتا كمن مسه مجرى كهربائي . وكانت كلمات ابنه كعقرب لدغت صدره . ولكنه امسك غيظه وقال - وماذا يقول الملك اذا عرف عن رحيلك ؟

فقال - اني راحل فراراً منه ، وفي ذلك خير لي وله على السواء ... فان الله يأمر بمحبته وطاعته ، واما انا فقد نظرت الآن ، فرأيت من سيء أعماله واتقاسه في الفحش والردائل واستباحته لكل محظور من المحرمات والمظالم ما ترتعد لهوله الفرائص ، فكرهته بسبب ذلك وقررت منه ولم يبق في استطاعتي أن اواصل النظر الى تلك الفظائع والمنكرات ، ولعلي اذا ارتحلت عنه ولم أعد أرى كيف يسفك الدم الزكي ، قد تعاودني محبته

فأعود الى طاعته وخدمته ، أو أظل بعيداً عنه ، أخدمه وأخدم البلاد في
غير هذه الدائرة وبغير هذه الاثواب

- وكيف تحيا والدتك اذا هجرتها ؟ .. لا شك انك تنقص بذلك
حياتها فتموت غماً وكمداً

- ان الله رحيم ، فسيلهمها الصبر ولن يغفل عنها ، وانا ارجو أن تغفر
لي وتصفح عني ، لاني منادرها اضطراراً

فعبس ماليوتا وقد قدحت عيناه شراراً ، لانه يتقن ان جميع الوسائل
التي تدرع بها لم تقده شيئاً .. فقام وطلق يمشي في الترفة ذهاباً وإياباً ،
وقد بلغ منه الهياج وأصبح منظره مثال الرهبة والذعر .. ثم وقف أمام
مكسيم وقال بصوت يهدج خشونة - لقد تماديت في القحة والعصيان ولم
تسمع نصحي ، فأنا أتهددك الآن بكل ويل ان لم تمتثل امرى وتع كلامي ...
ان هذا الرحيل الذي عولت عليه لن اسمح لك به ، لانك بذلك انما تطوح
بنفسك في مهوأة الشقاء والهلاك . فان سافرت ولم تبال فاني أحرمك بركتي
الابوية .. ولا تطمع أن تهر من تقمّي بعد ذلك ، أنت وجميع من تريد
الانضمام اليهم .. هذا هو كلامي الاخير اليك في هذا الشأن ، فقم الآن
الى سريرك ، فمضى ان تزول من دماغك هذه الافكار السخيفة .. وها
اني منطلق الآن الى القصر لاسلم الملك مفاتيح السجن ، فأرجو أن أراك
غداً على أفضل ما أشتهي .. واني لن انسى هذا الامير نكيتا الذي علفت
به ، فسأظفر به يوماً وأسحقه سحقاً

قل هذا وخرج . وكانت السماء قد تلبدت بالغيوم . ثم قصف الرعد
ولمع البرق ..

ولبت مكسيم بعد خروج والده حيران لا يدري ماذا يفعل . وقد
تراكت عليه الاحزان وتشردت افكاره ، الى أن وطن نفسه اخيراً على
الرحيل في تلك الليلة . فقام من ساعته ودنا من مخدع والدته ، فجثا على
الارض على باب المخدع وشخص ببصره الى السماء وقال في نفسه - انك
يا الهي اعرف قلبي ونيتي مني ، فانا الان مغادر هذا المنزل ضد ارادة والدي
لانه لم يعد في طاقتي الصبر والاحتمال ، فاغفر لي هذا التعدي على شريعتك ! ..
واما انت يا والدتي الحنون فسامحيني وتجاوزي عن ذنبي ، لاني راحل عنك
بدون رضاك وبركتك ، مع علمي بان قلبك سيتصدع الماء لهذا ، لانك
لن تربني بعد الآن . ولكني اسألك ان تقري لي وتزوديني ببركتك
وادعيتك الحارة ..

ثم انحنى فقبل عتبة المخدع ، وعاد الى غرفته ، فجهز نفسه وتمنطق بسيفه
واحذر الى الاسطبل . وكان المطر قد انهمر اذ ذاك بغزارة ، كأنه ساخط
على العالم البشري بأسره .. فوقف مكسيم مصغياً . فلم يسمع شيئاً ، فدخل
الاسطبل ، وكان السواس نياماً ، فقتاد جواده . ولما اسرجه وهم بالركوب
سمع حترشة بالقرب منه ، فالتفت واذا بكلمه « بويان » قد خرج من وجاره ،
فدنا منه واخذ يعصبص له بذنبه ويلحس يده ، كأنه علم بمفارقه فخرج
لوداعه . فلمسه مكسيم بيده قليلاً ، وتحول منه الى الجواد فامتطاء وخرج .
وما بعد قليلاً حتى وقف جواده وأجال نظره في المنزل وهو يتهدد وعيناه
ساجتان في الدموع . ثم ألقت نظرة الوداع الاخير ولوى عنان جواده وسار
تحت ستر الظلام غير عالم بما خبأه له الغيب . ولكنه ماسار الا القليل حتى
سمع هريراً شديداً . لان كلمه بويان كان قد أفلت من مربطه وجاء يعدو

وراه ، وكان مكسبم يحبه كثيراً ويعنى به ، وقد أعجبه الان اخلاصه له
وتسلفه به ، فأنس به وارتاح الى مراقبته . ثم واصل سيره وهو لا يدري
الى اين

الفصل الخامس عشر

الميل

بينما كان ماليوتا في الحديث السابق مع ابنه ، كان الملك يوحنا في
مخدعه مستحراً في الصلاة والابتهاال ، وهو تارة يستغفر ربه عما ارتكبه
من الانام ، وطوراً يبكي ويقرع صدره

وفيما هو مستغرق في صلاته ، سمع وقع اقدام ثقيلة في الدهليز المؤدي
الى مخدعه ، فالتفت فرأى حاضنته (أنوفرفنا) واقفة في الباب ، وقد استندت
على عصاها ، ورنّت اليه بملء الاشفاق والحنو

كانت دسمة المرأة طاعنة في السن ، تبلغ المئة من عمرها ، وقد كلل
المشيب رأسها وحت السنون ظيبرها ، فصف بصرها وثقل سمعها وتجمد
وجهها . وكانت قد عركتها الحوادث وسبكتها التجارب ، حتى قتلت الدهر
خبيراً زمرت الايام بطناً وظهراً . وكان الملك يوحنا قد ولد على يديها . وعلى
يديها باركه ابوه بميل وفاته . زقد عرفت بحصافة العقل واصالة الرأي والورع
والتقوى واشتهرت بالمرافة حتى ضربت الامثال ببراعتها وتقونها . وكان
اكثر رجال البلاط يرهبنها ويحاذرون غيظها . وكانت هي تكره كل اذية

وتفر من كل استبداد ، وطالما دافعت عن الأبرياء ووقفت في وجه الملك ورجاله

وكان يوحنا يصني اليها في بعض الحوادث ويخشى غضبها وسخطها ويحترمها كوالدة . ولكنه كان اذا ثار غضبه ينكر عليها كل كلام ويمرض عن كل نصح

ولما رأها الآن تنظر اليه ولا تتكلم ، واصل صلاته دون ان يعأبها فقالت له بصوت أبج وهي واقفة قلب فيه نظرها - قد طالت صلاتك يا يوحنا . . فمالك تستغفر ربك عما جنيته اليوم من الذنوب . . فصل صل يا ولدي ، فإله رحيم يقبل توبة خائفيه . . ولكن الغريب في امرك انك تستغفر الله ليلا ، وتنتهك كل حرمة نهاراً ، وهكذا فان لك كل يوم عدداً غير قليل من الجرائم والمنكرات . . فلو تبت توبة صادقة وعاهدت نفسك ان لا تعود الى مثل هذه الفضائح ، لغفر الله لك ما مضى السابغة وأثار بصيرتك ونقى قلبك . . اما الآن فهما بلنت في التضرع والابتهال فلن يلتفت اليك ، لانك لا تقام عن اعمالك البذيئة ولا تنوب عنها التوبة الصادقة فنظر الملك الى حاضنته شزراً وقال - حسبك من مثل هذا الكلام يا أوفرنأ ، لانك لا تدري ما تقولين

فهزت المعجوز رأسها وقالت - ان كنت لا أدري ما أقول ، فما هذه الجناية الفظيعة التي اقترقتها اليوم في اثناء الوليمة ؟ . . ماذا قتلت النبييل الشيخ بالسم ، وكدت ترتكب جريمة اخرى أقطع من الاولى . . وهل تؤعم اني لم اطلع على كل ماجرى منك بالتفصيل ؟ . . أفلا تخاف يوم الموقف الرهيب . . الاتعلم ان الله يحصي خطواتك ويرصد خطاياك وذنوبك ؟ .

وان هذه الذنوب ستلتف على عنقك في ذلك اليوم ، وانها قد أصبحت الان اقل من رمل البحار ، وبلغ وزنها الوف الوف القناطير ! .. فاذما يحل بك يوم تجرّك هذه الذنوب الى قعر الهاوية ، ويزدلف الشياطين اليك من كل جانب ليعذبوك العذاب الابدي ؟ ..

فوجم الملك عن الكلام ، وقد ارتسمت في وجهه علام الخوف الشديد ، لانه تصور يوم الحشر وتمثلت لديه جرائمه التي لا تحصى . . وطالما تصور مثل هذه الحالة الرهيبة فيما مضى من حياته ، ولكنه كان في اكثر الاحيان يصرف ذهنه عنها زاعماً انها من تجارب ابليس ، فلم يصغ الى صوت ضميره ، وكان يعود كل مرة الى فظائمه ومآثمه اكثر من ذي قبل . . . اما الان فقد رأى في كلام حاضنته حقيقة راهنة وأنداراً مخيفاً ، فامتقع لونه واقشعر بدنه واصططكت اسنانه وكان اشبه بالمحموم وهو تحت اشد اعراض الحمى

فلما رآته أنوفرفنا في هذه الحالة خافت عليه سوءاً وأسرعت فقالت بلطف - ولكن لا تجزع يا سيدي لان الله رحيم . . فوجه اليه قلبك وثق به ولا تحد عن شريعته ، وهو يتولاك بهفوه ورضاه ويسددك الى السبيل السواء . . وهاءنذا لا أكف عن الصلاة لاجلك ، لينفر الله لك ويرحمك

فنظر اليها يوحنا طويلاً ثم قال - اني أشكر لك عنايتك يا أنوفرفنا وقد زال عني البأس فاذهبي بسلام

فهزّت أنوفرفنا رأسها استياءً ، لان كلام الملك لم يعجبها وقد عدته احتقاراً لها ، وقالت - أراك قد مللت كلامي ولم تطل أناثك عليّ ، فكيف ترجو ان يصبر الله عليك ويرحمك ؟ . . ولكن ما هذا ؟ . . انك ترتعد ،

وقد اشتدت عليك الحمى . . ولدي شراب مسكن تكفيك جرعة واحدة منه
لازالة هذه الحمى في الحال، وانا ماهرة جداً في تركيب هذا الشراب او الدواء،
وكنت أعدده للمفقور لها والديك ، فكانا يتناولانه بلا تردد فينتعشان
- ويشعران حالاً بانخفاض درجة الحرارة وزوال الألم ، - فهل تريد ان
آتيك بشيء منه ؟

وأراد يوحنا ان يجيبها ، فسمع طرقات في النافذة ، فأجفل وتقلص وجهه
فقال انوفرفنا - لا تخف يا سيدي ، فانه المطر . . وهذا صوت
وقوعه على النافذة

وما فرغت من كلامها حتى ابرقت السماء وهزم الرعد . وكان يوحنا لا
يزال يرتعد ويرتجف . فاستتلت المعجوز قائلة - انك مريض ايها العزيز ،
فر ان أتلوك جرعة من الدواء

فقال الملك - لا حاجة لي الى شيء - لاني معافي
فقلت - وهذا كل ما أرجوه لك . . ولكني أرى الامر بالعكس
فان جميع اعضائك تنتفض . . فان لم ترد دواً فقم وارقد في الفراش ، ولا
تم على هذه الاخشاب لانها لا تليق الا بالنسك وانت لست ناسكاً والحمد
لله . . نعم انك آليت ان ترقد عليها كلما شعرت بجبكت الضمير . . فدعها
الان وشأنها وقم الى سريرك ، ففي النوم راحة نفسك وتريح لعمرك
فلم يجبها يوحنا بشيء لانه كان لاهياً بافكار اخرى . . وانه لكذلك
اذ سمع وقع اقدام تدنو من الخدع ، فذعر وقال لحاضته - يحيل الي ان
شخصاً قادم الى هنا ، فأنظري من يكون

فقلت له - ومن ترى يأتينا في مثل هذا الهزيع من الليل بلا سابق
انذار؟ . . فانت وام ياسيدي

قال - كلا . ليس ذلك وهما ، لان الأقدام تقترب الى هنا
ففتحت أنوفرنا باب المخدع ونظرت الى ما وراء الباب ، فرأت ماليوتا
مقبلاً . . وكان الملك قد صاح من داخل المخدع : من القادم ؟
فقلت انوفرنا وقد تطاير الشرر من عينيها - هذا ماليوتا سكوراتوف
الشرير ! . . فبأله لانه أزعجك بقدومه في مثل هذه الساعة

غير ان الملك لم يزعج كما زعمت حاضنته ، بل سر سروراً عظيماً ، وأقبل
على ماليوتا بوجهه وهو يرحب به ويقول - اهلاً وسهلاً بك ايها الصديق
الامين ! هات أخبرنا اين كنت ، وما وراءك ؟

فخيا ماليوتا وقال - كنت يامولاي في السجن ، أتهمد بعض المجرمين ،
ولم يتح لي ان أخرج الا الان ، فأتيت لاسلمك مفاتيح السجن . فاعذرني
لقدومي في مثل هذه الساعة المتأخرة

فألت انوفرنا نظرة احتقار على ماليوتا وقالت - ليس لك ما تلهو به
الا هذا ايها الوحش المفترس - أن تتفقد السجن وتغيب الا برياً وتمهد
للملك سبل العطب وتكرهه على ركوب المعاصي . . فالويل لك ايها الشيطان
الرجيم ثم الويل لك ، لانه تركت كل صفة انسانية وتجلبت كلك بالمآثم
والقبائح ، فسيشويك اخوتك الابالسة في نار مستمرة ويكون منقلبك عظيماً ،
فتعلم كيف يكون جزاء الظالمين

وقبل ان تتم كلامها لمع البرق واشتد هزيم الرعد ، فخيل الى ماليوتا
أن ذلك صدى غضب المعجوز ، فارتجف وأصعب وجهه بلون الاموات

واما الملك فما شعر بماليوتا الى جانبه حتى سري عنه ما تراكم عليه من
الحزن والهم ، فتشجع وقال له مشيراً الى حاضنته - لا تصغ اليها يا ماليوتا
لانها خرفة لا تعلم ما تقول . . فامض في اعمالك كلها بحسب اوامري ولا
تحسب لاحد حساباً

ثم النفث الى حاضنته وقال - والان حسبك هذياناً ايها الحقاء . .
أغرني عنا ولا تعودني الى ما ليس من شأنك

فهزت العجوز رأسها وقالت وقد هاج منها هائج الغضب - تدعوني
خرفة وحقاء ولا تخاف غضب الله . . وكأني بك تجهل انه عالم بما في
القلوب وعادل في احكامه ، وقد حطم صوالة الظالمين وخفض كل جبار
متعظم جيلاً بعد جيل . . فاستعد اذا لغضبه ، فانه سيعريك من مجدك
ويتزع أكليل رأسك ويمحق ملكك . . استعدت وجميع رجالك وفي
مقدمتهم هذا اللعين (وأومأت الى ماليوتا) - استعدوا كلكم لقضاء
الله وعدله ، فانه سوف يناقشكم الحساب ويجزي كلاً منكم بما قدّمتم يداه . .
أنكم لا تريدون ان تسيروا في صراط الحق والعدل ، فستهبطون الى الهاوية
حيث يكون عذابكم عظيماً

وخرجت أنوفرفنا بعد ذلك بمحن شديد وهي تتمتع وتلن . . ولبت
الملك وماليوتا في مكانهما وقد امتعت منهما الوجوه وارتعدت الفرائص .
ثم اطرقا مدة وهما صامتان جامدان الى ان بلغت أنوفرفنا مخدعها ولم يعودا
يسمعان وقع قدميهما . . وكان الملك اول من استأنف الحديث ، فسأل ماليوتا
عن المجرمين واحوالهم . ثم صرفه ، وكان قد غلب عليه النعاس ، فقام الى
سريره وورقده

ولكنه لم يلبث ان أفاق مذعوراً من حلم مزعج سلب راحته وأثار هواجسه ، فرأى نفسه وحيداً في مخدعه . وكان القلق قد عاوده وملاً الجزع قلبه . . وحاول ان ينام ثانية فلم يستطع الى ذلك سبيلاً ، لان افكاره كانت في اشد حالات الهياج والاضطراب

وانه لكذلك اذ تراءى له شبح من بعض جوانب العرقة ، فارتجف وأخذه رعب شديد وكاد يغشى عليه . . غير انه شدّد عزمه ونظر اليه ، فاذا هو شبح النبيل الشيخ الذي أهلكه بالسّم في اثناء الوليّة . . وقد تقدم اليه بقدم ثابتة كأنه القضاء المبرم ، ثم وقف امامه وهو لا يرفع نظره منه

فأشعر الملك وجدده وبيدت اعضاؤه وكاد يفقد صوابه . . وأراد ان يصرخ فلصق لسانه بمحكه وشعر بدوي هائل في اذنيه . . وكان الشبح قد انحنى امامه وقال : بيقك الله يا يوحنا ويزيد في سلطانك . . فقد قتلتني ظلماً وجوراً . . فنلت الان بين يديك أحبيك وأدعوك بدوام البقاء . .

وكاز لهذه الكلمات صدى شديد رن في اعماق نفس الملك ، فطار قلبه شماعاً رزّز زفرة حارة ، وحولاً يدري هل هذا الذي يراه هو النبيل بشخصه ، وهل الكلام الذي سمعه هو كلامه حقيقة ؟ . . ام ذلك ضميره وقد قام بحاربه ويناقشه الحساب على ما جتته يداه

وفيما هو على هذه الحالة من الذهول والحيرة انتصب امامه شيخ آخر ، ففرس فيه ، فاذا هو نبيل آخر من مشاهير رجال المملكة يدعى (أداشف) ركان الملك قد قتله منذ اربع سنوات ، فظهر له الان وقال - أكرم الله الملك ومدّ في عمره . . فقد أنشب في مخالاب بغيه جزاء اخلاصي ووفائي ثم تم أداسف نسله من كرائم السيدات يقال لها (ماريا) وكان الملك

قد مثل بها وقتل بنينا الخمسة . وقد تراءت له في هذه الليلة مع بنينا وكل منهم يقول هاتفاً : ليحي الملك ! . . . ليحي يوحنا الرابع ! . . .

وبعد ظهر ثلاثة من كبراء رجال الامة وقادة الرأي فيها وهم (الامير كريلاتف والامير ابولينسكي والنبيل شرميتوف) ثم غيرهم وغيرهم من الزعماء والاعيان . وكان الملك قد أوقع بهم في اوقات مختلفة . . فظهروا الان امامه وحياء كل منهم بقوله : بقيقك الله يا يوحنا ويزيد في عزك وشوكتك ! . . . وتبهم جمهور من الرهبان والسيوخ والراهبات ، وكلهم باللباس الاسود ، وقد اصغرت وجوههم وصبغت اتوابهم بالدم . فجثوا امام الملك وصاحوا : أيدك الله يا يوحنا وأعز نصرك . . لانك بطشت بنا فلم تهب كبيراً ولم تشفق على صغير ، وكلنا ابرياء ، ولا ذنب لنا الا الاخلاص في خدمتك والامانة لك ..

وتلام الجنود الذين قاتلوا مع الملك في حرب كازان وأبلاوا فيها البلاء الحسن ، فكانت مكافأة الملك لهم انه أسر فأذيقوا اصناف العذاب ثم قتلوا شرقتة ..

وظهر في الغرفة بعد ذلك جمهور غفير من المذارى ، وقد حلان شعورهن ومزقن ثيابهن وحثون التراب على رؤوسهن . . . ووقف الى جانيهن جمهور آخر من النساء يحملن اطفالهن . . وكانت اولئك المذارى وهؤلاء النساء يرددن مع الاطفال هذا الدعاء بقيقك الله يا يوحنا ويزيد في سلطتك وجبروتك ! . . لانك اضطهدتنا فجعلتنا هدفاً لنقمتك ، ولم ترث لنا ولم ترق ولم ترحم . .

وهكذا امتلأت الغرفة من الاشباح والخيالات ، وهي تروح وتجيء

وتدور من حول الملك وتبحثو ثم تقف بهيئات مرعبة ، وهو ينظر اليها بعينين جاحظتين ، ويشمر بان العرفة كلها تدور به ، وقد انخلع قلبه واصابه ذهول شديد ، ولبت مدة وهو كأنه شخص حجري

ثم انطلق لسانه فصاح بأعلى صوته - اذا كنتم ايها الناس قد جئتم لتعذبي بقوة عدو البشر ، فانصرفوا عني باسم الله التقدير وانتظروا يوم الحشر فيديتي الله واياكم ! . . .

وما قال هذا حتى رأى الاشباح قد أحاطت به من كل جانب وهي تصيح وتولول . . . وكان المطر في تلك اللحظة قد هطل بنزارة وعصفت الريح عصفاً شديداً ، فخيّل الى الملك انه يسمع ابواقاً وهاتفاً يتخلل اصواتها بقوله : هلم يا يوحنا الى الدينونة ! . . ان الديان يدعوك ! . .

فارتجف الملك واستطير فؤاده روعاً وصاح صيحة عظيمة دوى لها المكان ، وسمعا رجال الحاشية وكانوا نياماً في اسرتهم ، فهبوا مذعورين وراكضوا الى مخدع الملك وهم في اشد حالات الارتباك ، فسمعه يقول : أفيقوا كلكم ! . . لا تناموا ! . . لقد أزف اليوم الاخير وذنّت ساعة الدينونة الرهيبة ! . . فلهوا جميعاً الى الكنيسة ! . .

فدهش رجال القصر مما رأوا وسمعوا . ولما لم يسمعهم الا الاذعان بادروا الى الاجراس ققرعوها . فنهض رجال الحرس من مراقدهم وتسارعوا الى الكنيسة وهم يمتجبون . . وكان قوم منهم لم يرقدوا بعد ، لانهم دُعوا بعد الوليمة الى منزل الامير اثناسي فيازيمسكي وأقاموا عنده الى ذلك الوقت يشربون ويطربون . . فما سمعوا قرع الاجراس حتى هبوا الى اثوابهم

الرهبانية فارتدوها وأقبلوا وهم يتهادون في مشيهم من السكر، وقد ارتفع منهم صراخ يصم الآذان وعلا ضوضاؤهم ..

وكان الملك يسير امام حاشيته وهو يقرع صدره ويقول : يا الله ارحمني انا الخاطيء ..! وأرح نفوس الموتى الذين قتلهم ظلماً ..!

ولما وصل الى فناء الكنيسة لم تقو رجلاه على حمله فهوى بجسمه الى الارض . فبادر اليه بعض الحراس وأنهضوه ودخلوا به الى الكنيسة . وكانت هناك حاضنته أنوفرفنا فاستقبلته وهي تقول - سكن روعك ياسيدي ولا تقنط من رحمة الله ..!

ولم يمض الا القليل حتى غصت الكنيسة برجال الحرس .. وكان السجناء قد سمعوا الاجراس وأنغام المرتلين في الكنيسة ، فعلموا ان الملك يصلي ، فطفقوا هم ايضاً يصلون ويسألون الله ان يجعل في قلبه الرحمة والشفقة ، ويفتح لهم باب القرج والخالص منه ومن مالبوتا انظالم ولو بموتهم

وكان الاولاد الصغار في منازل القرية قد استيقظوا ايضاً على صوت الاجراس خائفين باكين ، وكانت والداهم يفرغهم باسم (مالبوتا) لاسكاتهم ، فكان الطفل اذا سمع هذا الاسم الرابع يكف حالاً عن البكاء ويخلد الى السكينة وهو يتشبث باثواب والدته مضطرباً مرتعشاً

الفصل السادس عشر

الوساية

ولما كان الصباح عاد مالىوتا الى منزله فافتقد ابنه فلم يجده . فطار
رشده لانه أيقن ان مكسيم قد هجره وانه لن يراه بعد . وقد وقع هذا
الحادث عنده أسوأ وقع . وهب من ساعته فأتقذ من يبحث عن الفتى في
جميع ضواحي القرية . ولم ير من اهل المنزل من ينتقم منهم لذلك الا
السوّاس ، فقد اخذهم بالاهمال والغفلة وزجهم في السجن لينزل بهم اشد
العقوبات . . ثم امتطى جواده وسار بنفسه يتفقد جميع الطرق والمسالك
وهو يكاد يحن غيظاً ، ولا يدري كيف تكون حاله امام الملك ، أنخبّره
بفرار مكسيم ، ام يكتّم الامر عنه الى حين ؟ . .

وقبما هو في هذه الحالة من الحيرة والغضب سمع وقع حوافر خيل
ورامه ، فالتفت واذا به يرى ولي العهد يصحبه ثيودور باسماثوف وجماعة من
رجال الحرس ، وكانوا راجعين من نزهة الصباح ، وقد ارتفعت جلبتهم وعلا
صياحهم وضحكهم

وكان ولي العهد قد أبصر مالىوتا ، ولم يخف عليه سبب كآبته وهمه .
فوخز جواده وأسرع اليه وهو يقول بتهكم - أحبيك بملء الاحترام ايها
النبيلى مالىوتا ، وأبلغك اننا قابلنا الان رجالك وهم يفتشون عن مكسيم !
فماذا حدث ؟ . . فهل أرسلته الى موسكو ليحمل اليك قبعة النبلاء ؟ . .

قل هذا وفقه ضاحكاً

وكان مالىوتا حالماً أبصر ولي العهد قد ترجل ووقف مكشوف الرأس
احتراماً له ، وهو يخفي في صدره أحر من نار الجحيم
وكان ثيودور باسمايوف قد اقترب اليه ايضاً وهو يضحك ويردد كلام
ولي العهد مسهزئاً

ولبت مالىوتا واقفاً حتى ابتعد ولي العهد بموكبه ، فثرت على وجهه
سحابة غيظ وانتقام لوتته بالوان الحرباء . ثم عاد الى جواده فامتطاه وهو
يصرف باسنانه ، وقد لمع في عينيه برق الانتقام من ولي العهد وباسمايوف
واقسم ان يشفي غليل صدره منها . . ورجع بعد ذلك الى قصر الملك وقد
أخفق مسماه وعظم عليه رحيل ابنه وضاعت الدنيا في وجهه
وكان الملك اذ ذاك جالساً في مخدعه كئيباً حزيناً ، وقد أثرت فيه
حوادث الليل تأثيراً أليماً ، فاكفر وجهه وساء خلقه

ولكنه لم يعتبر بشيء مما رأى ولم يتمظ ، وقد عزا جميع تلك الرؤى
والغرائب الى الشيطان وزعم انه قام يحاربه لينصر عليه اعدائه ، فأضمر عدم
المبالاة وصمم على متابعة القسوة والبطش الى ان تتم له الغلبة على اعدائه
أجمعين ويقمع اهل الشر ومضربي نار الفتنة ولو كانوا أوفاً . وكان سوء
الظن قد ملأ نفسه فاصبح يرتاب حتى بأقرب الناس اليه وأعز ذويه
واخصائه ، وأصبح لكل حركة من حركاتهم ونكل كلمة من كلماتهم او
نظرة من نظراتهم معنى خاص يؤوله ويفسره كما يشاء خاطره الضعيف
وتريده نفسه المريضة . .

وانه لفي هذه الحالة المزعجة اذ دخل عليه مالىوتا وقد كتب امره وأخفى
ما به . فارتاج الملك الى محبته كمعاداته في مثل هذه الاحوال وأقبل عليه

يستخبره عن المجرمين وماذا استطاع ان يقف عليه من اسرارهم وخفياهم
فقال ماليوتا - لقد وقفت يا مولاي على امور كثيرة حرية بالبحث
والاستقصاء ، لانها تميظ لنا النقاب عن علائق هؤلاء المجرمين بغيرهم من
الخونة والمتآمرين . غير ان هناك امراً واحداً عظيم الاهمية لم أستطع ان
أحلم على كشفه . فقد أبوا كل الآباء ان يفوهوا بكلمة وها بوا ان يصرتوا
باسم الرجل الذي حرضهم ولا يزال يحرض امثالهم على المعصية والمكيدة
لجلالتك . ولا جرم ان هذا الامر هو الغاية الاولى التي نرمي اليها في جميع
ابحاثنا ونحرياتنا ، لاننا انما نبغي ان نستأصل ائقنة من اساسها ، وهذا ما
دعاني الى بذل الجهد حتى ظفرت بأمنيتي

فلما سمع الملك ذلك جحظت عيناه وجمد

واستأنف ماليوتا حديثه فقال - اجل يا مولاي فانها الحقيقة ولا بد
ان تظهر معها بالغ المناقون في اخفائها . فكم صدرت اوامرك بالسجن
والعقوبات الشتى ، وليس لك من غاية سوى تطهير البلاد من كل خيانة
ودسيسة ، غير ان عدد الخونة واصحاب الفتن على الرغم من كل ذلك يزداد
كل يوم ، ولن يتأني لك استئصالهم ووضع الحد لكل ذلك الا اذا فتح
عليك بوسيلة اخرى تؤدي الى النجاح

فدهش الملك . ولكنه لبث صامتا يبي الحديث ولا يتحرك لثلا
تفرته كلية

ومضى ماليوتا في حديثه فقال - والذي يلوح لي ان سبب ذلك هو
انك تقطع من الخيانة اغصانها واوراقها ، وتدع الجذع وشأنه ، فلا تمسه ،
فيزداد على الايام تأصلاً وقوة

فلم يفهم الملك ما قصد اليه ماليوتا ، وقد اضطرم قلبه بحب الاطلاع على هذا السر الجديد

فقال ماليوتا - تذكر يا مولاي ايام كنت مريضاً وعلى شفا الخطر كيف ان النبلاء لم يكثرثوا لك ، لانهم كانوا يتوقعون موتك بفارغ الصبر ليملكوا اخاك فلا ديمر . . غير ان الله الرحيم لم تخف عليه مؤامرتهم هذه ، فن عليك بالشفاء التام ، وبذلك أفعم نفوس عبيدك الامناء بهجة ، وأحبط سعي خصومهم الاشرار ورد كيدهم الى نحرم

فأجفل الملك لهذا الكلام وقال في نفسه : « فهذا اذا هو منزى الرؤى والاشباح التي تراءى لي حيناً بعد حين وكان مشهدها الاخير الليلة البارحة .. فان عدو البشر انما أراد ان يغشي على بصري لئلا أطلع على دسائس اخي . ولكن أمنيته لن تتم ، لاني سأكبح جماحه وأخذ انقاسه ! .. »

ولم يلبث بعد هذا التأمل ان عاد فأقبل على ماليوتا وهو يكاد يتميز من الغضب وقال - هات ما عندك عن اخي ، ولا تخف شيئاً

فقال ماليوتا وقد أيقن بالنجاح - كلا ياسيدي الملك . فما كلامي الان عن اخيك فلا ديمر ، لانه لا يضمر لك سؤاً ، وقد انحاز عنه النبلاء فلا يستمدونه الان في قضاء أوطارهم الفاسدة

قال - فمن اذاً تنني بكلامك ؟ ومن هو هذا الذي سولت له نفسه مثل هذه المخاطرة ؟

قال - انت تعلم يا مولاي ان اخاك قد كاد يحاري النبلاء في افكارهم ، الا انه تبصر في العواقب ولم يعرهم اذناً صاغية . . ولم يكن في احجامه هذا

ما يردع النبلاء او يحولهم عن عزمهم ، فاختاروا لهذه المهمة شخصاً آخر ،
كان من سوء طالعهم أنه استسلم لارادتهم وطمع في الملك
فصاح الملك وقد برق ورعد - ومن هو هذا ؟ من هو ؟ ..
قل بالمجمل ! ..

فقال ماليوتا وهو يرتعش وجللاً - ولكن ما كل ما يعلم يقال يا مولاي
ولا سيما في مثل هذا الموقف

وكان الملك قد نقد صبره .. فقبض على عنق ماليوتا بكنا يديه واخذ
يهزه بعنف ويتهدهه بكل ويل وهو يقول - من الرجل ؟ .. أذكر
اسمه حالاً ! ..

فقال ماليوتا بنغمة المستعطف - ولكنني أسألك يا صاحب الجلالة
ان تمفو عنه ، لانه لم يرتكب هذا الامر الا لصغر سنه .. فهو لا يفهم خطر
هذا التواطؤ ، ولا يدري الى اين تقوده قدماءه .. وما ذنبه الا انه اتصل
بالنبلاء وأصنى اليهم ، فساقوه بأرائهم الخبيثة الى هذا السبيل
فوجم الملك . رقد هامت نفسه وأسقط في يده ..

وادرك ماليوتا ان ساعة التصريح قد دنت فقال - لا تذهب بعيداً
في البحث عن الرجل يا سيدي . ولا تتبع نفسك للكشف عن هذه الخيانة
خارج قصرك .. فان عدوك هو أقرب الناس اليك ، وهو يأكل ويشرب
ممعك على مائدة واحدة ومن صحفة واحدة وكأس واحدة ، ولباسه من لباسك
وكان الملك يسمع وينتفض وهو كأنه المصفور بلله القطر ، وقد راعه
الامر جداً .. ولبث حيناً لا يدري ماذا يقول او ماذا يفعل ..

وفي هذه اللحظة سمع من ساحة القصر اصوات طرب وغناء تلتها ضجة

ولفظ .. وذلك ان ولي العهد كان قد وصل برجاله الى القصر ، فأبصر في الساحة جمهوراً من تجار الاقاليم ، جاءوا ليقدموا للملك « الخبز والملح » رمزا الى صحة عهدهم وصدق عبوديتهم وليسكوا له مساوى ، رجال الحرس وعيّنهم في بلادهم

فلما أبصروا ولي العهد ارتفعت اصواتهم بالهتاف والدعاء وجثوا امامه . فتقدم اليهم يسألهم عن شأنهم فقالوا - جئنا نرفع الى جلالة الملك ظلامتنا وشكوانا من رجال الحرس ، لانهم يعاملوننا بأشد ضروب القسوة ، وقد نهبوا خيراتنا وسبوا نساءنا واولادنا

ففظ اليهم ولي العهد شزراً وقال بازدرآء :

انصرفوا الى بلادكم .. وسأكلم والدي بالامر

فقالوا - أقر الله عينيك يا مولانا وأثابك عنا وعن الرعية خيراً

وكان ولي العهد لا يزل في صهوة جواده ، وبازرته يودور باسماوف ، وامامه اتجار جانوز ، وقد دنامنه حدهم يحمل بين يديه صحيفة الخبز والملح وكانت ماليوتا ، حين سمع اصرات التجار في حال وصول ولي العهد وحاشيته ، قد أطل من النافذة فسمع ورأى كل ما جرى .. فلما قدم التجار الخبز والملح الى ولي العهد كما سبقت الاشارة ، قل مأيوت للملك همساً وهو يشير بيده - أنضرياً سيدي ! اني لا أكاد أصدق عيني ... فكأز الناس قد انبروا يهتفونه بسرير المملكة من الان .. ولعل ثيودور باسماوف هذا ، وهو صديق ولي العهد الحميم كما تعلم ، من اول المحرضين له على الخيانة والنافذين فيه من هذه السموم الخبيثة

وما وقع بصر الملك على ذلك المشهد حتى اهتزت اعصابه غضباً

وتطايير الشرر من عينيه وققد وجهه كل هيئة بشرية . . حتى ان مالىوتا قسه ارتاع وجمل ينتفض من شدة الخوف والهلع . . غير ان الملك لم يبطىء ان تغيرت ملامحه ، فابتسم وقال لمالىوتا وهو يشير الى ولي العهد - اني أدفعه الى يدك لتستأصل في الحال هذه الجرثومة ، جرثومة الفساد والخيانة ، من المملكة . .

فاخفى مالىوتا في صدره سروراً عظيماً وقال في رياء وخبت - ولكنه لايزال صغير السن ايها الملك . والتبعة كلها هي على النبلاء الذين أغووه . . فاسمح لي ان أشفع اليك فيه هذه المرة فقط ، فسى ان يميده ذلك الى رشده

وكان الملك قد تصلب قلبه . فنظر الى مالىوتا نظرة اخترقت صدره وقال - حسبك من مثل هذا . . فقد حكمت باهلاكه ، وما عليك الا ان تنفذ الحكم . . وليبق كل ذلك مكتوماً عن كل انسان

قال - اذا كانت هذه ارادتك فقد قضى الامر

قال - ويجب ان تبادر الى العمل من هذه الساعة ، لاني أكره التسويف . . فهو اليوم سيخرج الى الصيد والقنص في جهات « غياض الجاهلية » . وهناك يجب ان تقتاله وتتركه قليلاً مهشماً وتطرح جثته بين الادلغال ، حتى اذا رآه في هذه الحالة احد لا يشك في انه سقط عن جواده اتفاقاً فقضى نجه

فسلم مالىوتا وخرج وهو ثمل بنجاح مأربه . ولبث الملك بعد انصرافه واقعاً في مكانه مشرد الافكار تائه البال ، وقد بلغ منه الغضب والتعب . .

ثم اتجه الى الايقونات وصور القديسين المعلقة على بعض جدران الخدع وجثا امامها واندفع يصلي ..

اما ما كان من امر ماليوتا فانه بحال خروجه من لدن الملك ذهب فاجتمع بمتي خوميالك وأقام معه ساعة يتساران ويرسمان الخطة التي يجب ان يتبعها .. وكان متى هذا أشرس جميع رجال الحرس وأدهام وأكثرهم عيناً وفساداً . وكان ماليوتا يجب به ويكل اليه كبار العضلات الجنائية ، فلا يبطىء ان يحطها في اسرع وقت وعلى احسن وجه ، دون ان يحاذر خطراً او يحسب للمواقب حساباً .. فاذا أراد ماليوتا احراق قرية او سبي امرأة او نهب بيت او الفتك بأحد او غير ذلك من الفظائع لم يكن يعتمد في شيء من كل ذلك الا على متى اولاً . ولما كان هذا كلفاً بالنكرات فكان يتلقى تلك الاوامر بسرور ثم يقضيها بحسب ما يريد سيده ..

وكان بعد هذا الاجتماع السري ببضع ساعات ان ولي العهد قد خرج للصيد والقنص في غابات موسكو ، ومعه جمهور من رجال الحرس وفي جملتهم ماليوتا سكوراتوف ومتي خوميالك .. ولم يكن يسمع في تلك الجهات غير نباح كلابهم وأزيز رصاص بنادقهم . وكان كل منهم مهتماً بنفسه لا يكاد يعبأ بغيره

ففي هذا الوقت انفصل عن الجماعة ماليوتا ومتي . وقد قصدا مكاناً في الغابة وأقاما يرقبان ولي العهد باهتمام وتيقظ ، فلما رأياه منفرداً وقد أوغل في الغابة ، بادرا اليه وأخذوا يسيران الى جانبيه وهما يفكهانه باحاديث الطير والوحش ونوادير الصيد ، الى ان أصبحا في مأمن من الرقيب ، فاقضيا عليه وفي اسرع من البرق انزلا عن جواده ، فأمسك متى بذراعيه ، ووضع

ماليوتا في فيه منديلاً منعه الكلام . ثم أعاداه الى صهوة الجواد ، وقد اوثقاه في السرج وجلا على رأسه قبعة كبيرة تستر معظم وجهه . وسار ا به بعد ذلك جهة « غياض الجاهلية » في أقصى تلك الغابات ، وهو بينهما طائع متقاد كالنمجة الى الذبح . ولم يسيرا كذلك الا قليلاً حتى انضم اليهما عشرون فارساً من رجال الحرس ، كان ماليوتا قد أقامهم في مكن ، وقد تقلدوا الاسلحة وساروا يتبعونهما صامتين دون ان يعبأوا بشيء من امر الفارس الاسير

وظل جمهور رجال الحرس منهمكين بالصيد ، وقد انتشروا في اماكن مختلفة سحيفة الاطراف كثيرة الادغال ، فلم يشعر احد منهم بغياب ولي المهد وسار ماليوتا برجاله سيراً حثيثاً وهم لا يلبون على شيء ، وقد اقتربوا من غياض الجاهلية ، وهي على مسافة نحو ثلاثين كيلو متراً من قرية الكسندروفا ، وتحيط بها من جميع الجهات غابات عظيمة . وكانت السواد الاعظم من الروسيين يروون عن هذه الغياض اخباراً غريبة وحكايات مخيفة ، ويزعمون انها مأوى جماعات كبيرة من الالباسة والجن والمردة والنفاريت والارواح الشريرة على اختلاف انواعها واسماها

الى هذه الغياض ساق ماليوتا ابن الملك يوحنا الرابع للايقاع به بأمر والده نفسه . .

وفي هذا الوقت كان قوم آخرون - من غير رجال الحرس - محتشين في بقعة فسيحة بين اشجار الغابة المحدقة بالغياض المذكورة ، وليس لهم علم بشيء مما اراد ماليوتا ان يمثله

الفصل السابع عشر

برستن ورنقاؤه

كان اولئك الناس منتشرين في تلك البقعة بين اشجار البلوط والسنديان ، وقد تسلحوا بالسيوف والخناجر وارتدوا ملابس شتى من الصوف والكتان ، وبعضهم لبس الخمل الموشى بالذهب . وكانوا منقسمين جماعات جماعات . وقد اشتغل بعضهم بتجهيز الطعام . ولها آخرون بالامب على انواعه . وتآلب جمهور حول رجل منهم طاعن في السن كان يعرف بينهم باسم « العم كرشون » وقد استند الى جذع شجرة كبيرة وجعل يطرف القوم بضروب الاخبار والحكايات ، وهم مقبلون عليه يسمعون كلامه بمنتهى الاصغاء واللذة

وفيما هم كذلك اذ جاء من جهة الطريق ثلاثة شبان لاسلح لديهم ، يفودهم فتي من القوم ، وقد تقدم حتى مثل امام العم كرشون وقال له وهو يشير الى الشبان - انهم يريدون الانضمام الينا

فأمسك الشيخ عن سرد اخباره وأقبل على الغرباء يسألهم عن شأنهم . فنظروا اليه وقد ملكتهم الدهشة ، ووقفوا حيارى لا يفوهون بكلمة

فقال لهم الفتى الذي قادم - ان العم كرشون يسألکم عن حالکم ، ومن اين انتم وماذا تبتنون . . فأخبروه بكل شيء . . لان هذا هو اول ما يقتضيه نظام عصابتنا من كل من يروم الانضمام اليها

فقال احد الثلاثة - انا من جهات موسكو
فسأله كرشون - ولماذا هجرت بلدك وجئت الينا ؟
فقال -- لان رجال الحرس لم يقوإلي شيئاً . فقد دمروا منزلي
واحرقوا مقتنياتي

وقال الثاني - وانا كذلك .. جئت أبحث عن اهل لي
فضحك الحضور وقال له بمضهم - واي اهل لك في هذه الغابة
حتى تبحث عنهم ؟

فقال - ان رجال الحرس قد قتلوا والدي وجدتي واخواتي واخوتي ،
فلم يبق لي من تجمعني واياء صلة القربى ، فقلت لعل في الانضمام الى
عصابتكم فرجاً . . وهكذا أقبلت اليكم لاكون اخاً لكم وتكونوا لي اخوة
فقالوا - اهلاً بك وسهلاً . فانت منذ الان اخونا ، لك مالنا وعليك
ما علينا . ولعل الله يسهل لنا الاخذ بئارك ونأرا اكثرنا من اولئك اللثام ،
لانتا جميعنا في هذا المعنى اخوة ، وما فينا الا من اصابته داهية من مثل
ما أصابك . . فصبراً ايها الاخ فان الله مع الصابرين

ثم التفت كرشون الى الشاب الثالث وقال - وانت من اين ايها
الصاحب وما بغيتك ؟

وكان هذا الشاب ضخيم الجثة كبير الرأس طويل القامة مقتول العضل
تدل هيئته على منتهى السذاجة والبله . فلما سمع كلام المم كرشون نظر اليه
طويلاً ثم عرك جبينه وقال - وانا كرفيتي الاول من بعض القرى القريبة
من موسكو

فقال كرشون - ولماذا جئت الى هنا؟

قال - لان رجال الحرس اختطفوا عروسي

- وكيف اختطفوها؟

- جاءوا واختطفوها

- وبعد ذلك ماذا جرى؟

- لم يجر شيء سوى انهم اختطفوها

- فلماذا لم تجر في اثرهم وتخلصها منهم وانت على ما يظهر من

الجبابة الاشداء؟

- لم اتمكن من ذلك . لانهم اخذوها وساروا بها بسرعة البرق . .

وقد احدثت غيظاً وتوعدتهم بالانتقام

فقهقه الحضور لهذا الكلام وقال بعضهم - ولكن خطبك ليس

بذي بال باصاح لالك تستطيع ان تجد كل يوم عروساً غير عروسك

فسكت الشاب وهو يتسم تارة ويقطب اخرى . ورأى القوم في

حركاته الغريبة ما حجب اليهم مما زحته . فدنا منه بعضهم واخذوا يتجاذبون

من جانب الى جانب ، وهو صامت ينظر اليهم ولا يدري أينضب ام يصبر

واذ رأوا منه ذلك ازدادوا جرأة عليه وهم يضحكون ويقهقهون

فنظر اليهم شزراً وقال - والان؟ أفلا تدعونني وشأني؟

فلم يبالوا . وقد أحاطوا به من كل جانب ، يعبثون به ويتدافعونه ،

وهم يرجون ان يثيروا غضبه

وأراد هو ان ينضب . ولكنه عاد فصبر ، لانه لم يجد بعد سبباً

كافياً لذلك .. وكانت هيئته تزيد القوم جرأة عليه وتغادياً في الميث به .
وكانوا يصيحون بلا انقطاع - ما بالك لا تنضب ايها الابله ؟
فانتصب الشاب وانتفخ وقد حدجهم بنظرة غضب وقال - والان !
فن يمسني فلا يلومن الا نفسه
فملت اصوات القوم بالضحك - وتقدم احدهم فدفعه بنف وقال -
هات فأرنا بأسك !

فبرق الشاب ورعد . ثم حسر عن ساعديه وتقل في كفيه . وأخذ
يضرب يديه ورأسه ويرفس برجليه ويمجول بين القوم كالمجنون . وهم يفرون
من امامه . وهو يتبعهم بحقة الدب ويواصل الضرب والرفس بمنة ويسرة
حتى شفى غليله ، فوقف بتمام السكينة وهو يضحك ويمرّك جبينه كأنه لم
يحصل شيء البتة . . وكان في اناء هيجانه قد قلب عن النار قدور الطعام
وكسر بعض الآنية

ولما سكن الهياج أهدق به القوم ثانية وقد دهشوا لشجاعته وقوته .
فقال له بعضهم - ولم لم تظهر مثل هذا الغضب يوم جاء رجال الحرس
واختطفوا عروسك ؟ أمّا كانوا باءوا بالفشل والخذلان ولاذوا بالفرار من
وجهك ولو كانوا الوفا ؟ .. والان قل لنا ايها الفتى الباسل ما اسمك ؟

فقال وهو يمرّك جبينه ويضحك - اسمي توما

فقالوا - لله درك يا توما . فانت في الحقيقة بطل ولا ندلك . وسوف
يكون لك في المعصاة شأن وأي شأن ! ..

وكان بعد ذلك أن جاء احد اولئك القوم وكان في جهة اخرى من

الغابة وقال - ان الزعيم يريد ان يطرفنا بأخبار مبعشته الساقطة ووقائمه في
جهات نهر فولغا . فمن أراد ان لا يفوته شيء من ذلك فليسرع !
وحالما سمع القوم هذا الكلام تركوا كل شيء وأسرعوا الى حيث كان
الزعيم ، وهم يتشوقون الى مثل هذه الاحاديث ، ولا سيما ما كان منها وصفاً
لشجاعة او نزال

وكان الزعيم جالساً في ظل شجرة باسقة الاغصان ، وقد لبس درعاً تحت
صدره موشاة بالذهب . وكان على رأسه خوذة جميلة وفي احدى يديه فأس
ضخمة . وهو عريض المنكبين متوسط القامة تلوح على وجهه سيماء البسالة
والالفة ولاقدام . ومن تفرس في وجهه قليلاً عرف انه برستن صاحبنا القديم
الذي التقاه الامير نكيتا في قرية الدب وكان موثقاً مع رفيقه (انعم كرشون)
فخاهما ، وكان له معهما ما ذكر في حينه . وبرستن هذا هو زعيم هؤلاء
المصوص ، وكانوا في كثير من الاوقات يحشدون في تلك البقعة يربش اشجار
الغابة . ومن هناك يكمنون بانتظار ويترصدون الفرص للبش برجال
الحرس حينما استفردوهم وفي أي وقت اتفق لهم الظفر بهم

ولما اجتمعوا الان حول الزعيم هش لهم وبش واخذ يسرد عليهم نوادر
كثيرة عجيبة مما اتفق له وهو في جهات نهر فوانا العظيم . وقد روى لهم
طرفاً من اخبار صديق له جبار يدعى يرماك وهو زعيم عصابة كبيرة قوية
من المصوص تقم في تلك الجهات . وقص عليهم من غرائب هذا الجبار
مالا يكاد يصدق . كقولها مثلاً انه كان يسطو وحده على قافلة برمتها فيسلبها
اموالها ويفرق رجالها شذر مذر . . . وانه مرة تهدد سفينة تجارية كانت
تمخر في النهر ، فوقفت مستسلمة وسلب منها ما أراد . . . وروى غير ذلك

من امثال هذه الغرائب التي ذاعت عن هذا الجبار في تلك الاصقاع ، حتى خافت الحكومة سطوته وخشي الناس بأسه ، وأصبح اسمه مضرب المثل في الاقدام ...

ومضت ساعة وبرستن مسترسل في الحديث ، واللصوص من حوله يسمعون ويتعجبون

وانهم لكذلك واذا بأحدهم وكان بعيداً في بعض اطراف الغابة قد أقبل مسرعاً وقال للزعيم - كنت ياسيدي منذ هنية أرقب الطريق فأبصرت نحو عشرين فارساً من رجال الحرس ...

فقاطعه برستن بقوله - والى ابن وجهتهم ؟

قال - رأيتهم جادين في طريق غياض الجاهلية

فنهض برستن من ساعته وقد ظهرت على وجهه علام الاهتمام وقال للقوم - ليتبعني عشرون رجلاً منكم . وليكن عشرون آخرون بقيادة كرشون في الادغال القريبة من الفياض ، حتى اذا بدت مني اشارة اليهم اورأوا اننا لم نظفر بالفرسان المذكورين او طال الانتظار فلينجدوننا

قال هذا وسار من ساعته ، وفي اثره عشرون لصاً يسبقون الرياح وعلى وجوههم امانر الفرح والطرب .. وانفصلت فرقة اخرى قوامها عشرون لصاً آخر سارت على مهل بقيادة كرشون لتكن بالقرب من الفياض ، وكان منها قوما « الباسل » الذي اشتهر امره بين اللصوص بحال انضمامه الى عصابته . وكان سلاحه هراوة ضخمة اتقاها من الغابة ، وقد ألقاها على كتفه وسار وراء الجماعة وهو يتأيل من جانب الى آخر

الفضل الثامن عشر

« الامير نكيتا وبوريس غودونوف »

بينما كان ماليوتا سكوراتوف ومتى خوميالك يسوقان ولي العهد الى غياض الجاهلية ، واللصوص في الغابات المحيطة بهذه الغياض على ما وصفنا ، كان الامير نكيتا في منزل بوريس غودونوف ، وقد جلسا الى مائدة عليها الوان الطعام والشراب ، وهما يتحدثان ويتبانهان الأفكار والمواطف ومضت عليهما ساعات لم يشعرا بمرورها ، الى ان ساقهما الحديث الى ولبة الامس وحوادث الليل بعدها ، فقال الامير - ما هذا الذي جرى للملك الليلة البارحة حتى امر فقرعت الأجراس ، وهب أهل القرية مذعورين ، واجتمع رجال الحرس للصلاة بعد منتصف الليل ؟ . . . فهل ذلك أيضاً من مقتضيات نظام هذه الفرقة المباركة ؟

فهر بوريس ككتفيه وقال - لقد شاع على اللسان ان الملك يوحنا الرابع قاس ، وانه قد تعدى كل حدود الشدة في معاقبة المجرمين والخونة من رعيته . . . وهو ولئن كان كذلك بعض الاحيان ، لكنه يحزن ويندم ويبكي بعد كل عقاب ، ويقضي الساعات الطوال في الصلاة عن نفوس الذين تنفذ فيهم احكامه . . . وقد يستدعي احياناً رجال الحرس باسهم لئلا هذه السنوات الثيلية كما فعل امس

وأدرك الأمير ان بوريس غودونوف كثير الحذر في كلامه . فلم يستغرب ولم يدهش ، لعلمه بالظنون والريب التي أضرم بها ذلك الجور ، وقد بات فيه كل رجل من اخصاء الملك جاسوساً على غيره ، لا يفتأ يضمركه

السوء وينصب له من جنائل المكر ، الى ان يذله او يبعده من طريقه ، وهو قد يتوصل لذلك بجميع ضروب المحرمات وسائر وسائل النفاق . . . وكان الامير يعرف بوريس هذا قبل الحرب الأخيرة التي خاض غمارها في بلاد لنفا ، وكان بوريس في اول عهده بمخدمة الملك ، وقد استحسنت بينهما وقتئذ عرى الصداقة والاخاء ، وكان الامير يعجب بذكائه وسعة اطلاعه ، وقد رأى فيه الآن تغيراً وتكناً لم يعهدهما فيه من قبل . . . ولكنه رأى هذا التغير والاطلاق في كل شيء وفي كل رجل . . . فطوى كشفاً عن الامر وتابع حديثه فقال - ولكن لا تنس ايها الصديق اني عرفت الملك كما عرفت انت ، عرفته في القصر وفي الكنيسة ، عرفته في خلوته وفي اجتماعه برجال امته . . . والذي تحققتة الآن ان الأحوال كلها في هذا البلاط قد تغيرت وساءت ، فساءت معها أحوال البلاد كلها وعمت الفوضى ، وأن الملك قد تبدلت اخلاقه واطواره ، ففسدت حاشيته ، وكان لذلك اسوأ أثر في كل شيء . . . فمن هؤلاء رجال الحرس الذين اصطفاهم الملك ليكونوا أخص رجاله ودرعبان ديره ؟ ألبسوا كلهم ذئاباً خاطفة بل شراً من الذئاب ؟ . . . ومن هذا ماليوتا سكرراتوف وثيردور بسماتوف وباسيل غريازنوي ومن على شاكلتهم ، حتى نالوا هذه الخطوة في عيني الملك ، وصارت اليهم أزمة البلاد ، وأصبح قولهم القول الفصل في الامور ، وهم من رعايا الناس وحنالة لامة ؟ . . . وها ان لي يومين فقط في هذه الجهات ، ولكنني رأيت من فظائهم وكبارهم ما تقشعر لهوله الابدان وتحار في ادراك كنهه العقول . . . وانظر مثلاً الى ماجري لي ساعة وصولي الى هنا . فقد دخلت قصر الملك ، بعد ان قضيت خمس سنوات في الحرب وعدت منها ظافراً منتصراً ، فاستقباني

بعض اخصاء الملك بدعارة لا مثيل لها فقد أطلقوا علي دبا من دبة القصر
كاد يوردني حتي لولا شهامة فتى لا أعرفه وهو من رجال الحرس أيضاً كما
ظهر لي من بذلته ، ولكنه هجم على الدب فصرعه ثم اختفى من امامي دون
ان يذكر اسمه

فضحك بوريس وقال - نعم وقد سمعت بهذا الامر ونحن في الوليمة ..
اما الذي اطلق عليك الدب فهو ثيودور باسماوف بعينه ، وهو في الحقيقة
من اهل الدعارة والتهتك .. ولكنه صديق ولي المهد ونديم الملك الخاص
وليس لك ان تنتظر من مثله الا مثل هذا

قال - ولعلك تعرف ايضاً الفتى الذي أنجذني وصرع الدب ؟
قال - نعم عرفته . ولا يمكنك ان تتصور من يكون . ؟ فهو مكسيم
بن مالبوتا سكوراتوف

فجذبت عينا الامير وقال - وهل يمكن ان يكون هذا الفتى ابن
مالبوتا ، والفرق بينهما كالفرق بين الملائكة والشياطين ؟ ..

قال - هو ما ذكرت .. ومكسيم هذا قد دافع عنك في موقف آخر
هو اشد من موقفك بازاء الدب .. فقد خالف الملك نفسه في حكمه عليك
وخالف رأي ابيه وآراء جميع الحضور ، وأظهر براءتك بجرأة غريبة لم يعهد لها
رجال البلاط ولا يجترئ على مثلها احد ، ولكنها اعجبت الملك اخيراً ،
وكان من امرها اني اغتنمت الفرصة قبل فواتها واسرعت فاقذتك ، وكان
بعد ذلك ما تعرف

قال - ان لك عندي ايها الصديق يداً لن انساها . واما مكسيم ..
هذا الفتى العجيب الذي قاوم اهل البلاط بأسرهم وخاض بحياته في سبيلي

وهو لا يعرفني فقد صار له في قلبي منزلة عظيمة .. ويجب ان اجتمع به
قبل عودتي الى موسكو وأشكره على منيعه

قال - ولكن لا سبيل الى ذلك ، لانه خرج هذه الليلة من بيت
أبيه ومن قرية الكسندروفا كلها على ان لا يعود .. وقد علمت ذلك اتفاقاً
في هذا الصباح من بعض رجال ولي المهد

قال - وكيف خرج ؟ .. لا شك ان لذلك اسباباً خطيرة

قال - نعم . وأهمها ذلك البون الشاسع بينه وبين ابيه .. فهو يكره
فرقة الحرس ، وابوه يريد لها لانه من زعمائها العظام ومن احب الناس
للمناصب العالية .. ولذلك فقد كره مكسيم خدمة الملك وكره اباه وكره
الوطن كله .. ولما اظهر الملك أمس رغبته في ترقيته ، وهو انما اراد ذلك
ليكافئه على جرأته وصواب رأيه ، ابي وقر ورفض نعمة الملك وأثر ساحات
الحرب على الدعة والهناء في القصر

قال - وحسناً فعمل .. وذلك خير له من البقاء مع رجال الحرس ومعاشرته
هذه الزمرة الشريرة .. واما انت ! .. انت ايها الصديق .. فقد اذهاني
امرك ! .. امك شهم ابي وتحب الامة والبلاد ، والجميع يتوسمون فيك
الخير والصلاح . ولكنك تنظر الى توغل رجال الحرس في شروهم ولا تكتث
لشيء ، كأن الامر لا يعنيك ! .. فلماذا لم تنه الملك عن امثال هذه المفاصد
وتبين له سوء المصير ؟ .. بل كيف تستطيع ان تخمد صوت ضميرك وتتغاضى
عن هذه الاعمال الشائنة ، وليس من نتيجتها الا البوار والدمار ؟ ..

فتبسم بوريس وقال - واني لي ان اتعدى حدود خدمتي وواجباتي ؟
فالملك حر في اعماله وقد نصبه الله علينا . فهو حر ان يدني من بلاطة من

يشاء . ويقضي عنه من يشاء . ومن انا حتى أجعل نفسي رقيباً عليه ومرشداً له ، وأتطاول الى ما لا يقبني الا الهوان ؟ . . ان فرقة رجال الحرس قد نشأت ونمت بامر الملك واختياره . وقد رأى هو ان ذلك حسن ، فليكن كما رأى وأراد . . أفليست المملكة كلها للملك ؟ . . فالذي يتخذ منها لنفسه فهو له ، والذي يقيه للرعية فهو لها من كرمه واحسانه

قال - ولكن فرقة رجال الحرس هذه هي الضربة القاضية على الامة ، وهي تؤدي حتماً بزع الدولة وسطوتها ، فهل من العدل ان يترك لرجالها الجبل على الغارب ، ينهبون البلاد ويحتاحون العباد بهذا التوحش وهذه الهمجية ؟ . ان الترابها الصديق قد تسلطوا على البلاد دهرًا طويلاً ، ولكنهم لم يمشوا فيها كما يفعل هؤلاء الحراس الملاعين . . وهم مع هذا لا يؤخذون بجريمة ولا ينزل بهم عقاب . . أفما ترى بعد هذا من المفروض على من كان مثلك حازماً على رضى الملك ان يظلمه على الأقل على هذه الاموال وانشدائد وينذر بهواقبها ؟

قال - ان شرور العالم لا تحصى ايها الأمير ، وليس جنود الحرس هم وحدهم علة هذه الشرور . . وهبني قوت انتقد اعمال هؤلاء الناس امام الملك ، فماذا تكون العقابة ؟ . . لا شك ان جميع رجال الخاشية يهبون حينئذ في وجهي ، ولا يلبث الملك ان يتغير علي وينبذني

قال - ولكنك تكون قد فعلت الواجب وقت بما يقتضيه الضمير والشرف . . لانه حرام ان نرى الابرياء يمزقون بأنياب الشرار ويتقربون في سعي النار ولا نعد يدلاً لاهلنا

قال - ولكنني لا أحجم عن النضال عن الحق كلما استطعت الى ذلك

سبيلاً . . نعم اني لا أعارض التيار في سيره كما تفعل انت ، ولكني أغتم
الفرص كلما سنحت وأجري في عملي بكل حذر وتأن كما حدث في قضيتك
أمس . . وزد على ذلك فالقائد الفرد اذا كان في حومة القتال وحده ولا
جيش لديه فاذا ترى يستطيع ان يعمل ؟ . . فلورأيت ايها الامير اربعين
لصاً قد هجموا على بريء ، فاذا كنت تصنع ؟

قال - أمتشق للحال حسامي وأكر على اللصوص لا تقذ البريء من
أيديهم ولو فقدت في سبيل ذلك نفسي

فنظر اليه بوريس بدهشة وقال - وهل تجود بروحك في مثل
ذلك ؟ . . غير انك مهما جاهدت واستبسلت فلن يتأني لك ان تقيت
البريء . . وقد تقتل من اللصوص خمسة او عشرة ولكن عملك يكون بلا
جدوى ، لان اللصوص يقوون عليك اخيراً ثم يمزقون البريء ارباً ارباً
ويلحقونك به

قال - قد يكون ذلك . ولكني استعذب كل عاقبة في ظل الواجب .
وخير للمرء ان يموت في سبيل هذا الواجب من ان يكون في ذروة المجد ،
يرى الفظائع والجرائم امامه ومن حوله ، وهو وادع مستريح ، يخشى ان
يساعد المظلومين ويدفع عنهم شر النظام

قال - قد تكون مصيباً في بعض الاحوال . . ولكننا لسوء الحظ
لا نجد في كل الف او الفين في البشر من هذه صفاته . . فانا اهتلك ايها
الامير بهذه النفس الكبيرة التي تحملها والاخلاق الفريدة التي تحلى بها . .

وبعد صمت قليل كان كل من الصديقين يناجي في اثنائه افكاره ، لم

يشعرا الا وفارس قد أقبل بسرعة . فأطل بوريس من بعض نوافذ الردهة التي كانا فيها ، فأبصر ميخيش خادماً الامير نكيتا قد دخل الى فناء المنزل وهو يمشي جواده وينحط تمباً . وكان بوريس يعرف ميخيش جيداً فقال للامير - يخيل الي ان خادمك قد جاءك بمهمة خطيرة

قال - لا أظن ذلك . لانه انطلق اليوم باكراً الى بعض الاديبار على مسافة نحو ست او سبع ساعات للزيارة

قال - هذا وأطل من النافذة فأدرك في لحظة ان خبراً سيئاً او في غاية الاهمية قد استقدم خادمه على تلك الحالة

وكان ميخيش قد رأى الامير فصاح بأعلى صوته - انت هنا ياسيدي تأكل وتشرب ولا تعرف ما هو جار من عظم الأمور . . فقد شاهدت الآن وانا في طريق موسكو وريازان ماليوتا سكوراتوف ومتى خوميالك ، وبينهما فارس مفلول اليدين مكوم الفم وهما يسوقانه بمنتهى السرعة الى غياض الجاهلية للفتك به . . وما هذا الفارس المنكود الحظ الا ولي العهد نفسه ، وقد عرفته على الرغم من اجتهادهما في اخفائه . .

وقبل ان يتم ميخيش كلامه كان الامير قد انحدر بسرعة البرق وهو يرتجف من شدة الافعال ويقول لبوريس غودونوف - وماذا تريد ان تنتظر بعد ؟ . . فما ان الايدي الاليمية قد امتدت الى ولي العهد نفسه !

ثم اختطف مقود الجواد من خادمه ، فوثب الى ظهره وخرج قبل ان يسمع جواب بوريس

وظن ميخيش ان سيده منطلق الى القصر فقال - لا تركب هذا

الجواد ياسيدي لانه بلا سرج فلا يصلح لك وانتظر حتى أرى لك جواداً
آخر يليق بشأنك !

غير ان الامير لم يسمع شيئاً ، بل انطلق كالسهم لا يلوي على شيء .
ولم تكن وجهته الى قصر الملك كما زعم ميخيش ، بل سار في طريق موسكو
وريازان في اثر ماليوتا ، وقد نسي انه أعزل من السلاح .. ولكنه لم يلتفت
الى شيء من كل هذا ، وقد آلى على نفسه ان ينقذ ولي العهد ولو فداء بروحه
وكان بوريس غودونوف ينظر اليه من النافذة وهو يعجب من كرم
طباعه وطيب فطرته ومروته ، وقد رأى نفسه صغيراً حقيراً بالقياس اليه ،
فازداد احتراماً له وشعر ، وهي المرة الاولى في حياته ، بحلاوة الجهاد في نصرة
الابرياء ، وحسد الامير نكيتا على ما اختصه به الله من المزايا السامية والخلال
الشريفة حتى اصبح يجمع الكمالات

وظل بوريس في مكانه الى ان توارى نكيتا عن بصره . ثم نزل وذهب
الى القصر ، وقد تنازعت عوامل شتى وتأملات كثيرة

الفصل التاسع عشر

المعركة

وظل ماليوتا جاداً في سيره .. وكان كلما قطع مسافة يلتفت الى جميع
الجهات كانه يتوقع محذوراً او يخشى رقيباً

ولم يكن احد من رجال الحرس الذين كانوا يرافقونه يعرف شيئاً عن
هذا « المجرم » الذي يقزدونه ، وقد ملكهم اندهش من مبالغة ماليوتا في

اخفائه ، ومن طول المسافة التي فرض عليهم اجتيازها للفتك به . وهم لو دروا ان الفتى الموثق في ظهر جواده بين ماليوتا ومتى خوميالك هو ولي العهد لزعروا وأحجموا . غير انهم لم يعبأوا بالامر ، اذ لم يكن يهمهم الاسفك الدماء وقضاء اوامر الزعماء ..

وقبل ان وصل ماليوتا الى غياض الجاهلية سمع وقع حوافر خيل بعيدة ، فاجفل وسأل متى قائلًا - يخيل الي ان فرسانا يقتفون اثرنا !
فأصغى متى قليلاً ثم قال - لا تخش شيئاً ياسيدي . فما هذا الذي تسمعه الا صدى وقع حوافر خيولنا
فقال ماليوتا - أسرع اذاً لئلا يندم الملك ويرسل فيستدعيننا قبل انجاز العمل

وكان بعد ذلك ان الركب توغلوا بين اشجار العابة وملكوا الطريق التي تؤدي الى غياض الجاهلية . فوقف ماليوتا هنيئة وقال لمتى - ان فارساً يطاردنا ولا نأظه الا رسول الملك .. وكأني سمع صوته ينادينا
فقال متى - لتطب نفسك ياسيدي ولا يكن في قلبك روع ! ..
فليس لاحد ان يدركنا ، وانما هذا الذي تسمعه هو صدى اصواتنا
غير ان ماليوتا لم يسر بعد ذلك الا قليلاً حتى سمع صوتاً جهورياً يقول
- مكانك ياماليوتا ! .. مكانك يا ابن اللثام ! ..

فزعر ماليوتا والتفت ليرى صاحب الصوت ، واذا بالامير نكيتا قد أدركه . وقبل ان يفتح به شيء ، هجم عليه كالاسد الضاري وضربه بيده على رأسه فجذله عن جواده ، ثم ترجل فقبض على عنقه وجلد به الارض فكاد يحطم عظامه . وقد استخلص منه حسامه واراء ان يجيز عليه ، لولا ان متى

خوميالك قد هجم لنصرة سيده واشتبك مع الامير بهراك شديد
وكان رجال الحرس الباقون قد وقفوا في اول الامر بهوتين كأن صاعقة
نزلت عليهم فهدت قواهم وحلت عزائمهم . ولكنهم ما عتموا ان ادركوا
حقيقة الموقف ، قتالبوا وهجموا على الامير هجمة واحدة يريدون انقبض
عليه او قتله ، ولولا اشتباك اغصان الاشجار لفتكروا به في الحال . . وكان
الامير قد صرع بعضاً منهم وعزم ان يكافح مادام فيه عرق يذبض ، وقد تحقق
خطر موقفه وأيقن انه هالك لا محالة . .

وانه كذلك اذ سمع بفتة صغيراً قوياً . ثم رأى رجالا مشاة قد
أطبقوا على جنود الحرس مثل الصواعق خرجت من سحائها . . ودارت
رحى الضرب ولمت نصال السيوف . . فسر الامير وتنفس الصعداء وقد
استبشر وأيقن بالفوز

ولا بد ان يكون القارىء قد ادرك ان اولئك الرجال الذين دبرتهم
العناية لنصرة الامير لم يكونوا الا العشرن لصاً الذين قادم برستن
وفبا كان المراك ملتحما بين اللصوص ورجال الحرس سمع صغير آخر ،
وهجم كرشون برجاله ، فاشتدت سواعد اللصوص وأقسموا ان يفتكروا
بجميع الاعداء

وكان توما احد اللصوص قد أبلى في هذه الممركة البلاء الحسن . فانه
كان يحول بهراوته بين الصفوف يهوي بها على الاعداء والاصحاب فيسقطون
اكدا ساء ، وهو يجيل بصره بين رجال الحرس كأنه ينشد ضالة له . . وما
لبث أن لمت عيناه وبرقت اسارير وجهه ، لانه أبصر امامه متى خوميالك
فعرفه . . عرف انه هو الذي اختطف عروسه . . فحمل عليه بهراوته وضربه

بها فأصاب جواده ، فسقط ميتاً لساعته ، وهجم توما على خصمه فرماه الى الارض وأسرع فربض على صدره وجعل يضبط عليه ويصره وهو يقول - لقد ظفرت بك ايها الوغد . . فسأطحن عظامك طحناً وأنتقم منك شر الانتقام لانك سبيت عروسي . .

وانجلت الواقعة عن سقوط جميع رجال الحرس . وقد صرع بعض اللصوص أيضاً . غير ان مالىوتا لم يظفر به احد ، فقد لاذ بالفرار ونجا بنفسه وكان الامير نكيتا حالماً التحم القتال انه يادر الى ولي العهد فخل وبقه في ناحية من ميدان المعركة ثم انزله عن الجواد ونزع من فيه الكمامة التي كانت داخله وأقام الى جانبه يحرسه ولما انتهت الموقعة اخذ اللصوص يسلبون القتلى اشياءهم ويمسكون خيولهم الشاردة

وكان برستن قد عرف الامير نكيتا بحال وصوله . فلما تم القتل اسرع اليه فغياه كصديق مشتاق وهناه بالفوز . فشكره الامير على بسالته ومروءته وصاحفه بلهفة . ثم التفت الى ولي العهد وقال - اني احمد الله على نجاتك يا مولاي من ايدي هؤلاء البغاة اللثام ، وأعد نفسي سعيداً لاني تمكنت من خدمتك قبل فوات الفرصة . وكنت اتنى لو ظفرتنا بمالىوت . . . لكننا قطعناه واطعمنا لحمه لا كلاب . . غير انه لن ينجو هذه المرة من المقاب فان جلاله والدك انلك ليذيقه اصنف البلاء . وينتقم منه على ما سيف له من امثال هذه المآثم والموبقات . . واني اشكر اليد التي اسداها اليها هذا

الرجل الباسل (وأشار الى برستن) فقد وصل لنجدتنا ونحن في اشد الحاجة الى النجدة

ولما درى برستن ان الفتى الذي أنيح له اتقاده هو ولي المهد نفسه وقف مبهوراً يتأمل في حاله ويعجب مما جرى . ثم تقدم فجثا امامه الى الارض هو يهتبه بالسلامة

وكان هذا الخبر قد سرى بين اللصوص ، فتركوا القتلى وأقبلوا فجثوا امام ولي المهد وهم يحبونه ويمربون عن اخلاصهم وعبوديتهم . فبش لهم ولي المهد وقال - شكراً لكم ايها الشجعان على ما اظهرتموه من البطولة والاقدام . . نعم اني لا اعرفكم ولم أر احداً منكم قبل الآن غير اني اشكر الآن حينكم ولن أنسى هذا الصنيع الجميل

فقال برستن - ولكننا يا مولانا لا نستحق شكرك ، لاننا انما قنا بالواجب . . ولو عرفت ان الذي يسوقه مالىوتا ليفتك به هو سموك لجردت جيشاً كاملاً ، فلم يكن لذلك الشرير ان يفلت من ايدينا . . ولكن لا بأس فانه على كل حال سينال جزاء غدره . . واما الآن فلدينا احد اعوانه واشد انصاره ، وهو من معارفي السابقين . .

قال هذا ونادى توما وامره ان يقود متي خوميالك وكان توما لا يزال رابضاً على صدره يمركه ويتهدده . فلما سمع امر الزعيم قام عنه ، واذا باللصوص قد أغربوا في الضحك وهم يقولون - ليس هذا متي خوميالك ، بل هو من رجالنا . . هذا خلوبكو . .

فملقى توما ببصره وهز كتفيه وقال لخلوبكو - وكيف جرى هذا ؟ . ولماذا لم تتكلم ؟ . .

فنظر اليه خلوبكو وقال والشرر يتطاير من عينيه - وأنى لي ذلك ..
وانت كالدب سقطت علي وأخذت تضغط على صدري وحنجرتني حتى كدت
تطحن عظامي طحناً ؟! .. قنباً لك من أبله ..

فقال نوما - اما انا فكنت اظنك غريمي .. لاني لما ضربته بهراوتي
وسقط على الارض هجمت عليه وفعلت ما فعلت

فقال خلوبكو - ولكن هراوتك ايها الاحق قد اصابتنا كلينا .
وبدلاً من ان تهجم على خصمك هجمت علي ، وانسل هو هارباً فلم أره
فقهقه الحضور لدى سماع ذلك . وضحك ولي المهد ايضاً . وقال
برستن - يظهر ان التوفيق قد خدم متى خوميالك ايضاً كما خدم سيده ..
ولكن لا بد لنا من مقابلة اخرى معه في فرصة اخرى

ثم التفت الى ولي المهد وقال - والان فاذا اردت ياسيدي فاننا نرافقك
حتى جادة الطريق

قال هذا وقدم للامير نكيتا جواداً مسرجاً وامر رفقاه بالسير . وكان
بعضهم قد ركبوا ما ظفروا به من خيول رجال الحرس وساروا يحقرون ولي
المهد .. ولما بلغوا ضواحي قرية الكسندروفا وقف برستن وهو يقول لولي
المهد - اننا نستودعك الله الآن يا سيدي .. فقد آن لنا ان نعود الى
الغابة وليس عليك من خطر باذن الله

فقال له ولي المهد - اراك مرتدياً لباس النبلاء .. فمن ايهم تكون ؟
فتبسم برستن وقال - لست نبيلاً يا سيدي .. وانما نحن في هذه
الغابات نلبس ما تسوقه لنا الافقار

وكان ولي المهد قد ادرك ما اراده برستن فقال - انك قد قت اليوم

بعمل مجيد تستحق لاجله كل ثناء . فسر معي الى القصر يصفُ عنك والذي
ويجملك في جملة خواصه

فقال برستن - غير ان ذلك لا يمكن ان يكون الآن فان ذنوبي
اكثر من ان تعد . . ولي رفقاء آخرون يمز علي فراقهم ، وقد الفتهم والفوني
والفنا جميعاً الحياة الحرة في السهول والغابات ، فلن نستبدل بها حياة أخرى
ولو في القصور

قال هذا ثم صافح الامير نكيتا واتقلب راجعاً برجاله . ولم يبطثوا ان
حجبتهم اشجار الغابة

ولبت ولي العهد في دهشة عظيمة من امر هؤلاء الناس فقال للامير ،
لم يبق لدي شك في ان برستن هذا ورفقاه ليسوا الا عصابة لصوص كبيرة
وانهم يكمون في هذه الغابات لكن عابر سبيل

قال - هو ما تقول يا سيدي . ولكنهم في كل حال افضل من رجال
الحرس واكثر مروءة ونبلاً . . وانهم ما تألفوا على هذه الصورة الا لمكافحة
رجال الحرس والانتقام منهم ، وقلمما يسطون على غيرهم

قال - وقد اعجبني زعيمهم وشعرت بكل ارتياح اليه . . وخيل الي انه
من معارفك

قال - نعم . . لاني انقذته من الاسر في قرية الدب . . وكان متى
خرمياك يريد ان يقتلك به وبرفيقه الشيخ

قال - نعم نعم . . وقد ذكرت الآن حديث متى خومياك ليلة حاكمك
الملك وحكيحك بالاعدام وجارينا نحن في هذا الحكم عن غير روية . . ولولا

جراً مكسيم بن ماليوتا لقضي عليك لا محالة . . فاعذرني ايها الامير واعف عما مضى . . .

وواصل الاثنان سيرهما وهما في مثل هذا الحديث . واذا ببوريس غودونوف قد اقبل ومعه شرذمة من الفرسان أوفدم الملك « للبحث عن ولي المهد . . . »

وأسدل الستار على هذه الحادثة وحظر على اهل البلاط ذكرها . . ولكنها انتشرت وذاعت بين جميع طبقات الشعب ونظمها الشعراء في حكايات شعرية لا يزال بعضها متداولاً حتى الآن . وفيها يرد ذكر الامير نكيتا موصوفاً بأجل صفات البسالة والالمية والشرف ، كما وُصف ماليوتا بكل قبح وشر ونعت بكل غدر ولؤم

ولم يصدق الناس في اول الامر الحادثة كما وصفناها ، ولم يتصور احد ان الملك نفسه يأمر بقتل ابنه وولي عهده ، بل اعتقدوا ان ماليوتا هو الذي بنى على ولي المهد واراد ان يبطش به بلا تحريض خارجي . .

ولكن ماليوتا هذا لم ينله شيء من العقاب الذي كان يستحقه جزاء هذا الغدر . وقد بقي في عز ونعيم وهو يزداد تقدماً ورفعة ويترنح بخمرة الفوز والاتصار على اعدائه ومبغضيه . . وقد أقسم ان ينتقم من الامير نكيتا شر الانتقام ويذيقه مر العذاب . . وظل الملك يمد يده اليه ويركن الى اقواله ومفاسده ، وهو يحسب سعايته نصيحة ، وغدره اخلاصاً في الخدمة وغيره على الوطن

الفصل العشرون

« هواجس موروزوف »

ينما كانت هذه الحوادث تجري في اماكنها ، كان النبيل دروجينا موروزوف جالساً في ردهة قصره في موسكو ، وعليه امأثر الغضب وشروذ الفكر . وقد مر عليه اربعة ايام وهو خال بنفسه كثير الافكار قليل الكلام ، لا يعلم احد بما ينطوي عليه من القلق والهم

وقد اقرء هذا النهار على عادته ، بجلس الى مائدة عليها « الكتاب المقدس » في مجلد كبير مذهب ، آملاً ان يدفع عن نفسه بقراءة شيء من فصوله بمض الكآبة والحزن . . وقد قلب صفحات كثيرة منه وهو لا يستطيع ان يقرأ شيئاً لتشتت افكاره ، فلبث جالساً وعيناه شاخصتان وافكاره ساجحة ومضت عليه في تلك الحال الساعات وهو لاه بهواجسه ، يتصور تارة زوجته هيلانة ، وطوراً الامير نكيتا ، وحيناً الامير اثناسي فيازيمسكي ، ثم يعود الى التأمل في حالة زوجته ، فيتهد ويضطرب

ولا بد ان يكون القارى قد عرف سبب حزن النبيل وانزعاجه . . فانه يوم زاره الامير نكيتا وهو عائد من بلاد لتفا على ما سبق ذكره ، رأى النبيل ان زوجته هيلانة كثيرة الارتباك شديدة القلق ، فظن انها رأت الامير اثناسي تخافت وفنقت . .

ولكنه بعد ان شيع ضيفه الامير نكيتا عاد الى مخدعه وهو مضطرب كحزين النفس ، فلم يجد في نفسه ميلاً الى الرقاد . فخرج الى الخديمة

لعله يروح عن نفسه ويدفع اضطراب افكاره ، فرأى في طرف الحديقة
شبحاً أبيض ، فذعر وجمد في مكانه . . ثم سمع صوت زوجته فازداد ارتعاشاً
لعله بأنها راقدة منذ زمان . . فحدد بصره فرأى وراء السياج فارساً وقد
دنت اليه هيلانة تكلمه ، فشر كأن صاعقة انقضت على رأسه ولم يدر ماذا
يفعل . . ثم عاد فأعار اذناً صاغية فلم يسمع الا حفيف النسائم . فلبث مكانه
وقد جحظت عيناه واعتقل لسانه ، فكان كتمثال حجري لا يتحرك ، حتى
ان تنفسه كاد ينقطع لينع حركة جسمه . . وكان تارة يظن ان هذا الفارس
ليس الا الأمير اثناسي فياز بمسكي وقد تمكن اخيراً من استغواء هيلانة
والاستيلاء على هواها . وطوراً ينفي ذلك وهو يقول في نفسه : « كلاً . .
ان هيلانة لن تميل اليه وهو سبب خوفها وذعرها . . فلهذه الامير نكيتا
الذي احبته بما يفوق حب الآباء لابنائهم . . ولكن لا . . ان نكيتا لا يخون
اصحابه ، ولا يقابل زوجة صديقه هذه المتقابلة التي لا يقره عينا سرفه وادبه . .
فلم يبق الا ان يكون هذا الفارس احد رجال الحرس او عاشقاً آخر لا أعرفه . .
ولكن هل بلغ من هيلانة ان تكفى احسانى بثمل هذه الاساءة وتغدر بي
هذا القدر وانالم أسى اليها قط ولم اعاملها الا بمنتهى العطف والرفقة ؟ . . . »
ثم تقدم ليتحقق الأمر فرأى الفارس قد انقلب راجعاً عن اسباج
ورح يهدير بسرعة وعادت هيلانة من موقفها ، ومرت بلتقرب منه وهي
لا تراه . . وه يشأ النبيل ان يذعرها ، فتركها وشأنها وفي نفسه مور . . .
وقد انبعث من صدره ودو في موقفه ذلك نفس كائنار ، ثم عاد الى مخدعه
وتنضى بقية ليله يتخفى في لفرة ذهباً ويا . . وقد ضللت الدنيا في وجهه . .

ولم يظهر النبيل لزوجته شيئاً مما يعلم من سرها ولم يتغير في معاملته لها .
ولكنه كان كلما خلا بنفسه اتقبض واضطرب . ومرت عليه اربعة ايام وهو
في مثل ذلك

وعاد الامير نكيتا في اليوم الرابع من قرية الكسندروفا ، فزار النبيل
في منزله واخبره بكل ما جرى له من الحوادث وما رآه في بلاط الملك
من الغرائب . . وكان قدوم الامير قد أنسى موروزوف هواجسه ، فاستقبل
صديقه بالبشاشة والولا . وأقبل يرحب به ويهنئه برضى الملك وعفوه . . ولم
تخرج هيلانة لمقابلة الامير لانحراف طراً عليها فلزمت مخدعها
وبعد بضع ساعات قضاها الصديقان في الحديث والتأمل قام الامير
فاستأذن وانصرف ، ولبت موروزوف في منزله وقد عاد الى هواجسه
وتجاذبه تيارات الافكار

وانه كذلك اذ اقبل احد خدمه وقال والبنقة بادية على وجهه -
ان جماعة من رجال الحرس قادمون الى هنا ياسيدي وفي طليعهم الامير
اناسي فيازيمسكي ، فهل تأمر باستقبالهم ؟

فدعّر موروزوف وقال - وما عسى ان يريد الامير اناسي مني وليس
بيننا اقل صلة ، فلمله يقصد غير هذا المكان ، او قد تكون واحماً . . ولكن
على كل حال عد وقف في الباب مع رفقائك ، فاذا رأيتم القوم يرومون
الدخول الى هنا فامنهم وقولوا لهم ان مولانا لا يريد ان يرى احداً من
رجال الحرس في منزله

فوجم الخادم ولبت في مكانه يرتعش خوفاً . فصاح به موروزوف وهم
ان يذهب بنفسه الى الابواب ، لولا ان خادماً آخر وافى مسرعاً وهو يقول -

ان الامير اثناسي فيازيمسكي قادم لزيارتك ياسيدي ، وقد وصل الان احد حجابيه وقال لنا ان الامير آت اليك من قبل الملك
فتهض موروزوف للحال وامر الخدم ان يفتحوا الابواب . وأسرع
هو فأخذ صحيفة الخبز والملح وكانت من الذهب الخالص وخرج لاستقبال
الضيوف . . .

وكان الامير اثناسي راكباً جواداً مطهماً . وقد ارتدى ثوباً من الأطلس
الأيض . وكان في عنقه جوهرة كريمة تدلى على صدره ، وعلى رأسه قبعة
عالية من القطيفة البيضاء فيها ريشة من الألماس تتمايل لكل حركة . وكان
هذا الامير طويل القامة وضيء الطلعة تتدفق من وجهه الجميل ، لآثم النظارة
وقوة الشباب . وكان في صحته عشرون فارساً من رجال الحرس وكلهم في
الملابس الفاخرة . وكان يتبعه شرذمة من السواس يقودون تبعاً لعادة ذلك
الزمان في بلاد الروس ستة من جياد الخيل بالعدة الكاملة ، ويتقدمه احد
حجابيه وهو ينفخ في البوق تنبيهاً للناس

وكان النبيل موروزوف قد خرج لاستقبال هذا الموكب ومعه ذووه
وخدامه . فلما التقى الفريقان ترحل الامير اثناسي ، وأسرع موروزوف
فخياهم وقال - انك ايها الامير آت الي من قبل الملك ! فاهلاً برسول الملك
وسهلاً . . . وها ابي استقبلك بالخبز والملح وأدعوك وذويك ان تدخلوا الى
منزلي على الرحب والسعة !

فأجابه الامير - ايها النبيل دروجينا موروزوف ! ان مولانا المنظم ملك
يوحنا الرابع قد أوفدني اليك لابلغك سلامه ورضاه . . . فنت منذ الآن امام
جلالته في مقامك السامي ومكانتك رفيعة بين النبلاء . . .

سمع النبيل موروزوف هذا الخطاب وهو جاث على ركبتيه بتمام الوقار كأنه يسمع الملك نفسه . فلما فرغ الأمير من الكلام نهض الشيخ وقال وهو يرتعش من التأثر - أطال الله بقاء جلالة الملك وسكب عليه جزيل آلائه ومنتعه بدوام النصر ! . . . فقد شاء ان يرفع عني سخطه ويعيد الي رتبتي في بلاطه . فانا عبد نعمته ما حييت ! . . .

قال هذا وتقدم فصافح الأمير ودعاه ورجاله فدخلوا المنزل وهو يسير امامهم الى ردهة الاستقبال

وكان من عادة ذلك العهد اذا غضب الملك على احد نبلائه ولم يشأ ان يحكم عليه بالاعدام ان ينزوي ذلك النبيل في منزله ، لا يقص شعره ولا يرتدي بأثواب زينته ولا يحضر الحفلات الفخمة ولا يختلط برصفائه النبلاء ، وان يعيش مبعداً منسياً الى ان يشاء الملك فيرفع عنه غضبه ، فيعود الى مقامه ، او يظل نائماً عليه الى ان يموت او يقتل بأمر الملك وتصادر ثروته

وكان من عادة يوحنا الرابع اذا غضب على احد ان لا ينفو عنه ولا يطيل اناته على احد الا ندرأ . . . وكان عفوه عن النبيل موروزوف هذه المرة نادرة من نوادره ، وقد يكون ذلك مظهرأ من المظاهر الكثيرة التي كان يخفي وراءها عادة انقدر والخديعة . . .

بعد ان سروروزوف كان سعيداً برضى الملك وعفوه ، وقد ضت دموعه بهجة ، واسرع ذافقاً سوطاً الى الأمير نكيتا يابشره ويمعوه لزيارته ومشاركته اياه في سروره . ثم انطلق الى كنيسة صغيرة في قصره ، كان يقيم فيها صلوات الصباح والمساء كل يوم مع ذوبه ، وشكر الله ودعا الملك

ولم يكن الامير نكيتا ينتظر مثل هذه البشرى ، فسر وابتهج وقام من
ساعته فركب جواده وجاء بموكب شائق يحقره ذووه وخدامه.. لان من عادة
ذلك الزمان في بلاد الروس ان لا يسير الامير او النبيل في احوال مهمة او
يهدم الى حفلة كبيرة الا في موكب . وكانت هذه الموكب تدل عادة على
تفاوت النبلاء في الافدار . فكلما كان النبيل أعظم ، كان موكبه أحفل
وأفخم

الفصل الحادي والعشرون

الأدب

بعد ما فرغ النبيل موروزوف من صلاته جاء فزبن ومشط لحيته وبدل
ثيابه . فلبس رداء من القטיפه البنفسجية ووضع على رأسه قبعة عالية بديعة
مصنوعة من جلد سمور ومزينة أجمل زينة . ثم دخل على ضيوفه فحياهم
ثانية . وكان الامير نكيتا قد وصل ، فتهض الجميع الى مائدة كبيرة صففت
عليها آية اشروبات الفاخرة على انواعها . وكان السرور عاماطا فاعلى الوجوه ،
والجميع يتناولون مما امامهم من اشهى الشراب ، والحديث آخذ من قوم كل
.أخذ . فلم ينتبه موروزوف لقمعة اسلحة رجل اخرس التي كانوا ينفونها
تحت ارجلهم ، لانه كان مهتماً بضيوفه يحادثهم ويلطفهم

وكان للقوم قد شربوا انخاباً كثيرة . فشربوا 'نخب' الملك و'ملكه'
رسائر مراد الاسرة الملكة . ثم شربوا انخب كبار رجال 'السين' ، فلا مير
النامي ، فلا مير نكيتا ، فاستبيل موروزوف . ثم نخب كل فرد من باقي

الحضور . ولما فرغوا استرعى الامير اثناسي الاسماع وقال - بقي نخب ربة المنزل . . نخذوا كؤوسكم ايها الاصحاب ولنشرب مسرورين . . !

فأجل موروزوف لدى سماعه ذلك وعادته هواجسه وقد أيقن ان حبيب زوجته لا بد ان يكون حاضراً ، فصمم على اكتشافه . ورأى الفرصة سانحة فتجلد وعاد الى سروره وقال - أشكركم ايها الاحباء لانكم بشربكم نخب زوجتي انما تريدون ان نعبوا عن احترامكم لها وللمنزل . . غير اني أرجو ان يكون ذلك بحضورها

ثم أردف كلامه قائل لاحد الحجاب - أدع مولاتك وقل لهما ان ضيوفنا الاعزاء يريدون ان يشربوا نخبها

فأبرقت اسرة الامير اثناسي ورجاله وأظهروا ارتياحاً عظيماً

ولم يمض طويل زمن حتى جاءت هيلانة وفي صحبتها وصيفتان من وصائفها . وكان بين يديها صينية من الذهب وعليها كأس واحدة وهي من الذهب ايضاً . قهض القوم اجلالاً لها ، ولبثوا حيناً مبهوتين يتفرسون في ذلك الجمال الرائع وكل منهم يتمنى ان يحظى منها بكلمة او نظرة

وللحال دنا منها احد السفدة وملاً الكأس التي على الصينية من فاخر الشراب . فشربت هيلانة قليلاً ثم طافت بتقوم ، والساقى يرفع الكأس كلما فرغت ، وهي تقدمها لكل منهم . وكان كل واحد من الضيوف يتناول الكأس بنوبته ويشرب نخب ربة المنزل ويشكرها

وكان موروزوف يراقب كل حركة تبدو من زوجته ومن كل واحد من الحضور . حتى اذا فرغت من عملها قال - والان يجدر بنا ايها الاصدقاء ، وقد بدأنا وشربتم نخب زوجتي ، ان تتم عادة الاجداد القديمة بتقاليدها

المعروفة . فاسألكم احتراماً لتقاليد السلف الصالح ورمزاً الى عهد الولاء الذي أصبح بيننا من هذه الساعة ان تتقدموا فتقبلوا زوجتي
قال هذا وأشار الى هيلانة ان تقف في وسط الردهة . ففعلت وهي
لا تجهل هذه العادة ، ولكنها كانت تود ان يعدل عنها في مأدبة اليوم . .
بيد أنها لم يسمعها الا الاذعان ، فوقفت وهي خافضة الطرف وفي حالة شديدة
من القلق والانزعاج

فقال موروزوف للامير اثناسي - تقدم ايها الامير اولاً
فقال الامير والسرور يرنح معطفيه - ولكن من تقاليد العادة ايها
النبل ان تتقدم انت اولاً لانك سيد المنزل
قال - أصبت

ثم دنا من زوجته فانحنى امامها الى الارض وقبلها . فأحس بحرارة
شفقتها كأنهما تتقدان ناراً . واما هو فكانت شفتاه باردتين كالجليد
وبعد موروزوف تقدم الامير اثناسي . واذا أبصرته هيلانة أضربت
بعينها الى الارض ولبثت جامدة كأنها صنم من حجر . وكان موروزوف
يراقب في اثنا ذلك وجهها ، فلما رآها لم تتغير ولم ترتبك ، اتنى من ذهنه
كل ريب بالامير اثناسي وقال في نفسه : « ليس هو المحب المنجول »
وكان الامير قد اقترب من هيلانة ، فحنى لها رأسه ثم ضبع على شفقتها
قبلة طويلة لم تحملها هيلانة ، فأحجمت الى الوراء وهي تتلمس وقد بان عليها
الاضطراب والاشمزاز . . فجزم موروزوف بان اثناسي بعيد جداً عن قلب
امراته وانها لا تطيقه

ثم تقدم من هيلانة بعض رجال الحرس . زكناوا واحداً واحداً يبحثون

امامها ثم يقبلونها ، والنبل لا يفتر عن المراقبة . وكانت هيلانة علمت بما يخامره من الافكار وما يساوره من الظنون ، وقد رأته يتفرس فيها وفي كل من يدنو اليها بما لا مزيد عليه من التنبه والتمعن ، تخافت ان جاء الامير نكيتا ليقبلها ان لا تستطيع ضبط نفسها فيكشف امرها . . . ولذلك ارادت ان تتدارك الامر قبل وقوعه ، فتظاهرت بالتعب والارض وسألت زوجها ان يأذن لها في الانصراف

وكان موردوزوف قد أدرك غايتها وأيقن ان غريمه حاضرا لا محالة ، وان هيلانة انما تخشى مقابلته ، فقال لها - ولكن لابد من القيام بنظام العادة الى النهاية ، فتشددى واصبري

ثم خاطب ضيوفه بقوله - تقدموا تقدموا ولا تبالوا كلامها لانها حديثة السن ولا تعرف عادات السلف

قال هذا واخذ يتسأل في نفسه : « ولكن ابن الامير نكيتا ؟ .. ترى لماذا لا يتقدم ؟ .. »

وقد زاد تنبهه واخذ ينحس نظره جميع الحضور

اما الامير نكيتا فكان واقفاً على حدة وقد تراكت عليه التصورات وملكه البلبال . . . فقد أدرك غاية النبل وقرأ في وجه هيلانة الخوف والارتباك . تخاف ان هو تقدم اليها ان يزيد ارتباكها فيفتضح امرهما ، وان تأخر أن يعمل في نفس زوجها ريبة به . . . وهو لو استطاع ان يقول لها في هذا الموقف كلمة فقط لازال عنها مخاوفها وأعاد اليها نشاطها وقواها المفقودة . . . ولكن انى له ذلك وعينا الشيخ لا تتراقبها لحظة . . .

واخيراً صمم نكيتا، فدنا من هيلانة وانحنى لها، وهو يتحاشى أن يلتقي نظراهما

وكانت هيلانة عند اقتراب الامير قد أثرت فيها عواطف الحب واضطربت جوارحها، فألقت نظرها الى الارض وفاض الدم الى وجهها فزاده رونقاً وبهاء.. ورأى موردوزوف اضطرابها، فلم يحف عليه الامر..

ان هيلانة قد خدعت زوجها لانها اقترنت به ولم تطلعه على حبه لغيره.. وهي لو عرفت ان زوجها قد رآها يوم قابلت الامير نكيتا عند سياج الحديقة ليلاً، لا اعترفت له بكل شيء..

نعم ان حبه للامير كان آية العفاف والطهر، غير انه لا يليق بها كزوجة، كما انه لا يليق بها وهي سيدة شريفة ان تنحني عن زوجها شيئاً وتخون عهد الزواج المقدس..

ان هيلانة قد أحبت نكيتا، وهي مضطقة القلب. ولكنها لم تطفئ او لم تستطع ان تطفئ جذوة هذا الحب وهي زوجة..

وها هو ذا حبيبها يتقدم الان اليها ليقبلها، وقد أحست قربها، ودنا قلبه من قلبها، والتقت شفثاه شفثتها، فغلبتها عواطفها ولم تعد تقوى على الكتمان..

وظهر ذلك من ارتعاش جسمها، واحمرار وجنتها، وبريق عينيها وظهر ظهوراً أتم ساعة قبلها نكيتا، فصاحت: «رحماك يا الهي!». وخاتها قواها فكادت تسقط الى الارض لو لم يبادر اليها زوجها في الحبل وبالعالجها بالمنعشات والمنبهات الى ان ثاب اليها روعها..

ولم يحتج موروزوف الى مزيد بيان فقد برقت امامه الحقيقة . وأيقن ان الامير نكيتا هو غريمه . وانه هو الذي قابل زوجته تلك المقاتلة الليلية . فرت ضيابة غيظ على وجهه ، ثم انقضت الى حين ، فعاد الى طربه ومسروده وهو يخفي في صدره كدأ عظيماً . . .

وانتهت حفلة التقبيل . فحيت هيلانة وخرجت ، والى جانبها وصيفتها تساعدانها . وعاد الضيوف الى مجالسهم يطربون ويلهون ، والخمرة تتدفق من الكؤوس فتدور سورتها في الرؤوس ، حتى اهتز المكان باهتزاز الابدان ، وعلا بين القوم اللغط واحتدم الجدل ، وأصبح الحديث كله عريضة وفقد كل نظام ..

وكان احد الحضور من رجال الحرس قد أسرّ في خلال ذلك الى الامير اثناسي قائلاً - قد حان الوقت ايها الامير . فهل تأمر بالعمل ؟

فاجاب الامير بمحذة - أمسك عن الكلام الان لئلا يسمعك الشيخ!

فقال الحارس - وهبه سمع ، فن اين له ان يدري ما تقول ؟

فانهره الامير قائلاً - لا تزد على هذا شيئاً . وانتظر اشارتي

قال - ولكن الوقت قد فات نلّم هذا الانتظار ؟

ثم وقف يريد ان يعطي العلامة المتفق عليها بين القوم ، فأمسكه الامير وأجلسه في مكانه بعنف وهو يقول له همساً وعيناه تتقدان غضباً - مكانك !

اجمد في مكانك ، والا أنعمت خنجرأ في صدرك !

بيد ان الحارس لم يزد جر وقد عاد فوقف وقال بصوت عال وهو

لا يبي من شدة السكر - اذًا فانت تريد قتالي !. ولا أحب الي من ذلك ،
نخذ حسامك وهيا بنا امام هؤلاء الشهود ..
ثم جمل يقهقه ويشتم ..

كل هذا والامير نكيتا يسمع ويبني وهو كانه في حلم . وكان موردوزوف
قد رأى هذه الحركة ، ولكنه لم يسمع شيئاً من الكلام فقام وقال -
لقد تناصف الليل ايها الاصدقاء وحان وقت النوم ، ولا بد لكم ان تأخذوا
نصيلاً من الراحة ، وقد أعد لكل منكم سرير خاص ، فيها بنا !
فنهض الجميع وهم يشكرون للنيل كرمه وسخاه . ثم خرجوا من
الردهة واكثرهم في حالة السكر الشديد

ولما اراد الامير نكيتا ان يخرج استوقفه موردوزوف بقوله همساً - لي
أليك بعض الحاجة فانتظري هنا قليلاً
قال هذا وخرج الى ضيوفه يقودهم الى اسرهم . ثم دخل الى
غدير زوجته

وكان في اثناء المأدبة أن جاء قوم آخرون من رجال الحرس لم يشعر
بهم احد من اهل المنزل . وكانوا يقدون زرافات ووحداً ويكنون حول
المنزل وكلهم مدججون بالسلاح . وما مضى الهزيع الاول من الليل حتى
أصبح منزل النيل محاطاً من جميع الجهات بجنود الحرس
وكان قبل نهاية المأدبة أن خرج من ردهة الطعام على حين غفلة من
الحضور حاجب الامير اثناسي . وكان القوم منهمكين بالشراب فلم ينتبه اليه

احد . ولما لم ير رقيباً دنا من احد ابواب المنزل وصفر صغيراً خاصاً . فبادر اليه احد الكامنين خارجاً

فقال له الحاجب - هل تم اجتماعكم ؟

فأجاب الحارس من وراء الباب - نعم

- وكم بلغ عددكم ؟

- اكثر من خمسين

- اذاً فانتظروا العلامة

- ومتى تعطى هذه العلامة ؟ فقد أعيانا الانتظار وتافت قوسنا

الى العمل

- ذلك منوط بالامير نفسه . ولكن حذار يا متى ان تتمدوا الى

التدمير والنهب . لان الامير ينهاكم عن ذلك كله

ولم يكن الحارس الذي جرى هذا الحديث بينه وبين حاجب الامير

الا متى خوميالك نفسه . وكأنه لم يعجبه كلام الحاجب فقهقه ضاحكاً وقال -

لا يهمني امر الامير او نبيه لانه ليس بسيدي ولا آمري

قال - أصبت . . ولكن سيدك مالبوتا سكورا توف أمرك ان تكون

هذه الليلة مقيداً بخدمة الامير وطاعته

- نعم . . وانا مستعد ان افوم بخدمته احسن قيام وأسهل له اختطاف

السيدة . . وفي غير ذلك فانا طليق اليد أتصرف في هذا المنزل الكبير بل

القصر العظيم كما أشاء وليس لاحد ان يناقشني الحساب

- ولكن الامير لا يمزح !

- وانا كذلك لا امزح ! ولا يهمني من الامر كله الا ان في هذا المنزل

الباذخ من الخيرات والغنى ما نحن الى مثله قسي . ولولا ذلك لما تطوعت
هذه الليلة لخدمة اميرك . .



وبينما كان هذا الحديث جارياً بين حاجب الامير اناسي ومتى خوميالك
كانت السيدة هيلانة في مخدعها تمزق صدرها الزفرات وتحرق وجتها
العبرات ، وقد تشردت افكارها وتولاها اليأس والقنوط . فجلست في سريرها
وهي تندب حظها ولا تدري ما ينتظرها من النكبات . وقد وقع عندها
حادث المأدبة اشد وقع وتأكد لديها ان زوجها قد قرأ افكارها ولم يخف
عليه شيء من امرها . . وغلب عليها وهي في تلك الحالة ذكرى حبها للامير
نكيئا ، وما كان من سفره الى ميدان الحرب ، وما كان من امرها يوم
لجأت الى النبيل دروجينا موروزوف فمطف عليها واتخذها زوجة له ليرد
عنها كيد مطاردتها . . ثم تمثل امامها نفسها الرهيب لزوجها على الامانة
والاخلاص ، وما طرأ عليها بعد ذلك حين عاد حبيبها وقابلته . . فقد أذكى
ذلك نار الحب في قلبها وزادها وجداً وهياماً ، وصارت ان نامت او قامت
او مهما فعلت لا ترى الا " نكيئا ، نكيئا وحده ، في انسان عينها وضمن قلبها
وهي في كل ذلك مسوقة بمواطف خفية وقوة لا تقاوم . .

تمثل لهيلانة كل ذلك فاضطربت وارتعدت كأن حى شديدة
تسلطت عليها وتساقطت دموعها كوابل المطر . . .

وانها لفي هذه الحالة واذا بموروزوف قد دخل عليها وهيئة النصب
الشديد بادية على وجهه . فرعبها منظره وذعرت

وقدم موروزوف وهو يفحصها بنظره الحاد ثم قال - أخبريني
يا هيلانة عن سبب ارتباطك واضطرابك في أثناء المأدبة
وكانت هيلانة لا تزال ترتعش وترتجف وقد ملأها منظر زوجها خوفاً
فهمت ان قلتي بنفسها على قدميه وتعترف له بكل شيء .. ولكن خفقان
قلبها أبكم لسانها فأخذت الى السكوت .. وُخيل اليها ان زوجها قد لا
يكون أساء الظن بالامير نكيتا، فاشفقت عليه
ولما رآها موروزوف صامته أعاد عليها كلامه وهو لم يغير شيئاً من
هيئته ولهجته

فقلت وهي ترتعد - لاني كنت مريضة
قال - بل كنت خائفة ان ينكشف سرُّكِ وتظهر خيانتك . .
ولما رآها لا تحير جواباً تابع حديثه قائلاً - بينما كنت في صباح
اليوم أطلع في الكتاب المقدس عثرت على بعض ما ورد فيه عن النساء
الخائنات اللاتي يستوجبن عقاباً أليماً على غدرهن ، فان مثل من يتخذ
واحدة منهنّ متّسّلاً من يمسك عقرباً
فأنت هيلانة أينما سحرتا رقلت بصوت يذيب الجلود - لا تسيء الظن
بي يا سيدي . فانا بجملي لك ، محافظة على قسمي الذي أنسمته امام الله أن
أطيعك وأكرمك وأحبك

فاجابها بصوت يهدج خشونة - كذبت .. وأنتك بذلك لترتكبين
اتماً آخر . . فانت لم تحبيني قط ، ولم تكوني امينة لي ، بل خنتني وعبثت
بسرّي وصدعت قلبي .. فلماذا لم تقولي لي انك تحبين آخر ؟
فشرفت هيلانة بدموعها وقد فارقتها للزم وخانها الجلد

قَالَ مورو زوف وهو يزاد هياجاً وغضباً - لماذا أخفيت عني وقتئذ
انك تحبينه ؟

فلم تبد هيلانة حراكاً وأدركت ان زوجها عالم بالحقيقة ، فهاها الامر
وشعرت أن الارض تموج تحت قدميها

وعاد النبيل الى تنمة حديثه فقال - ولا أظنك تجهلين حالتك السيئة
يوم رأيتك في الكنيسة قبل عقد زواجنا ولم يكن لك نصير وقد كادوا
يكروهوك على الاقتران بالامير اناسي فيازيمسكي ، فانتشلتك من مصيبتك
وضممتك الي على امل ان تكوني لي امينة ، ولم أدر أنني اتخذت لنفسي
أفقى تهش لمحي وتلسع قباي . . وقد وعدتني بالأخلاص والامانة ولكنك
كنت تخفين عني حبك لغيري ، فكنت معي وقلبك ليس لي . . فلماذا لم
تعترفي لي اذ ذاك بضميرك . . . أفسرك ان تحصني باسمي وتكثي عهدي . .
فما كان الا خلق بك وقتئذ لو ابتعت عن المال رقطعت الى احد الاتيين
من ان تخدمني شيتي وتكدرني صفري حياتي . . .

نجت هيلانة امامه وقالت - لم يخطر ببالني شي مما تتكلم به . . لانه
كان أشد في بلاد لتفا . . .

ولو انقضت صاعقة على رأس مورو زوف ما كانت لتؤثر فيه كما أثر هذا
الكلام . . ولكنه حبس انفعالاته وقل بصوت مرتجف - ولكنك بعد
عودته قابله . . نعم قابله في تلك الليلة عند سياج الحديقة . . وهناك
جددتما العهد على غفلة من الرقيب ، ولم تعلما أنني رأيتكما واطلعت على
غدركما . . أفهذا هو جزاء احسنني إليك وولائي له واتخاذي اياه بمنزلة
الابن الحبيب . . .

قال هذا وقد بلغ منه النفيظ مبلغه . فتناول من الجدار سيفاً كان معلقاً
للزينة ، فاستله وأنجه نحو الباب ، وقد أشعلته نار الغيرة وحب الانتقام
وكانت هيلانة لا تزال جاثية امامه ودموعها تتحدّر على خديها . فلما
رأته تناول السيف صاحت من كبد حرى - ماذا تريد ان تفعل ياسيدي ؟
فتبسم موروزوف عن كد شديد وقال - لا تخافي على نفسك ، فاني
لا أريد ان أعاملك بسوء ، وانما أريد . . .

وقبل ان يتم كلامه وثبت هيلانة فأمسكت به وهي تقول - خف
غضب الله ياسيدي وتبصر فيما انت فاعل ؟ . . انه لم يسئ اليك . . وانما
انا المذنبه فاقتلني وأرحني من هذا المذاب . . .

فدفعها موروزوف عنه ووثب الى الباب . ثم توقف فجأة لانه سمع
خارجاً ما استوجب انتباهه . فاصنى واذا به يسمع ضوضاء شديداً وقد
علت الاصوات وتبعها صوت طلق نار كهزيم الرعد . فأغلق الباب وأحجم
الى الوراء وهو كالمأخوذ

وأما هيلانة فظنت ان زوجها أمر بقتل الامير نكيئا . . فذعرت
وصاحته - ويلاه ! قد قتله . . ولكنه بريء براءة الملائكة من شرور
الناس . . نعم ان نكيئا بريء ايها القاضي . . فقتلني اقلني الان لاني لا
اريد ان أحيأ بعده . . اقلني لاني خنت عهودك وأذنت اليك واستحققت
عقابك . . واما الابرياء فلا تمسهم بمكروه . .

فخشي موروزوف ان تكون هيلانة قد أصيبت بمس من الجنون . . فشمع
بموامل تمزق صدره . .

وكانت الجلبة تزداد في الدار . فماد الى الباب ليتحقق ما حدث ،

فسمع صوتاً يقول - حذار ايها النبيل ! فان رجال الحرس هاجون عليك
يريدون سبي زوجتك ! ..

وكان ذلك صوت الامير نكيتا . وقد سمعته هيلانة ، فأبرقت عيناها
ولم السرور في وجهها . وتقدمت الى الباب كأنها تريد ان تراه ، فدفعها
موروزوف وأقفل الباب من الداخل ، وقد أسقط في يديه وضاع رشده ..

الفصل الثاني والعشرون

« الزناب الخاطفة »

ثم سمع موروزوف وهو داخل الخدع وقع اقدام تراكض وقمعة
اسلحة ، وقد ارتفعت الجلبة وعلا الصياح ، فخيل اليه ان معركة عنيفة تجري
في داره وهو لا يقدر ان يعرف من امرها شيئاً .. ولكنه ما لبث
أن شعر باقتراب القوم الى الخدع ، ثم بازدهامهم حول الباب كأنهم
يريدون اقتحامه

وفيما هو يتأمل في هذه الحالة القريبة ولا يدري كيف يؤولها سمع
صوت الامير اثناسي فيازيمسكي يقول له من وراء الباب - فتح ايها النبيل
والا " قوضت منزلك كله ! ..

فتحقق حينئذ موروزوف صدق انذار لامير نكيتا وكاد يفقد عقله
وواصل الامير اثناسي تهديده وهو يرفس الباب برجليه ويصيح -
افتح ايها النبيل فقد عيل صبري ! ..
فقال موروزوف - لا أصدق ايها الامير أنك تتقدم عني مثل هذه

الفعل الشنم الآ أن تكون مدفوعاً بنشوة الشراب التي دارت في رأسك
فعلت ما فعلت . . ولكن لا حرج عليك لأنك ضيفي . . والاولى بك ان
تعود الى سريرك وغداً تنسى ولا شك وأنسى انا أيضاً ما صدر منك الان
فهز الأمير الباب هزاً عنيفاً بيديه وقال - افتح ودع عنك هذه الاوهام !
فقال موروزوف - عدّ عما انت فاعل يا اثناسي لأنك امير ولست لصاً
قال - بل انا شرٌّ من جميع اللصوص وقطاع الطرق . . لاني من رجال
الحرس . وقد همت بزواجك ، فلابدّ من الحصول عليها ولو ركبت أخشن
المراكب وسلكت أنكر السبل

قال هذا ، هو والي دفع الباب ورفسه ، ويعاونه على ذلك بعض رجاله
الى ان قنح وهجم الأمير الى داخل الخدع وقد امتشق حسامه والدم يقطر
من جراح أصيب بها قبل وصوله . . فالضجراة لم يصل الى الخدع الا بعد .
عراك عنيف . . ولا شك ان الذي تصدّى له لم يكن سوى الامير نيكيتا . .
فلما رآه موروزوف هاجماً صوب غداة كانت بيده الى صدره وأطلق
النار والكرخانة . . فم يصب الأمير أذى ، رهجم من ساعته على
النيل وتبهم اصحابه ، فأصيب النبل بضربة من حسام احدكم كادت تكور
الماضية ، وسقط شيخ فاقده الشعور . .

وهجم الامير اثناسي بعد ذلك على هيلانة . وما كاد يمسي بيديه
الملطختين بالدم حتى طار صوابها ، فصاحت بصوت كأنه قطع احشاءها
وسقطت الى الارض مغشياً عليها . فاحتلها الامير بين ذراعيه وأسرع
تخرج الى حيث كان جواده فامتطاه وراح ينهب الارض ، وهيلانة امامه .
فاقمة الشعور

اما رجال الحرس فقد ركب نفر منهم وساروا يتبعون الامير ، وأقام
الباقون في منزل موروزوف يحرقون وينهبون ، وقد جمعوا من المال والحلي
والجواهر والطرف الثمينة النادرة ما لا يحصىه عد ، وتألبوا حول تلك الخيرات
ووجوههم طافحة بشراً ، ومتى خومياك بروح ويحي . وهو يقول بأعلى صوته
« اتها والله لغنيمة باردة ! ... »

فقال له احد الرفقاء - رأيت الان بعض خدام المنزل قد حملوا سيدهم
الشيخ موروزوف وعبروا به النهر . . فهل نتأثرهم ؟
فاجابه متى - دعم وشأنهم ، فان ذلك لا يهمنا
ثم قال آخر - وماذا ترى ان تفعل بالامير نكيتا ؟
فاجاب - كنت أود ان أروي خنجري من دمه ، ولكني عدت . .
لان من سداد الرأي ان نسوقه الى قرية الكسندروفالينال هناك جزء من
جنته يده . . أفلم تروا كيف ضرب الامير شناسي بحسامه حتى كاد ينحصر
نقاسه ، ثم قتل من رفقاءنا سبعة .

فقال بضعة اشخاص من رجال الحرس بصوت واحد - نعم نعم
رأينا كل ذلك

قال - أفتكونون شهوداً عليه ؟

قالوا - نعم ، فكلنا شهود

قال - اذاً لا تؤذوه ، بل ابقوه مكبلين بالاغلال ولا تغفلوا عن مراتبتنا
ومتى سقناه الى القرية وراه سيدي مانيوتا فانه يطير فرحاً ويشكرنا على
هذه الهدية النفيسة ، لان له ثأراً على هذا الامير ، وهو يترقب لانقام منه
لا سباب لا تجهلون بعضها

فقال بعضهم - وكيف نجعل هذه الاسباب ، وحادثة قرية الدب غير بعيدة العهد ...

وقال آخرون - وحادثة غياض الجاهلية ؟ .. فهل ننسى ما فعله هناك برقائنا ؟

قال - احتفظوا به اذاً ، لان سيدي ماليوتا أدري بمحاسبته على كل ما جتته يداه ...

وظل رجال الحرس يضرمون النار في جوانب المنزل وينهبون كل ما وصلت اليه ايديهم من افسس التحف حتى بزغ الفجر . ثم ساقوا الامير نكيتا وقللوا راجعين الى قرية الكسندروفاهم في احسن حالات السرور والطرب ..

وهكذا سقط ذلك المنزل العظيم بل القصر الشاهق وراح طعاماً للنار ...
فويل للظالمين الاشرار من الديان الجبار ! ..

اما سكان تلك البقعة من معارف النبيل موروزوف وجيرانه فقد رأوا ما حل بالقصر من الحريق والدمار ، فبكوا اسفاً وحزناً ، ولكنهم لم يجترؤا ان يتصدوا لمقاومة رجال الحرس ، بل بادروا فأوعدوا ابواب منازلهم وفرائصهم ترعد فرقا وقلوبهم ترتجف هلعاً ، وهم يسألون الله ان يرحمهم ويرد عنهم كيد الظالمين ..



واما الامير اناسي فظل يمدو مسرعاً وهو لا يلوي على شيء ، وقد سبق رجاله مسافة بعيدة ، وفي نيته ان يصل الى بلد قريب حيث كان

بانتظاره بعض اعوان له أقامهم هناك ليأخذوا هيلانة الى مدينة ريزان . .
ولكنه ما سار قليلاً بعد ذلك حتى رأى انه قد ضل الطريق وسار في
جهة اخرى . وقد شعر ان جراحه التي لم يهتم بها في اثناء هياجه لا تزال
تقطر دماً وأحس منها بالآلام لا تطاق ، فوقف جواده وقال لهيلانة - ان
رجالي ايها السيدة قد تأخروا كثيراً . . فلا بد من الانتظار !

وكانت هيلانة لا تزال الى ذلك الوقت فاقدة الشعور . غير انها لما وقف
الجواد فتحت عينيها ، فأتت عن بعد حريقاً هائلاً ، ثم أبصرت الغابة والطريق .
ثم شعرت انها ملقاة على ظهر جواد . . فجعلت تنبه دماغها للتذكر وقائع
الليل . . فتذكرت المأدبة وحفلة التقبيل . . وما لبثت ان شعرت بذراعي
الامير اثناسي تطوقاتها وسمعت صوته ، فاخترج جسمها وذعرت ، ثم
صاحت من الخوف وعادت فأغمضت عينيها . .

فنظر اليها الامير وقال وهو يتسم - عجباً يا هيلانة ! فما الذي يخيفك
مني ؟ . . اني أحبك بل أعبدك . وقد خصصت بك قلبي وأمياي وافكاري
فلا تنفري مني وقد صرت في حوزتي ! . . أنك ستكونين معي أسعد من
ملكة نحمد ، وستقضين حياتك في أتم الراحة والسرور . . فأزيلي من
صدرك ما كنت تضررينه لي من النفور والكراهة واسي ذلك الماضي
بأكداره وسيئاته

فجهدت هيلانة نفسها وقالت له وهي ترتعش وتضطرب - اذا لم يكن
فيك ذمة ايها الرجل ، فاذكر على الاقل انك امير . . وعار عليك ان
تقعد شرفك وتبلغ بك النذالة الى هذا الحد
قال - اني فقدت كل شرف وكل حياء . . وقد بعت كل شيء حباً

للحصول عليك يا فاتنتي ١ . فنظرة منك تشرح صدري وتملكني ناصية
الكون وتبليني اوج السعادة

قالت - أفلا تخاف غضب الله ويوم الموقف الرهيب ؟ .. أفلا
نخشى ان تهلك نفسك ويكون مصيرك الى جهنم النار ؟

قال - لقد مضى الوقت ايها المفضاة ونفسي هالكة لا محالة .. لان
من يكافى الخبز والملح بمثل مكافأتي فلا يرجون خلاص نفسه .. والخلاصة
فانا في هذه الليلة قد فقدت نفسي وشرفي ولم يمد لي مطمع في الرجاء
والرحمة .. وثقي بأنني لا أريد سعادة الفردوس بجانب رضاك والحصول
عليك ، فأنت منائي وأمل في العالم كله وسأمت على هواك

وما قل هذا حتى شمر بانحلال قواه ، لان الدم لم يزل يتدفق من
جراحه وهو لا يدري ماذا يفعل ..

ثم أظلمت عيناه وكاد يغب عن الوجود . ولكنه تجلد وعاد الى
الكلام فقال - اني اشعر الآن ان ساعتني قد دنت ، فقد نزع دمي ولا
سبيل الى وقفه .. ونصاري ما أرجوه منك يا هيلانة ان تحبيني ولو في هذه
الدقائق الاخيرة فقط حتى لا أسلم نفسي للشيطان عبثاً . فاشفي علي يا فتنة
قلي وقاتلة نفسي ! ..

وأراد بعد ذلك ان يضمها الى صدره ، فخافته قواه ووقع الاجام من
يده ، فسقط الى الارض ، واستوت هيلانة على ظهر الجواد وأرادت ان
تقفه فجرح بها وراح ينهب الارض وهي لا تقوى على ردهه فتمسكت بشعره
واستسلمت للقضاء

اما الجواد فعد بها في تلك الغابات . ولم تكن هيلانة تبصر غير

الاشجار . ثم صارت تسمع صوتاً بعيداً لم تلبث ان عرفت انه صوت رحي طاحون . ثم رأت ضوءاً ضئيلاً والجواد يسرع الى جهته . . وما هي الا بضعة دقائق بعد ذلك حتى وقف الجواد بفتة ، فشمرت هيلانة ان ضيابة كثيفة قد غشت عينيها ، فسقطت الى الارض

الفصل الثالث والعشرون

« الطيامة »

ولما فتحت هيلانة عينيها رأت نفسها على بساط من الكلا الناعم ، وسمعت بالقرب منها خرير الماء ، فظنت لاول وهلة انها في حديقتها ، ومن حولها وصائفها يصفرون شعرها في ذلك اليوم الذي ابصرت فيه الامير نكيتا عائداً من بلاد لتفا . . فرفعت رأسها لتناديهم . ولكنها بدلاً من ان ترى وجوههم الغضة أبصرت شيخاً بلحية كثيفة بيضاء كالثلج ، وقد انحنى فوقها يتأمل وجهها ويقول : « عجباً ماذا أرى ؟ . . فهذا جواد الامير اناسي هيازيمسكى . . وأما هذه السيدة فمن تكون ؟ . . ولا غرو ان حملها الجواد الى هنا لانه قد تمرد السكان . . »

وكانت هيلانة قد رأت الشيخ وسمعت صوته ، فذعرت وظنته احد آلهة الغابة . . ولما ملكت روعها وقعت على قدميه وقالت - ابتهل اليك ايها الشيخ الجليل ان تقبلي وتخبأني عندك ان كان في قلبك موضع للرأفة ! . .

ولم يكن هذا الشيخ سوى الطحان الذي عرفه القارىء من بعض
الفصول السابقة من هذه الرواية

فلما سمع كلام هيلانة ورأى ما هي فيه من الكآبة والحزن اخذته
عليها الشفقة وعزم على اغاثتها ، وقد خطر له في الحال انها ربما تكون زوجة
النبل موروزوف التي هام بها الامير اثناسي فيازيمسكي وكان يختلف اليه في
كثير من الاوقات ويطلب مساعدته للحصول عليها لانها لم تكن تميل
اليه .. فلعل الامير ظفر بها أخيراً ، ثم فرت هي منه على جواده الخاص ..
ولما خطر له ذلك هس لهيلانة وبش وقال لها - ليكن الله معك ايها
السيدة ! فلا تجزي وثقي بأني سأحميك وأواريك عن كل انسان .. غير ان
الامير اثناسي شديد المراس ، فاذا عرف اني وجدتك واخفيتك فلا يكون
جزائي منه الا القتل

ففرست فيه هيلانة وقالت وهي متعجبة من أمره وخائفة منه - ومن
أين تعرفني ؟

فضحك الطحان وقال - كيف لا اعرفك وانت السيدة هيلانة قرينة
النبل دروجينا موروزوف ؟ .. اني وان كنت في هذه العزلة فلا يخفى علي
شيء من احوال الخلق ، لاني لا أقتر عن درس ابراج السماء ومراقبة
مطالع الكواكب .. وهكذا اعرف حوادث الغيب وغوامض الاسرار
قالت - اذا كنت مطلعاً على كل شيء كما تقول ، فلا يخفى عليك
اذا ان لا خوف عليك من الامير اثناسي ، فانه ملق الآن في بعض اطراف
الغابة مضرجاً بدمائه .. اما انا فقير خائفة منه ، وانما خوفي من رجاله
وذويه .. فأسألك ان تشفق علي وتؤويني

فأجفل الطحان عند سماعه ذلك وقال - وماذا حدث له ؟ .. ولكني
اعلم ان الامير انناسي لن يموت من ضرب الحسام ، فقد كتب له انه سيلقى
حظه بنير ذلك .. وعليه فانه سيقوم معافي ويبادر الى البحث عنك في كل
مكان ، فكيف تكون حالي معه اذ ذاك ؟

فدنت هيلانة يديها الى عنقها ، فانتزعت جوهرة بديمة كانت معلقة
فيه ، فناولتها للطحان وقالت - خذها والطف بي ووارني كيف شئت ...
لا تنجر احداً من البشر بوجودي عندك ، ولا تدع مخلوقاً سواك يرى
وجهي .. واذا انت احسنت العمل فسيكون لك غير هذه المكافأة

فأبرقت عينا الطحان عند ما رأى الجوهرة . وقد تناولها وجعل يقلبها
بين يديه على ضوء القمر . ثم التفت الى هيلانة بوجه يطفح بشراً وقال -
طبيبي تقساً وقرري عيناً لاني اعدك ببذل الجهد في مواراتك ولا اضن في
مسبيل ذلك ولو بحياتي . فلا تجزعي وعلى الله الاتكال

ولم يكد الشيخ يفرغ من كلامه حتى سمع وقع اقدام بعيدة . فأجفلت
هيلانة وقالت - اخفني ايها الطحان اكراماً لله ! .. فهام آتون
الى هنا ..

فقام الطحان لساعته وقال لها - لا تخشي بأساً يا سيدتي
ثم اقتادها بيده الى غرفة في الطاحون ، فأجلسها وراء بعض العدول
وخرج ، وقد اقل عليها الباب من الخارج ، وبادر الى الجواد فأخذه الى
جهة أخرى وراء الطاحون ، وعاد الى حيث كان مع هيلانة اولاً ، فسمع
وقع حوافر واصواتاً تقترب الى جمته ، فاسرع الى فراشه وأطفاً مصباحه ..
وما كاد يحنق حتى وصل رجال الامير انناسي . وكانوا قد عثروا على

الامير مطروحاً على الطريق ، فحملوه على حرج اي شبه نمش . ولما اتهموا الى الطاحون وقفوا ، فوضعوا الحرج على الارض وزجل الباقون . فقال احدهم - لا شك ان الجواد قد قصد هذا المكان لاني رأيت آثاره ..

وقال آخر - سنبحت عنه بعد ان ننظر في حالة الامير . فهل نقطع الدم ؟

فقال آخر - كلا فانه لا يزال يسيل من جراحه كمن قربة ، فاذا لم يتمكن الطحان من قطعه فاخلط بجميم
وقال غيره - علينا اذاً بالطحان !

ثم تقدموا الى باب الطاحون واخذوا يقرعون بعنف شديد . فتناوم الطحان ولم يجب . امامهم فأخذوا يشتمون ويتوعدون ويرفسون الباب بكل قوام . وما زالوا كذلك الى ان سمعوا سعالاً متقطعاً ثم ابصروا رأس الطحان قد برز من كوة صغيرة وقال - من انتم يا قوم ، وما غرضكم في مثل هذا الوقت ؟

فاجابه بعض الرجال بغضب شديد - اخرج ايها الساحر سريعاً وبادر الى وقف الدم من جراح الامير اثناسي . فانه أصيب بضربة حسام شديدة كادت تقضي عليه ، وقد أحضرناه اليك مشخناً بالحراح ومغشياً عليه من كثرة النزيف

فقال الطحان وهو يظهر انه لم يسمع اسم الامير - واي امير تعنون ، وابن هو الان ؟

فقالوا - تباً لك من احمق .. نحن في هم وخوف ، والامير في آخر

رمى من الحياة ، وهو يتسائل ولا يتحرك . . اكسروا الباب ايها الاخوان
واسحبوا الى هنا هذا الشيطان الرجيم ! . .

قال - على رسلكم يا احبابي . . فها نذا خارج اليكم . . فلا تفضبوا !
قالوا - هلم اداً بالمجلى ! فأقل ابطاءً ربما يذهب بحياة الامير
وما كادوا يتمون كلامهم حتى خرج الطحان من مرقدده وهو يسير
متثائباً ويقول - لا تسخطوا علي يا سادتي فاني كنت مستغرقاً في النوم
وقد ضعف في هذه الايام سمعي ، فلم أسمع نداكم . ولما قرعتم الباب خفت
خوفاً لا مزيد عليه اذ ظننتكم لصوصاً فاتهم كثيرون في هذه الجهات و . .
فقاطعه احد الرجال قائلاً - حسبك هدرأ . . وانظر الان لعلك تقدر
ان تقطع الدم ، فانه يتدفق بكثرة

فتقدم الطحان وتأمل جراح الامير وهو يقول - عجباً . . ومن ضربه
هذه الضربة الشديدة ؟ . . فانها لولا رحمة الله لكنت متعاضية

فتأنف القوم وقالوا - أفقدت ان تقف نريف الدم ايها الشيخ ؟

قال - بمنتهى الصعوبة . لان الحسام كان مسحوراً

فأجفل رجال الحرس وقتل واحد منهم - الان تحققت ظنوني . .
أفلم أقل لكم ان الحسام مسحور ؟ والآن لما استطاع الامير تكيئتنا ان يقتل به
سبعة رجال وكاد يلحق بهم الامير اثنا سي

فأجاب آخر وقال - لا شك في ذلك . . فمن أين له ان يفعل كل
ذلك لو لم يكن حسامه مسحوراً ؟

وكان الطحان يسمع ويتعجب وهو يتدبر الامر في نفسه ، ثم قال -

ولولم يكن الحسام مسحوراً لكنت على الفور قطعت الدم .. واما الآن
فاني أخشى ..

قالوا - وما الذي تخشاه ايها الساحر ؟

قال - أخشى ان ينقصد لساني فأصبح أخرس

فقال واحد من رجال الحرس لاحد رفقائه - هات كيس المال الذي

اصابنا من ثروة موروزوف لنضمن لهذا الدجال حل عقدة لسانه ..

قال هذا وتناول الكيس فأخذ منه مقداراً من القطع الذهبية وألقاه

في يد الطحان قائلاً - واذا أتقذت الامير ووقفت الدم فأعطيك غير هذا

ايضاً والا فاني اخطف روحك

فأشرق وجه الطحان سروراً عند نظره الى الذهب في يده وقال - بورك

فيك يا سيدي . اني وحقك لا بدلن كل ما في طاقتي لا تقاذ الامير من

خطر الموت ولو كان في ذلك حتمي . ولكن ارجو ان تنحوا عني قليلاً لان

الرقية التي اريد ان أتلوها لا يكون لها مفعولها امام شهود ..

ولما بمدا دنا من الجريح فقاب النظر فيه ثم ضمد جراحه وربطها وهو

يتم . فانقطع الدم . وتهد الامير ولكنه لم يفتح عينيه

فقال الطحان لرجال الحرس - تعالوا الان يا سادتي وانظروا فقد

وقفت الزيف وزال الخطر باذن الله . غير ان ذلك سوف يؤذيني لا محالة

وقد بدأت من الان أشعر ييبوسة في لساني

فتقدم رجال الحرس وتفرسوا في الامير فرأوا ان الدم قد انقطع

والامير ملق بلا حراك ووجهه شديد الاصفرار كأنه احد سكان القبور ..

فأخذ كبير رجال الحرس مقداراً آخر من المال فحق به الطحان وقال - خذ

ما وعدناك به . وانك ستنال اعظم من ذلك اذا برى الامير تماماً . . اما الان فقل لنا ألم تر جواده قد جاء الى هنا وفي صهوته سيدة ؟ . . فقد عرفنا من الآثار التي رأيناها على الطريق ان الجواد انما عدا الى هذه الجهة فخلق الطحان بينيه وفقر فاه كأنه لم يفهم شيئاً مما قيل له . . وقد خطر له في تلك اللحظة الامور التالية ، قال في نفسه : « لو كان الامير اناسي معاني فمن الحماقة ان أخفي عنه هيلانة . ولكنه الان في خطر عظيم وقد تكون ساعاته معدودة . . اما النبيل موروذوف فلن يتركني بدون جائزة سنية اذا أخفيت زوجته عن طالبها . . ويظهر ان الامير نكيتا ايضاً هائم بهذه الحسناء ، والا لما جاهد في سبيلها ذلك الجهاد وقتل سبعة حراس وكاد يلحق بهم الامير اناسي نفسه . . ولا شك اني سأنال منه ايضاً ما لا يمكنني ان أتصوره في الاحلام ، وأصبح بكل ذلك غنياً وأقضي بقية حياتي في الرغد ولهناء . . »

ولما خطرت في باله هذه التصورات أقسم لرجال الخرس انه لم ير الجواد ولا السيدة التي يشيرون اليها فصدقوه ثم قالوا - افتح اذاً غرفة من غرف الطاحون للامير فنيست عندك بقية هذا الليل

فقال - على الرحب والسعة يا سادتي . . ولكن ليس عندي عنف خيولكم ولا شراب وطعام لكم ، وانا هنا اكاد اتضور جوعاً . على انكم اذا سرتم قليلاً الى جهة الجنوب هذه تبلغون فندقاً رحباً تجدون فيه كل انواع الراحة المطلوبة للامير ولكم . . وفضلاً عن هذا وذاك فان الحشيش في

هذه البقعة قد يؤذي خيولكم . لانه في بعض ايام معلومة وهذا اليوم منها يكون ذا مزايا سيئة العواقب على الخيول وقد تموت حالا اذا رعت منه فذعر رجال الحرس حين سمعوا ذلك لانهم خافوا على خيولهم وبادروا الى الخروج في الحال من ذلك المكان المخيف . .

وكان الامير لم يزل في غيبوبته . فتقدم اليه بعض رجاله فخلعوه على الحرج وركب الباقون وساروا جهة الفندق . ووقف الطحان بشيمم بنظره حتى اذا تواروا عاد ففتح الطاحون ، وأسرع الى الغرفة التي اختبأت فيها هيلانة فنهاها بنجاتها وسلامتها . ثم أحضر ما تيسر لديه من الطعام والشراب فدعاها والحن عليها ان تأكل شيئا فامتنعت . . وكان هو قد جلس امامها يتربص ويقص عليها حديثه مع رجال الحرس عن الامير اثناسي فيازيمسكي ، وكيف انه لم يقبلهم عنده للمبيت بل صرفهم الى الفندق خوفاً عليها وقال - نعم أرسلتهم الى الفندق . . وقد يبحثون عنه حتى الصباح ولا يجدونه . ولكنهم لن يعودوا هذه الليلة الى هنا لانهم خرجوا وهم لا يصدقون بالنجاة . .

ثم شرب نخب الامير نكيتا وروى لها حديث جهاده في سبيلها وكيف انه كان سبب نجاتها من الامير اثناسي ، لانه ضربه بحمد حسامه ضربات كادت تودي بحياته كما أودت بحياة سبعة من رجاله . .

فأدركت هيلانة ان الطحان مطلع على حبها للامير نكيتا وأيقنت انه ساحر . وقد أوجست منه خوفاً عظيماً . . وكأنه علم بما ساورها فطمأئنها وسكن جأشها . ثم شرب نخبها ونخب النبيل موروزوف . . وظل يشرب ويسرد عليها اخباره وهو يبدى من الحركات ما يضحك التكللي ، حتى دبت الخمرة في رأسه فانطرح على الأرض امامها ونام

ولبت هيلانة في مكانها وقد تولاهما الجلود . ثم غاصت في تأملاتها
وهي تناجي الاشباح التي كانت تتمثل في مخيلتها وتعيد في ذاكرتها حوادث
هذه الليلة وما جرته عندها من اويلات . . فتمثلت زوجها الشيخ مضرراً
بدمائه ينظر اليها بعين الغضب واتوبيخ ويقول : « انت يا هيلانة سبب
شقائي وعلة مصائبي كلها . . . ولو كنت امينة في حقى لاحتملت احزاني
بالصبر الجميل . . غير انك قد جرعتني بخيانتك سماً هو امر من الموت . . »
ولما تصورت ذلك ارتجفت واستهات عينها بالبكاء . .

ثم تجلت امام بصرها صورة الامير نكيتا وهو ممتشق حسامه ، يحول
به فيطمن الأعداء ويوردهم حتوفهم . . وهو انما فعل ذلك كله في سبيل
الدفع عنها ، لانه يحبها ولا يخل ببذل مهجته وما يملك على مذهب عبادتها . .
ولذا خين اليها ذلك اشرق وجهها وتنفست الصعداء . . ولكنها
ما عتمت ان اضطربت وقالت في نفسها : « لقد سحق الشقاء قلبي وكسرت
المصابب نفسي ، واست اذى لي راحتي ولا مجيراً . . في الذي ارتجيه من
وجودي ، وما هي آمالي بعد الآن ؟ . . ان زوجي لا يتركني ونكيتا
لا يتخلى عني ، وهنا الشقاء كل الشقاء . . . آه يا موروزوف ماذا حل
بك ؟ . . وانت يا نكيتا هل تعلم ما تافيه من الغصص والاشجار . . . وماذا
يصيبني ان نزل بك مكروه بسبي . . . آه ما أنكد طائفي وشقي حياتي ! »
وظلت تندب سوء حظها بمثل هذا الكلام وهي مفرحة العنين منبهة
القلب حتى ابثق نور الصباح ولم تذق عينها غمضاً

الفصل الرابع والعشرون

« ميخيش »

وفي ثاني الأيام من دمار منزل النبيل موروزوف شوهد في طريق الغابة فارس كبير السن يسير بين تلك الاشجار سيراً حثيثاً ، وهو من وقت الى آخر يقف جواده فينصت قليلاً ثم يعود الى المسير ، وقد شخص بصره وتولاه حزن عظيم



ولم يكن هذا الفارس سوى صاحبنا ميخيش خادم الأمير نكيثا . فانه لما رأى ان رجال الحرس قد سافوا سيده الى قرية الكسندروفا ، وليس لديه حيلة في اتقاذه من هذه الورطة ، عزم على ان يستجير

بالطحان ، لعله لا يعدم عنده وسيلة تدفع عن سيده (ميخيش) خادم الأمير نكيثا المكروه . وقد خطر في باله حديث احد الصينيين اللذين اتقدهما الأمير من ايدي رحل 'خرس في قرية الذهب يوم كان عائداً من بلاد لفتا كما مر ذلك في حينه . فقد قال له ذلك الصي . « اذا احتاج الأمير مساعدتنا في شيء فاسأل الطحان عنا يرشدك الى مكاننا . . . »

ولما خطر له ذلك زال عنه بعض الاتقباض ، فركب جواده وانطلق وهو يود ان يطير الى الطحان لثلاثين وقت ويقضى الامر . وما زال جاداً في السير حتى انتهى الى الطاحون . فترجل وربط جواده الى جذع شجرة هناك ودنا من الباب فقرعه ووقف ينتظر . ولما طال به الوقوف اخذ يهرج منف وينادي الطحان بمن فيه ، فلم يجده ذلك نفعاً . فجعل يلعن

ويشتم ويتهدد باحراق الباب . وانه لكذلك اذا به يسمع سعالاً خفيفاً ،
ثم برز له رأس الطحان من الكوة الصغيرة ، وكانت فوق الباب . فتبسم ميخيش
وحياه بلطف . فرد عليه الطحان التحية وسأله عن غرضه ، فقال - أما عرفتني
ايها الصاحب ؟ فقد بت عندك ليلة مع سيدي يوم كنا عائدین الى موسكو
فتفرس فيه الحطان هنية وقال - كيف لا أعرفك وقد كنت آتئذ
مع سيدك الامير ، وجاء بكما الي بعض الاصحاب . . فاعرضك الآن ؟
قال - لي اليك يا سيدي الطحان حاجة مهمة . فأرجو ان تنزل الي ،
او تفتح الباب فأدخل وافضي اليك بفرضي
قال - لبيك ، فها نذا !

وبعد قليل فتح الباب وخرج الطحان فأقفله وراءه بكل عناية . ثم
جلس وميخيش في ظل بعض الاشجار وسأله عن غرضه ، فقال - لقد
حل بنا يا سيدي خطب جلر تهون المنية في جانبه . وذلك ان جل الخرس
قد ألقوا القبض على سيدي الامير وأخذوه الى قرية الكسندروف . ولعلهم
أودعوه هناك لتسجن ، وهو لم يقترب ذنباً ولا ارتكب وزراً ، وانما دافع
عن الحق وقام بنصرة النبيل موروزوف . . فان اولئك الاشرار البغاة قد
هجموا على منزل النبيل يريدون اختطاف زوجته

فأظهر الطحان دهشة عظيمة من هذا الحديث وقر - اجل ، ان
سيدك الامير نكيتا في منتهى الحزن في سجنه ، والشيخ موروزوف في
أنقص عيش لتمدي رجال الخرس عليه واختطف زوجته ، والامير انساني
فيازيتسكي في اعظم الحزن والناء جزاء فعلته - - وجيهم تسد أصيبدو
بسبب المرأة

فذهل ميخيش وقال - ومن انباك بكل ذلك ؟ .. اني لم اقل لك شيئاً

فاجاب الطحان باسمًا - وهل تظن اني اجهل كل ذلك ؟ .. فاعلم يا صاح ان الطبيعة لا تبخل عليّ هنا بشيء من اسرارها . فاني ولئن كنت معزلاً الناس فانما مطلع على امورهم ولا يفوتني شيء من احوالهم واسرارهم فأطرق ميخيش وهو يتأمل في كلام هذا الرجل المعجيب ويستقد فيه قوة خارقة .. ثم رفع رأسه وقال - وبما لك تعرف الغوامض واسرار الغيب فقد جئت أسألك ان لا تبخل عليّ بوسيلة أتمكن بها من الافراج عن سيدي .. ولقد قال لي ذلك الرجل الذي رافقنا تلك الليلة الى هنا وعرفنا بك : « اذا احتاج سيدك يوماً الى مساعدتنا فأت الطحان واسأله عن برستن وهو يرشدك اليّ » .. وعليه فاني ألتبس منك يا سيدي الطحان ان تغيبني .. دلني على برستن انشأنا به ، فلعل في امكانه ان يفعل شيئاً لخلاص سيدي . واذا تم لنا الحظ وخرج الامير من سجنه فان أنسى معروفك رخصت . رخصت سيدي لكل ما تصبو اليه نفسك ويشتاقه قلبك

فهز الطحان رأسه ونظر الى الارض وهو يتمتم ثم رفع رأسه وولفت لي جميع الحيات وعاد يتمتم وييدي من الاشارات والاقوال ما دهش له ميخيش ، وقد أخذه الدهول الشديد . وابست بنظر الى الطحان وهو يتوقع منه حلاً للامر اورياً صالحاً فيه بعض الفائدة

وطال انتظار ميخيش ، والطحان لا ينظر اليه رقبة أمعن في حركاته

وتعتمته . فقال ميخيش - أرجو ان يكون قد فتح عليك برأي يحقق أمني
أو خاطر تنفغي به

فقال الطحان وهو كمن هب من غفلة - لم أر لا ان تعجل الاجتماع
يرستن لأنه زعيم عصاة قوية من اللصوص تخشى الحكومة سطوتها
بعض الاحيان . وهو اذا اراد امرأ تم له ما أراد ، ولديه لذلك كل الوسائل
وليس لاحد من الناس ايا كان ان يفعل فعله في مثل هذه الاحوال .
فاقصده من فورك وأفض اليه بمحدثك ، فيكون لك ما تريد ان شاء الله
قال - وكيف أجده ؟

قال - سر في طريق هذه الغابة وياك ان تنحرف يمنة او يسرة بل
تابع سيرك الى الامام . وبعد مسير نحو ثلاث ساعات ترى امامك بين
الادغال كوخاً كبيراً ليس فيه احد . فانتظر هناك حتى اذا حيه الظلام
يقبل اليك جمهور من الاصحاب فاعب لزيمه راخبره خبرك . هنا أسأل
الله ان يوفق مسعاك ويظفرك بأمنيتك . ولا تنس ان تعود الى هنا بعد
فراغك ، لان لي اليك حاجة مهمة . . فقد وقعت الحزمة الجميلة في الفخ . .
فتأخذها وتقاسمني الفدية . .

ولما قال هذا نهض حالاً وعاد الى مرقدته وأتم بسب . وبه ينهم
ميخيش شيئاً من كلامه هذا . وقد ازداد ذهوياً فقال بأعلى صوته -
أخبرني بربك عن هذه الحزمة الجميلة وما شأنها . . اتى لم أفهم مرادك !

غير ان الطحان لم يجبه بشيء . . .

ونبت ميخيش ينتظر الجواب ولكن على غير جدوى . فامتد غيظاً

وبادر الى جواده فامتطاه وسار ينهب الارض قاصداً الى الجهة التي أشار
اليها الطحان

الفصل الخامس والعشرون

« وما جزأ الوصاة الو الوصاة »

لم يهتد ميخيش الى الكوخ الذي اشار اليه الطحان الا بعد الجهد
والعناء . وكان قد أقبل المساء فترجل عن جواده وربطه الى جذع شجرة
قريبة ثم دنا من الكوخ فقرعه ووقف ينتظر . ولما لم يسمع احداً رفسه
برجله دفعات متوالية ، ففتح ودخل وهو مبجل الافكار مضطرب الحواس
وقد وقف يتأمل الكوخ وما فيه من الائنات فرأى في مكان منه اثواباً
مختلفة الازياء . وفي مكان آخر قدوراً وغيرها من آنية الطعام . ورأى ايضاً
ايقونات وبعض صور القديسين معلقة هنا وهناك على الجدران . . وكان
الضلام قد ملأ المكان . فأبصر ميخيش في الكوخ مصباحاً صغيراً أشعله ثم
تعدّد في زاوية من الكوخ وأطلق النيران لانكاره فسبحته في عالم الخيال
وقد خامرته المخاوف والوساوس . ولكنه ألقى على الله اتكاله وبات ينتظر
قدوم رجال العصابة

وانه لذلك اذ سمع وقع اقدام تقترب . ثم دخل الكوخ رجلان لم
يشك ميخيش في انهما من العصابة . وما أبصرهما حتى استغربا امره ووقفا
ينظران اليه وينظر اليهما . ثم قال لهما - هل لكما ان ترشداني الى برستن ؟
فقال له احدهما - اذاً فانت تريد مواجهة "زعيم" ؟ فما قليل يصل

وما فرغ من كلامه حتى دخل الكوخ بضعة رجال وتلام بضعة اخرى حتى ازدحم المكان بالأقدام . وفي آخر الجميع دخل رجلان احدهما كهل والآخر شيخ قد وخطه الشيب . فقال ميخيش احد الرجلين للذين دخلا اولاً - ها هو الزعيم قد حضر ومعه نعم كرشون

وكان برستن بمحان دخوله قد رأى ميخيش وعرفه . فمّس له وقال - اهلاً بك وسهلاً ايها الصديق ! فما الذي قد بك الينا ؟ وكيف حال سيدك الامير بعد ان فتكنا برجال الحرس في غياض الجاهلية وأتقنا ولي العهد ؟ فلا بد ان يكون الملك قد أنعم عليه بما نستحقه شهامته وبسالته

فقال ميخيش متهدداً - ان انعامات الملك كثيرة ! ولكن سيدي الامير لا يستحقها ولا يريد . . . لانه يكره رجال الحرس كرهاً شديداً . وهو لا يكاد يفرغ معهم من امر حتى يشتبك في غيره اشد اشكالا منه وغموضاً ، لانه يدافع عن الابرياء جهده ، وهم يظلمون هؤلاء الابرياء ويضطهدونهم ، ولا عمل لهم الا هذا . . . فبعد ان نجى سيدي من غضب الملك بعد موقعة قرية الدب التي تهدها تعرض لرجل الحرس ثاية في غياض الجاهلية وخلص ولي العهد . وكانت ليلة امس لواصة الثالثة ، فقد قتل منهم سبعة رجال وكاد يقضي على اميرهم اثناسي فيازيمسكي حبيب الملك وأحد زعماء الحرس . الا انهم هذه المرة قد غبوه بكثرتهم . ثم أوتتوه وساقوه الى السجن حيث يكابد الان منهم ومن ماليوت سكورا توف على الاخص جميع اصناف العذاب وهو مثقل بقيوده لا يستطيع ان يدافع عن نفسه . . وهذه المرة اذا لم تساعدنا العناية يقضى على سيدي المضاء بليرم

فقال برستن بدهشة - عجباً ! أفيد يعاقب ملك ماليوتا على فعلته ؟ .

وكيف تركه بعد الذي ظهر منه من الالقاء على اغتيال ولي العهد . . . ان ذلك لمن الغرائب والمدهشات . . . ولكن هات الآن نبأ عما يتعلق بفرضنا . . . تقول ان الامير نكيتا في السجن . . . فما الحيلة للوصول اليه ؟

فقال ميخائيل - ذلك ، وكول اليك ، وليس من يعول عليه في هذه المهمة الا انت . . . ولقد كنت اليوم عند الطحان وابأته بالحادثه فقال لي قابل ازعيم برستن في الحال يكن لك ما تريد وتبلغ غاية القصد . . . وها اني قصدت اليك يا سيدي فلا تخيب أمني

فأطرق برستن هنيهة ثم قال - وهل انت واثق بان الامير قد زج في السجن . . . واين . . . افي موسكو أم في قرية الكسندروفا ؟

قال - نعم . . . وفي قرية الكسندروفا . في السجن الكبير
قال - واما اعرف هذا السجن جيداً . . . وقد علمت ان مالىوتا نفسه يقفله كل مساء بيده ولا تفارقه مفاتيحه لحظة

قال - نعم ان مالىوتا هو امين المفاتيح ولكنه بعد ان يتعهد السجن ويعتدب " جناً " اخبره كل ليلة الى ان تقصر ويسامها للملك ، وهذا يضعها تحت رسادته

فهز برستن رأسه وقال - ليس الامر بسيطاً يا عزيزي ميخائيل .
واذا لم تحدث أعجوبة سماوية فسيترك هالك لا محالة ، اذ لا سبيل الى الوصول اليه الا اذا كانت المفاتيح في غير القصر

فاحدثت من قلبي ميخائيل دمعان محرقان مسجما بكمه وقال -
وانا لا أدري كيف السبيل الى ذلك . . . فلم يبق لي وخالة هذه الا ان انطلق اية الى السجن وأموت الى جانبه

وكان برستن قد تأثر بلواه وهبت في صدره عاصفة الاقدام وعزم على ان يحاول اقتاذ الامير ولو ركب الى ذلك اخشن المراكب خطراً.. فقام للحال واقرء بكرشون وقال له - تعلم ان للامير نكيتا علينا ديناً كبيراً ، فقد خلصنا كليتنا من الموت الاحمر ، وقد حاز لنا الآن ان نقيه دين المعروف هذا ونقوم بحق الجليل . فهل توافقني على ما عزمتم ؟
فهز كرشون كتفيه وقال - ولكن انى لنا ذلك والامير في اعماق السجن وليس لنا ولا سبيل للوصول اليه

قال - يجب ان نحاول ذلك ولو جارفنا بحياتنا
قال - ولكن هذه المجازفة ضرب من الجنون بل اشد انواع الجنون..
ومن نحن حتى نتحتم السجن وتقاوم السلاطة ؟ واين رجالنا لذلك واين اهبتنا ؟
قال - نحن لا نريد ان نعلن حرباً على الدولة !.. ولكتنا تقدم على عملنا بالحيلة والروية .. وقد لا نعلم وسائل عدة تدل امامنا كل صعوبة وتنبئنا بغيبتنا

قال - مهما تكن الوسائل فانما تكون في جميعها كالباحث عن حقه بظلمه
قال - قد يكون ذلك ايضاً . ولكن ما جزاء الاحسان الا الاحسان..
فنحن ايها العم كرشون لولا يد الامير نكيتا لما حيينا الى الآن .. نعم لولاه لكان رجال الحرس قد قطعونا ارباً ارباً وأطعموا الكلاب لحمنا .. فكس فطرة اذاً من دمائنا انما نجري بفضل الامير واحسانه .. وها ان الامير قد وقع الان في الفخ . فهل من الدروءة ان نعرض عنه ونفق معروفة ؟ وهل من الشرف ان نتخلي عنه وننسى فضله علينا ؟

قال - ولكن ما حيلتنا في ذلك ؟ .. فهل فتح عليك بشي ؟

قال - لا . وقد نرى هذه الليلة ما نجمع عليه الرأي
قال - اسمع لي ان أخالفك هذه المرة ولو ساءني ذلك وساءك . فاذهب
وحدك ان شئت وخذ من رجال العصابة من شئت ، ودعني أقضي بقية
حياتي في هذه الفلوات ، لاني غير راغب الآن في المشقة ولا اريد ان
أموت حرقاً او قطعياً او بغير ذلك من ضروب القتل الشنيع
قال - انت وشأنك . فابق حيث شئت وسأنتظرك حتى الصباح ،
فان لبثت مصرّاً على الرفض انطلقت وحدي .. وقد لا يعدهني الله غيرك
في هذه المهمة

قال برستن هذا وخرج من الكوخ جالس على جذع شجرة قريبة
وغرق في تأملاته . ثم عاد فقال للصوص - قد حانت ساعة الرقاد . فمن
اراد منكم فليصل

فقام الصوص واضطجع بعضهم ولبث الآخرون يصلون ويتضرعون ،
وقد أكثروا من الجنو والورع ولا سيما توما فانه بقي يصلي بعد الجميع . ومن
راه على تلك الحالة جزم بانه اكثر عباد الله صلاحاً وتقوى ..

ورقد الصوص . وسمع ميخائش بعد ذلك غطيظهم . ثم رأى كرشون
قد نهض من مضجعه فدنا من بعض الايقونات وجثا وأخذ يقرع صدره
ويصلي بمنتهى الحرارة والتخشع ، والدموع تسيل على خديه .. فتعجب
ميخائش من امره وأيقن أن لهذا اللص الشيخ شأناً لا يعرفه احد
من رفقائه ..

ولما فرغ كرشون من الصلاة عاد الى مكانه وقد أفلقت افكاره فلم يستطع
نوماً ، ولبث يتقلب من جانب الى جانب حتى بدت طلائع الفجر ، فقام الى

حيث كان برستن فأيقظه وقال - اني اتبع لك من ظلك ايها الزعيم ، فقدني الى حيث تشاء ولو كان في ذلك منيتي . . .

فدهش برستن وقد سُرى عنه وقال - وكيف ذلك ؟ وما الذي غير عزمك وحملك على مجاراتي في هذه المجازفة ؟

قال - افكاري . . فقد حرمتني النوم اربع ليل متتالية

قال - وهل تسير معي ولن ترجع حتى تبلغ الغاية ؟

قال - وهل عندك شك في ذلك ؟

قال - بورك فيك ايها العم كرشون . . فهذا ما كنت اتوقعه منك قياماً بهذا الفرض المقدس الذي علينا كلينا للأمر نكيتا . . فكم بقي من الليل ؟

قال - لم يبق شيء . فقد انبلج الفجر

قال - أيقظ توما . فاننا باحتياج الى مثله في هذه المهمة . وسأحدثك بما عزمتم عليه . .

وما فرغ الثلاثة من النأهب حتى كان جميع اللصوص قد قاموا . . فانبأهم برستن بانه منطلق مع كرشون وتوما الى قرية الكسندروفا . وأخبرهم ما ينبغي لهم ان يفعلوا وكيف وفي اي مكان . . ثم ودعهم وودع ميخيش وقال له - اذهب انت لشأنك ورافقنا بدعائك

ثم خرج ومعه كرشون وتوما

الفصل السادس والعشرون

« في السجن »

في سجن مظلم ، ممظمه داخل في الأرض ، كان الامير نكيتا مكبلاً بالقيود ، وهو في اشد حالات الكآبة والحزن ، ينتظر الموت ويرجوه لينجو من الآلام الشديدة التي كابدها وهو في تلك الحالة

ولم يكن يعرف كم يوماً مضى عليه منذ دخوله السجن ، لأن نور الشمس لم يكن يتغذ اليه وهو تحت الأرض . غير انه كان يسمع من وقت الى آخر قرع الاجراس ، فعلم انه قد مضى عليه اكثر من ثلاثة أيام وهو في تلك الظلمة المدهمة . وقد خارت قواه وبرح به الجوع والعطش ، لانه لم يدخل فاه القوت ولم يذق جفناه الكرى منذ دخوله الى ذلك المكان ..

ولم يكن يشغله وهو في حالته تلك الا تذكر ما جرى . فكان يقضي الساعات الطوال كل يوم وهو لاد بافكاره ، يناجي نفسه بما كان وبما سيكون ، والعوامل الشتى تتنازعه والنار ترعى قواده ..

لم يدرك نكيتا ماذا حل بهيلانة ، ولا ماذا جرى لموروزوف . وانما عرف ان الامير انساني لا يزال حياً ، وانه قد صرع موروزوف وسبي هيلانة ، وان رجال الحرس قد دمروا منزل النبيل ونهبوه ، وانهم انما فعلوا ما فعلوه من هذه الفظائع برضى الملك نفسه ..

ولم يبق عنده شك في ان موروزوف قد وقف على سره ، وأدرك علاقته بهيلانة ، وهيام هيلانة به .. ورجع الى اول عهده بهذا الحب ، وكيف

نشأ وانتهى بين الزعازع والاهوال ، وكم جر من الولايات على الحبيب
والزوج معا ..

وود نكيتا ان يكون موزوزوف باقياً حياً ليطالب بحقه وينتقم لنفسه
من الغاصب .. وود ان يظل هو ايضاً حياً ، وأن يخرج من السجن بضعة
أيام فقط ، لينتقم لهيلانة ويستغفر موزوزوف ويقفه على طهارة زوجته ، ثم
يعود فيموت قرير العين ناعماً البال ..

ولكنه كان اذا بلغ بفكره هذا الحد من التأمل يتمثل موزوزوف
جثة هامدة ، وهيلانة في حوزة الأمير اثناسي وهو يسومها المذاب الوانا ،
وهي بلا نصير ، - فينفطر قلبه حزناً وتثور في رأسه سورة الانتقام ..

وفيما هو مستغرق في مثل هذه التأملات في صباح اليوم الرابع من
اعتقاله سمع حركة بعيدة فأصغى واذا به يسمع صريف الباب الخارجى للسجن ،
فأيقن ان الساعة قد دنت واستسم لتقضاء .. ثم سمع فتح باب الثاني .
واخيراً فتح باب حجراته فأبصر رجلاً بثياب جنّاديين قد دخل ويده
مشمعل كبير . ثم تبعه رجلان آخران عرف نكيتا للحال انهما مالبوتا سكوراتوف
وبوريس غودونوف . فلما اقتربا منه وقف مالبوتا امامه ونظر اليه وهو
يتبسم تبسم الازدراء والشماتة ثم قال - أسعد الله صباحك ايها الأمير
وزادك عظمة ومجداً .. !

فان له ذلك بصوت يشبه مواء الهرة وقد دنت من مصيدة الفأر
وكان الأمير قد سرت رعشة في جسمه ساعة رأى مالبوتا وسمع

صوته .. ولكنه أعرض عنه بأقّة ونظر الى بورييس غودونوف وقال -
أشكرك يا بورييس لانك زرتني في هذا المكان الموحش ، فهوت علي
بذلك الموت

ثم مد اليه يده الموثقة ، يريد ان يصاحفه . فأحجم بورييس عنه الى
الوراء كأنه لم يرتك اليد ، ولم يقل شيئاً
فقال له الامير - لم أكن أنتظر منك مثل هذا الجفاء .. فلمالك لم
تأت الى هنا الا لترى اتقاذ الحكم في .. !

ثم تهد من قلب جريح وخرجت من بين شفثيه زفرة تدلّ على حرارة
النار المتأججة في صدره

فأجابه بورييس بملء السكينة - لقد جئت وماليوتا بأمر جلالة الملك
لنسمع اقرارك .. وهذا كل ما في الامر ، ولا شأن لي معك غير هذا
فلا تزعم اني من مريديك مادام الملك ناقماً عليك
فلما سمع الامير ذلك نظر الى بورييس متعجباً ، وقد اشتد حزنه والنهب
قلبه ولم ينبس ببنت شفة

ومضى بورييس في حديثه فقال - وقد مضى زمن الرحمة والمفوّ .
ولا اخالك تنسى قسمك للملك على ان تكون خاضعاً لاحكامه في كل
شيء .. فان اعترفت لنا الآن بجريمتك بكل تفاصيلها يحكم عليك بالاعدام
السريع ، والا فانك تعرض نفسك لأشدّ العذاب
ثم قال لماليوتا - هيا بنا نسأله عن الحادثة !

فقال لماليوتا متبسماً .. رويدك يا بورييس ! فأذن لي مع سموه حساباً
قديماً ولا بد من إفائه اياه ..

قال هذا وأمر الجلاد ، فركز المشعل في الارض ، ثم عمد الى قيود
الامير فقصرها وشدها شداً محكماً

وتقدم ماليوتا بعد ذلك فانحنى لنكيتا ، ثم جثا امامه وقال بلهجة المهكم
الساحر - تعطف الآن ايها الامير الجليل على عبدك هذا الدليل الجاثي
امامك خاضعاً صاغراً . . وارمقه بنظرك السامي والنفاتك العالي . . فانا
يا مولاي لم يتح لي قبل الان أن ادنو من امثالك بمثل هذه المهمة الخطيرة . .
واني لمثلي ان يدنو منك وانت سليل الامراء الفخام وفي عروقتك دم الكرامة
والمعظمة ، وهو كما يقولون ليس كالدم الذي يجري في عروقتنا نحن السوقة . .
فأذن لي ايها المولى الكريم ان أمتع بصري بمشاهدة هذا الدم الشريف
لاتحقق صدق القائلين ، وتدب في الجراة لمخاطبة أمثالك

ثم اخرج من تحت رداثه خنجرأ صغيراً وزحف نحوه . .
فارتعد الامير وصعد الدم الى رأسه . . وهو لو كان مطلقاً لهُجَم على
ماليوتا فقطعه وسحق رأسه بنعله . . وقد نظر الى بوريس ثانية ، فرآه
جامداً لا يتحرك . .

وتابع ماليوتا كلامه فقال - ثم اسمح لي يا سيدي ان أتخذ من جلد
ظهرك سيوراً لحذائي ، وأجعل لحك الفاخر طماماً لكلايي . .
وكان ماليوتا في اثناء ذلك يتلون بهيئات مختلفة ، وصوته يرتفع
وينخفض ، فيحاكي تارة عواء الذئب وطوراً مواء الهر

وكان ذلك أكثر مما يمكن نكيتا احتمالاه . . . انه لم يرهب الموت قط .
وقد سار اليه يوم حكم عليه الملك يوحنا بالاعدام غير هياب ولا وجل . .
وأما ان يرى ماليوتا بتلك الهيئة ويسمع تهكمه بتلك النغمة فكان اشد عليه

من الموت. وقد تمنى لو ان صاعقة اقمضت عليه في تلك الساعة فسحقته من ان يرى ويسمع مثل ذلك وهو مقيد اليدين والرجلين لا يستطيع الى الدفاع عن نفسه سبيلاً . . . فأنّ ايننا محرقاً ولم يتكلم . .

وكان ماليوتا ينظر اليه وهو في منتهى الطرب والحبور . ثم رمى من يده الخنجر واتصب واقفاً وقال وقد تغيرت نعمة صوته فجأة - دعني أفيك الدين الذي لك عليّ في غياض الجاهلية . وعلى بعض رجالي في قرية الدب . وعلى غيرهم في منزل صديقك الاحق موردوزوف . .

ثم صر بأسنانه ورفع يده ليضرب الامير على وجهه . غير ان بوريس غودونوف وثب اليه فأمسك يده وقال - حذار من مثل هذا العمل . . فائما نحن هنا الآن لناخذ اقرار الأمير لا لنماقيه . فاذا لطمته فانه يضرب برأسه الحائط فيشقه ولا يبقى من نساءل ونستنطق

فزار ماليوتا قائلاً - دعني أفيه دينه ولا تعترضني بشي . . فأمسكه بوريس بكفتا يديه وهو يقول - ترونيما انت فاعل . . فلن أدعك تجري شيئاً من هذا

وكان ماليوتا في تلك اللحظة قد أصبح كوحش ضار أبصر دماً فهاج وماج ولم يرد ان يفهم شيئاً . وحاول التلصص من بين يدي بوريس ليهجم على فريسته فلم يتمكن . ونشب بين الاثنين عراك شديد ، كان مايوتا في اثنايه يهيج ويلعن ويتهدد ، وقد صدم في اثناء ذلك المشعل فقلبه ، وداسه بوريس بقدميه عمداً فانطفأ ، وأصبح الجميع في ظلمة حالكة

وكان ذلك أعاد الى ماليوتا رشده ، فصاح ببوريس وهو يتلذع غضباً - حسن . . فسا شكوك الى الملك لانك تدافع عن عدوه !

فأجاب بوريس - لك ان تفعل ما تشاء .. واما انا فسأفضي الى الملك بالحقيقة وأخبره بانك أردت ان تقتل الامير قبل الوقوف على اقراره مما يدل على انك تخشى ان يفتضح امرك وبطلع الملك على بعض جرائمك الخفية فلم يجب ماليوتا بشيء .. بل أسرع فخرج من الحجرة ثم من السجن وهو يشتم ويزجر ، وقد أمر الجلاد بالخروج معه فخرج ايضاً .. وانهز بوريس هذه الفرصة فتقدم الى نكيئا وحل قيوده ثم قال له همساً وقد ضغط على يده - لا تقنط من رحمة الله ايها الامير ، فعى ان يرق الملك لك ويفعوك !

ثم انثنى عنه وخرج وقد أوصد الباب ، ولم يدرك ماليوتا الا عند الرجاج الخارجى ، فسلمه المفاتيح امام الحراس وهو يقول - انك خرجت ولم تقفل الابواب .. وقد يظن بذلك انك من مر يدى الامير ، وانك تريد ان تسهل له طريق الفرار ...

وبقى الامير نكيئا ممدداً على الأرض العارية في غياهب ذلك السجن الموحش وقد ساد السكون ، فلم يسمع هناك سوى ضربات قلبه وزفرات أنفاسه المتقطعة وهو في تلك الحالة الهائلة التي ترك وصفها لتصوير القارىء اللبيب ..

وبينما كان ذلك يجري في السجن وقد انتهى الامر الى ما قدمنا كان الملك يوحنا جالساً في مخدعه مضطرباً ممتقع اللون وقد تسلطت عليه الافكار المزعجة .. وكان حادث الامير نكيئا أهم ما شغل خاطره وقئنه .. فقد كان متردداً بين ان يحكم عليه بالاعدام او يطلق سراحه ..

وكان الملك يشعر بميل خاص الى هذا الرجل ، وذلك لما رآه فيه وتحققه بنفسه من المزايا الفريدة التي لم يرها في غيره . . نعم ان الأمير لم ينتظم في فرقة رجال الحرس ليكون في جملة اخصاء الملك ، بل كان في كثير من الأحوال يناصبهم العداء ويدافع عن الابرياء بكل ما فيه من قوة وعزيمة . . غير ان الملك لم ير في كل ذلك ما يحمل على سوء الظن به . فكان في باطنه يرتاح اليه ويود قربه ولا يوجس شراً من جهته . . وقد أيقن ان نكيتا لن يخدعه ولن يخونه ، بل يحبه ويخدمه ويقدسه في غير رياء او مداينة . وقد أعجبه منه على الخصوص اباؤه المجيب وكتامه لكل امر يقوم باعبائه وقهوره من التمدح وعدم اكترائه للمكافآت على انواعها . وكان في جرأته لا يجارى وفي صدقه لا يحاكيه احد من رجال الحاشية على الاطلاق ، فكان اذا سئل أجاب حالاً بالواقع من غير تمويه او مغالطة ، ولو كان في جوابه ما يقضي عليه بأشد العقوبات . . .

ولما خطرت للملك هذه التصورات شعر بالمطف الشديد على الأمير نكيتا وعزم ان يفوقه ويبيته في أعلى مراتب الشرف في البلاط . . ولكنه لم يلبث ان عدل عن هذا العزم واخذ يبحث في مخبئه عن هفوات الامير ويؤولها بحسب هواه . . فترامى له ان ظاهر الامير ليس كباطنه . وانه قد نفر منه فلن ينضم اليه لانه يمتق رجال الحرس فكأنه يمتق الملك نفسه . وقد ألحق برجاله هؤلاء اهانات شتى وقتل منهم جمهوراً غير قليل وتصدى لمقاومة ارادة الملك وأتخذ ولي المهد لا غيرة على العرش بل عجالة للنبلاء الخونة الذين يكيدون للملك ويفكرون في خلعه وتنصيب ابنه . . وقد يكون هر في طالعة هؤلاء الناقين المتمردين . وقد يكثر عديدهم اذا بقي الامير

حباً . وقد ينحاز اليهم غيرهم من كبراء الامة ورجال الدولة ، ويقل أنصار
للملك فتقل بذلك هيئته وينلب أخيراً على امره ..

ولما خطر للملك كل ذلك لم يبق سبيل الى التردد فأيقن بأن الامير
نكيتا مجرم وانه يستحق الاعدام ليكون عبرة لغيره من جماعة الامراء والنبله ،
ويكون في ذلك حسم الداء قبل استفحاله ودفع الامر قبل وقوعه .. ولم
يبطىء ان عين اليوم التالي أجلاً لا تقاذا الحكم

ولكنه اراد ان يخفف عن الامير وطأة العذاب في هذا النهار ، فأرسل
اليه الى السجن بالطعام والشراب من مائدته الخاصة ، وأمر بان يحل من
قيوده حتى صباح اليوم التالي . وكان هذا نقطةً خاصاً ندر اظهاره لغير
الامير من المجرمين

ولكي يطرد الملك عن نفسه السامة والافكار المزعجة امر فاحتشد
الاخصاء والندماء ورجال الحرس وخرجوا وهو في طلبهم الى البرية للصيد
والفنص . وكانوا قد امتطوا صهوات الجياد وساروا الى الجهة التي ارادها
وكان الوقت ضحى والنهار دافئاً والسماء قية .. وما هي الا ساعة او
بعض الساعة حتى كان الكلب قد انتشروا في بعض ضواحي قرية
الكسندروفا . ثم تفرقوا وراء الصيد جماعات جماعات ، وكل يود ان يرضي
الملك بمهارته وحذقه

الفصل السابع والعشرون

« الاعميان »

ولبت القوم لاهين بالصيد والفنص ساعات طويلاً وهم في سرور

وطرب . وقد نسي الملك هواجسه فلم يقلقه شيء ، وتشاغل بالصيد والمفاكة
وانبسطت نفسه فضحك كثيراً ومزح كثيراً . .

وانه كذلك واذا بمشهد جديد قد استلقت بصره وزاده طرباً وانبساطاً .
وذلك انه أبصر على الطريق أعميين يتوكان على العصي . وكان أحدهما كهلاً
والآخر شيخاً بلحية طويلة بيضاء . وقد ارتديا الاطمار البالية وحمل كل
منهما على كاهله جراباً لجمع الصدقات . وكان يقودهما شاب طویل القامة
مفتول العضل ، وقد ارتدى مثلهما الاطمار وحمل لهما بعض آلات الفناء
كالزمار والقيثارة

وكان الاعمى الكهل سائراً امام الشيخ ممسكاً اياه بيده وهما يسيران
ويستدلان بعصيهما على سواء السبيل . وكثيراً ما كانا يكبوان ثم ينهضان
فيشتمان دليهما الشاب لانه تركهما وسار وحده

فلما أبصرهما الملك لم يملك نفسه من الضحك وهو كلما طال تأمله فيهما
طابت نفسه وازداد طرباً . . وقام من ساعته فدنا منهما . وكان الاعمى الكهل
قد سقط في حفرة كانت على الطريق وتلاه الاعمى الشيخ . ثم ما عتبا ان
خرجا منها وقد وحلت اطمارهما فامتلا حثماً على دليهما واندفعا يلعنانه
ويسبانه ، والملك ينظر ويسمع ويقهقه بأعلى صوته . ثم تقدم فسألها -
من اين والى اين ايها الرجال ؟

فاجابه الاعمى الكهل - اغرب من هنا ولا تعرّض لنا . .

فصاح به واحد من رجال الحرس الذين تبعوا الملك - اخرس ايها الاحق
ألا ترى من امامك ؟

فقال له الاعمى - انت احق وابن أحق . . فن ابن لنا ان ترى

وقد قدنا بصرنا؟ .. واما انت فلك من العيون اربع الا اثنتين ، قتبصر
القريب والبعيد وتميز الابيض من الاسود .. ومع هذا فلم تبصرنا ! .. فقل
لي الان من هو الاعمى منا ؟ ومن هذا الذي امامنا ؟

فأشار الملك الى الحارس ان يصمت . ثم كرّر سؤاله على الاعمى بمزيد
اللطف وقال - لا تعتب عليه لانه لا يدري ما يقول .. فن انتم والى
ابن تصدون ؟

فقال - نحن رجال طرب نضرب في بلاد الله قاصيها ودانيها ، نروي
الاحاديث والابخار والحكايات والاشعار ، فنسلي الاصحاب ونطرب
الاجاب .. وقد كنا الاسبوع المنصرم في مدينة « ميروم » والان نريد
غرية : الكسندروفا

فقال الملك وقد أعجبه كلام الاعمى - وهل في ميروم من اصحابكم
من هو نظيرك في سرعة الخاطر وجرأة الجنان والمهارة في هذه الصناعة ؟
فأجاب الاعمى بلا ارتباك - ان لنا في هذه المهنة اصحاباً كثيرين .
ففي ميروم العم ميخا والخاله أوليانا والشيخ نيكيفور ... وجميعهم يضحكون
التكلى ويسرون من كل هم بنوادرهم واخبارهم .. ولو رأيتهم وسمعتهم يا سيدي
لاستقيت على قفاك وضجكت حتى انسا.

فازداد الملك ارتياحاً وطرباً وقال في نفسه : « حقاً انهم رجال طرب
غلابأس من استدعائهم هذا المساء ليسلوني بحكاياتهم ونوادرهم الهزلية ،
فقد شئت اخبار رواة هذه الجهات وأود ان أسمع غيرها .. »

ثم قال للاعمى - وهل تعرفون انتم من الحكايات والنوادر ما يشرح
الصدر ويسلي الخاطر ؟

فتبسم الاعمى وقال - كيف لا ونحن أمهراهل هذا الفن . . . ولكننا بسبب ذلك قد أصبنا مرة بمصيبة كادت تكون القاضية . . . وذلك اننا دعينا الى بيت احد النبلاء قصصنا على اهله في جملة ما قصصنا حكاية القائد المهذار وما جرى له مع زوجته من غرائب الاخبار . . . وقبل ان تفرغ من الحكاية طردنا من ذلك البيت على أسوأ حال ولم يتصدق علينا اهله بشيء من التساع او المال . . . ولما خرجنا علمنا ان البيت المذكور هو للقائد ستاريتسكي وقد روينا حكايته امامه ونحن لا ندري انه هو القائد المهذار بالذات

وما كاد رجال الحرس يسمعون هذا الكلام حتى فقهوا طرباً وعلت بينهم اصوات الاستحسان ، لان القائد المذكور كان من النبلاء الذين يكرهم الملك وقد باتت ايامهم معدودة . . . فكان كلام الاعمى سبباً لثمالة رجال الحرس وزيادة سرورهم

وقد ضحك الملك ايضاً وأثنى على الاعمى وقال له ولرفيقه - سيروا الان في طريقكم الى القرية . فاذا بلغتوها انطلقوا حالا الى القصر وانتظروا عودتي . . . واطلبوا ممن تصادفونه من الخدم ان يطعموكم ويسقوكم ويمطوكم أردية غير أرديتكم . . . وفولوا لهم ان الملك نفسه قد أمر بكل ذلك . . . وسأدعوك مساء متى عدت من الصيد لأسمع حكاياتكم ونوادركم

واذ تحقق الاعميان انهما في حضرة الملك أجفلا وارتعدا ثم وقعا بوجههما الى الارض وهما يقولان - ارحمنا ولا تماثلنا بذلك ايها الملك العظيم . . . فاننا لفقد أبصارنا لم نعرف من انت . . . فلا تأمر بقطع رؤوسنا ولا تسح باهانتنا ، بل تجاوز عن سيئاتنا واغفر لنا

فضحك الملك وطيب خواطرهما ثم انصرف عنهما . فهضا واستأقما
المسير ودليهما امامهما يقودهما بيديه

وما زالوا سائرين ، وهم في كل دقيقة يكبو واحد ويقوم آخر ، حتى
أدركوا انهم تواروا عن الابصار . فوقف أصغر الاعميين والتفت الى جميع
الجهات ثم قال لرفيقه - لقد قننا بتثيل الفصل الاول احسن قيام . . فبورك
فيك ايها المم كرشون ما أبرعك في تمثيل الاعمى . . ويلوح لي انك تمبت
تعباً مفرطاً من كثرة التعثر والسقوط . . ولكن مالي أراك كاسف البال
كثير المواجهس ! فهل ندمت على ما نحن عليه مقدمون ؟

فقال كرشون - ليس هذا ما يكربني او يخيفني . وقد صممت على
العمل ممك ، فلست براجع ولو كان في ذلك هلاكي . . واما الذي يهمني
وقد أقلقني في هذه الايام على الخصوص فهو سر لم أ كشفه لاحد بعد ،
وربما أفضيت به اليك ايها الصديق ونحن بآمن عن الرقباء
فقال برستن - وما عسى ان يكون هذا السر ؟ اطلعي عليه . فان
كان هما اجتهدت في قريجه عنك ، او حزناً فاستمك اياه

قال - اعلم ايها الصديق ان في قلبي حزناً عظيماً تولاني منذ عشرين
سنة ولا يزال يتفاقم علي حتى منغني القرار وحرمني النوم والراحة والمنا .
وبما زاده اشتداداً أني في كل هذه المدة الماضية لم أ ببح به لاحد ، لاف ،
جهات نهر فولنا العظيم ولا في موسكو . وقد ثقلت الآن المساء . . وفيما انا
فلم أعد أحتمل الكتمان . . وحاولت مراراً أن أعترفني وقد حملت بين يديها

لعل في ذلك تخفيفاً لبعض اشجائي ، فلم أجسر . . اما الآن وقد صرت الى حالة ينقلب ان اقضي فيها نحبي فأروم ان أروي لك الخبر لعل أنال راحة بذلك . . فيها بنا تقعد عند ذلك المنطف فلا يرانا احد

فأجابه برستن الى طلبه وقال للدليل - اما انت يا توما فابتعد عنا واقعد هناك الى جانب الطريق وكن شديد الانتباه واليقظ ، حتى اذا طرأ مفاجيء تنبهنا حالاً بإشارة خفية . . ولا تنس انك أصم أبكم فايالك ان تقوه بكلمة

فقال توما - كن براحة من هذا القيل فساقتك امرك بكل دقة فاتهره برستن قائلاً - صه ايها الاحق ! فلا تكلمنا ايضاً ، بل تمود الصمت التام لئلا تقسد علينا الامر فسكت توما وانصرف عنهما فانبطح على الأرض وجعل يرانب كل جهة

فقال برستن لرفيقه - نعم ان توما أحق وبليد ولكنه نعم الرفيق في مثل هذه المهمة ، لانه شديد المفضل قوي الساعد مخلص وأمين للغاية ، فان حدث لنا ما نكره فانه يهجم على الخطر قبلنا ويدافع عن حياتنا احسن دفاع . . وهات الآن ايها العم كرشوز فأخبرني بقصتك

قال - تعلم ايها الصديق اني لصّ وقاتل ، وقد ارتكبت من الجرائم في زماني ما لا يعد ولا يحصى ، ولم أرحم احداً ممن كنت أظفر بهم . . وهكذا بوجوههم المعنى في هذه الاعمال كما قضيته انت حتى الآن

العظيم . . . فانا لفقه هذا الكلام الممل وقال - واي عجب في ذلك ، فانما ولا تسمح باهانتنا ، بل تنج

فقال كرشون - صدقت . وانا لا اعارضك في ذلك . وانما اردت ان اسألك ، هل تشعرات على اترك فلانة بكرب يتولى نفسك ويقبض صدرك كما أشعر انا ؟

قال - بالله حسبك ايها العم كرشون من مثل هذا الكلام ، اذ ليس الآن وقته . فانس الآن كل شيء ولا تدع للحزن سبيلاً الى نفسك ، لاننا الآن على طريق جهاد عظيم لا بد فيه من الشجاعة والطرب معاً ، والا عدنا ونحن أخيب من القابض على الماء .

قال - أصبت . فقد نسبت كل شيء الا امراً واحداً ليس في طائفتي اغفائه ، ولعلي اذا ذكرته لك بهون عليّ وقره فأسلوه . . فقد كنت قبل عشرين سنة مضت واحداً من لصوص نهر فولغا ، وكان زعيمنا « دانيلو » الشهير ، ولم تكن انت قد ظهرت وقتئذ . وقد فعلنا هناك ما هو عنوان البسالة وآية الاندام . فكنا نسطو على القوافل والمراكب فلا نبقى على احد ولا ينيب عند شيء . . وكان الزعيم يمد كل حادثة يوزع الغنائم على الجميع فلا يدع احداً بلا نصيب . . وتتابعت السنون على مثل ذلك ونحن في تلك الجهات على أنعم حال واهناً بال . الى ان زين لي شيطان الطمع ان انقرد عن العصابة احياناً وأسطو وحدي طمعاً في الحصول على ثروة لا يقاسمها احد . . وبهذا الفكر قمت ذات يوم فارتديت اطماراً كهذه وخرجت الى بعض الجهات . ثم كنت في مكان وجعلت أرصد الطريق وأنا أعلل النفس وأمنها . وقد انتظرت على هذه الحالة طويلاً حتى أعياني الانتظار ولم أر احداً . . وخجلت ان أعود صفر اليدين فصمت ان أقي في المكنن حتى المساء . . وفيما انا كذلك رأيت امرأة تسير على مسافة غير بعيدة عني وقد حملت بين يديها

حرة كبيرة . فأشرق وجهي سروراً ووثبت من موضعي وهجمت عليها
أريد الصرة وأنا أظن ان فيها ما ينينني . . وكانت المرأة قد أبصرتني
فدعرت وصاحت بملء صوتها فأسكتها بطمئة من خنجر كان في يدي
أنعمته في قلبها ثم تناولت الصرة وأقبلت الى الغابة وأسرت ففتحها فرأيت
فيها . . . ماذا تظن اني رأيت . . . رأيت طفلاً رضيعاً وكان بين الموت
والحياة . . . فأظلمت الدنيا في وجهي وأقبلت على نفسي ألومها على هذا
المنكر . ثم خنقت الطفل وطرحته بين الادغال وعدت من حيث أتيت .
وقد أثر هذا الحادث في نفسي اثرأ شديداً فلم يصف لي عيش ولم يهنأ لي
بال كل هذه المدة ، وأنا كلما تمثلت هذه الفضاءة يقشعر بدني وتنقبض نفسي .
وكان شبح المرأة وشبح طفلها قد لازماني فلم يارقاني لحظة . . .

ثم صمت كرشون وهو يتأوه ولها برستن بافكاره . . وفيها هما كذلك
سما طلقاً نارياً ، ورأيا باشقاً كبيراً مقتولاً قد هوى من علٍ ووقع عند قدمي
كرشون فأجفل ، والتفت برستن الى توما فراه يشير اليهما بيده ، فقال رفيقه -
انس الآن ايها العم كرشون كل ما مضى ، فلسنا الآن لصين ، بل نحن أعميان
ومهنتنا تفكيه الناس بالحكايات والنوادر . . وها قد أقبل بعض رجال الملك
فهز الشيخ رأسه وقال وهو ينظر الى الباشق المقتول - ان هذا قد
زاد في حزني وألمي ، لانه نذير سوء ومقدمة الشؤم ^(١)

فنظر اليه برستن وقال بلهجة الآسف - يظهر لي انك خائف ومتطير
من هذه المهمة . . فأسألك ان تمود وأنا أسير وحدي
فقال كرشون - معاذ الله . وكيف أدعك تذهب وحدك وأنا حي

(١) وذلك ان لفظة « كرشون » باللغة الروسية معناها « الباشق »

أرزق ؟ .. نعم اني حزين النفس وقد تشاءمت بهذا الباشق .. ولكني مصمم على الموت في هذا السبيل المقدس الذي أرجو ان يكون كفارة عن ذنوبي .. وقد بقي امر واحد لا بد من أطلاعك عليه ايضاً قبل الشروع في العمل .. فهل تعرف قرية « البشارة » بقرب نهر فولنا ؟

قال - نعم أعرفها

قال - وهل تعرف بظاهر هذه القرية سهلاً اسمه الدائرة ؟

قال - وهذا ايضاً أعرفه

قال - وهل تذكر أنك رأيت في ذلك السهل شجرة سنديان كبيرة ؟ فأجاب برستن وعلامات القلق بادية على وجهه - نعم أذكر .. وقد قطعت الشجرة ولم يبق الا جذعها .. فما الذي تريده بكل هذه الاسئلة ؟ قال - أريد ان اقول لك اني لن أرى تلك الجمات بعد الان . ولم يعد يتاح لي ان أمتع الطرف بمياه نهر فولنا العزيز ، لاني أشعر بانني ذاهب الى حتفي ولست بخارج من قرية ألكسندروفافياً .. اما انت فقد يصادفك حظ أسعد مني فلا تتألم بمكروه . فأسألك بعد قضاء هذه المهمة أن تنطلق الى جهات فولنا . فاذا وصلت الى قرية البشارة سر في جنح الظلام الى سهل الدائرة وابحث عن جذع السنديانة ، ومتى وجدته استقبل جهة مغرب الشمس وسر خمسين خطوة ، ثم احفر الارض فتجد كنزاً كبيراً لا تستطيع ان تحصيه ، وكنت قد طمرته في تلك البقعة قبل مصيري الى هذه الجمات وانضمي اليك .. فاذا ظفرت به فهو لك وانت حر ان تتصرف به كيف تشاء . ولكني ألتس منك ان تخصص مقداراً منه للاحسان والصدقة عن نفسي ومقداراً آخر للكنائس والاديار .. هذه هي حكايتي روينها لك

ابها الصديق وانا أشمر بالطمانينة قد دبت الى نفسي وبددت بعض همومي
ولم يكدر شون يتم كلامه حتى وصل اليهما بعض الفرسان من رجال
الحرس ، فروا من جابهما وهم يضحكون ويصخبون . . وكان الاعميان قد
قاما يمشيان في طريقهما الى القرية وتوما يقودهما ويسدي من الحركات
المجونة ما يضحك التكلّي

الفصل الثامن والعشرون

« الخطبة »

وما كاد الاعميان ودليلهما يصلون الى اول المنازل في قرية ألكسندورفا
حتى لقبهم مشعوذان برقصان ويفنيان بأعلى الاصوات وفي ايديهما بعض
آلات الطرب . فلما رأيا الاعميين ورفيقهما ازدادا ضحكاً ومجونا ، ثم
اقربا منهم واحدا يمشيان بهم ويضحكان ، وقد اتهم احدهما فرصة وقال
لاصغر الاعميين همساً - قد تأكد
لنا ان الامير منذ خمسة ايام في السجن
الكبير لذي تجاه منزل ماليوتا . .
وغداً موعد عقابه



فقل له برستن - وهل كلكم هناء
قال - نعم . وعلى أتم الاستعداد
ثم اقلب عنه وهو يضحك ويرقص
ونفني بمل فيه

(ملاح روسي)

وظل الاعميان ودليلهما سائر بن حتى وصلوا الى القصر ، فأقاموا في

بعض جوانبه يتشاءون ويمزحون وهم ينتظرون امر الملك . وقد حمل اليهم
خدم القصر شيئاً من الطعام والشراب ، فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً
ولما أقبل المساء عاد الملك من زعمته ، وقد أثر فيه التعب فانصرف
تواً الى مخدعه . وما كاد يستقر به الجلوس حتى دخل عليه مالىوتاسكورانوف
وسلمه مفاتيح السجن حسب العادة . فاستخبره الملك عن الأمير نكيتا
واقاراه فأجاب - انه يا مولاي قد أفر بهجومه على رجال الحرس في منزل
النيل موروزوف وانه قتل منهم سبعة وأثنى في الأمير اثنائي فيازيمسكي ..
ولكنه يأبى الاعتراف بالمكيدة التي دبرها لاعتقال جلالتك ولا يريد ان
يدلنا على المكان الذي لجأ اليه موروزوف . وقد عزمتم ان أنطلق اليه
مرة أخرى في صباح الغد لأحمله بسائر ضروب العذاب والمثلة على الاعتراف
بالحقيقة ، فلعنه يذكر لنا اسمه غيره من اعداء المملكة ممن لهم يد في المكيدة
وذهبك الملك هذه المرة في ان مالىوت كذب ومنافق . فنظر اليه
شزراً وقال - ولكن نكيتا لا يمكن ان يكون كما ذكرت .. فلا تعب
نفسك بمتحانه ، وإياك ان تناله بسوء .. وقد صحت عزيزتي دلى أعدائه
ليس لانه خائن كما تقول ، بل لانه يحتقرني ويأبى الانضمام الى حاشيتي
قال - وقد قتل من رجالنا جمهوراً كبيراً وذهب عن بعض اخوة من
اصدقائه النبلاء .. فليس من الرى ان تركه وشأنه يغص ما يشاء ويزرع
الفتنة حيث يشاء ..

وقبل ان يفرغ مالىوتا من كلامه جاءت أنوفرفند حاضنة اسك ، فوقفت

في باب المخدع ونظرت الى ماليوتا شزراً ثم قالت للملك - انك يا سيدي
قد أرسلت اليوم الى هنا اعميين . . فما شأنهما ، وماذا تريد منهما ؟
فقطن الملك لهما وقال لحاضنته - ارسلهما الى هنا لا تسمع شيئاً من
حكاياتهما ونوادر اخبارهما ، فقد ظهر لي انهما من مهرة هذا الفن
فقلت أنوفرنا - وهل رأيتهما يا سيدي قبل الآن ؟ فاني في
ريبة منهما . .

فأجفل الملك وقال - وهل ظهر لك منهما ما يحمل على مثل ذلك ؟
قالت - لا . وانما قلني يناجيني بأنهما يضمران سوءاً . فن مجرد
نظري اليها أدركت انهما على جانب عظيم من الدهاء والحيلة
فبهت الملك . ثم نظر الى حاضنته ولم يجب

ومضت هي في حديثها فقالت - قلت لك انهما شريران . نعم شريران
كهذا الخبيث (وأشارت الى ماليوتا) فلا تدنهما منك . . ولكنك
لا تستطيع بفضل هذا المحتال ان تميز الشيطان الرجيم من الرجل الفاضل البار
مثل الامير نكيثا الذي أودعته السجن وتريد عقابه ، وهو نادر المثال لم
يرتكب اثماً ولم يأت منكراً . غير ان هذا الوحش ماليوتا لا يزال يتهمه بامور
هو بري منها برامة الملائكة من شرور الناس . . فحذار ان تضيف الى مآثمك
هذه الجريمة الجديدة ، فانها تعقبك اشد الندامة وتنقص عيشك . .

فاصفر ماليوتا لدى سماعه هذا الكلام وقال للملك - هل تأذن لي
يا مولاي ان أنظر في شأن هذين الاعميين وأمتحن صدقهما ؟

فقال الملك - لا لزوم الى شيء من ذلك . فانا أمتحنهما بنفسي ولا
أظنهما الا صادقين ، فهما اعميان ومهنتهما التسول وسرد الحكايات

والاحاديث الهزلية . . ومع هذا فساكون على تمام الحذر . . فنأولني
الدرع والمكاز

ولما اخذهما لبس الدرع وارتدى فوقها ثوباً طويلاً ووضع العكاز
الى جانبه في السرير . وكان لهذا المكاز طرف حاد من الحديد وقد طعن
به الملك كثيرين ممن كانوا يسخطونه ويستوجبون ثمنه السريمة

ثم قال الملك لماليوتا - اما انت فلا تذهب هذه الليلة الى منزلك بل
اكن في بعض الدهاليز مع نفر من الحراس ، فاذا حدث شيء او ارتبت
من شيء وناديتكم تبادرون الي في الحال

فانحنى ماليوتا امام الملك ثم وضع المفاتيح تحت وسادته وخرج .
وتبعته أوفرفنا

وما كادا ينصرفان حتى أقبل الاعميان وهما يتوكان على العصي ويتمنان .
ولما دخلا خراً على وجوههما الى الارض ودعوا للملك بطول البقاء . . وكان
برستن في اثناء ذلك قد فحص الخدع بلحظة واحدة ، فعرف ما حواه من
الاثاث ، ورأى ان سرير الملك قائم في احدى الزوايا وتجاهه نافذة في
الحائط لا تفل الا بالزجاج . - لان الملك كان يحب ان تنفذ الى مخدعه
اشعة الشمس عند اول شروقها



ثم اضطجع الملك في سريره وبقي الاعميان جاثيين امامه ينتظران
امره ، وهو يراقبهما بأشد الانتباه . . ثم امرهما فوقفا وهما يدعوان له بالتأييد

ودوام السعادة . فقال لهما وهو لا يرفع نظره منهما - وفي اي زمان كف
بصركما ايها الرجلان ؟

فأجاب برستن - منذ الطفولية يا سيدي . . فلا نذكر اننا أبصرنا
الشمس في زماننا

قال - ومن علمكما الاغاني والحكايات ؟

قال - الله نفسه يا سيدي وذلك منذ أقدم الاحقاب

قال - وكيف ذلك ؟

قال - يقول شيوخنا ان السيد المسيح لما عزم على الصعود الى السماء
تألب حوله المساكين والعميان والعرج والفقراء والزهاد وقالوا له : « كيف
تريد ايها السيد ان تركنا بلا عضد ، ومن تري يقوتنا ويكسوننا ويستقينا
من بعدك ؟ » . فاجابهم المسيح بقوله : « لا تجزعوا . فاني سأترك لكم جبل
ذهب ونهر عسل وكروماً يانعة وسهولاً واسعة . وستكونون في أحسن
نعمة واوفر سعادة » . فقال له تلميذه يوحنا اللاهوتي : « ولكن ذلك لا
يفيدكم طويلاً . لان الاقوياء والاغنياء لا يلبثون ان يقهروهم وينصبوهم
تلك الخيرات . واما انت يا سيدي فاذا أردت بهم خيراً فامنحهم غير ذلك »
قال : « وماذا تري ان أمنحهم ؟ » . قال . « موعبة الغداء والحديث . فاذا
طافوا المدن والقرى يغنون أطيب الاغاني ويقصون شائق الاخبار فانهم
يكسبون مورداً دائماً للحياة ، ويكسبون مع هذا المورد ارتياح الناس اليهم
ومودتهم لهم » . فقال المسيح : « ليكن لهم بحسب ما اقترحت . وليكن كل
من أحسن اليهم مباركاً الى الابد »

فابتسم الملك لهذا الكلام وقال - وماذا تعرفان من الحكايات ؟

فقال برستن - نرف كثيراً يا سيدي . نرف حكاية الجنية والفتاتين ،
وحكاية الطاوس ذي الريش الذهبي ، وحكاية الخطاب المجيب ، والفتى
الجبار ، والكتاب الازرق ، واسير الهوى ، والملك السعيد وغيرها .. فأياها
نحب لافكه خاطرك وأبهج نفسك ؟

قال - احك لي اولاً حكاية الطاوس

فخى برستن رأسه ثم اندفع يسرد الحكاية المطلوبة ، والملك يسمع
ويسجب بمهارته وطلاقة لسانه . ولكنه مالبث ان قاطعه قائلاً - اني أعرف
هذه الحكاية ، فليحك لي رفيفك حكاية الكتاب الازرق

فانتبه كرشون كأنه هب من حلم وشرع في الحكاية . قال :

« زعموا ان كتاباً عظيماً طوله اربعون باعاً في عرض عشرين وفي مثل
ذلك ثخنًا يقال له الكتاب الازرق ، وكان معجزة من معجزات الدهور
وآية عجيبة من آيات الاكوان ، قد نزل منذ عهد بعيد من السماء »

« وكانت السحب قبل ذلك قد حملته مدة طويلة وطافت به زمناً
مديداً في الارجاء السماوية وقرأته الملائكة واعجبت بما فيه من الحكم
الباهرات والايات البينات »

« وعرف ملوك الارض وعظماؤها بهذا الكتاب المجيب فأجتمع رؤيت
اربعون ملكاً واربعون اميراً واربعون كاهناً وجمهور لا يحصى من النبلاء
والعظماء والقواد ورجال الحرب والسياسة والناس على اختلاف الطبقات
وال مواطن »

« وتقدم احد المتقدمين بين الملوك ، وهو الملك فلاديمر ، فقال
لرصفائه - من يستطيع منكم ايها الاخوان ان يقرأ لنا شيئاً من حكم هذا

الكتاب، ويقفنا على ما لانعلم من امر الشمس والقمر والنجوم كيف نشأت، ولماذا تهب الرياح، وتنفقد السحب، وكيف ابتدأ الليل والنهار، وما هي غاية الانسان في هذا الوجود، وكيف نشأ الامراء والملوك...؟

« سمع الملوك هذا الكلام ولم يحيروا جواباً، وقد طال صمتهم، الى ان نرذ احداهم وهو الملك داود الحكيم وقال - انا لذلك ايها الاخ... ثم تقدم وساعده جميع الملوك والامراء، ففتحوا الكتاب ووقفوا كأن على رؤوسهم الطير وقرأ الملك داود في الصفحة الاولى من الكتاب ما يأتي: تكونت الشمس من اشعة وجه الله. والقمر من اشعة احدى عينيه. والنجوم من اشعة العين الاخرى. ونشأت الرياح من تنفسه. والسحب من افكاره. والنهار من تبسمه. والليل من غضبه. وخلق الناس في هذه الارض لتسبيح الله وتمجيدته، وقد نشأوا من آدم، من رأسه الملوك، ومن عظامه الامراء والنبلاء، ومن ركبته الفلاحون والعمال والمرأة... »

« فلما سمع الملوك هذا الكلام حنوا رؤوسهم احتراماً للملك داود وقالوا - انك أوفرنا عقلاً وأغزرنا حكمة وأكثرنا علماً، فأقرأ الآن وتل لنا: من أعظم الملوك، وما أعظم الممالك، وأكبر البحار، وأشهر الانهار، وأقدس الجبال، وأهم المدن...؟ »

« فقال الملك داود بمد أن قرأ شيئاً في الكتاب - ان أعظم الملوك هو الملك الابيض ملك الشمال، وأعظم الممالك هي مملكته الواسعة هي روسيا المقدسة لان فيها الكنائس الجامعة والاديار الكثيرة والعبادة الحقة، وأكبر البحار هو البحر المحيط، وأشهر الانهار هو نهر الاردن الذي اعتمد فيه السيد المسيح، وأقدس الجبال هو جبل ثابور الذي تجلى عليه وأظهر

مجدد لتلاميذه ، وأهم المدن هي اورشليم مدينة السلام التي أشرق منها نور الدين فأنازل المسكونة بأسرها وفيها قبر المعلم العظيم . . . »

« وكان الملوك يسمون كلام الملك داود بمزيد الاصغاء وقد طفعت وجوههم سروراً فقالوا - وقرأ أيها العزيز وقل لنا »

وأراد كرشون ان يتابع حديثه فقاطعه الملك وهو يظهر ميله الى الكرى فقال للاعميين وهو يتثاب ويطمى - وهذه الحكاية سمعتها منذ بضع سنين . . . فهل تعرفان شيئاً من حوادث القديسين وأخبار النصرانية في عهدها الاول ؟

فقال برستن - كيف لا ؟ . . فاننا نعرف حكاية الكسيس وجل الله ، ويوسف الصديق ، والفتيان الثلاثة ، وأصحاب الكهف ، وغيرها . .

قال - فقص عليّ اذاً حكاية اصحاب الكهف
فأخبرني برستن ثم انتصب وترعرع في سرد الحكاية ، وكان كلامه فيها أنشاداً ، قال :

(٥) « حدث ذلك في القرن الثالث بعد المسيح ، في عهد الملك داسيوس ملك الروم ، وكان يعبد الطواغيت وهي الالبسة والاصنام ويذبح لها . وكان ينزل المدن والقرى فلا يترك فيها احداً مؤمناً بالله الا فتنه حتى يعبد الاصنام . . ونزل يوماً مدينة أفسوس ، وكان فيها قوم على دين المسيح يبدون الله . فاتخذ شرطة من الكفار من اهلها يتبعون اهل الايمان في اماكنهم . فن وقع به الملك خيره بين القتل وعبادة الاصنام . ففهم من

يرغب ومنهم من يأبى فيقتل . ثم يؤمر بأجسادهم ان تعلق على سور المدينة وعلى كل باب من ابوابها »

« واتفق ان سبعة فتيان من ابناء البطارقة والاشراف خرجوا ذات يوم لينظروا الى المذنبين من اهل المدينة . ففتح الله أبصارهم فكانوا يرون الرجل اذا قتل هبط اليه الملائكة من السماء وارتقوا بروحه . فأمنوا في الحال وجعلوا يتضرعون الى الله ويقولون : « ربنا رب السماوات والارض . لن ندعو من دونه احداً . اللهم اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وادفع البلاء وانهم عن الذين آمنوا بك . . »

« وانهم لكذلك اذ أدركهم الشرطة ، وكانوا قد دخلوا في مصلى لهم وسجدوا على وجوههم يبكون ويتضرعون الى الله ، فسانوهم الى الملك . فقال لهم : « ما منعكم ان تعبدوا آلهتنا ؟ فاختاروا أما ان تعبدوا ما نعبد او أقتلكم ؟ » . فقال مكسيميانوس وهو اكبرهم : « ان لنا ألهام ملأت السماوات والارض عظمت له لن ندعو من دونه ألهام . اما الطواغيت فلن نعبدها ابداً . فاصنع ما بدا لك . . »

« فأمر الملك فترع منهم الدبوس الذي كان عليهم من لبوس عظمتهم وقال : « أن فعلتم ما فعلتم فاني سأنزّل بكم عقوبي . وما يمنعني ان أعجل ذلك الا حداثة سنكم . فلا أحب ان أهلكم حتى أجعل لكم أجلاً تتذكرون فيه وتراجعون عقولكم . . »

« وخرج الملك بعد ذلك من أفسوس لبعض شؤونه . وعلم الفتية السبعة بذلك فاجتمعوا وأثمروا ان يأخذ كل منهم نفقة من بيت ابيه » فيتصدقوا منها ثم يتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة

فيمكثون فيه ويمبدون الله ، حتى اذا عاد داسيوس أتوه فيصنع بهم ماشاء..
فلما جنهم الليل خرجوا الى الجبل وجعلوا قفقتهم الى فتى منهم يقال له ملكوس .
فكان يتباع لهم طعامهم من المدينة وكان من أجلمهم وأجلدهم . وكان اذا دخل
المدينة لبس ثياب المساكين واشترى الطعام ونجس الاخبار .. ولبثوا
كذلك الى ان عاد الملك وعلم بامرهم . وقد ألقى ابليس في نفسه فأمر بالكهف
فسد عليهم حتى يموتوا جوعاً وعطشاً . وقد توفى الله ارواحهم وفاة النوم »

« وان رجلين مؤمنين في بيت الملك علما بالامر فكتبنا شأن الفتية
وأسماءهم وأنسابهم في رقيم وجعلناه في تابوت من نحاس وجعلناه في البنيان على
باب الكهف .. وتنوسي امر الفتية . وناموا ثلاثمئة سنة .. الى ان كان
عهد الملك ثاودوسيوس وكان من اهل التقى والصلاح . وقد تحزب الناس
في ملكه احزاباً . فنههم من يؤمن بالله ويعلم ان الدينونة حق ، ومنهم من
يكذب . فحزن حزناً شديداً لما رأى اهل الباطل يزيدون ويظهرون على
اهل الحق ويقولون . « لا حياة الاً الحياة الدنيا . وأنما تبعث الارواح
ولا تبعث الاجساد .. »

ولما قال برستن ذلك اختلس نظرة الى وجه الملك فرآه قد أطبق
أجفانه . فتبادل وكرشون النظر ثم مضى في حديثه وهو لا يغير نعمته ، قال :
« ثم ان الله الرحيم أراد ان يظهر الفتية اصحاب الكهف ويبين ثمناس
شأنهم ويجعلهم آية ليعلموا بها ان الساعة آتية لا ريب فيها .. فألقى سبحانه
وتمالى في نفس رجل من ذلك الجبل ان يبني فيه حظيرة لغنمه . فاستأجر
عاملين فجلا يزعان الاحجار التي سد بها باب الكهف وبينان بها تلك
الحظيرة حتى فرغت وفتح الباب على الفتية . وأذن الله ذو القدرة والمظنة

والسلطان ان يقوموا ، جلسوا فرحين مستبشرة وجوههم طيبة اقسهم . وقد سلم بعضهم على بعض وهم كأنهم استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون فيها اذا اصبحوا من ليلتهم التي يبيتون فيها . ثم قاموا الى الصلاة فصلوا كما كانوا يفعلون ، لا يرى في وجوههم ولا ألوانهم شيء يكرهونه ، انما هم كبيتهم حين رقدوا ، وهم يرون ملكهم داسيوس الجبار في طلبهم «

» فلما قضا صلاتهم قال لهم مكسيمينانوس : « ان الملك سيطلبنا اليوم او غداً فيجب ان نظل ثابتين في ايماننا » . ثم قال للملكوس : « انطلق الى المدينة فاسمع ما يقوله الناس في شأننا ، ولا تشمرن بنا احداً ، وابع لنا طعاماً وأتنا به فانه قد نالنا الجوع «

» فأخذ ملكوس الثياب التي كان يتنكر فيها واخذ دراهم من ثقتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع الملك داسيوس وانطلق خارجاً حتى اتى باب المدينة مستخفياً يصد عن الطرق تخوفاً من ان يراه احد من اهلها فيعرفه فيذهب به الى داسيوس الطاغية . ولم يشعر ان داسيوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلاثمائة سنة . . فلما رأى ملكوس باب المدينة رفع رأسه فرأى فوق الباب علامة الصليب ، فعجب وجعل ينظر اليها مستخفياً . ثم ترك ذلك الباب وتحول الى باب آخر من ابوابها ، فرأى مثل ذلك . فخيل اليه ان المدينة ليست بالتي كان يعرفها . ورأى ناساً كثيرين فلم يعرف منهم احداً . فجعل يمشي ويتمعجب منهم ومن نفسه وهو حيران او كأنه في حلم . . «

» ثم دخل المدينة وسار في سوقها فسمع كثيرين يذكرون الله ثم انسبح ، فزاده ذلك عجباً وحيرة وجعل يقول في نفسه : « ما أدري ما هذا . . . أما عشية امس فذا كان على وجه الارض انسان يذكر المسيح الا

قتل، واما اليوم فأسمع كل انسان يذكر هذا الاسم ولا يخاف . ثم لتي
فتى من اهل المدينة فسأله عن اسم المدينة فقال : « أفسوس » . فقال في
نفسه : « لعل بي مسأ او أمراً أذهب عقلي . . »

ثم دنا من الذين يبيعون الطعام ، فأخرج الدراهم التي كانت معه ،
فأعطاهم رجلاً منهم وطلب طعاماً . فأخذها الرجل ونظر الى ضربها وقيمتها
وهو يسحب منها . ثم طرحها الى رجل من اصحابه ، فنظر اليها . . ثم جعلوا
يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل وهم يعجبون منها ويقولون : « لا
شك ان هذا الفتى قد أصاب كنزاً . . » . فلما رأهم في مثل ذلك فرق
فرقاً شديداً وهو يظن انهم فطنوا به وعرفوه وانهم لا يلبثون ان يحملوه الى
داسيوس . فقال لهم : « اقضوا لي حاجتي فقد اخذتم مالي ، والا فأمسكوا
طعامكم فلا حاجة لي فيه » . فقالوا له : « من انت وما شأنك ؟ انك لقد
وجدت كنزاً من كنوز الاولين وتريد ان تخفيه عنا . . انطلق معنا
وشاركنا فيه وألا سنفنالك الى السلطان وهو أدري منا بما فبتك » .
فأطرق ملكوس لا يدري ما يقول . فلما رآوه لا يحير جواباً اخذوا كساءه
فطوقوه في عنقه واندفعوا يقودونه في سكك المدينة مكبلاً حتى سمع به كل
من فيها واجتمع عليه الناس صغيرهم وكبيرهم وهم يقولون : « ما هذا الفتى من
اهل المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه . . » . وكان ملكوس مستيقناً ان
اباه واخوته واهله بالمدينة ، وكلهم من المظالم ، وانهم سيأتونه اذا سمعوا . .
ولكنه كان متعجباً لانه عشيبة امس كان يعرف اكثر اهل المدينة ، ولا
يعرف اليوم منهم احداً . . »

وعاد برستين يحتلس النظر الى الملك ، فراه نائماً وسمع غطيطة . فأشار الى

كرشون بيده ، فتقدم خطوتين الى الامام ، وواصل بر-تين الحكاية فقال :
« وانطلق الناس بملكوس الى رئيسي المدينة اللذين يدبران امرها ،
وقد سار بينهم وهو يقول : « اللهم اله السماء والارض ! أفرغ علي اليوم
صبراً وأولج معي روحاً منك تؤيدني به عند داسيوس الجبار ! » . ثم جعل
يبكي ويقول : فرّق بيني وبين اخوتي ! .. ياليتهم يعلمون ما لقيت وأين
يذهب بي ! .. وقد كنا توافقنا ان نكون معاً ، لا نقترق في حياة ولا موت
وأن لا نكفر بالله ولا نعبد الطواغيت من دون الله عز وجل »

« ولما وصل الناس بملكوس الى الحاكمين ونظرا الى الدراهم قال له
احدهما : « اين الكنز الذي وجدته يافتي ؟ .. فهذه الدراهم تشهد عليك
انك قد وجدت كنزاً ! » . فقال ملكوس : « ما وجدت كنزاً كما يدعون
ولكن هذه الدراهم دراهم آبائي وتتش هذه المدينة وضربها » . قال : « من
انت ؟ » . قال : « اني من اهل هذه المدينة » . قال : « من ابوك ومن يعرفك
بها ؟ » . فأنبأهم باسم ابيه . فلم يجدوا احداً يعرفه ولا اباه . فقال له الرئيسان :
« انت رجل كذاب لا تخبر بالحق ! » . فلم يدر ملكوس ما يقول . وقد
نكس رأسه الى الارض . فقال بعض من حوله : « هذا الرجل مجنون » .
وقال غيره : « ليس بمجنون ولكنه يحقق نفسه عمداً لكي يفلت منا » . فقال
له احد الرئيسين : « وهل تظن أننا نصدق أن هذا مال ابيك ، ولنتش
هذه الدراهم وضربها اكثر من ثلاثمائة سنة ، وانت غلام شاب ؟ فهل تظن
انك نأفكنا وتسخر بنا ونحن شمس كما ترى ، وحولك سراة اهل المدينة
وولاة امرها ، وخزائن هذه البلدة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب
درهم ولا دينار ؟ .. وأني لأظنني سأمر بك فتضرب وتعذب عذاباً شديداً

ثم أوثقك حتى تمر بهذا الكثر الذي وجدت ! » . فقال له ملكوس :
« أنبئوني عن شيء أسألكم عنه ، فإن فعلتم صدقتم الخبر » . قالوا : « سل
لا نكتفك شيئاً » . قال : « فما فعل الملك داسيوس ؟ » . فقالوا له : « لسنا
نعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً بهذا الاسم . وقد كان منذ ثلاثمائة
سنة وهلك » . قال : « فوالله ما يصدقني احد من الناس بما اقول . . لقد
كنا فتية الملك . . وانه أكرهنا على عبادة الاوثان والذبح للطوائف ،
فهربنا منه عشية أمس فقمنا ، فلما اتبهننا خرجت لاشترى لاصحابي ولي
طعاماً وأنجس لهم الاخبار ، فاذا انا كما ترون . . فانطلقوا معي الى الكهف
الذي في الجبل أركم اصحابي »

« فلما سمع الرئيسان ذلك قالوا : « يا قوم لعل هذه آية من آيات الله
عز وجل جعلها لكم على يدي هذا الفتى . فانطلقوا بنا معه ليرينا اصحابه كما
قال » . ثم ساروا بملكوس وفي ثرم اهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو
اصحاب الكهف لينظروا اليهم . . »

وفي هذه اللحظة رأى برستن من النافذة ضياءً بديداً ، ففرس
فيه ميلاً فعرف ان رجاله قد بدأوا بالعمل وأضرموا النيران في بعض جوانب
القرية ومنازلها ، فخاف ان يشتد الحريق ويحدث في القرية هياج عظيم
فقبل ان يتوصل الى مفاتيح السجن ، فأراد ان يدنو من الملك ليأخذها من
تحت وسادته ولكنه خشي ان يتحرك من مكانه مثلاً يتغير صوته . فأشار
الى كرشون بالاسراع ، فتقدم كرشون خطوتين أخريين ووقف يتأمل
وهو يشجع نفسه ، وواصل برستن الكلام فقال :

« اما الفتية اصحاب الكهف فلما رأوا ان رفيقهم ملكوس قد احتبس

عنهم بالطعام عن القدر الذي كان يأتيهم فيه ظنوا انه قد اخذ وذُهب به الى الملك داسيوس . . . واتهم لفي مثل ذلك اذ سمعوا الاصوات وجلبة الخيل قادمة اليهم ، فظنوا ان رسل الجبار داسيوس قادمون ليقبضوا عليهم ، فقاموا الى الصلاة . . . واذا بملكوس قد دخل عليهم وهو يبكي . ثم أخبرهم بخبره وقص عليهم المسألة . فعرفوا عند ذلك انهم كانوا نياماً باذن الله تعالى ذلك الزمان كله ، وانما أوقفوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث . . . ثم دخل على اثر ملكوس رئيسا المدينة فرأيا تابوت النحاس وكان لا يزال محتوماً ، فدعوا رجالاً من عظماء اهل المدينة وفتحوا التابوت ، فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوباً فيهما : « ان مكسيميناتوس وملكوس ومرتينياتوس وديونييسيوس ويوحنا وسرايون وقسطنطينوس كانوا قتيه هربوا من ملكهم داسيوس الجبار مخافة ان يقتلهم عن دينهم ، فدخلوا في هذا الكهف . فلما أخبر بمكانهم امر بالكهف فسد عليهم بالحجارة . . . »

« فلما قرأ الناس ذلك عجبوا وحمدوا الله الذي أراهم آية البعث فيهم . ثم دخلوا على القتيه الكهف فوجدوهم جلوساً ووجوههم مشرقة ولم تبل ثيابهم . . . نخر الرئيسان والذين كانوا معهما سجداً لله تعالى . وبعثوا في الحال يريدان الى الملك ثاودوسيوس بالخبر ، فجاء سريعاً واعتنق القتيه وبكى . . . »

ورأى برستن ان الحريق في القرية يزداد اشتعالاً ، فدفأ يده الى كرشون واثار الى الحريق ثم الى الملك وقال :

« فقال القتيه لثاودوسيوس : « نستودعك الله وتقرأ عليك السلام ونمذك بالله من شر الجن والانس . . . » ثم رجعوا الى مضاجعهم فاناموا وتوفي الله ارواحهم . وقام الملك فجعل ثيابه عليهم وأمر ان يجعل لكل

واحد منهم تابوت من ذهب . فلما امسوا ونام أتوه في المنام وقالوا : « أنام نخلق من ذهب ولا فضة ، ولكننا خلقنا من التراب والى التراب نصير . فأركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله . . » . فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج ، فجعلوا فيه ، وبني على باب الكهف بيتاً للعبادة ، وعين للفتية عيداً عظيماً يعيد كل سنة . . »

وقبل ان يفرغ برستن من هذا الكلام مدَّ كرشون يده ليسحب المفاتيح.. وفي هذه اللحظة فتح الملك عينيه فقابل ظره نظر كرشون وهو ماد يده ، فصاح به صيحة عظيمة ، وتناول العكاز من جانبه فطعنه به في صدره ، فخرَّ المسكين على الارض والدم يتدفق منه . . وفي الحال بادر ماليوتا سكوراتوف الى المخدع وتبعه رجاله . ولما دخل هجم على برستن ، فلكمه هذا في صدره لكمة شديدة أطارت صوابه . ثم وثب الى النافذة فكسر زجاجها وقفز منها بأسرع من البرق الى الخارج ناجياً بنفسه وكان ماليوتا قد عاد الى رشده فصاح برجائه - امسكوا اللص الهارب وسدوا عليه جميع الطرق ! . .

فأسرع بعض الرجال وتزلوا الى حديقة القصر واخذوا يبحثون

الفصل التاسع والعشرون

« النجاة »

اما كرشون فتقدم اليه بعض رجال الحرس وأنهضوه ، فوقف مطأطأ الرأس والدم يسيل من صدره . وكان الملك يتأمل في وجهه ويتعجب ثم

قال له - قل لي ايها اللص الشرير من انت ومن أرسلك اليّ بهذا العزم ؟
فقال كرشون برباطة جأش - لا أخفي عليك ايها الملك اني أردت
ان أسرق مفاتيح خزينتك .. ولا مأرب لي غير هذا

ولم يشك الملك في ان الاعمى صادق هذه المرة ، وانه ورفيقه اتما
تآمرا على سرقة الخزينة لاغير ، فقال له وهو يستشيط غضباً - وهل بلغت
منك الجسارة الى هذا الحد ؟ .. قل لي من انت وابن رفقائك ؟

فأجاب كرشون وهو يحاول اطالة الكلام ليتمكن برستن من الفرار
- العفو ايها الملك العظيم ! .. فانا احد قراء الناس .. واما رفقائي فهم
الليل الحالك و...

فقاطعه ماليوتا وهو يضغط بيده على صدره من شدة ألم اللكمة -
كيف الهذيان ايها الاحمق .. فستحسنا غداً عن رفقائك وانت في موقف
العذاب ساعة تقف عنيك ونسلخ جلدك ..

ثم تفرس فيه ملياً وقال - يخيل اليّ اني رأيت هذه الهيئة المقوطة
بر' لان . وسكني لا اذكر اين ومنى ..

فضحك كرشون وحنى امه ماليوت وهو يقول - أجل ياسيدي
فات تعرفني حق المعرفة .. وقد تقابلت في غيضر الجاهلية منذ بضعة
ايام فقط .

فنص ماليوت من شدة الحجب وأسرع فأمر رجاله ان يأخذوا
الشيخ ويتقصروا في أمره ملياً

فقال الملك لماليوت - اعتنوا به ولا تدعوه يموت تحت الامتحان

والمذاب ، فاني عازم ان اختار له بنفسى نوعاً من العقوبات جديداً رائماً
ليموت فيه شرمية .. نغذه من هنا ثم عد اليّ
فقال مالىوتا لكرشون - اشكر جلالة الملك ايها الاحق فانه أمدّ
أجلك بضعة ايام اخرى ...

ثم خرج به وفي اثرهما رجال الحرس

واما برستن فكان قد اغتم جلبه الحراس واحتشاد الجماهير الى مواضع
الحريق وفر من حديقة القصر وهو يجري كالنمام الجافل ملتحفاً بمحجাব
الظلام .. وقادته قدماه الى ساحة السجن فلم ير هناك احداً . وفيما هو حائر
في امره لا يدري ماذا يفعل ، برز اليه فتى عرفه للحال انه من رجاله ، وهو
المشعوذ الذي لقيه مع رفيقه عند دخوله الى القرية .. فهذا لما أبصر الزعيم
دنا منه وقال - قد قتلت السجن فأتين المفاتيح

فاجاب برستن بحزن - قد خانا القدر وخفق مسعانا ، فلم نظفر
بالمفاتيح وخسرنا المم كرشون .. فاجمع رجالنا وغادروا هذه الجهات بما
أمكنكم من السرعة قبل ان يدركنا الخفراء والجنود
وانه لني هذا الحديث اذ رأى شاباً آخر يدنو اليهما فعرفه انه توما ،
فسر في داخله وقال له - أسرع فأخبر الرفقاء ان يسبقونا الى السنديانة العوجاء
فخلق فيه توما وقال - والامير .. أفلا تريد اتقاذه ؟

قال - وكيف السبيل الى ذلك وقد فقدنا المم كرشون ولم نقر

بمفاتيح السجن ؟

فضحك توما وقال - ولكن ما حاجتنا الى المفاتيح ؟ . فالسجن مفتوح
قلم يمالك برستن ان تبسم تبسم الاستبشار وقال - ومن فتحه ؟
قال - انا

قال - وكيف فعلت ايها الجبار ؟

قال - لم أفعل شيئاً . . بل جئت الى هنا لا تأمل ضخامة هذا السجن ،
فرايت السجان مطروحاً على الأرض بلا حراك ، فدنوت من الباب
لأجرب مناعته ، ثم دفعته بكثفي دفعتين ورفسته برجلي مرة فقط ففتح
نفتق قلب برستن سروراً لتيقنه بلوغ الأمانة . فوثب الى توما فضمه
الى صدره وقبله في وجهه ثم قال له - اتبعني اذاً لننقذ الأمير . . واما انت
(يريد الفتى المشعوذ) فلا تبرح مكانك وارصد كل حركة لثلاث يداهما احد
من الحراس او الجنود . .

ثم التفت برستن يمنة ويسرة . واذ لم ير خطراً يهدده دخل الى السجن
ومعه توما . ولما كان للسجن بابان آخران داخلان رفسمهما أيضاً توما فافتحا
بأكثر سهرة لانهما كذا اثر مناعة من الباب الخارجي . . ودخل برستن
وهو يكاد ينقاد ثقله من شدة سروره . ولما وصل الى حيث كان الأمير
خاطبه قائلاً - هيا يا ايها الأمير ؟

وكان نكيتا قد أفتى على صوت فتح الابواب ، فظن ان مليوناً ورجاله
قد جاءوا ليقودوه الى السجن فقال - وصل بدأ الصباح ؟ . ام انت يا ماليرتا
قد جئت لتعذبني قبل فجر لتشنني ما بقي من غليل ؟ . ولكن لا بأس
فأفمن ما انت فاعن . فاننا نريد الموت واستقبله باسملاً لانه يخلصني من هذا
الوجود مذمه شراً ونفساً

فقال برستن - لست انا ماليوتا . . بل انا الرجل الذي اُخذته من الموت ! . . ولكن بالله عليك ايها الأمير ان تسرع لتخرج من هنا قال - فمن انت اذا ؟ اني لم اعرف صوتك !

قال - لا عجب في ذلك فستعرفني . . اما الآن فلم سريعا فلم يجب الأمير بشيء لانه ظن ان برستن هو احد رجال ماليوتا وقد جاء ليشير غيظه بمثل هذا التهمك

وكان برستن قد عيل صبره فقال - أفلا تصدقني ايها الأمير ؟ . . اذكر قرية الدب وغياض الجاهلية ! . . فانا برستن

ولم يكذب هذا الاسم يقرع سمع الأمير حتى استوى في مكانه ، وقد طفق قلبه سرورا وحنث نفسه الى الحرية والحياة وتجات في مخيلته صورة هيلانة ، فكاد ينهض قائما ويتبع برستن . . غير انه تذكر قسمه للملك ، فالتبض صدره رجعد الدم في عروقه وتل - لا . لا ندر اني اُخرج من هنا ، فاني قد أقسمت للملك على الطاعة لأوامره وعدم الفرار من احكامه ، فلن أحنث بيمينى

فارتاع برستن وقال بحدة - ولكن الوقت لا يسعدني على الاخذ والرد معك طويلا ، فان رجالي ينتظروننا على مثل حجر ، وكنت عنت سنك قد تقضي بنا الى الهلكة . وقد عرفت ان غدا موعده تنفيذ الحكم فيك . فقم الآن وعجل بالخروج من هذا المكان مادام نجم التوفيق ساهرا على حياتك فتهب الأمير وقال برنة حزينة - لا يمكن ان يكون هذا . فاخرج وحده ودعني وشأني ، والله المسؤول ان يتولى عني مكانك

فغار برستن في امره وقال - أقتسخر منا إذاً ايها الأمير ؟ اني قد
أحرقت القرية لأجلك وأهلكك أعز رفيق لي ، وربما هلك أيضاً كثيرون
غيره من رجالنا . ومع هذا فانت ترفض النجاة وتؤثر البقاء في السجن ؟
ان ذلك لمن اغرب الغرائب . . . والآن قل لي نهائياً : هل تريد ان تخرج
معنا من هنا ؟

فاجاب نكيتا بلا تردد - لا أريد . .

ثم اضطجع على الارض وهو لا يزيد على قوله شيئاً
فقال برستن لتوما - أخرجه من هنا على الرغم منه ، لأن الوقت
لا يسمح لنا باضاعته في مثل هذا الجدل

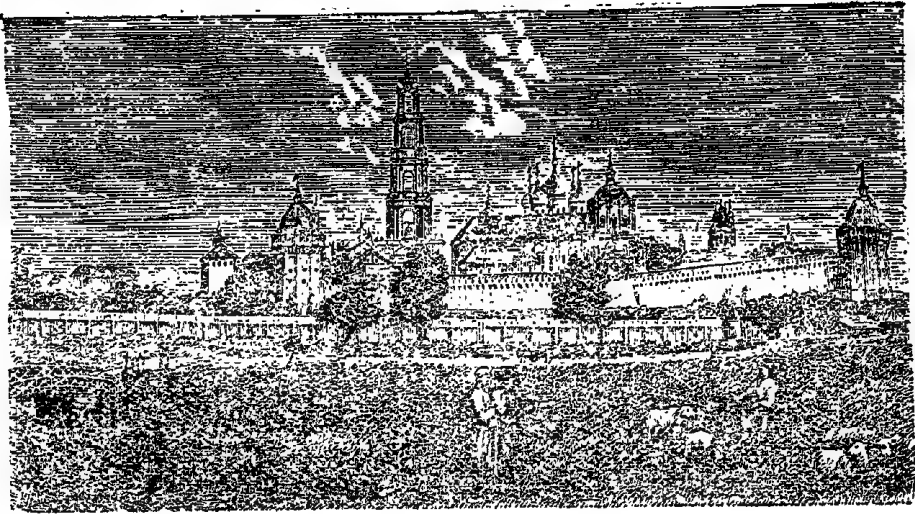
ثم وثب هو أيضاً الى الأمير . وقبل ان يتمكن من النطق بكلمة سداً
فه سداً محكماً . وكان الجوع والضعف واضطراب البال قد أثرت في الأمير
كثيراً فلم يستطع المقاومة . فلفه برستن وتوما بثوب من امتعهما وحمله توما
على ظهره وخرجا به من السجن . ولما التقيا اللص (المشعوذ) امره برستن
ان يسبقهما ويجمع الرفقاء بظاهر القرية ، وواصل هو وتوما المسير بمنتهى
الحذر والاحتراس

وفيما هما كذلك أبصرهما بعض رجال الحرس فسألوهما من يحملان .
فقال برستن باهتمام - رجلاً راح طعاماً للنار . .

ولما كادا يخرجان من القرية استوقفهما احد الخفراء . فوثب اليه برستن
فقطعه بخنجره فأرداه قتيلاً . وسار بعد ذلك وهو لا يكاد يبطأ الأرض
بقدميه تيهاً وعجاباً بنفسه . . وما انبثق الفجر حتى كان اللصوص قد خرجوا
جميعاً من قرية الكسندروفا ، ولم يفقد منهم الا العم كرشون

الفصل الثلاثون

مكسيم



دير الثلوث الاقدس من أعظم الاديار الروسية وأقدمها

تركنا مكسيم بن مالبوتا سكوراتوف وقد غادر بيت ابيه وخرج نحت
جنح الظلام من قرية الكسندروفا ، يتبعه كلبه بويان وهو يطفر مسروراً
لأنه اتيح له أن يفلت من مربطه ويلحق بسيدته . ولم يكن مكسيم في رحيله
هذا يقصد جهة معلومة أو غاية خاصة بل كان جل اهتمامه ان يتعد ما امكن
عن رجال الحرس ، فلا يعود يرى اعمالهم البذيئة وتماديهم في النفي والطغيان
وأبقاعهم بالشرف والفضيلة . وكان في أول خروجه من القرية يجد السير
خوفاً من أن يدركه رسل ابيه فيرغموه على العودة . ولكنه بعد أن تحقق
بنجاح عمله اخذ يسير سيراً معتدلاً قاصداً الى الجهات الجنوبية من البلاد وهو
يتنهل الى الله أن يلهمه ماذا ينبغي له أن يفعل

ولما طلع الفجر وقف جوادهُ وأخذ يتأمل في احواله وقد مرت امامه
تذكارات شتى وتجلت له صورة والدته وهي حزينة جداً لفراقه لانه تركها
بغته دون ان تراه وتباركه . فبكى بدمع مدرار . ثم عاود المسير وقلبه
مشتعل بنيران الاحزان . وكان في طريقه غابة كثيفة فسار فيها وهو لا يعرف
شيئاً من هذه الجهات لانه لم يطأها قبل الان . . . ولما نصف النهار أبصر
في سفح جبل امامه ديراً كبيراً تحيط به بقعة فسيحة اكتست بكل نوع
من المغروسات والاشجار . فشمع مكسيم بميل شديد الى دخول هذا الدير
وقل في نفسه : « هذا افضل مكان أستطيع أن اجأ اليه بضعة أيام فلا
يراني احد ولا ينم عليّ احد مهما بالغ والدي في البحث والاستقصاء . . . ولا
بد أن ألاقي أيضاً هنا راحة لقلبي المتألم وتزينة لنفسي الحزينة . . »

واذ خطر له هذا الفكر سدد مسيره الى جهة ندير . ولما بلغه طلب
من بعض الرهبان الذين صادفهم في الباب أن ياذراله في مواجهة الرئيس .
وأن يكن الا القليل حتى يزناه رئيس الدير وكان شيخاً طاعناً في السن
اشتعل رأسه شاماً . وله لحية كبيرة بيضاء . ودينار تبتل من سن وداعة تامة وصلاح
كبير . فحبه مكسيم بميل . فشمع راجعاً الى الدير . فطلب أن ينفذ به ليخبره
بحاله . فبش له الرئيس ومربى رهبان أن ينفذ به ليخبره . ثم سار
واياه في دهليز الدير حتى وصلا الى الكنيسة

ولما دخلا جثا مكسيم على ركبتيه ولفظ صلاة حارة أثرت فيه تأثيراً
خشوعياً لم يشعر بمثله مدة حياته السابقة كلها . . وفيما هو كذلك وقع بصره
على صورة « الابن الشاطر » فارتعد وخيل اليه أنه يفراره من منزل والديه
ان يشبه الابن الشاطر . . غير أنه لا يشعر بوخز ضميره . فهو اذاً لم يأت

منكراً ولم يسيء إلا إلى والدته لأنه خرج ولم تره . . ولكنه لم يستطع ان يفعل غير هذا . .

ولما مضى عليه في هذه المآلات بضع دقائق انتفت إلى الرئيس
وقال - باركني ايها الاب الصالح ورحمني . . لأنه يلوح لي في خاطلي
كبير . ولكني لم أفعل ما يكرهني عليه ضميري ولا ما يخطط الله عليّ
فأجاب الرئيس بنطف - صل يا ولدي فرحة الله عظيمة . وذا اردت
ان تعترف لي بما يخرج اوكارك وبما يقلق بك وتوب إلى الله التوبة
الصادقة فإن الله يقبل توبتك ويتولاك برحمته وغفرانه
فقال مكسيم وهو يرتعش - ان ذنبي عظيم في نظر الناس يا أبت . .
فقد كرهت الملك وبعضته

فنظر إليه الرئيس وقد ملأه الدهش وعرق

فقال مكسيم - لا أعني ايها الاب تكسب مني اسم كلامي .
فقد قضيت زينة مريّة في خمسة عشر سنة . ولكن لا بد . . تزدي لا تقوداً
منه وكراهية

فقال له الرئيس - اك يا ولدي لني صلات مبين ولعل ذلك من
تجارب الشيطان . . والذي يزيدني دهشة أنك تشي حتى تمسك بذكر .
فإن لم أسمع قبل الآن من أقرب فضله ملك سوك . . حتى أن المصوص
واحدة لم يتصفوا بمثل ما اتصفت به انت

فامتقع مكسيم وقال وهو يضطرب - ذفا . لأن اضل سبيلاً
من كل سارق وقاتل . . فأرشدني يا ابي إلى سبيل السبيل ، ومنه بي ماذا
أعمل . فإن سبي حربنة جداً وهي تكاد تنشق من شدة لذة

- فنظر اليه الرئيس وهو يود ان يستطلع خفايا نفسه، فلم ير في وجهه ما يدل على المكر والخديعة ، بل رأى دلائل الشهامة والبرورة والبسالة والشرف مرتسمة عليه ، فتعجب وقال - يسر علي أن اصدق ما فئت به يا ولدي .. فانت شاب في مستقبل العمر ونضارة الحياة .. فكيف تهم نفسك بما لا يعقبك الا كل ويل ؟ .. وانت كما ظهر لي لأول وهلة على جانب عظيم من الذكاء والالمية ، فكيف استرسلت الى النفور من الملك وبغضه ، وهذه الشرائع كلها تأمرنا بمحبة ، وتوجب علينا طاعته ؟ .. ألم تقرأ ما جاء في الوصية الخامسة من الامر الالهي باكرام الاب ؟ .. فاذا كان الله يأمرنا بمحبة الاب واكرامه ، فكيف يجب أن تكون محبة الملك واكرامه ، وهو اثم من الاب كثيراً ؟ .. فهل تعرف هذه الوصية وتطيعونها ؟

فاطرق مكسيم ولم يجب

فاعاد الرئيس سؤاله قائلاً - هل تحب اباك يا ولدي ؟

فاجاب مكسيم بصوت خافت - كلاً ..

فاجل الرئيس وقال - كلاً ..

ثم حذق بصره اليه وعاد فقال - هو في أشد حالات الذمور - فاذا كنت تكره الملك ولا تكرم اباك ، فمن انت اذا ؟

اجاب - انا مكسيم بن ماليوتا سكوراتوف

قال - فانت اذا ابن ماليوتا ؟

قال - نعم ، ما هو ذلك الشقي النعس ؟ ..

ثم اجش في البكا ، .. وكن الرئيس قد أطرق برأسه الى الارض

وهو يتأمل ويستغرب . ثم رفع رأسه وقال - أخبرني الآن بالتفصيل كيف كرهت الملك وأبغضت أباك . .

ققص عليه مكسيم ما كان من امره في قرية الكسندروفا واخبره بأحوال رجال الحرس ومعايشتهم . ثم سرد عليه ما كان بينه وبين والده من الحديث في الليلة الفائتة ، ولم يخف عنه شيئاً

ولما فرغ من اعترافه قال له الرئيس - اعلم انك الآن في موقف رهيب . . فان بقي في قسك امر آخر فافض به الي . . وقد قلت انك تبغض الملك ، فهل خطر لك يوماً ان تكيد له او تثير فتنة في البلاد ؟

فقال مكسيم - لا هذا ولا ذك ايها الاب الجليل . . وأسهل علي ان تبتراء عضائي وبسل لساني من ان يجول في فكري شيء من الخيانة للملك وللبلاد ، او ان أطلق بشيء غايته الفتنة والتهيج . . فانا مخضى في عمه محبتي للملك ، لا في خيائتي له او لوطن

قال - ان اعترافك يا ولدي قد تمدك من كل شيء ، وغير ذلك من اقربية على الصورة التي ذكرت لا يعد اثماً ، لانك انما هربت من الضلال وجميع تجارب ابليس . . واعلم ان لله في عباده احكاماً لا يدركها احد . . فاجتوع والامراض وسائر المصائب البشرية تتعرض للانسان بسماح من الله تعالى لحكمة سامية ، وما على الانسان الا ان يخضع ويصلي ويتوب . . وهكذا الآن . فقد تولى زمام المملكة ملك هائل ضام ليس لشنقة ولا لارحة الى قلبه سيس . . بيد انه من الله ويس لنا ان تقاوم ترتيب الله . . ونحن بخضوعنا لهذا الملك انما نخضع لله الذي اقمه وأوجب علينا طاعته . . ولقد صارحتك بهذا كله وانا واثق بأنك لن تخونني ولن تشي بي

قال هذا وبارك مكسيم ودعاه ليقم عنده في الدير مدة طويلة . . .
ثم خرجا من الكنيسة فجلسا الى مائدة الطعام مع جماعة الرهبان . وفي
اثناء الأكل قام الرئيس ومكسيم فتم بنا نخب الأسرة المالكة ورؤساء الدين
وسعادة البلاد ، وشاركهما جميع الرهبان في المسرة والدعاء .

وأقام مكسيم في الدير اسبوعاً كاملاً كان فيه موضوع عناية الرئيس
وولاء الرهبان ومحبتهم . . . وكان يقضي سحابة نهاره في حدائق الدير يراقب
اعمال الرهبان ونشاطهم واجتهادهم . فبعضهم كانوا يعنون بالتصوير ونسخ
الكتب ، والبعض الآخر يعمل الصلبان والايقونات من خشب السرو او
بتذهيب الآنية الخشبية ، وآخرون يهتمون بغرس الاشجار وترتيب المزرعات
وما شاء ذلك من الأعمال التي كانوا يتقنونها ويتفنون فيها . . . وقد سر
مكسيم جداً بذلك كله وأحب الرهبان وارتاح الى معيشتهم وسكينتهم
وحسنهم على خلوصهم من الهم ولاضطراب . وقد اكبر الفرق بينهم وبين
رهبان الملك او رجال الحرس الذين انصفوا بمذام الآثام ور وخبث الضمائر
وسر الإفعال ، بقدر ما كان هؤلاء متصفين بالتورع والصلاح

وسمع مكسيم ذات يوم من بعض ارباب الذين كانوا يجولون في
الخارج ان جمهوراً غفيراً من ائتر قد هجموا على ولاية « ريانان » وعاثوا
فيها فساداً كبيراً . وانهم لم يستطيعوا ان يقاوه وهم او يدفعوهم
عن ديارهم . فتأجج في صدره شوق الى خوض المعال ، وود ان
يضر من ساعته الى تلك الجهة ، انه يتمكن من ستهاض الهمم واثارة
له ن وطنية في صدر ابناء البلاد لمداومة المدو

ولما خطر له ذلك اجتمع بالرئيس وأخبره بهزمه ثم قال - وقد حملت
معي بعض المال ، ولما لم يكن لي به فائدة فاني أقدمه لك لتضيفه الى مال
الدير . . واني أسألك ايها الأب الصالح ان ترسل من قبلك بعد ثلاثة أيام
راهباً أو رجلاً آخر من خدمة الدير الى قرية الكسندروف ليخبر والدتي
بحالي ، واني صحيح معافى أطلب بركتها ورضاها

فشكره الرئيس على هذه التقديمة وقال - اما المان فاني أقبله وقد نبني
به كنيسة ندعو لك فيها على الدوام بالخير والهناء ، ولكن لا بد ان تبقي منه
لنفسك شيئاً لأمك تحتاج في طريقك الى النفقة ، واما سفرك في مثل
هذه السرعة فقد غمني كثيراً لاني أحبتك ورجوت ان تنالك نعمة الله ،
فتترك العالم وتشاطرنا هذه الحية النسكية في هذا الجبل . فأصغ الى يابني
واقى بيننا

تمل مكسيم - غير ان ذلك لا يمكن : بي . اريد آيت من خدم
البلاد بساعدي واقسمت عظم الأقسام ان أبذل حياتي في سبيل هذه
الخدمة وسأبر في قسبي ، فلا تحول ان تتنبني عما عزمت ودعي أخوض
غمار الموت مسروراً وادع لي وباركني ولا تنس ولدي

ولما لم ير الرئيس بداً من ذلك باركه ودعاه بحسن البلاء في جهاده
ووعده بإبلاغ رسالته الى والدته . ثم شيعه من بيتية زهرين الى خارج المير .
فشكره مكسيم على ذلك ، ثم امتضى جهاده وسار في طريقه رياناً يقبضه
كعبه طافراً مسروراً

وكن النهار دافئاً وأخو صحرًا والشمس تسير افريقي في نوره برقاء ،
ومكسيم سائر في ثلاث "بضاح رقد وض" نعمة على من ردة الخطوب

واستقبال القدر كيف جاء . ولما آذنت الشمس بالنسب وقف هنيهة يتأمل في حالته وكيف يقضي هذه الليلة وهو غريب لا يعرف تلك الجهات . ثم حاود السير وهو يود أن يرى في طريقه قرية يأوي إليها . وبعد أن سار على هذه الحالة ساعة من الزمن لمح عن بعد نوراً ضئيلاً فاتجه إليه وهو يرجو خيراً . ولما اقترب منه رأى كوخاً منفرداً وأبصر من نافذته امرأة جالسة الى سرير طفلها وكانت تنغي له ، فأصغى قليلاً فسمعها تقول : « . . . نم يا ولدي الحبيب فمما قليل ينتضي زمن المحنة وتزول المصيبة . لأن الملك سيلقي القبض على .اليوتا سكوراتوف اللعين ، فيضرب عنقه ويخلص البلاد من عينه وشره . . . »

وما سمع مكسيم ذلك حتى انتفض وصعد الدم الى وجهه . فترجل عن جواده ودخل الكوخ وهو في حالة الاضطراب الشديد . . فلما أبصرته المرأة خافت ونادت زوجها ، وكان مستقيماً في جانب من الكوخ ، فقام وقد وقع عليه الذعر . فقال له مكسيم - من انتم وماذا تعملون هنا ؟

فأنحنى الرجل امامه وقال وهو يرتجف - منذ زمان طويل ونحن في هذا المكان يا سيدي نصنع الفرايل والسلال ونبيعها للتجار الذين يجتازون بنا حيناً بعد آخر . ولولا رحمة الله لقضي علينا جوعاً وعرياً

فنظر مكسيم الى الرجل وامراته فرأهما في أشد حالات البؤس والفقر ، فأخرج من جيبه ما أبقاه لنفسه من النقود ووضعها على مائدة هناك وحول وجهه يريد الخروج . فاستوقفه صاحب الكوخ وجثا امامه مع زوجته وهما يشكرانه ويبيكان من شدة الفرح ويقولان - أنبئنا باسمك يا مولانا لنعرف المحسن اليينا العظيم ونصلي لاجله

فقال مكسيم - صلياً لاجل مالبوتا .. ودلاني الآن على طريق ريازان
فبهت الرجل وقال - ها هي امامك يا سيدي . ولكنني أسألك ان
لا تسافر في هذا الوقت . فان كثيرين من قطاع السبيل منبثون في هذه
الارحاء عصابات مختلفة . وقد هجموا الليلة الفائتة على قافلة برمتها فسلبوها
وفتكروا برجالها . وقد سمعنا أيضاً ان التتر ظهروا في ولاية ريازان واجتاحوا
جانباً منها . فأسألك ان تبيت عندنا هذه الليلة وغداً تنصرف الى حيث تريد
وكان مكسيم راغباً اشد الرغبة في المبيت ، ولكنه لم يشأ ان يبقى في
منزل سمع فيه بأذنه شتيمة ابيه ، فودع الرجل وزوجته وخرج ، وهو يرجو
ان يرى مبيتاً آخر . وكان القمر قد طلع فانار تلك الارحاء بنوره الساطع
ولم يقطع مكسيم الا بضعة فراسخ حتى رأى كلبه بويان قد هجم
على جانب من الطريق واخذ في الهرير والنباح ، وكان يزداد عنفاً وشدة
كأنه يرى كيناً وراء بعض الادغال . فتعجب مكسيم وهجم جهة الكلب ،
فسمع صوتاً جهورياً يصيح به - فف وانزل عن الجواد والا قطعناك
اربأ اربأ .. !

وقبل ان يملك مكسيم روعه رأى نفسه محاطاً بستة اشباح ، وفي
ايديهم العصي الضخمة . وللحال جرد سيفه في وجوههم وضرب أقربهم اليه
فكاد يخطف أنفاسه . ورفع يده ليضرب الآخر ، غير ان الرجل هجموا عليه
هجمة واحدة فتمكنوا منه وأنزلوه عن جواده وأوثقوه ، وما كادوا ينظرون
الى لباسه وحسامه حتى صاحوا كلهم بصوت واحد - هذا احد رجال
الحرس .. فيالها من غنيمة أصبناها هذه الليلة .. ! . فلم تأخذه الى الجماء حياً
لنلوهو بتعذيبه بمض الوقت

الفصل الحادي والثلاثون

« ثورة اللصوص »

على مسافة نحو فرسخين من المكان الذي جرت فيه الحادثة الآتفة
الذكر كان جمهور عظيم من الرجال محتشدين في بقعة فسيحة بين اشجار
الغابة ، وقد تدجج اكثرهم بالاسلحة ، وامامهم براميل مختلفة الاحجام
مترعة خمرًا ، فكانوا يتناولون منها وقد دارت بينهم الكؤوس واخذوا يطربون
ويلهون . . ومن تفرس فيهم قليلاً عرف للحال انهم عصابة اللصوص اصحاب
برستن . ولكن لم يكن بينهم الشيخ كرشون الذي كان في مثل هذه
الاجتماعات يطربهم بنوادره ونكاته ، فكانوا يتذكرونه ويشربون نخبه
ويودون لوفدوه بارواحهم . .

ولم يمض عليهم وهم في تلك الحالة الا القليل حتى لعبت الحمرة برؤوسهم
فملا ضوضاءهم وكثر بينهم المصخب واشتد القيل والقال

فقل احدهم - من يعرف ماذا يجري الان يا عم كرشون ؟
وقل آخر وقد اتزع كاسه ضحكاً - هو الان على ما ارى في اشد
الحنّة والغيق . . وسيديقونه الموت الاحمر

وقال غيره - ليت الله ايها السم كرشون ! . . فقد كنت لنا نعم الرفيق
والعصبة باسرها نعم المرشد والنازيق . . ولا اخالك تقشي سرنا ولو تحت
اشد الازاب

- انه لا يفشي سر العصابة ولو مزقوه تمزيقاً
- والحق يقال ان خسارة العم كرشون لحي مصيبة فادحة
أصابتنا جميعاً
- الا اترعيم . . فانه أوقع كرشون في الفخ ونجا نفسه
- وكيف أوقعه ؟ . . وما هذا الزعيم الذي يسلم اصحابه ويسوقهم
الى المهالك ؟
- انه فعل ذلك حباً للامير
- ومن هو هذا الامير الذي لاجله أهلك برستن أعز اصدقائه
وأحسن رجاله ؟
- صه ! فان الامير صديق حميم لزعيمنا . . ألا تراهما الان منفردين
في الخيمة يتبانهان ويتسارّان ؟ . . فان سمك برستن فاذا يقول ؟
- وجهه سمع . . قانا لا اذهب ، لاني أرى انه يبدأ العمل قد خن
للعصابة وغدر بشيخها
- وأي عجب في ذلك ؟ . . فقد كان كرشون احسن من برستن من
عدة وجوه وأسفى نية ، فتدربه هذا الغدر الوخيم ليصفوه له الجؤ وبراح
من مزاجته
- وأنا أضن انه غدر به عمداً
- رأينا كذلك أترعيم . .
- وما سبب وجود الامير يننا ، وأي علاقة له معنا ؟ . . ان ذلك
لمن المدهشت

- لعل برستن يريد الفدية عنه ، لانه خلصه من السجن
- انت واهم يا اخي ! . . والحقيقة هي ان الملك قد غضب على الامير وزجه في السجن . فلما اتقذناه انضم اليها ووعد ان يقودنا الى قرية الكسندروفا لنقتل رجال الحرس ونهب خزينة الملك وتقسما
- اذا كان الامر كما تقول فلماذا لا يقودنا وقد صار لنا هنا ثلاثة ايام حتى ملنا الانتظار ؟
- لا يقودنا لان زعيمنا كما ترون جبان وضعيف
- لا . لا تصف برستن بمثل هذا ، فانه بطل منوار وفارس صنديد
- فم اذا هذا الابطاء ؟
- لانه يريد كما يظهر ان يفرد وحده بالاستيلاء على الخزينة ولا يشركنا في شيء منها
- او انه يريد ان يبيعنا كما باع العم كرشون
- ولهذا فهو لا يريد ان يخلص كرشون من ايدي معذبيه
- افلا تقدر ان نذهب بانفسنا ونقذ كرشون ؟
- نعم تقدر . ولا شيء يمنعنا . ولا حاجة لنا الى برستن ، لانه لا ينفعنا شيء
- وقدر أيضا ان تهب الخزينة . . فليقدنا الأمير ويرشدنا الى مكانها
- وقد سمعنا ان الملك قد خرج هذين اليومين لزيارة بعض الاديار واخذ معه نصف الحراس . . فلنذهب الآن !
- نعم فلنذهب ! ما دامت الفرصة سانحة !

- ولنحرق القرية مرة أخرى؟

- وقتل رجال الحرس ...!

. فليقتلنا الأمير ولا تريد أن يظل برستن زعيماً لنا! ...!

قالوا هذا ونهضوا على أقدامهم ، فاحتسوا الكؤوس دفعة واحدة وهم يصبحون ويمربدون ، وقد بلغ منهم الهياج مبلغاً عظيماً

وفي أثناء ذلك كان الأمير نكيتا والزعيم برستن منفردين في خيمة في أقصى مكان من البقعة يتسامران. وقد ساقهما الحديث الى أن قال برستن -
انك ايها الأمير لعل أعظم جانب من الشهامة والشرف .. ولكني لا أدعك تعود الى السجن او الى قصر الملك معهما قلت وسعيت
فقال : لا مير - انك أنتذرتني من السجن فشكراً لك .. ولكن لا بد من رجوع ثيه عاجلاً او آجلاً

قال - ولكني أنتذرت من السجن تتنجس من موت ، لا لتعود اليه
ق - بيد اني أراني الآن في ما هو أشد ظامة من السجن .. والموت
أحب إلي من النجاة على هذه الصورة .. فقد عاهدت الملك على الطاعة
والاقياد لأرادته . فكيف انكث عهدي ؟ وماذا يكون حديث الناس عني
إذا علموا بفراري ؟

قال - مالت ولا فأويل الناس ؟ فنت موقن ببراءة نفسك ، وانه قد
حكم عليك ظنم وعدوان .. ولعل الملك نفسه يعرف هذه الحقيقة ، وقد
ندم على تسرعه في الحكم

قال - مهما يكن الأمر فلا بد من الرجوع
قال - وانك سترجع ولكن بعد حين . لان من رأيي ان تنتظر
على الأقل ريثما يخمد غضب الملك ، فربما عاد الى صوابه وعرف خطأه
فيستقبلك سروراً

وفي هذه اللحظة اشتد هيجان المصوص وارتفعت ضجعتهم ، وكانوا
قد دنوا من خيمة الزعيم وهم يصرخون :
- الى القرية ! الى القرية ! الى قرية الكسندروفا !
- نريد ان نحرق القرية !
- وننقذ العم كرشون !
- ونهب براميل الذهب من الخزينة !
- وقتل جميع رجال الحرس !
- ولا نبقى على احد منهم !
- فابن الأمير ؟ .. ابن الأمير ؟ ..
- ليخرج ويقدنا الى القرية !
- ويرشدنا الى مكان الخزينة !
- واذا أبى ذلك فهيشوا المشقة !
- هيشوها له ولبرستن !
- ابن الأمير ؟ .. ابن الأمير ؟ ..

فلما سمع برستن هذه الأقوال طار صوابه . فقام من ساعته وهو يقول لنكيتنا - اننا الآن في أشد المواقف حرجاً . . فقد بلغ السكر من القوم كل مبلغ . ولا أعلم كيف نعاملهم لنسكن هياجهم . فأسألك ان تظهر انك تريد ان تقودهم الى قرية الكسندروفا ، والافتسوء الماقبة لاني أعرف منك بهؤلاء الناس

فارتعد الأمير ونهض من مكانه وهو لا يدري ماذا ينبغي له ان يفعل ، وقد شعر بانحطاط قدره بازاء هذه العصابة وكاد يتيئز غيظاً ، لولا ان برستن سأنه وألح عليه بمجاراتهم قليلاً لان السكر أمامهم وأقدم رشدهم . . فتجلد وخرج من الخيمة وقال للصوص - ماذا نطلبون !

فقالوا - سربنا الى قرية الكسندروفا !

- كن زعيمنا لاننا نرفض زعامة برستن !

- وقدنا في الحال الى موضع الخزينة !

- وان رفضت طلبنا فليس امامك الا المشقة ! . . .

ولو زلزلت الارض تحت قدمي الامير نكيتنا لما ارتعد وارتجف اكثر من تلك الدقيقة الهائلة في ذلك الموقف . . وكان برستن قد سمع ورأى نفسي ان يفرغ صبر الامير فينقض على الثائرين ويسوء المصير . ولذلك أسرع الى اللصوص وصاح بهم قائلاً - ويحكم ! ما هذا الكلام وهذه البداية . . تريدون ان يقودكم الامير الى القرية ، وهو سيفعل ذلك بضربة خاطر . . اما لان وقد تناصف الليل وبلغ منكم السكر فاذهبوا الى مضاجعكم ودعوه يأخذ نصيبه من الراحة . . فاليوم خرو وغداً امر

فصاح احد اللصوص - نحن في غنى عن نصحتك ، وقد خلمناك من الزعامة ، فلا تريد ان نعرفك بمد الان !
وقال آخر - انظروا ! ان برستن يأبى ترك الزعامة
وقال ثالث - دعوه وشأنه ولا تسمعوا اقواله
وقال رابع - لا بل اسحبوه الى المشتقة !
وقال خامس - الى المشتقة ! .. الى المشتقة ! ...
فاحدثم برستن غيظاً ونظر الى اللصوص فرأى عيونهم تقدح شرراً ،
فقال وقد وضع يده على مقبض سيفه - اخرجوا ايها الاندال ! ولا تظنوا
اني راض بهذه الزعامة . وها اني أرفضها رفضاً باتاً . فأقيموا عليكم
من تشاءون

فقال احد اللصوص - بالصواب نطق !
وقال آخر - وليس له ان يقول الا هذا لان الحق معنا
وقال ثالث - ان برستن لا يستحق ان يكون زعيماً لنا ...
فقال برستن - نعم اني لا أستحق ان اكون زعيمكم ! فسانطلق الى
جهاز نهر فولغا وهناك اكون زعيماً لقوم آخرين يذوقونكم بسالة ومودة
فاجابه احد اللصوص - لا . لا . لا ندعك تتركنا ، لاننا نخشى ان
تخوننا كما خنت العم كرشون

وقال آخر - فيجب ان تبقى معنا وتخضع لاوامر الزعيم الجديد ..
ثم تقدم احدهم ويده كأس من الخمر فدنا من الامير وألقى يده على
كتفه وقال - تفضل يا حضرة الامير واشرب نجبنا ، وهلم نناق بعضنا
بعضاً ، لانك منذ الان زعيمنا وقائدنا !

فهاج الدم في عروق نكتينا وشعر بسهم اخترق صدره فكاد يستل حسامه ويضرب به اللص الذي دنا منه على تلك الصورة . غير ان اصواتاً جديدة استلفتت سمعه وبصره ، فرأى حركة غريبة وسمع بعض اللصوص يقولون - أنظروا أنظروا فان بعض رجالنا قد أسروا واحداً من رجال الحرس ، وعاهم قادمون به الى هنا



وما هي الا هنية حتى أقبل من بعض اطراف الثمابة بضعة رجال من العصاية ، وقد حملوا بايديهم النبايت والمصي الضخمة ، وبينهم مكسيم موثق اليدين ، ووراءهم جواده يقوده احدهم وعليه اللص الذي ضربه مكسيم بسيفه ، ووراء الجميع بويان كلب مكسيم وهو يتبعهم لاحقاً بسيده غير حافل بالجروح التي اصابته في اثناء دفاعه عنه . وكان في طليعة هذا الرهط اللص خلوبكو وهو يرقص وينفي ، ورفقاؤه يهتفون له ويصفقون

فلما رآهم برستين على تلك الحالة قال لالامير نكتينا مشيراً الى الاسير - ما أنكد حظ هذا الشاب ! . . فانه سيلقي الان من هؤلاء الاشرار اشد الاهوال ، وسيموت موتاً بطيئاً شنيعاً بعد ان يذوق جميع ضروب العذاب . لان أسراحد رجال الحرس يعد عنه رجال العصاية مبرجاً عظيماً . فنظر كيف اتهم اجتمعوا حوله واخذوا في تهيئة آلات العذاب . فهم سيحاسبونه الان على كل ما جرى لهم فيما مضى من رجال الحرس من البلايا والتكبات . . وكان الامير يسمع ويتأمل حالة هؤلاء القوم وما هم عليه من اتوحش والفظاظة . ولو عرف ان الحارس الذي بينهم هو مكسيم الذي اتهمه من

الدب ودافع عنه ذلك الدفاع المحيد امام الملك لهجم عليهم وخلص من ايديهم او قتل معه . . . ولكن تألب الجماعة حوله كان يحجبه عن نظره فلم يستطع معرفته

اما مكسيم فكان ينظر الى تاهب اللصوص لقتله بملء السكينة والثبات دون ان يبدو عليه اقل ارتعاش او جزع ، لانه لم يكن يخشى الموت ولا العذاب ، بل كان يتأسف لموته في تلك الحالة وهو أعزل وموثق اليدين لا يسمع قنقعة السلاح ولا صهيل الجياد ، بل يرى قوماً اجلأفاً سكارى ويسمع أغانيهم السمجة وقهقهتهم الشديدة ، فقال في نفسه : « لم اكن أنتظر موتاً حقيراً كهذا ! فلتكن مشيئة الله . . »

وبينما هو كذلك لمح الامير نكيئا فرفه وهم ان يقترب اليه ، غير ان واحداً من اللصوص أمسك بخناقه وقال - قد بسط الفراش فاخلع ثيابك وارقد بسلام !

فقال مكسيم - حلوا يدي لا تمكن من ذلك ، واسمحوا لي ان اصلي قليلاً

فخل احداهم وثاقه وقال - صل واختصر لاننا بغاية الشوق الى مداعبتك ولما فرغ مكسيم من صلاته اقتاده اثنان الى عصي طويلة ركزاها في الارض ثم اخذا يجرانه من ثيابه ليربطا يديه ورجليه بها . . . وكان في تلك اللحظة ان الامير نكيئا نظر الى الاسير ، وما كاد يتفرس فيه قليلاً حتى عرفه ، فطار رشده وأسرع فدنا من الجماعة وقال بصوت جهوري - كنتم تقولون منذ هنية انكم لا تريدون زعامة برستن وانكم قد اخترتموني لهذا المنصب ، فهل انتم جميعاً مصممون على ذلك ؟

قالوا - نعم . فكلنا مجمعون على اختيارك وتولينك

قال - فاذأ سلموني الان فأس الزعامة

فسرّ اللصوص وبادر بعضهم فأحضروا فأس برستن وقدّموها له .
فتناول الامير الفأس وتقدم الى احد اللصين اللذين كانا الى جانب مكسيم
وقال له - حل الحارس !

فذهل اللص ونظر اليه مستفهماً . .

فصاح به الامير - حله حالاً !

فقال اللص - وكيف ذلك ؟ فهل تريد ان تطلق سراحه ؟

فانتفض الامير وقد بلغ منه التهيج حتى لم يعد يستطيع صبراً ، فرفع
الفأس وضرب بها اللص فشق رأسه . واللصوص واقفون حيارى وقد بلغ
الذهول منهم كل مبلغ . .

وكان الامير قد التفت الى اللص الآخر وأمره بحل الاسير . . فبادر
هذا وحله وهو يرتعد فرقاً . فأمسك الامير بيد مكسيم ثم تقدم الى اللصوص
وقال - ليس هذا الشاب من فرقة رجال الحرس كما فهمتم من لباسه بل هو
عدوهم الاشد ، وليس فيكم من يبنض هذه الفرقة المشؤومة اكثر منه ،
فانا أعرفه حق المعرفة ، ولذلك فهو منذ الان من رجالنا وأعواننا له . انا
وعليه ما علينا ، ومن يمسه بشيء فاجزأؤه الا القتل . اما لان نخدوا
أهبتكم وانتظموا صفوفاً لاني مزعم ان افودكم الى حيث طلبتم

وكان اللصوص قد أبلجتهم مفاجأة الامير لهم بشدته وقوة حجته ،
فوقفوا وهم لا يزالون حيارى لا يدرون ماذا يفعلون . . وبعد ان صمتوا قليلاً
قال بعضهم همساً - حقاً انه زعيم قادر !

وقال آخرون - ولكنه شديد المعاملة قاس فاهرا !
وقال غيرهم - وهذا مانحن في حاجة اليه لينيلنا مبتغانا ويكسح جراح
كل غادر ..

هكذا كان اللصوص يتحدثون وهم يتجهزون للمسير
وكان الامير قد عاتق مكسيم وهناه وهو يحمد الله على ما تم . ودنا
منهما برستن فرحب بمكسيم ثم قال للامير - ليس عملاك ياسيدي الامعجزة
من المعجزات . فانت بهذه العزيمة التي لا تقاوم قد أذهلت اللصوص وأتقت
صديقك ، وليس لاحد غيرك ان يفعل في مثل هذا الموقف الحرج ما
فعلت .. والان فمن الحكمة ان تواصل خطتك هذه الليلة الى النهاية . فظهر
انك مصمم ان تقود القوم الى قرية الكسندروف للحصول على ما يريدون ،
الى ان يبدولنا وجه آخر نصرهم اليه ، وتكون نشوة الشراب قد طارت
من رؤوسهم ..

وكان اللصوص في اثناء ذلك قد تجهزوا . فقام الامير وأخذ يشدد
عزائمهم ويمدحهم بكل خير .. ثم أمرهم ان ينتظموا مثات مثات
فقال له بعضهم - ولكن لا بد من التمهّل قليلاً يا حضرة الزعيم الى ان
يتم حشدنا .. فقد ذهب رهط منا الى جهات ولاية ريازان ولم يعودوا
حتى الان

فقال الامير - حسن . لا بد من الانتظار اذاً

الفصل الثاني والثلاثون

الذهاب للجهاد

لم يمض على انتظار القوم الا وقت قصير بعد ذلك حتى حضر الاصوص الغائبون ، وفي طليعتهم فتى منهم اسمه غريغور وكان أعور شديد البأس . فلما وصل حيا رفقاه وقال - ما أسعد هذا اليوم ! فقم مع الله حتى نصف ذنوبي

فسأله رفقاه باهتمام - وكيف ذلك ، وماذا جرى ؟ فقال - ذلك لاننا ظفرنا بأحد اعداء الوطن . . وسنظفر ان شاء الله بغيره من امثله

ولما قال هذا وصل رفقاه وبينهم رجل موثق اليدين مرتد جبة مخططة وحتى رأسه قبة عالية محدبة الاطراف ، وهو أنفس الالف بارز انفيين ضيق العينين . فأتاه غريغور في وسط جمعة ثم وضع اني جانبه أسلحته وهي حربة وسيف وكنانة فيها بمض السهام . فلم أبصره الاصوص صاحو جميعاً من شدة الفرح - هذا تيري . . فيا لها من غنيمة !

فقال غريغور - نعم تيري ، وهو من الجبابرة لا شيء . . ونود يكن معنا يوماً لما تمكننا من القبض عليه

فسأله ارفقاء - وكيف ظفرت به ؟

قال - بينما كنا صباحاً نتجول في طريق ريبازان أبصرنا تاجرً فوقفده نريد ان نسلبه ماله فقال : « لا تتعبوا فقم لقيني التري في حال خروجي من مدينة ريبازان ولم يقوا معي ما أقتت به الى ان أصل الى موسكو »

قال احد الحضور - تباً لهم من اشقياء !

وقال آخر - وماذا فعلتم بالتاجر ؟

قال غريغور - زودناه بشيء مما لدينا وصرفناه بسلام . . ثم رأينا فلاحاً وكان يركض مذعوراً ، فسألناه عن حاله ، فأخبرنا ان التتر هجموا على ضيعة وأحرقوها بعد ان سلبوا اهلها ونكلوا بهم تنكيلاً فظيماً . . ولم يتوار الفلاح عن أبصارنا حتى شاهدنا عن بعد جمهوراً غفيراً من الفلاحين وفيهم النساء والاولاد وهم يوللون ويقولون : « اب التتر قد اتفصوا على قريتنا فأحرقوها ونهبوا الكنيسة وحطموا الايوانات ودنسوا الاقداس »

فصاح بعض اللصوص - وكيف اجترأ الاشرار على انتهاك حرمة الكنائس ؟

قال غريغور - وقد علمنا أيضاً انهم قبضوا على رجال الدين في كثير من القرى قتلوا بعضاً واربطوا البعض الآخر الى أذنان خيولهم ثم طردوا الخيول فعدت باولئك الشهداء الى ان تناثرت اجسامهم على الحضيض . .

قال احد اللصوص - وكيف لم يصعق الرعد هؤلاء الاشرار على هذه الفعلة المنكرة ؟

وقال آخر - بل كيف لم تنشق الأرض وتبتلعهم ؟

وقال ثالث - وهل غات ايدي الروسيين ، ام استحال دمهم الى ماء ؟

وقال رابع - لا عجب من ذلك ، فليس في ولاية ريازان الآن الا الفلاحون والنساء والشيوخ والأطفال . فمن ترى يستطيع ان يقوم في وجه التتر ويرد كيدهم الى نحرهم ؟

وقال خامس - وما بال الحكومة متقاعدَة عن ارسال جيش يضرب
الاعداء الضربة القاضية ويميد الأمن الى نصابه ؟

وقال سادس - ربما لم يبلغها الخبر بمد

وقال سابع - وكيف لم يبلغها وقد بلغنا نحن ؟ .. واين هي هذه
الحكومة حتى تمنى بمثل ذلك ؟

وقال ثامن - آه لو كنت انا هناك وعلمت ولو بشيء قليل من اخبار
هذه الفظائع لقتلت وعلقت !

وقال تاسع - ولو كنت انا ايضا لقتت بما يعجز عنه الابطال

وقال عاشر وقد وجه كلامه الى غرينور - وكيف فعلتم حتى ظفرتتم

بهذا التري ؟

فقال غرينور - كنا كامنين في بعض الغابات فأبصرنا على الطريق
نحو ثلاثين فارساً من التتر برماحهم وقسيهم . ولما كنا أقل عدداً منهم لبثنا
في مكنتنا نظر اليهم ولا نجسر ان تصدى لنا جزئهم . . ونحن لذلك واذا
بفارس منهم قد تأخر عن رفقائه فترجل عن جواده ليأخذ كيساً سقط منه
على الطريق . وكان اصحابه قد سبقوه فقلت لرفقائي : « هذه غنيمة باردة .
فلنهجم كلنا على هذا الفارس وقتنصه » . ولما حل انطبقنا عليه من كل جانب
غير انه قاومنا اشد مقاومة ، ولولا توما لكان نجاً من ايدينا . . وها هو ذاك
الفارس الذي اقتنصناه

فصاح جميع للعوس - بورك فيك يا توما ! فانت بطر شديد

وجبار عنيد !

ثم سأل احد اللصوص - وماذا كان في الكيس الذي سقط من
هذا الرجل ؟

فقال غريغور - انظروا !

ثم عمد الى الكيس فأفرغه امامهم واذا فيه صليب وبعض الآية
الكنسية وكلها من الذهب . فلما رأى اللصوص ذلك ثار ثأرهم واشتد
غضبهم وطفقوا يهددون الترويتوعدونهم بأشد ويلات الانتقام

وكان الامير نكيتا يسمع كل ذلك ويديه ، وقد رأى امائر النبط
والانتقام بادية على وجوه اللصوص فاستبشر خيراً ، وأسرع فدنا منهم وقال
- لم يبق منكم من لم يفرح سماعه نبأ هذه الكارثة الوطنية الفظيعة . . ولم
يبق منكم من لم يتأثر بها اشد التأثر . . ان الاعداء قد استهانوا بالدين واحتقروا
الامة فنجسوا المعابد ودنسوا الاقداس ودمروا القرى وذبحوا الناس ذبح
الاغنام وبلغت بهم القحمة الى اكثر من ذلك . . فهل من الوطنية ان تتركهم
وشأنهم ؟ وهل من المروءة ان ترى البلاد تخرب والكنائس تحرق
والاقداس تنهب ورجال ائدين يقتلون بصورة تقشع لها الابدان ، ولا نجد
ايدينا الى الذود عن حياض الوطن وشرف الامة وحرمة الدين ونظهر البلاد
من عيث المتسدين . . ؟

ولما قال هذا أدار نظره في الحشد فرأى الجميع يصنون اليه متأثرين
وقد فلتت كلماته فيهم فعل السحر . . فبرقت عيناه سروراً ومضى في خطابه
فقال - فن منكم بلائهم ؟ . . أظن ان آثامنا جميعاً لا تحصى . . فهل

تريدون ان تمحى هذه الآثام ؟ .. فاذا أردتم ذلك ، وكلكم يريد ، فيها بنا
تقدم للوطن خدمة قد تكون اجل الخدم وأشرفها .. هيا بنا نهجم على
اعداء الكنيسة والامة ، فتنال من الله جزاء المجاهدين ومن الملك عفواً مجيداً !
فازداد اللصوص تأثراً وانفعلاً ، وقد دبت في قلوبهم النخوة والمروءة
واستفزهم حب الوطن والايمان

فقال بعضهم - لقد اصاب الامير في قوله .. فن منا يرضى بهذه
الحالة السيئة ، بل بهذه الفوضى التي لا نظير لها ؟
وقال آخرون - ومن يستطيع ان يرى الكنائس تحرق والآنية
المندسة يزدري بها والاقداس تنجس ولا يفور دمه ؟
وتن غيرهم - فابن دمننا وابن اقدامنا ؟
وقالوا - فالشرف اذا يدعوننا الى مقاومة اعداء الوطن والدين والضرب
على ايديهم الاثيمة

وتلوا - ونثرنا موت مرة لا مرتين . ونحن ين الموت لجيد في
ساحة الوغى من الموت على المشقة ؟
وقالوا - نعم . فالموت في ساحة الوغى اشرف وأجل . بل هو عنوان
المروءة والشهامة والبسالة ..

ثم قال احدهم - مالنا ولهذا الكلام . فالدفع عن الوطن والجهاد في
سبيل الدين فرض مقدس على كل انسان . وها اني اول من يتطوع للقتال
وقال آخر - وانا ايضاً أنطوع وأود ان أفدي الوطن بروحي
وقالوا جميعاً - كلنا نتطوع .. وليس فينا من يرضى بالذل . وليس
فينا من يقبل هذا العار وهذه السبة !! ..

قال الامير ووجهه يطفح سروراً - يقول بعض من لا يعرفكم انكم
نسيتم الله . ولم يبق فيكم قس ولا ضمير .. فأظهروا للملأ الآن انكم ذوو
نقوس اية وضائر حية ، وانكم متفانون في محبة الوطن والدين ومستعدون
لخدمة بلادكم وملككم ولو باهراق دماءكم

فاتقدت في صدور اللصوص نيران الحماسة وقالوا كلهم بصوت واحد -
نحن مستعدون لخدمة الوطن ونريد ان نخدمه في كل حين ، فلن ندع التتر
ولا غيرهم من اعداء الامة والدين يستهينون بروسيا المقدسة .. فقدنا ايها
الأمير الى حيث تشاء ولو الى النار ! فنفدي الوطن بأرواحنا . أهجم بنا على
هؤلاء التتر فنذيقهم الموت الزؤام ونطهر البلاد من شرهم وفسادهم

فقال الامير - واذا أتيح لكم وضربتم التتر الضربة القاضية ورأى
الملك انكم قتم بخدمة الوطن خدمة سنية تفوق خدمة رجال الحرس فانه
يفقو عنكم وينمركم بنعمه وآلائه وتكونون قد اكتسبتم بذلك في نظره ونظر
الامة جماعاً اسماً ينفطي على جميع سبئائكم

فقال اللصوص - جذاما تقول .. فلا أفضل من الجهاد في سبيل
الوطن . ولا أحب من الموت في خدمة الملك والدين

فقال الامير - اذاً فلنشرب نخب الملك !

قالوا - نعم لنشرب

فأخذ الامير كأساً وقال - ارفعوا كؤوسكم واشربوا جميعاً نخب ملك
البلاد وسيدها الاكبر القيصر يوحنا الرابع العظيم !
فصاح اللصوص - ليحي الملك !

قال - وليحي الوطن والدين !
قالوا - ولیمت جميع اعداء الوطن والدين !
قال - وليحي كل خادم امين لبلاده ودينه !
قالوا - وليحي الامير نكيتا زعيمنا وفائدنا !
قال - ان الله معنا وسنظفر بالاعداء ونذيقهم عذاباً أليماً !
قالوا - هيا بنا ! فقد اشتد ظمأنا لشرب دماءهم .. وهاتوا الآن هذا
التري والقوة في النار ..

فقال نكيتا - مهلاً ! لا تفعلوا قبل ان نستنطقه
ثم امر فجىء بالرجل . فقال له - كم هو عددكم واين مخيمكم ؟
فأشار التري الى انه لا يفقه كلامه . فقال غريغور - أمهلني ايها
الامير ، فأنا أفتح فم

ثم أحضر جرة بملقط وأدناها من فم التري يريد ان يكو به بها .
فصاح التري - سأ تكلم سأ تكلم .. سلوا عما تريدون
فأعاد الامير سؤاله بقوله - كم هو عددكم ؟
- قال - ليس له احصاء يا سيدي

قال - كم تظنه يكون ؟
قال - نحو عشرة آلاف . وبعد بضعة أيام يحضر جيش آخر قوامه
مئة ألف

قال - ومن يقودكم ؟
قال - يقودنا الآن الامير « شيخمات » ثم تصير القيادة لخان نفسه
قال - واين مخيمكم ؟

قردد التري وهو يظهر انه يجهل ذلك . فأدنى غرينور الجمة من فـه
فصاح - هو قريب من هنا يا سيدي
قال - وكم تكون المسافة بيتنا الآن ؟
قال - نحو عشرة فراسخ لا أكثر
قال - عليك ان تكون دليلنا الى الخيم . فيها بنا
قال - لا سبيل الى ذلك في هذا الليل . وغداً أرشدكم الى

حيث تريدون

فكواه غرينور بالجمة وقال - بل يجب ان تفعل ذلك الان !
فصاح التتري - رحاكم ! اني فاعل ما تطلبون . . فلا تمذّبوني .
فقل الامير للنصوص - كلوا الان وأطعموا هذا الرجل . وسنرحف
بعد نصف ساعة ، فكونوا على أتم الاستعداد والاستبسال

وفي انزعاد المضروب كانت جميع النصوص قد تأهبوا ، فانتظموا
وخرجوا من الغابة بقيادة الامير نكتينا ، بكل منهم متشوق الى الوصول
الى ساحة الوغى

وكان مكسيم وبرستن راكبين الى جانبي الامير . فقال مكسيم -
لقد اتعدتني اليوم ايها الامير من الموت بعد ان استهدفت لسكن نوع من
المهاالك ، فلا أدري كيف أشكرك على مروءتك وبسالتك
فقال الامير - لا تشكرني يا مكسيم ، فان ما فعلته ليس الا مكافأة
لصنيعك ، وانا لم أقم الا ببعض الواجب المفروض علي . . أفلا تذكر الدب ؟

أفلا تذكر الولية في قصر الملك ؟ .. فقد خلصتني انت ايضاً من الموت
فأوفيتك الان بعض جميلك

فقل برستن - اما انا فأهنتك ايها الامير بما آتاك الله من هذه الزايا
الثريدة التي لا يجاريك فيها احد من الامراء والكبراء . ولا أدري كيف
لا يقدر الملك اخلاصك وبسالتك ويحملك اعظم رجال دولته ، ولا كيف
يصدق اقوال الوشاة فيك .. فهل من العدل ان تكون من المنضوب عليهم
وانت مشكاة الفضل والحق وآية الوطنية والصدق ؟ .. نظرت اليك ساعة
بادرت الى انقاذ صديقك مكسبم وانت في وسط هذه الجماهير الفقيرة من
المصوص وقد أعماه السكر وأصبحوا أشد نوحشاً وشراسة من الوحوش
الضارية ، وأعجبت بمظمة قسك وقوة جنائك كما أعجبت بحسن تديرك
وسحرياك . ولولا ذلك ، ولأهذه المقدرة العجيبة ، لما تسنى لك ان تنقذ
صديقك وتخرج من هذه المصعة سباً . . . ونظرت اليك يوم دهمبت على
رجل الحرس في غياض الجاهلية . ورأيتك تجهد وحدهك لا تماذ ولي المهدي
دون ان تحسب لاحد حساباً ، ولم يدفعك الى ذلك الا مروءتك النادرة
التي . . . ونظرت اليك يوم تقابلنا في قرية الدب ، وقد ضفرت بتي خوميالك
واسحابه وكانوا اكثر عدداً من رجالك . . رأيتك في جميع هذه اوتف
الخطيرة ، وفي جميعها كنت مسجياً اشد لا عجب بك . فنت لا تجزع ولا
تنشط ولا ترهب ولا تلين لأشدة ولا تهين لأكثره ولا تضعف عزيزتك لشيء
ولا تحجم عن امر أقدمت عليه مهما اعترضك في سبيله من المشبطات ومهما
قام في وجهك من الحوائل . . وقد تهردت بذلك كله مما لم يجتمع مثله او بعضه

لأحد من الابطال ، ولم أر نظيراً له الا في رجل واحد فذ من اصدقائي
يقال له « يرماق » . . واني كلما نظرت اليك او سمعت كلامك ذكرت
صديقي هذا وحتت نفسي الى لقاءه . . وهو صديق حميم لي وقوزاقي مثلي ،
ولكن له نفساً كنفسك وقلباً لا يهاب الموت كقلبك ، فكأنكما فرعا
دوحة واحدة ، وكأنكما جبلتما على الارباحية ونُحِثَما على المروءة والاباء
والبطولة والاقدام والتفاني في حب الوطن . . وصديقي هذا زعيم فرقة كبيرة
من امثاله نقوزاقي ، وهو يروح ويحيي بهم في جميع جهات نهر فولغا . وقد
هابه التتر وسائر الاقوام النازلة هناك وحملت اليه قبائل كثيرة منهم الاتاوة
ولم تتمرض الحكومة له بأمر لانها لا تجسر على منازلته . وهو في اتمامه
آية من الآيات ، فاذا هجم ولو وحده فلا يقف الاعداء في وجهه ولو كانوا
مئات ، واذا خاطب رجاله يحضهم على قتال اخترق اعماق قلوبهم وفتح فيهم
من روحه فقموا العجائب . . والاعجب ان هذا الرجل مخلص للملك كل
الاخلاص . وهو يستطيع بكل سهولة ان يحكم ارجاء النهر العظيم كلها
ويكون فيها اميراً مطلق الارادة لا ينازعه في ذلك منازع . ولكنه لا
يفعل لانه لا يريد مقاومة الملك والانتقاض عليه . . وقد علمت منه انه
ينوي اختراق جبال ادرال والهبوط منها الى بلاد سيبيريا العظيمة لاكتساح
تلك الافطار وضربها الى البلاد الروسية . ولا شك ان مثل ذلك مما تنجز
عنه الجيوش الجرارة والحكومات العظيمة . ولكن يرماق اذا نوى امراً
أتمه ، وستسمع بالخبر اليقين بعد بضع سنين . . واني أتمنى ايها الامير ان
نطأ قدماك يوماً ما جهات نهر فولغا لترى يرماق هذا بعينك . وباليتك
تسير معي الى هناك بعد ان تفرغ من امر الاعداء هنا ، فتجتمع بذلك الرجل

الباسل العظيم . ولا ريب في انكما اذا اجتمعتما تستطيعان ان تؤديا للوطن اشرف خدمة يسجلها التاريخ لاعاضم مشاعير الابطال
فقال الامير - اما خدمة الوطن فلا فضل فيها لاحد لانها فرض مقدس يوجبها الدين والشرف ، وكلنا مدفوعون الى ذلك بدافع غريزي تنبض به قلوبنا . . واما تمنيك ان اجتمع بصديقك يرماق فلا أحب الي من ذلك ، ولكن بمد مثولي امام المذك ، اذ لا بد من الرجوع اليه والاستسلام لامره

قال - عجباً ايها الامير ! افلا تزال مصمماً على الرجوع الى الملك في مثل هذه السرعة ؟ . . أفلم تختبره بعد ؟ أفلم تقف على اطواره الغريبة ، وما ينطوي عليه من سوء الظن والغدر ؟ . . فكيف تريد الرجوع وهو ناقم عليك اشد تقمة ولا يصدق ان يراك لينشب فيك مخالب انتقامه ؟ . .

قال - ليفعل ما يشاء . . وانما اريد رجوعاً الى قيامة سيدي يس الا . . . ولكن ما لنا بهذا ؟ . . نحن لان سائرون في جنات . . ونت اعلم مني باحوال التمر وحروبهم ووقائعهم . . فكيف ضلوا في ولاية ديارنا وهي في قلب المملكة ؟ . . ومن اين جاءوا وما غرضهم ؟

قال - ولكن البلاد ايها الامير ولا سيما لاربعة جنوية والشرقية منها لم تتمتع بالراحة قط . وقد تمضت عشرات السنين وهي ممرضة ذؤلاء التمر . وهم يهجمون عليها من الجنوب وشرق . من جهات شبه جزيرة القريم ومن جهات استراخان وقزاق . وقد تصل عصاباتهم وجيوشهم الى موسكو نفسها احياناً . وليس غرضهم من كل ذلك الا الغزو والسي . فهم يهبون خيرات البلاد كلها راوا الفرصة سانحة ، ويسوقون قتيانها بالالوف يبيعونهم

في بلادهم وفي بلاد الأتراك عبيداً . وكثيراً ما يهجمون بقيادة خات
القريم نفسه

قال - وكيف تنظر الحكومة الى مثل ذلك وتسكت ؟ . فلم لم
تحشد جيوشها لمطاردة الأعداء . ودفع هذه الكوارث عن البلاد ؟

قال - انها ترسل حيناً بعد آخر بعض الجيوش ولكنها قلما تظفر
بالأعداء الظفر النهائي . وقد ينسحب التتر بحال ظهور الجيش ثم لا يلبثون
ان يعودوا الى عيهم . ولولا عصابات القوزاق واللصوص لعاد التتر
واكتسحوا البلاد كلها وامتلكوها وأذلوها ، والمملك لاه بالصيد والغنص
تارة وبالفحش والدسائس تارة اخرى . . .

فزفر الأمير لدى سماعه هذا الكلام زفرة حارة وغاص في تأملاته .
وسكت برستن ايضاً . وكان مكسيم يسمع وقسه تتألم وقلبه يتصدع
وواصل القوم مسيرهم وجميعهم صامتون . وكان التتري الاسير سائرآفي
طليعتهم يحفره كل من خلوبكو وغرينور

وفيما هم على تلك الحالة سمع من بعيد صوت غناء وعزف ، فأمر الأمير
بالوقوف وأقبل على برستن يسأله . فأصاخ برستن بسمعه وقال - أظننا
صرنا على مقربة من نخيم التتر ولا يبعد ان يكونوا وراء هذه التلة ، فان
شئت ذهبت أستطلع حالهم ولا ألبث ان آتيك بكل ما تروم معرفته
فقال الأمير - اذهب وكن على حذر

فترجل برستن وانطلق يمدو الى الجهة التي سمع منها الغناء وكله
عيون وآذان ، ولم يلبث ان توارى عن الابصار . اما اللصوص فترجل

الفرسان منهم بأمر الأمير عن خيولهم وجلسوا جميعهم على المشب ينتظرون ،
وقد وطنوا عزائمهم على القتال

ومضى نحو ساعة من الزمن ولم يمد برستن ، فقلق لذلك الأمير
وأوجس عليه خوفاً . وانه لكذلك اذ ظهر له من بين المشب رجل يعدو
وقد كاد يحاذيه . فامتشق الأمير حسامه وهجم عليه وهو بحسبه من
الاعداء . فقال الرجل ضاحكاً — مهلاً ايها الأمير ! فانا برستن . وقد دنوت
على هذه الصورة من التتر واطلمت على كل ماتهم معرفته . . فهم كتيبة
كبيرة تفوق عدونا أضعافاً . ولكن أكثرهم الان لاهون بالغناء والطرب
غير حاسبين لاحد حساباً . وقد صحت عزيمتي ان أختار من رجالنا فرقة اسير
بها جهة الاعداء ، حتى اذا قربنا منهم أجفلنا خيولهم وباغتنام ، وتكون
انت في اثناء ذلك قد قسمت رجالنا الباقين فرقتين ، فاذا سمعتم اصواتنا
فاجمروا من جهتين ، وانا الضمين بالفوز والانتصار

ولم يكن الأمير يشك في مهارة برستن وقد رأى منه خفة وجراءة لا
تكادان توجدان في سواه ، فاستحسن رأيه . ولم يبطئ برستن ان يختار
فرقته من اشداء رجاله وأخفهم حركة وسار بهم بمنهى التيقظ وأخذوا
ولبت الأمير مع باقي اللصوص كامينين عند ثنية ينتظرون الاشارة
ويتأهبون للهجوم

الفصل الثالث والثلاثون

« النفر »

وكان مكسيم لا يزال الى جانب الأمير ، وهو يريد ان تشب معركة

ليكافح فيها جهده . فلما أبعد برستن بالفرقة التي اختارها قال - لم يبق لنا
إيها الأمير وقت طويل للانتظار . قريباً ويحتمد النزال ولا يعلم إلا علام



الرمي بالمدال

الغيوب بما سيكون . فأوّد قبل
المركة أن أكشفك بما في نفسي ،
وأنا واثق من كرمك وأتفة تفسك
أنك لا تهزأ بي أو تستخف بطلي
فبهت نكيتاً وقال - وما هو
هذا الذي تريد أن تكشفني به ؟
قل ولا تخف عني امرأ

قال - دعني أولاً أطلعك

على ما جرى لي . فقد خرجت من

قرية ألكسندروفاً سراً ، في نيتي أن لا أعود إليها البتة ، لاني كرهت الحياة
بين رجال الحرس . وكان خروجي ضد إرادة والذي وبدون اطلاع والذي
وانت تعرف أنني وحيدهما ، من الذكور . وقد صار لي من العمر الآن تسعة
عشر عاماً ولم أصادق أحداً من رجال الحرس ، بل كنت بينهم غريباً أقضي
أوقتي في لاغرد والمزلة ، لا تربدني الأيام إلا تقاراً منهم وكرهاً لمساوئهم
ودسائهم ، حتى ضاق صدري ولم يبق أمامي إلا باب واحد للفرج وهو
لاتحاد عنهم . فلما رأيتك في قصر الملك مالت إليك نفسي وافتن لك
نسي . لأن عينيك غير عيونهم وتغمضك لا تشبه تغماهم ، فكأنهم من عالم

وانت من عالم آخر .. نعم ان بوريس غودونوف هو اكثرهم فضلاً وأقام
سيرة، ولكنه لا بمانك في انصراحة وحب الحقيقة والوطنية والكمالات
الانسانية الاخرى .. واي ن أنسى موقوفك الخرج بازاء لب، ثم في اثناء
الوليعة عندما تقدم اليك ثيودور باسماوف بكأس الخمر بعد مقتل النبيل الشيخ،
ثم ذهابك الى النطع بذلك الثبت العجيب، ثم حديثك اليوم مع اللصوص.
فقي كل ذلك كانت نفسك عظيمة وشهامتك لا مثيل لها. وقد اشتد
ولاي بك بسبب كل ذلك وأحببت ان ارافقك الى كل مكان فلا انفصل
عناك .. ثم انك أرفع مني شرفاً وفضلاً، ولكن تنسك المقيمة لا تستقر
مؤلف احد مهما كان ومهما كانت

فضضط الامير على يده وقال: لا تقبل هذا يا مكسيم. قالت أعظم مما
تظن .. قد ربيت منك ما لم أره من سوك، لا يمكن ان اراد. وذ
ك لي في هذا روحاً مبدقاً فأت هو. ود كذا في سوس مو يجب الحق
وبكره لغيره انت هو ذلك لرجل لا سوك .. وقد أحببتك وايس لي
من امنية الا انت تصل الى جاني أسلوبك عما لقيته في هذه الحياة
من المكاره

فقال مكسيم وتدهل وجهه فرحاً - لذي كن لا مكنيت، وسمع
رب سدي "البرنسل شوب قتل احرياً على عادات القديسة في مثل
هذا لآخر ن نرخت .. هذه هي منيتي التي علة. سعده حيتي ر
حديثي كل .. فلا تحتر كذا في .. لا ير ولا تأف منه .. بس من
بعض منزلة

فقال الامير - لا أحب الي من ذلك ايها الصديق الحبيب ، ولا سيما ونحن في هذا الموقف في ميدان التزل
ثم اترع من عنقه صليباً من ذهب كان معلقاً بسلسلة ثمينة من الذهب
ايضاً فناوله لمكسيم . واتزع هذا من عنقه صليباً معدنياً قبله وقال للامير
- بهذا باركتني امي ونحن في حالة الفقر قبل ان دخل ابي في خدمة الملك .
تخذه يا اخي وصنه لانه أثمن ذخيرة لدي

فتناوله الامير وعلقه في عنقه ثم ضم مكسيم الى صدره وتعاقا طويلاً
ولما فصلا بمضهما عن بعض قال مكسيم وهو يذرف دموع الفرح -
الان انت اخي ايها الامير فلن يهرق بيننا شيء سوى الموت ، فعدوك
عدوي وصديقتك صديقي ، وقد طابت نفسي فلن أشعر بمرارة الحياة بعد
الان ، لاني وجدت من أعيش معه وأموت عنه

فقال نكيثا - وانت اخي بهد الله وميثاقه ، فان أرضي بفرقتك
ابد الدهر

قال - واذا كتبت لنا الحياة فانتا سنواصل خدمة الوطن العزيز بكل
ما أوتينا من قوة وحيلة ، ولكن في غير دائرة رجال الحرس وفي غير
جوتهم القاتم

ثم صمت مكسيم ، وأطرق الامير يتفكر
وانهما لاني ذلك واذا بهما يسمعان جلبة قوية واصواتاً ترتفع من جهة
خيم التتر . ثم ابصرا خيولاً شاردة في عرض الفقر ، ومرراً بعضها بازائهما .
فرتب الامير الى ظهر جواده واختلط سيفه وصاح رجاله ، فركبوا وهجم
وهم يتبعونه كأنهم يساقون الرياح

ولما أشرفوا على تخيم التتر أبصروا حريقاً هائلاً في بعض جوانب
التخيم ، والتتر يترأفون ويتدافعون من جانب الى جانب ، وقد تصاعدت
فوق رؤوسهم غيوم الدخان ووقعت فيهم الحيرة والارتباك وذابت قلوبهم
فرقاً . فاستلّ اللصوص سيوفهم وأطبقوا عليهم يقاتلونهم قتال الاسود ،
والامير يشجعهم بمثاله قبل كلامه . فانه كان يهجم الى اشد المواقع خطراً
ويحمل على الاعداء حملات تدك الجبال

وما أشرقت الشمس حتى تغطت تلك البقعة يمحش التتر وركن الباقون
منهم وهم جمهور كبير الى الفرار . وكان امامهم نهر صغير فعبروه الى شاطئه
الاخر بقيادة الامير شيخمات . وكانوا قد عاد اليهم روعهم فوثقوا واخذوا
يرشقون اللصوص بنبالهم ويطلقون عليهم العيارات النارية . ولما لم يكن مع
اللصوص سوى السيوف والحرايب تمذّر عليهم الاحاق بالاعداء . ورأى
هؤلاء نخذهم فاشتدت عزيمتهم واخذت فرق منهم تجتاز النهر الى حيث
كانوا اولاً . فجمع الامير رجاله وحضره على امكاخة والنبات الى ان
يقضي الله امراً كان مفعولاً . . غير ان اللصوص كانوا قد شعروا بقاتهم
وضعفهم ، فرغبوا الى الامير ان يأمر بالنسحابهم من ميدان التزل لثلاث تقيهم
نار العدو وليس معهم ما يدافعون به . . فوقف الامير واجماً وفـ .
اخذته الحيرة

وفيما هو كذلك اذا منه برستن وقد حلقح وجوه سروراً وبه حبه
يفطر منه الدم وقال له - لا تمنط يا سيدي ، فالفه معنا ؟
فدهش الامير وسأله عن مراده فقل - في تد الحية المنقلة ارى
جيشاً وأظه روسياً وهربت لنجدة

فقال بمض اللصوص الذين سمعوا كلامه - ومن ابن الجيش الروسي ان يصل لنجدتنا في مثل هذه السرعة ؟ . . . واذا كان هناك جيش فلا شك انه نجدة للتر لا لنا ، ولعلمنا من جيش الخان الذي أشار اليه التتري الاسير قتال برستن - انهم روسيون بلا شك لانهم مشاة ، والتر لا يزحفون مشاة . .

وما كاد يتم كلامه حتى كان الجيش المشار اليه قد اقترب من التتر من الجهة الاخرى والتحم بين الفريقين القتال . فسر اللصوص وتويت عزائمهم . وكان الامير نكيننا قد سرتي عنه ايضاً وامر رجاله فعبروا النهر وأغاروا على الاعداء من المؤخرة . وكان بين الفريقين ساعة هائلة دارت فيها الدائرة على متر وقتل منهم خلق كثير

وفي اثناء الموقعة مر مكسيم بجانب الامير فقال له - الحمد لله يا اخي . فقد تملبنا على الاعداء وظفرنا بهم ظفراً باهراً

فقال له الامير - ولولا هذه النجدة لدارت علينا الدائرة . أنظر الى قائدها ذاته قد ألى في هذه الواقعة بلاء حسناً . فن هو يا ترى ؟ . . . وقد حيل الى اني رأيته قبل الان . . . ولكني لا أذكر أين رأيته ومن هو ؟
فقال مكسيم - انك تعرفه بلا شك . . . فهو الذي أطلق عليك الدب في باحة قصر الملك . . . وهو ثيودور باستانوف بعينه ولكنك عمله اليوم قد كفر من جميع سيئاته ومآثمه

فدهش نكيننا لدى سماعه ذلك . لان ثيودور هذا كان مشهوراً في البلاط لذكى بالخلاعة والبذاءة . . . ولكنك ما لي اليه الان لبسائه وقتته في اساليب لطمايز . وود ان تنهي المعركة ليجتمع به ويعد اليه يد الولاء والاخاء

اما مكسيم فلم يلبث في محادثة الامير طويلاً . بل لوى عنان جواده واشتد راجعاً الى النزال وقد طفق السرور على وجهه وملأت السعادة قلبه ، والامير ينظر اليه ويعجب من شجاعته وعده مبالاته بالمخاطر .
وبينا مكسيم يحس في اثر الترو وهو لا يحسب الخطر حساباً ، اراد عليه بعضهم يقتلونه قتال اليأس ، وقد صوب احدكم الى صدره سحماً اخترقه وجندله عن جواده الى الارض . . وكان الامير قد رأى من موقف ما يتهدد اخاه ، فهجم ليحميه ، وكانت الفرصة قد فتت وراح مكسيم شهيد البسالة والاقدام . .

ولم يكن الامير ينتظر مثل هذه الخاتمة الحزينة في مثل تلك الساعة ، وقد انتهى القتال وصرع جمهور كبير من التترو ولاذ الباقون بالفرار متشتتين في كل جانب ، ولوروسيوز يجرون في اقبابهم وقد اعمدا في ظهورهم انصاف ، وهم يصيحون صياح لا تصد ويتسمرون ولا يقولون كلمة . . .

وليس للقلم ان يصف حالة نكيز . حينما وصل الى حيث كان مكسيم وراءه مطروحاً على الارض يتدفق الدم من صدره وقد انغمضت عيناه . فانز عن جواده وانحنى على اخيه يقبله وينديه وهو يئن نيناً موحداً ويبكي بكاء مرأ . ثم رفع رأسه انفض بالتراب فالتقه على صدره وصاح بصوت يهـ :
مكسيم ، مكسيم ! انت حي بعد . . . تنح عينيك وستن في صرختي حي . . .
فتفتح مكسيم عينيه الذابتين ومدا الى الامير يديه ثم قال له :
منقطع وصوت خفت - اللوداع : خي الخيب ! . . ان رمان بني الان
بفرقتنا . . . فاذع عن هذه الارض التي رقيقه سوى شقة . . . ولكن
واسفه على قلب وديتي الحزينة حين يسفر خبري ! . .

فقال الامير وقلبه يتمزق حزناً - آه يا اخي .. آه يا اخي ! ..
ثم ان مكسيم تجلد وعاد الى الكلام فقال - وأعظم ما أرجوه منك
يا اخي أن تقابل والدتي عند عودتك ، فتلطف بقلبها الكسير وتقول لها
« ان ولدك مات وهو يذكرك ويرجو رضاك »

فقال الامير وهو لا يملك دموعه - سأفعل ذلك
قال - وخذ هذا الصليب من عتي وأعطها اياه .. واما صليبي فأبقه
معك تذكراً دائماً

قال - وهل بقي في صدرك شيء تقضي به الي ؟ .. ففعل من تأسف
بعد والدتك ؟ .. أليس لك حبيب تريد ان توصل كلاماً اليه ؟ .. قل ولا
تخجل لاني أود ان أقضي لك أوطارك كلها

قال - لم يدخل قلبي حب شيء سوى وطني العزيز . فانا أحبه اكثر
من حيي لوالدتي ، وقد كنت أود ان أحيي لاخدمه وأزداد تقانياً في حبه
والدفاع عن حياضه .. ولكن .. قد قضى الامر ..

ولما قال هذا أغمض عينيه وقد اشتدت حرارة وجهه وسرعة نفسه .
وبعد بضع ثوان نظر الى نكيتا ثانية وطلب ماء . وكان للنهر قريباً ، فقام
الامير مسرعاً ، ولم يلبث ان عاد يحض في خوذته شيئاً من الماء . فلما جرع
مكسيم منه قليلاً انتعش وقال - اني أشعر الان بمعض الراحة ، فانهضني
قليلاً يا اخي لامتع بعصري مشهود فوزنا الباهر

ولما أنهضه الامير ، وأصره مكسيم اندحار التتر والبقعة المغطاة بجثثهم
تبدت وقول - لا اود الان أن اموت ولكن ...

ولما ان بدا تدفق الدم من فيه .. ثم سقط رأسه على صدر الامير

وفاضت روحه .. فأكب عليه الامير يقبله ويندبه ، وقد انصدع قلبه ..
ولم يكن الا القليل حتى احتشد اللصوص ورجل باسمانوف الى حيث
كان الامير ، وقد تأثروا جميعاً لمصرع مكسيم وشركوا الامير في ندمه وراثته .
ثم دفنوا جثة الفقيد بما يليق بمثله من اطلال المعارك

الفصل الرابع والثلاثون

« يودور با-سمانوف »

ولما انتهت المعركة على الوجه الذي ذكر امر يودور باسمانوف جنوده
ان يتزولوا في تلك البقعة للراحة والمبيت ، وامر ان ينصب سرادقه العجيب



راقعة روسية من عهد حيدر

على صفة أشهر ، وأرسل من يدعو
الامير نكيتا لتناول طعام العشاء . ثم
مشى شعره وادّهن وتنظر وجسر
في صدر السراق ، وامامه فتى جميل
الوجه قد جثا امامه على ركبتيه وحمل
له في يديه مرآة ، فكان باسمانوف
ينظر في المرآة ويتبسم إعجاباً وتبهاً .
وأتت امرؤ المكر والدعارة بادية في
وجهه وقد أبهرت ان الامير نكيتا
سيحتقره حينما يراه مهتماً بمثل هذه

العادة وقد يمدده سخيف لا يليق بترجله ، فتصممه ان يباذه هو

بالاحتقار انتقاماً وكبراً . ولذلك فلما دخل الأمير عليه وحياءه بلطفه
وبشاشته لم يتحرك من مكانه بل حتى رأسه ، ولم يزد

فقل له الأمير ببساطة - ما بالك أيها النبيل ؟ فهل تشكو من شيء ؟
قل - كلا . زنا أشكو شيئاً ، وإنما أشعر ببعض التعب . . وأرى أن

وجهي يكاد يحترق

ثم تبسم وأصلح شعره الذهبي وعاود النظر في المرأة وهو يقول -
ويؤمني أيها الأمير أنني لا أتمكن اليوم من الاستحمام حسبما اعتدت وليس
لي ما يسليني هنا في هذه الأرض الجرداء . . ولكن غداً إن شاء الله
سأعود إلى منزلي في البلدة القريبة من هنا وأدعوك لمرافقتي إليها ، فمسي
إن أقوم بضيافتك هناك كما ييسر بشأنك وترى ما لا تراه في قرية
الكسندروفابل وفي موسكوف نفسها من الثغادات الحسان والغلمان الملاح
والملاهي والافراح ما يزيل التكيب ويبدد الاتراح . .

ولم يكن يكتفي بنظر مثل هذا الحديث ، فاشتمأز وقال - أشكرك
أيها السيد على ذلك وأرجو أن تعذروني لعدم تمكني من تلبية دعوتك

قال - ولم ذاك ،

قال - لاني أريد الأشخاص إلى قرية الكسندروفابل

قال - عجباً وكيف تعود إليها وقد فررت منها ، من السجن ؟

فقطب الأمير وقال - لم أفر ، وليس الفرار من شيعتي أيها النبيل ،
بل أخرجت من السجن قسراً . . ولذلك فانا عائد إلى الملك لاني وعده
أن أضرب في طاعته ، بحيث فلا يمكنني أن أخلف وعدي

قال - وأكان الملك لا يضمرك الا شر . فلا تمد اليه ايها الامير ،
وقد لا أعوذ انا ايضاً . .

قال - وكيف ذلك ؟

فتنهذ : سمانوف بمكر وقل - نعم لهم الصديق اني خدمت الملك
احسن الخدم وأخلصها ، لم أضن عليه قط بشيء مما في بسعي . . ومع هذا
فهو يحترمني ليوثا سكوراتوف ووريس غودونوف وغيرهما اكثر مني

قال - اما انا فاقن كل الايتان ان الملك يحبك وقد رفع رتبةك
وأدرك اليه اكثر من جميع الندماء والاحصاء

قال - غير ان ذلك لا يرضيني لاني صامع الى ما هو أعلى مني .
فالخدم التي أقوم بها للملك لا يستطيع ان يقوم به سوى . . في امر فضله
الي ولم أنقض به ثم نهض . . . وزد على ذلك فهو الملك ان يجد
ندته رأتونه ان يكون نصف مني صورة راجعاً رثتم خسة

فلم سمع الأمير كلامه حث على وجهه ، ولا تلامع به .
ولمظنه باسمانوف ذلك نقى - وقال لي بربك يا الامير : هل رأيت
شعراً حريراً كشمري ، او عينين نجلاوين كعيني ، او يدين ناعمين كيدي .

فتضايق نكيتا وقد اخذ منه كلام بسميرف كل ما اخذ من حجر

فقال - وقد سمعت ايضاً انك تسلي انك برقصت رتق . . . ذاك رتق . .

فحقه باسمانوف ضاحكاً وقال - يا حرج عني في ذلك ، ما دمت
من اخصاء الملك ومخلصين له في السر والعلانية . . فهو اذا راد ان رتق
رقصت او أغني غيت . .

فازد نكيتا تباضاً وكدر . . . ولم يتكلم ان قل - عفواً ايها النبيل !

فليس في امكاني بعد مثل هذا الكلام ان أجالسك او أشاركك في طعامك وشرابك ! .

قال هذا ونهض يريد الخروج

وكان باسمنوف حين سمع كلامه قد اتهدت عيناه بنار الغضب فقال -
اما أعلم انك تكرهني منذ زمان . وكذلك جمهور النبلاء والامراء الذين على
شا كلتك . . فاثم تروني بكل فرية وبكل نهمة باطلة تشفياً وانتقاماً . .
ولكنني لا اهتم باحد منكم ، وسيان عندي رضيتكم او غضبتكم
فلم يحبه الامير بشيء بل حول ظهره ليخرج . فأمسك به باسمنوف
فقال بلطف - ووقال لي واحد غيرك هذا الكلام لما أحجمت عن مناقشته
الحساب . . بيد انك الان ضيفي وقد أبليت في معركة اليوم احسن بلاء ،
فلا أود مخاصمتك

فتوقف الامير عن الخروج وقال - وانت ايضا قد أظهرت من البسالة
والعنن ما يقل نظيره . . فهل يابق عن هذه فعالة في حومة الوغى ان يحقض
من شأنه ومقامه أو يتشبه بانساء ويجاريهن قولاً وعملاً ؟

قال - لا اتعجب ايها الامير وثق . اني لم أكن بهتده الاخلاق قبل
مصري الى قرية ألكسندروفا ودخولي في خدمة املاك . . وانا ان فعلت
هناك شيئاً مما ذكرت ، فانه أكون بذلك مسوقاً بمحكم الاضطرار ارضاء
لرغائب الملك

قال - مهما كانت الاسباب فلست أرى لك عذراً في شيء . من ذلك
لايك من النبلاء ولا يحسن ان يعزى اليك شيء . من تلك الخلاعات والفضائح
فقطب باسمنوف ثم قال - لكن هل تعرف ايها الامير طريقة

معيشتنا في قصر الملك ؟ فنحن هناك نقضي الايام بلباليها في الصلوات والعبادات .. أفلا يحق لنا والحالة هذه ان نقتنم بعض الفرص لترويح النفس وتقويةها بشيء من الملاهي ... وزد على ذلك فان الملك نفسه يرغب الينا في أكثر الاوقات ان نقيم حفلات الرقص والطرب حباً للتسلية وطرده السآمة والضجر. ولا شك انك لو كنت انت ايضاً في مكاني لما تأخرت عن الاشتراك في ذلك ولو بعض الاحين

قال - معاذ الله ان أفعل ذلك او أشهد مثل ذلك ونو أفضى الامر الى اراقة دمي

فأتى عليه باسماؤف نظراً غريباً وقال - وهل تفضل الموت على مثل هذه الملاهي والسمرات ؟

قال - نعم .. وهل تريد انت بفضل ذلك ان تقص ان يدعوك الناس « ثيودورة » .. وليس ذلك منتهى لعار والدناءة ...

قال - قل ماشئت .. ولكن لا تنس في من ندماء الملك ولا تسعي مخافتك مهما كانت العاقبة ومهما كان من القيل وقال .. غير اني أسألك الان ان ندع هذا البحث جانباً اذ لا فائدة تجني منه .. وهذا فننكر في امر الاسرى .. فقد أمرنا نحن وانه نحو مئة رجل من "سز" قد رأيتك فيهم ؟

قال - أرى ان معاملهم كما يعامل سادة الاسرى وقروض الامر بالجلالة ملك

قال - اما أنا فلا أرى رأيك .. وخير لك ان تصفهم في عرض

البرية موثقين ثم نرميهم واحداً واحداً بالنبال ونحن منهم على بعد مئة خطوة ،
وأينا قتل منهم أكثر فاز بقصب السبق على غيره في هذا المضمار
ففر الأمير لدى سماعه ذلك وقال - ليس ذلك من شيمتي أيها النبيل .
فأنا لا أنزل واحداً وهو مقيد

قال - إذا كان في ذلك ما يزعجك فأننا نحل وتقيم وندعم يركضون
ثم نصطادهم بالنبال واحداً واحداً
قال - وهذا أيضاً لا أفعله رلاً أدعك تفعله لأننا لسنا في قرية
الكسندروفا الآن

فتملأ باسما توف في مقدمه كمن لدغته عقرب وكاد يظهر عليه الغضب ،
غير انه لم يشأ ان يخاصم الأمير لأنه رآه أقوى منه حجة وأصح رأياً فتبسم
وقل - عجباً أيها الأمير كيف انك تصدق كل شيء . . . أما عرفت بعد اني
أمزح وأن كلامي كله معك إنما هو مزاح ومداعبة . . . أما انت فقد صدقته
وتأكد لك اني أرقص بحضرة الملك واني افعل غير ذلك من الفرائب . .
فثنى الان باني لم أجبر شيئاً من ذلك ولا تصدق كل افك وبهتان وأعلم
باني قد سئمت الحياة في البلاط رلاً يسرني هناك شيء مادام ماليوتا
سكورانوف وبوريس غودونوف وباسيل غريازنوي والأمير انناسي
فيازيمسكي وأمثالهم نافذي الكلمة لدى الملك وهو يميل اليهم ويصدق
اقوالهم . . وقد رأيت رأياً ولا اخالك ترفضه . فثنى بي ودعني أسبقك الى
قرية الكسندروفا ، حتى اذا مثلت امام الملك أنبأته عنك وحدثه ببسالتك
وفوزك المبين على التتر ، وأكون بذلك قد مهدت سبيل الصفع عنك ،
فيستقدمك الملك اليه ويملكك أقرب اخصائه . وانت متي صرت الى هذه

الحالة فلا يصعب عليك ان تكافئي بخدمة صغيرة تفغني بها ولا ثقل عليك .
وذلك انك تأخذ شي اولاً بماليوتا ثم بالامير انناسي ثم ببوريس غودونوف
ثم بغيرهم من ذوي المكانة العالية في القصر . واذا خدمك التوفيق فلا يمضي
على ذلك الا ايام قليلة حتى يتغير الملك عليهم جميعاً ويعمد الى تنكبهم ..
وهكذا يصفو لنا الزمن ويصبح الملك رهن اشارتنا نديره كيفما نشاء ،
وتكون انت بذلك قد خدمت نفسك وخدمتي . فكيف ترى هذا الرأي ؟
ولم يسمع الامير نكيتا هذا الكلام حتى اتشعر جسمه ولم يعد في
وسعه ان يحتمل مثل هذا التلون وهذه الرقاعة ، فظهرت على وجهه علامات
الاحتقار الشديد لجليسه وقال له وهو في حدة الغضب - انصر عن هذا
الحديث فان الذي تقوله هو منتهى الخسة والدناءة وأنا ارفع من ان أسمع
مثل هذا الكلام ..

فارتجف باسمانوف وقفل - وهل انت تميل الى ماليوتا ! و الامير
انناسي او الى غيرهما من زعماء رجال الحرس حتى نفرت من كلامي ؟
فقال الامير وهو لا يملك نفسه من شدة الانفعال - اني اكرهم
وأكره جميع رجال الحرس كرهاً شديداً ولو سألتني الملك عنهم لقلت له في
حضورهم انهم أوغاد وأنذال .. أما ان أشي باحد من الناس ولو كان أشد
أعدائي فهذا مما لم أعوده ، ونهي ترفع عما تعودتموه اتم من دس المفاسد
والفاء الضغائن وما بين ذلك من التدليس والمصانعة ...

فقال باسمانوف - فأنت اذاً لا تريد ان تقاسمني نعمة الملك ؟

فاجابه الامير - لا أريد .. نعم لا أريد ..

ثم خرج من السرادق وهو في اشد حالات الهياج . ولم يتمكن

باسمائوف هذه المرة من ارجاعه ، فلبث في مكانه يصّرّ باسنانه وقد أقسم
ان ينتقم من الامير على هذه الالهانة . . وبعد قليل نادى جماعة المغنين من
رجاله واخذ يشرب ويطرب وهم يعزفون ويرقصون
اما الامير فلما خرج تنفس الصعداء وتوجه اولاً فزار حفرة اخيه
مكسيم ثم انضم الى اللصوص ، وكانوا قد اجتمعوا في بعض جوانب تلك
البقعة وأضرموا النار وجلسوا يأكلون ويلهون

الفصل الخامس والثلاثون

« الاتصال »

وما انبلج فجر اليوم التالي حتى كان اللصوص يتأهبون للمسير ، وقد
وقف برستن في وسطهم وقال - لم يعد في امكاني ان أبقى معكم ايها الرفقاء
لان واجباً يستحني للرحيل عن هذه الاصفاع . فانا منطلق الى جهات نهر
فولغا ، فاستودعكم الله الان وأسألكم الصفح عن كل ما بدا مني نحوكم
من الاساءة

فتمعجب اللصوص وقالوا كلهم بصوت واحد - وكيف تتركنا؟ والى
اين تذهب بدونك؟

قال - اذهبوا مع الامير فهو لا يترككم

فذهبن اللصوص ووقفوا حيارى . فقال لهم الامير - اعلموا بانني قد
أقسمت لجلالة الملك ان لا أفرّ من حكمه . وكلكم تعرفون اني لم أخرج من

السجن الا مرغماً . ولهذا فهاهنا عائد الى الملك برءا بسمي . فهل يحبون
ان تراقبوني ؟

قالوا - وهل يصفح لنا ويرحمنا ؟

قال - ان ذلك في علم الله ولا اريد ان اخذكم او اعللكم بما ليس
من ولايتي . . فقد ينفو الملك عنكم وقد لا ينفو . فتأملوا ملياً في هذا الامر
ثم أجمعوا رأياً بكم وأخبروني

ففتحى اللصوص عنه وعن برستن الى جهة اخرى واخذوا يتداولون
ويتشاورون . ولم يبطئوا ان عادوا وقالوا - اننا تتبعك اذا كانت الزعيم
معنا ايضاً

فقال برستن - ان ذلك يستحيل علي الان ، كما انه لا يمكنني ان
أظل معكم ، لاني وطنت النفس على الرجوع الى وطني الاصلي في جهات
نهر فولنا ولا سيما بعد ان صدر منكم بحقي ما صدر . فاما ان تنطلقوا مع
الامير او ان تختاروا لكم زعيماً آخر غيري . . واني أنصح لكم ان تراقبوا
الامير الى حيث يريد ، لان الملك لا بد ان ينفو عنه وعنكم لاجل هذه
الخدمة الوطنية الخطيرة التي قم بها بأجمعكم

فلما رأى اللصوص أصرار برستن على الانفصال عنهم تنحوا مرة
اخرى وبعد مفاوضة طويلة اتسموا فرقتين ، فتقدمت احدهما الى الامير
وكانت أكثر عدداً من الاخرى وقالت - هانحن بين يديك فقدنا الى
حيث تشاء

فقال الامير - وعلى أي شيء عزم أخوانكم الباقون ؟

قالوا - اتهم اختاروا خلوكو زعيماً ، فلم نرض نحن به وآثرنا الذهاب
معاك الى قرية الكسندروفا

فقال برستن للامير - ان رجال تلك الفرقة لا يصلحون للانضمام
اليك ، لانهم دون هؤلاء بسالة واقداماً وأخلاقاً
فقال له الامير - ولماذا لا تذهب انت ايضاً معنا ؟

قال - ان لذلك سببين . فالاول هو ان الملك لن يعضو عني لان
جرائمي اكثر من ان تحصى ولا هي مما يعني عنه . والثاني هو اني في أشد
الشوق الى صديقي يرماق ، فلا بد لي من المسير اليه ، فقد مضى على فراقنا
عدة سنوات حسبها دهوراً طويلاً . فاستودعك الله ايها الصديق الباسل
وأسأله تعالى ان ينيلك مبتغاك وان يحمني بك مرة أخرى
ثم دنا منه فتعاطفاً طويلاً ، واتصلا ببعضهما عن بعض وهما في اشد
الاتصالات النفسانية . .

ولما أشرقت الغزالة على تلك البطاح كان اللصوص قد تأهبوا للمسير .
فظهر نكيتا الى المكان الذي كان فيه سرادق ثبودور باسمانوف فلم ير شيئاً ،
فأدرك ان باسمانوف قد ترك تلك البقعة غامساً وسار بهسكته خائفاً لتكون
له الاسبقية في تبشير الملك بالغلبة . .

ولما تم تأهب المصرص تقدم برستن اليهم يودعهم واحداً واحداً . ولما
دنا من نوم حاقه وهويتون - بورك ذبك ايها انثى الباسل . فقد كنت
في معركة أمس تتقدم عشرة بطال ، فسوف يكافئك الملك بحسن مكافأة
فترك توما ببيته وقال - ولكنني لا أريد الذهاب الى قرية
الكسندروفا

- فذهل برستن وقال - فالى اين تريد اذآ ؟
- أريد ان أرافقك
- والى اين تراقني ؟ فانا ذاهب الى جهات نهر فولغا
- وانا ايضاً اذهب الى هناك
- ولم لا تذهب مع الامير ؟ هل نخشى رجال الحرس ؟
ففرح توما بجهته مرة اخرى ثم أصلح ثيابه وقال - انا لا أخشاهم
وانما لا أحب ان أراهم لانهم اختطفوا عروسي
فضحك برستن وقال - فاذا كنت لا تريد ان تنسى الاساءة ولا
تريد الا مواصلة الانتقام فانضم الى خلوكو
قال - لا أريد
- فاذا تريد اذآ ؟
- أريد ان أذهب معك الى جهات فولغا
- اما انا فلا أريد ان انطلق الى هناك حادياً
- وانا كذلك
- وأريد قبل مبارحة هذه الديار ان أزور قرية الكسمروف
فقال توما وقد حذر الى بصره - ولاي سبب تريد ذلك ؟
قل - لاني في السنة المنصرمة أكنت هناك جرزاً وسيت القشور
فنظر اليه توما بتعجب ثم ضحك ضحكة عالية كأ، أدرك ان برستن
يريد بذهابه الى قرية الملك ليس لأجل قشر الجوز كما قل، بل لأمر آخره
فقال - مهما كان السبب فلن أفصل عنك
قال واذا ستعود هناك فلا تم لا نفسك

قال - اني لا أخشى احداً ما دمت برقتك

قال - ودع اذاً رفقائك وهيا بنا..

ولما كان توما يودع اللصوص قال الامير لبرستن - فاذا كانت وجهتك قرية ألكسندروفا فطريقنا اذاً واحدة

قال - كلا ياسيدي. فأنا أسير في مسالك لا تعبرها انت وسأسبقك الى القرية بأيام كثيرة لأنه لا بد لك من التأخر قياماً بشؤون رجالك. واذا اتفق ورأيتني فأسألك ان لا تظهر انك تعرفني. ولكن الأرجح اننا لا نتقابل، فساخرج من القرية قبل وصولك اليها، لأنني لا اريد ان أقضي هناك الا وقتاً قصيراً لبعض شؤون لا بد من قضائها

فأدرك الأمير ان لبرستن سراً لا يود كشفه، وقد يكون ذلك كنزاً مطموراً في بعض ضواحي القرية او غير ذلك، فسكت ولم يسأله شيئاً ولم يكن بعد ذلك الا القليل حتى سار اللصوص فرقتين في وجهتين مختلفتين. وكان الأمير قد زار قبر أخيه مكسيم آخر مرة ثم سار في طليعة رجاله على ضفاف أنهر، يتبعه يوريان كلب مكسيم وهو يحني الرأس كأنه عرف ما اصابه فظهر عليه الا لكسار شديد . .

أما لبرستن وتوما فانطلقا في جهة أخرى انطلاق الرياح، ولم يلبثا ان تواريا عن الأبصار

الفصل السادس والثلاثون

«مبوط المعنى»

بعد ان مضى على كسرة التتر اسبوع كامل كان ثيودور باسمانوف قد

وصل الى قرية ألكسندروفا عائداً من ولاية ريازان، فشنخص تواء الى القصر
وصدده طافح بالمسة، لأنه أيقن أن الملك سيرحب به ويتلقاه بجميع ضروب
الأكرام والالجال لأنه قام بالمهمة التي ندب اليها أحسن قيام. وقد ظن أن
الملك لم يطلع بعد على تفاصيل الموقمة، فأمل ان يكون هو البادي في هذه
البشرى وصمم على أن يعزوشرف الظفر كله لنفسه، فلا يذكر الأمير نكيتا
بشيء. غير أن الملك كان قد عرف تفاصيل المعركة قبل وصول باسمانوف الى
القرية ولم يخف عليه شيء...

فلما مثل نيودور بين يديه شرع يسرد له خبر الموقمة من اولها ويذكر
له ضروب التفتن والفروسية والحكمة التي أبدأها وكانت السبب في قهر التتر
وكسرم أو شم كسرة، وختم الخبر بقوله - وهكذا فاني بذلت وسعي وطوحت
بنفسي الى أشد المخاطر في سبيل مرضاتك ياسيدي الملك، فلا تنس أنت
أيضاً عبدك الأمين الذي كاد يجود بروحه في ساحة الوغى حباً لخدمتك
وخدمة البلاد، وهو مستعد أبداً لقضاء كل ما تأمر به جلالتك من
امثال ذلك

وكان الملك مقبلاً على باسمانوف يسمع كلامه بأتم الاصفاء... ثم تبسم
وقال في دهاء - وبماذا تريد أن تكافئك جزاء هذه الخدمة؟

قال - بالذي تراه أصلح لشأني وأرفع لمقامي في عيون رجالك
قال - وكيف تشير علينا أن تكافىء الأمير نكيتا؟ فإنه على ما بهنأته
أبلى في هذه المعركة أحسن بلاء، ولولاه لتغلب عليكم التتر ومزقوكم كل ممزق
ولم يكن باسمانوف ينتظر مثل ذلك الكلام. فأطرق هنيهة وهو

غائص في لجة من الافكار المقلقة . ثم رفع رأسه وقد امتقع لونه واتهدت نار الحسد في صدره وقال - وهل نسيت أيها الملك أن الامير نكيتا هو أحد المجرمين الكبار وقد فر من السجن ؟ فيماذا تريد أن تكافئه بغير المشقة ؟ أما أنه أبلى في المعركة بلاء حسناً فهذا منافع للواقع والذي أبلغك الخبر كاذب لا محالة . فان الامير نكيتا قد كاد بسوء تديره وعدم انتظام رجاله أن يفسد العمل ويحمل الغلبة للأعداء ، ولعله قصد بذلك مناصرتهم علينا لا هوى في نفسه لا يعلمها الا الله

فألقى الملك نظرة ازدراء على باسمانوف وقال - حسبك من مثل هذا الكلام ، لاني عرفت تفاصيل الواقعة أكثر مما تعرفه انت ، فلن يتأتى لك والحالة هذه ان تشوه علي الحقيقة وتنسب كل الفضل لك . وهل نسيت وقائمتك السابقة ؟ ففي ايها نجحت ؟ . اما نجاحك في هذه الواقعة فيعزى كله الى الامير نكيتا بلا جدال . فهو قائد مدرب وبطل ، وغوار لا يهاب الشية ولا ترزعه المهالك ، وقد كان الظفر حليفه في سائر المعامع التي خاض غمارها سواء كان ذلك في بلاد تنغواو في حروبه مع التتر وغيرهم من اعداء البلاد . . وجئت انت الان تختس فضله كله وتنزوه لنفسك في قبة وبلا حياء .

زكان باسمانوف كن يسمع الحكم المبرم عليه . . فلما فرغ الملك من كلامه قال له بصوت يرتجف من شدة الغيظ - لم يكن في حسابي يا سيدي الملك ان تسامني بمثل هذا الفتور وتمايلني بمثل هذه القسوة ، وانا لم أقم حتى الان الا بما يرضيك . . أجل يا مولاي اني أفتاني في خدمتك ومريضاتك اكثر من ماليوتا سكوراتوف وبوديس غودنوف والامير

اثنامي فيازيمسكي وغيرهم من الاخصاء ، ولكنك تقي الجميع حق خدمهم
وتعمرهم بالنعم السنية وترفع مقاماتهم ورتبهم ، واما انا فلا تلتفت اليّ ، بل
تصم أذنك عن سماع ندائي ونحسب حسنتي سيئة وخدمتي ذنباً
فقال الملك متهمكاً - الحق معك . . فان اولئك الاخصاء لا

يجازونك في الرقص . . . فانت تفوقهم جميعاً من هذا القبيل

فلما سمع باسمانوف ذلك شعر ان الدم جمد في قلبه ، فلم يتمالك ان قال
- فاذا كنت غير أهل لخدمتك فاصرفني من امام وجهك ولا تدعني
أذرب كدأ . .

قال باسمانوف هذا وهو يأمل ان يلين الملك فيشفق عليه ويرقي لحاله
غير ان الامر كان بالمعكس ، لان الملك كان قد فترت محبته له من يوم الحكم
على ولي العهد بالاعدام . وكان ذلك الفتور يزداد يوماً فيوماً ، وماليوتا لا
يسع فرصة تمرّ دون ان يفتنمها للسماية به

ولذلك فلما فرغ باسمانوف من كلامه نظر اليه الملك بمبوسة وقال له
باهجة الأسف المنزدرى - ولئن كان ابتعادك يشق علينا لانك عضدنا
ونصيرنا ، غير اننا نسمح به اضطراراً ونحن على يقين بان شؤون المملكة
ستختل ببعادك وتضطرب احوالنا الداخلية والخارجية ممّا . . فاذهب اذاً
على ركة الله الى حيث تشاء ، فلسنا نريد ان نعرضك في اردتك او نحول
دون بختك . .

ولم يطق باسمانوف احتمال مثل هذا الاستخفاف به ، فتبدلت سحته
وتصبب العرق البارد من جبينه . ولم يلبث ان نهض وقال - أشكرك
يا سيدي الملك على ما تفضلت به . أشكرك لانك تطردني من امام وجهك

وانا لم أجن اثماً ولا أتيت منكراً . وهاهنا أطوف البلاد أتحدث بمطفك
عليّ وميلك اليّ . فقد خدمتك وكافأتني احسن مكانة . . عليّ اني أحمد
الله لانني لم أزل مخلصاً لك في السر والعلانية ، ولم أتوسل بالسحر ولا بغيره
من الامور الخفية التي يتوسل بها بعض اخصائك توصلاً لنيل ما يرغبهم وهم
يظهرون لك منتهى الاخلاص وحسن الوفاء

ولما قال هذا انحول يريد الخروج فاسترققه الملك بقوله - قلت ان
البعض يتوسلون بالسحر . . فمن هم ؟

قال - واي فائدة من ذلك ايها الملك ؟

قال - قل . فانا أملك بذلك . قل من عرفت من هؤلاء الاخصاء
الذين يستخدمون السحر لقضاء اوطارهم ؟

قال - قد عرفت واحداً منهم الان وهو الامير اثناسي فياز بمسكي .
فانت تحبه ولا تزال تعمده بالنعم التي لا حدها وتطلق له ان يفعل ما
يشاء ، بينما هو يقنم كل فرصة فيشخص الى موسكو ومنها ينطلق الى
طاحون في وسط الغابات وهناك يقضي اوقاته في السحر وسائر اعمال
ابليس بقصد اذيتك واغتيالك . . وهذا الامير هو من اقرب اخصائك
وانت تثق به الثقة العمياء . . فهل رأيت كيف يكافئ محبتك اياه وارتياحك
اليه ؟ .

وكان هذا انكلا ، وقع انكي من الحسام في قلب الملك . فهاجت فيه
الافكار وماجت ، وبقي مدة مطرقاً عابساً ، ثم رفع رأسه وقال - وانت
كيف عرفت ذلك ؟

فقال باسماتوف وقد أيقن بنجاح الشرّك الذي نصبه - عرفت ذلك
من خدام الامير نفسه

قال - ولماذا لم تنه اليّ الامر قبل الان ؟

قال - لاني لم اطلع عليه منهم الا اليوم

فأطرق الملك قليلاً ثم قال - اذهب الان ولا تبرح القرية قبل ان

تقف على امري وسأتحري هذه القضية بنفسي

فخرج باسماتوف وهو مسرور لانه أدرك بعض النجاح في تغيير قلب

الملك على احد مناظريه ومزاحميه ، وقد سرّي عنه بذلك بعض قلقه واضطرابه

الفصل السابع والثلاثون

« شكوى موروزوف »

بعد انصرف ثيودور باسماتوف خرج الملك الى ديوان القصر وقد
أحاط به بعض رجال الحرس من كل جانب . فطلب ان يقدم اليه النبلاء
الذين حضروا من موسكو ومن غيرهما من المدن والاقاليم لمواجهة في شؤونهم
واحوال اقاليمهم . فكان بمحادثتهم واحداً بعد واحد فيقضي حاجاتهم ويزودهم
بالاوامر اللازمة ويصرفهم . وفي آخر السك دخل احد الحجاب وقال -
يحي النبيل دروجينا موروزوف وهو يسأل جلالتك ان تأذن له في مواجهتك
فحفظت عيننا الملك وقال - عجباً ! أو موروزوف هنا ؟ . . فقد نفي
اليّ انه قضى فريسة النار يوم احترق منزله . . فأدخله لتنظر في امره ، فقد
عفوت عنه منذ زمان

وبعد قليل دخل النبيل موروزوف تحفٌ به المهابة والجلال . ولما دنا من الملك جثا امامه على ركبتيه ودماله بالتأييد . . وكانت الانظار قد أهدقت به والجميع أنصتوا ليسمعوا كلامه

وكان النبيل أصفر الوجه تدل ملامحه على الحزن الشديد ، وقد بقي على جبهته اثر جرح أصيب به من سيف الامير اثناسي فيازيمسكي يوم هجم عليه وسبي امرأته . . وكان مرتدياً ثوباً بسيطاً لبس عليه شيء من علامات المعظمة والأبهة

فنظر اليه الملك وقد تذكر حالة هذا الشيخ وأنفته وكبرياه ، وقالها بحماته الان وهو ذليل منكسر ، فسر لهذا الانقلاب العظيم ، لانه كان يكره موروزوف ويكره فيه تصلبه بأرائه وشموخ نفسه ويعدّه بسبب ذلك عدواً له . . بيد انه أراد الان وقد رآه بتلك الحالة ان يظهر له المودة والمطف فقال - ما بالك ايها النبيل مرتدياً هذا الثوب البسيط وانا قد عفوت عنك منذ زمان ؟

فاجاب النبيل وهو لا يزل جاثياً - وجل يابق بي ايها الملك ان أرتدي الثياب الفاخرة وقد هجم علي رجائك ، فدمروا منزلي وسبوا امرأتي بقيادة احد اخصائك الامير اثناسي فيازيمسكي . . ؟

فقال الملك - انهض وأطعنني على جلية الخبر . واذا ظلمك احد فلن يفلت من العقاب ولو كان اقرب الناس الي

فلم نهض موروزوف بل لبث جاثياً وقال - مراداً ايها الملك بطلب الامير اثناسي الى هنا ، لسمع كلامي ويحجب عنه

فأطرق الملك هنية ثم قال - أصبت . . وانا أيضاً أريد ان أجهلك
بالامير اثناسي ليسمع شكواك بنفسه
ثم امر بمض الحجاب باستدعاء الامير ، وامر موروزوف ثانية ان
ينفض ويجلس ، ففعل

وكان قد مضى على الحادثة التي جرت في منزل انجيل موروزوف اكثر
من شهرين كان الامير اثناسي في خلاهما قد برى من جراحه وعاد الى
المعيشة في قرية الكسندروفا كمادته السابقة . غير انه كان شديد الاكتئاب
حزيناً للغاية ، لانه لم يسمع عن هيلانة شيئاً ، وقد جهد نفسه للوقوف على
شيء من اخبارها ، وبث للبحث عنها العيون والارصاد فلم يفلح بظائل . .
فسم الحياة وعاف الملذات والملاهي وكان يقضي اوقاته خاليك بنفسه لا
يشارك رجال الحرس في حفلاتهم ومسراتهم ، حتى دهش الجميع لتغير
اطواره ونسبوا ذلك لعارض جنوني نزل به من شدة الصباة والهيام . .
وكان الملك لا يذخر واسطة لتسلية الا فلما ، ولكن مساعيه كلها قد
ذهبت بلا جدوى . . غير أنه اذسمع عنه من باسماوف ما سمع تغير عليه
فجأة وصار يسمي لكشف أسرارهِ ونياته ، وقد أيقن أن له من الخفايا ما
لا يجوز الاغضاء عنه . ولذا فلما حضر موروزوف وعرض شكواه تلقاه
بالاصغاء وحسن المقابلة ورضي أن يحضر الامير للمحاكمة ، وقد أمل أنه
سيطلع بهذا الجمع بين الخصمين على كثير مما يريد تحقيقه



وبعد هنية حضر الأمير اثناسي ، وقد دل ظاهره على ما سرى في

باطنه من الاحزان والشدائد فتجمد وجهه وخطف لونه ولزمته المبوسة الدائمة
فقال الملك - تقدم الى هنا يا اثناسي وقف أنت ايضاً بادروجينا
وأخبرني بالتفصيل عن الحادث الذي جرى لك ولا تخف شيئاً
فنظر النبيل الى الملك وسرد عليه قصته بتمامها . فذكر له امر هجوم
الأمير اثناسي واحراق منزله وسي امرأته .. الى غير ذلك من البلايا
والكباير التي انزلها الأمير ورجاله به وهم انما جاوا اليه من قبل الملك بمظهر
الصداقة والولاء

فوجه الملك حينئذ كلامه الى الأمير اثناسي قائلاً - وهل جرى ذلك
كله كما قرر النبيل ؟

فدهش الأمير من هذا السؤال ، لأن الملك كان قد عرف الحادثة
بتفاصيلها بعد وقوعها حالاً .. فقال - نعم
فقطب الملك واتي على الأمير نظراً حاداً ثم قال - وكيف نجرات على
هذه القملة الوحشية ؟ .. وهل بلغ منك ومن رفقائك الحراس ان تسطوا على
بيوت الناس وتهبوها ؟

فازداد الأمير حيرة وقال - انت تعلم يا سيدي الملك ان احراق منزل
النبيل قد تم بغير امري .. واما سي ربة المنزل فقد كان باذن منك
فاستشاط الملك غيظاً وصاح به - باذن مني ؟ .. متى أذنت لك في
ذلك ؟ .. انت تهذي ايها الرجل ! ..

فلما سمع الأمير ذلك سقط في يده ولم يدر ما يقول ليبر نفسه ... ان
الملك نفسه قد باحه سي امرأة النبيل ، وهو الذي ارشده الى ذلك بتلك
الحكاية التي سردها له في اثناء الوليمة ، فكيف يحاول الان نفي ذلك الأمر ؟ ..

وكان الامير الى تلك الدفينة يكره الحياة ويود ان يتخلص منها
ولكنه اذ علم الان ان هيلانة لم تزل بعيدة عن زوجها ، وانه قد لا يعدم
الوسائل الفعالة للحصول عليها ، عاوده حب الحياة وجرى في عروقه دم
الرجاء ، وعزم على ان يدفع التهمة عن نفسه بكل طريقة ، فقال للملك -
كلاً يا مولاي ! انك لم تأذن لي في سبي زوجة النبيل ، وانما أمرتني ان
أنطلق الى منزله وأبلغه رضاك وعفوك عنه . فأخذت فرقة من رجال الحرس
وذهبت اليه لاقوم بالمهمة التي نددتني اليها . . ولا يخفى ان النبيل يكرهني
منذ زمان وقد أضمر لي السوء لما كان قد حصل بيني وبين امرأته من
العلائق قبل ان صارت اليه . وكان عنده اذ ذاك الامير نكيتا فصمما على
الايقاع بي . . وبعد المأدبة هجما برجالهما علينا وهم يحاولون ان يفتكوا بي
وبرجالي ، فدافعنا عن انفسنا وقابضناهم كما قابلونا . . وكانت امرأة النبيل قد
خافت على نفسها من زوجها ، فسألني ان أحبها ولا أتركها ، فحملتها من
منزلها على جودي باختيارها التام ، وما كدت أبعد عن منزل النبيل حتى
أثرت بي الجراح التي نالتني منه ومن الامير نكيتا ، فسقطت عن الجواد لا
أعي شيئا ولم أسمع عن النبيلة بعد ذلك خبراً ، فدل زوجها ظفرياً بعد
الحادثة فحبسها او قتلها لينتقم مني . . واني لفي غاية التعجب منه . . كيف يهجم
علي في بيته ويفعل ما فعل ثم يأتي فيشكوني ، مع ان الحق في الشكوى
ايها الملك هو لي لاله . . .

ولم يكن الملك ينتظر مثل هذه القحة الظاهرة وهذا الكذب الفاضح

يبد أنه سكت ولم يعترض الأمير في شيء ، وقد خطرت له اذ ذاك افكار ومآرب

وكان موروزوف يسمع كلام الأمير انثاسي وينتفض من شدة الغضب . فلما فرغ الأمير نظر اليه موروزوف بازدياء ، وقد نسي انه بحضرة الملك ، فقال - امك كاذب ومخاتل . . . وليس لي ما أقوله لك غير هذا . . . ولكني مستعد ان أنسم في حضرة الملك بالله والشرف اثباتاً لصدق كلامي وادحاضاً لترهاتك وبهتانك . . .

ثم التفت الى الملك وقال - مره يا سيدي الملك ان يرد علي زوجتي او يرشدني انى مكانها

فظر الملك الى الأمير وقال - فماذا تجيب موروزوف ؟

قال - قد كنت لك يا سيدي اني سقطت على الطريق لا أعني شيئاً ، لان الدم كان يتدفق من جراحي بغزارة . وقد وجدني على تلك الحالة رجالي فحماني الى صالون في ارض اطراب العابة . ولولم يمالجي الطحان ويقطع نزيل الدم لكنت تخفيت نجيبي لا محالة . . وما اخذني رجالي لم يكن بجانيي لا جرادمي ولا زوجة . . . وسعده علي في ذلك باطلة

فما سمع الملك ذلك اطمأ ون والطحان ارادت شكره في الأمير انثاسي وصديق وشية باسمه نوف . غير انه أخفى ذلك في صدره الى فرد .

آخرى وقال - ان انثاسي موروزوف مستعد ان يقسم على صحة دعواه فقال مير - وما يضاه مستعد ان أثبت كلامي وأدحض دعواه بأعظ لايمان

يكن احدهم قد دمه في الوفاة الأمير وكذبه وتناقه ، لانهم عرفوا

كيف جرت الحادثة وقد شهدها كثيرون منهم . . وهم ولئن كانوا اشراراً،
الأنهم ذُعموا ولم يصدقوا ان مثل الامير اناسي يقدم على القسم الكاذب
بالله وبالشرف . .

ولم يكن الملك ينتظر مثل هذه الدناءة التي عزم الامير عليها وهو على
جانب عظيم من نبل الاصل وشرف المحتد . . غير انه لم يزره ، بل أطرق
صامتاً مفكراً يلتمس حلاً لهذا الممى ليتسنى له معاقبة الاثنين
دفعاً واحدة . .

وبعد قليل رفع رأسه وقال لجماعة الحراس الواقفين - لا يمكن ان
يكون الحق في جانب الاثنين اذ لا بد أن يكون احدهما كاذباً . . ولما
كنت لا أريد هلاك نفس احدهما فليتحكما في ميدان الزال وليفعل
الله ما يشاء . وقد صحت عزييتي ان يكون لهما بمدة عشرة ايام يوم مشهود
يتبارزان فيه في 'ساحة الكبري' ، فمن صره الله كان صادقاً ومن خذله كان
كاذباً ، وهو ان قتر من خصمه نال جزاءه والا فستناله يد الجلاذ . .
ولما سمع رجال الحرس هذا الحكم أيقنوا ان الملك اتما يريد بذلك
اهلاك موروزوف لا محالة لانه شيخ طاعن في السن ، لا قبل له بمبارزة
الامير اناسي وهو في شرح شبابه ومنتهى نضارته ، وظنوا ان شيخ
سيغترض على هذا الحكم ولا يقبله ، ان يستأنس منات يتبرهنه هذه الناية
مبارزاً بالاجرة . . غير ان موروزوف لم يعمل بل حتى رأسه لملك وقال
في وقار وسكينة - ليكن ما أردت ايها الملك . . في ضيف وطاعن في
السن ولم أتقلد عمدة الكفاح منذ مدة طويلة . ولكن طامع لا اله الا الهي
ان ينتصر امير الحق . . فناراض بمبارزة الامير وتارك الانتقام لله وحده

وكان الامير اثناسي حالما سمع كلام الملك قد سرّ واستبشر وأفغت نفسه آمالاً لما يلمه في نفسه من القوة والتفنن في اساليب البراز ، بالقياس الى خصمه وهو في غاية الضعف والشيخوخة . . ولكنه ما سمع كلام موروزوف حتى خفق قلبه وداخله الشك في الفوز وخاف عدل الله . فوجهم وارتعد ، غير انه كتم ما به وقال بدون تردد - امرك مطاع يا سيدي الملك !

فقال الملك له ولوروزوف - انصرفا الان الى حيث تشاءان . وبعد عشرة ايام تبادران الى الساحة الكبرى مصحوبين بشهود كما وكفلائكما ، واويل لمن ينتقم منه عدل الله . . .

ثم ودّعهما وعاد الى مخدعه . فخرج موروزوف من الردهة بقدم ثابتة وعلى وجهه امأر العظمة ، وهو لا يكاد ينظر الى احد من رجال الحرس

الفصل الثامن والثلاثون

« ١١٠٠ »

وفي اليوم الذي ظعن الامير اثناسي من قرية 'كسندروفا' ناخصاً الى موسكو وهو عرضة لتلاعب الاماني وتدافع الهواجس والتأملات . كانت افكاره منصرفة الى امرين وهما البراز والحصول على هيلانة ، وقد يقن انه اذا فاز في الاول فلا بد ان يتوصل الى الثاني ، فعزم ان ينهي زهرز بكل وسيلة تؤول الى فوزه ونجاحه . غير انه لما كان شاعراً بان الدعاية في ذلك ستكون لصاحب الحق في الدعوى ، وما هو الا كاذب

مفتراً ، خاف عاقبة الامر وخشي غضب السماء ولا سيما وانه كان يشعر حتى ذلك الوقت بشيء من آلام الجراح التي اصابته في اثناء المعركة الليلية في منزل النبيل مرروزوف . . ولما قوي فيه هذا الخوف عزم على ان يكشف صاحبه الطحان بما في ضميره ، ويطلب منه المعونة والارشاد ليقوى على خصمه وينال بنيته . . وبهذا العزم وبذلك الآمال ركب جواده وخرج من موسكو وسار بين الغابات في الطريق المؤدية الى الطاحون . ولما أشرف عليها وبلغ بعض اطراف البقعة المحيطة بها رأى عن بعد شبحين كان احدهما الطحان نفسه فعرفه ولم يتمكن من معرفة الآخر . وكان قد ترجل عن جواده فربطه الى بعض الاشجار وسار مشياً على الاقدام ، وهو يود ان يعرف الشخص الآخر ويسمع ما يدور بينه وبين الطحان من الكلام . وقد حدثته نفسه ان في الامر نوعاً من الدسيسة

ثم كمن وراء بعض الاشجار وأرسل نظره فأبصره جواداً مطهماً عليه عدة نخعة ، وقد وقف صاحبه بازاؤه وهو مقبل على الطحان بمحاذته بمزيد الاهتمام ، وكان الطحان يقول له - ثق ايها النبيل بمهارتي وحسن تدبيري فسوف تعود اليها الى مجاريها وتصبح أحب الاخصاء الى الملك ، وانا أضمن لك انه لا تمضي مدة قصيرة حتى يسقط الامير اناسي ثم غيره وغيره من اعدائك ومناظريك ويسطع نجمك في أفق السعادة والاقبال . وهذه العشبة التي أعطيتك ياها الاز فريدة في نوعها ولها من الخواص والمزايا ما يحير الالباب

وكان الامير اناسي قد سمع اسمه وبض كلمات متقطعة من كلام الطحان لم يفهمها ، لان خرير الماء ودوي حجر الطاحون حالاً دون سماع

الكل ، فجد في مكانه وأصنى لعله يسمع شيئاً آخر يقفه على بعض هذه الغوامض

ولما فرغ الطحان من كلامه قال له الرجل المجهول - سأفعل بما أشرت ، فان افادني علاجك غمرتك بالصلوات والهدايا ، وألاً فلا يكون جزاؤك الا الشنق

قال هذا وامتنطى جواده يريد الانصراف
وكان الامير قد سمع هذا الكلام . ولما رأى صاحبه في صهوة جواده عرفه للحال انه ثيودور باسماثوف ، فتعجب من وجوده في ذلك المكان . غير انه لبث في مكانه مصغياً فسمع طحان يقول له - لا تنس ان تحمل العشب في عنقك نحت ابوابك ولا تنغاض عن التقرب الى الملك ، فتردد عليه وأظهر له سرورك وفكته على الدوام بطرائف النوادر ولطائف الاخبار ولما فرغ من كلامه لوى باسماثوف عنان جواده ورجع من حيث أتى وهو مستبشر بنجاح مساعده . وقد هـ في طريقه على مقربة من الاميراثناسي فلم يشعر به . وكان الاميرته خمر - شئت في باسماثوف . أيقن انه سيكون له عدواً ومنظراً . . ولكن تذكر - هيازن - ولامر الذي قدم لاجله فلم يكثر لشيء .

وكان الطحان بعد ان سيع زائر به نظره قد جثم على الارض واخذ به القطع الذهبية التي تفحه بها وهو في غابة الجذل والجبور . وانه لذلك اذ يحس يد تميلة أقيت على كتفه ، فالتفت فأبصر وراءه الاميراثناسي فيازيمسكي . . . حبه اذ ار الذعر والعب وتلاحم منطقته . فقال له الامير وقد أرسل

اليه نظراً حاداً - أخبرني ايها الساحر عن علاقتك باسماوف ، وما هو الامر الذي جاءك به ؟

فأجاب الطحان وهو يرتعد فرقاً - اهلاً وسهلاً بك يا مولاي ..
أخبرني انت اولاً عن صحتك ! ..

فقطب الأمير وقال - أظفني حالاً على جلية الامر قبل ان أذيقك
العذاب ألواناً .. وقد سمعنا تذكرا ن اسمي ، فما الداعي الى ذلك ؟

فأخذ الطحان يترك جبينه ولا يدري ما يقول

وكان الأمير قد عيّل صبره ، فوثب الى عنقه وقبض عليه بكلتا يديه ،
ثم جرّه الى الماء وهو يهدّده بكل ويل

فقال الطحان وقد طارت نفسه شعاعاً - .. أذكر لك حديثاً كه ولا
أخفي شيئاً ، فلا تفعل بي مكرهاً

فركه الأمير قازلاً - مات فأخبرني اذا عرّيتني باسمزف

فقال - قد جاء يا سيدي يضرب مني عشب لبعض شؤونه ، وعرفت
انك كامن هنا ترى وتسمع ، فكلمته بصوت مرتفع لكي تسمع بأذنيك
وتتحقق شدة اخلاصي لك .. ويلم الله اني كنت بانتظارك منذ الصباح

قال - وماذا طلب باسمزف ؟

قال - قل ان انملك تغير عليه رفقته لانه اسطفاك انت وبوريس
غودروف وماليون سكررتوف فلم يعد يحفل بسواكم . فشق ذلك عليه
ودخل يسبي للحصول على ما فقد من الكرامة . وقد عاب مني بعض الأعشاب
التي يمكن ان نساء على نيل منبها وتبيد فيه سمته بملك ورضه .. اما انا

قلم أبال بطلبه ، ولـسـكنه ألح كثيراً ودفع كثيراً ، وأردت الخلاص منه فأعطيته عسبة لا تنفعه شيئاً ..

ولما كان الأمير في شغل عن ذلك لاهتمامه بامرأته لم يحفل بحديث الطحان . فقال له متعجباً - واي منعم لي من كل هذه الترهات ؟ .. فليفعل باسمانوف ما يشاء وليتودّد الى الملك بقدر ما يشاء . . . وقد جئت الآن أسألك أولاً عما اكتشفته بخصوص هيلانة . . فهل عرفت شيئاً ؟

قال - كلا يا سيدي لم أهتم الى ذلك . وقد بذلت لهذه الغاية أقصى مجهودي وأحييت سبعة ايام بلياليها وابا أحرق في الماء لعله يكشف لي شيء من امرها فلم أفر بطائل ، سوى انها ترات لي في صهوة جواد بين الادغال والآجام وفي صحبتها فارس طاعن في السن يسير الى جانبها ويجهده في تغزيها ، وهي لا تريد ان تنزى . . ولم أر غير ذلك

قال - ومن ترى يكون هذا الرجل الطاعن في السن ، أليس زوجها موردونوف .

قال - كلا يا سيدي . بل هو من عائلة الساس . . لان بنت وبن زوجته ، بونا كبير في الهيئه ربابس

قال - كنت قد أدركت طبعي من امره على أكثر من ذمة ، ذى ان تتوفى قريباً الى ما يرضيني ويكون لك من ورائه ما تطيب به نفسك فأبرقت سرّة الطحان قال - هذا ما أتمناه يا سيدي وأسمى اليه بكل قواي

قال - وقد جئت أشكرك اليك امرأ آخر ، وستجدك على ادراك
امنة خير لا تفسدك

قال - لبيك يا مولاي فانا اطوع لك من بنائك

قال - فهل تقدر ان تسحر السلاح ؟

فقهه الطحان وقال - وكيف لا يا سيدي وهذا العمل مهني ومهنة

آبائي واجدادى منذ مئات السنين . . .

قل - اعلم اذا ايها الساحر انى بعد ايام معدودة سأبارز خصماً لي

عنداً . فأريد ان أتغلب عليه وأقتله في ساحة التزال . ولهذا أطلب منك

ان تسحر حسامى ليتم لي ما أشتهي

فأطرق الطحان وهو يسائل نفسه عن الخصم الذي يريد الامير

مبارزته . . فخطر له ان ذلك الخصم قد يكون ثيودور باسمونوف ، ولكنه

ما علم ان نفي ذلك من ذهنه لان الامير قد أظهر منذ هنية عدم اكترائه

له . . ثم ظن الامير نكيتاً ، ولكنه علم ان نكيتاً قد سجن وان اللصوص

بشيء برستن قد أخرجوه من السجن وفرّوا به الى جهات بعيدة . . فلم يبق

من اعداء الامير اناسي الا النبيل موروزوف ، فهو عدوه الازرق وخصمه

الاشد . ولعل النبيل بسبب الاهانة التى لحقت به من الامير اناسي ته

طلبه للبراز . وهو ولئن كان شيخاً فقد يمكنه ان يقيم بدلاً عنه . . را

جالت هذه الخواطر في ذهن الطحان أيقن ان الرجل الذي سيبارزه الامير

هو النبيل موروزوف . بينه اورجل آخر بنوب عنه . . فنظر الى الامير وقر

- دعني اولاً : سيدي أبحث في الماء عن خصمك را كشف هذا

الغامض بنفسى

قال - افعل ما تشاء

فهمون الطحان الى ان يعرف يرحون وييطى ان عاد يحسن

بيده زجاجة . فجاء ، وغمسها في الماء واخذ يحدق فيها بعصره ويتمتم . . ثم
تبسم وقال - قد عرفتُ خصمك يا سيدي . . فهو طاعن في السن ولكنه
ذو بأس شديد . . . وها اني اراك ايضا الى جانبه

فلم يتعجب الامير من هذه المعرفة لانه كان موقناً بقوة السحرة
وفعالهم الغريبة ، فقال له - وماذا ترى ايضا ؟ قل ولا تخف عني شيئاً
فقال الطحان وهو لا يرفع نظره عن الزجاجة - أرى جمهوراً من
الملائكة الى جانب الشيخ كأنهم وقفوا للدفاع عنه . . وعليه قدم صار يصعب
جداً ان أسحر لك الحسام ليكون عندك الوحيدة في هذا الزمان الهائل
فارتجف الامير وقال - انظر جيداً ايها الشيخ ! أفلا ترى الى جانبي
احداً ؟ ألا ترى من يدافع عني ايضا

فرفع الطحان رأسه وقال - نعم أرى . . ولكنهم هز قليل . . وقد
نسك الماء الان فلا أبصر شيئاً
قال - أفلم يبق لي امر في الانتصار . . أفليس لك ان تسحر لي
سلمي لا تفوق عز شخصي . . .

فأمسك السحان عن الكلام ردهم مطرقت الى الارض يتأمل ربهز
رأسه ويرقص حاجبيه . ثم نظر الى الامير وقال - سأفعل ذلك كراماً
لك . لان عملاً كهذا يقتضي تعباً مفرطاً وجهداً شديداً . . فها هنا حسامك
وليفعل لله ما يشاء

فناوله الامير الحسام وتعمى عنه قليلاً ، وهو يعتقد انه قد صار بمن
من انظر وقريباً من ادراك الوطر

كان الطحان قد حفر في الارض بالقب من الماء حفرة عميقة ،

طمر فيها الحسام وطقق يدور حوله وهو يمزّم ويتمم بالفاظ متقطعة وكلمات غريبة لا يفهم منها شيء . . . وبعد نحو ساعة أخرج الحسام من الحفرة فنفض عنه التراب وناوله للأمير قائلاً - قُضِل يا سيدي ، فقد أصبح الحسام على غاية ما تريد وتشتهي . وانك ستغلب به لا محالة . وهو سيقبك ضربات عدوك مهما كانت شديدة ، إلا إذا غمس حسامه في الماء المقدّس فأجمل الأمير وقال - وهبه فمل ذلك . . فماذا ؟

قال - ان للماء المقدّس قوة تفوق السحر . . ولكن لا بأس ، فسأعطيك نوعاً خاصاً من الاعشاب تطفه في عنقك ، فيدراً عنك المصائب ويمضدك

قال - دبر ما شئت لأحرز انتفوز المبين

فهبون الطحان ثانياً الى حجرتة . ثم عاد يحمل كيساً صغيراً فيه شيء . من الاعتبار ، فوضعه بين يدي الأمير وهو يقول - خذ هذا واحمله في عنقك ولا تخش بأساً ، فان فيه من الاعشاب انفعالة ما قضيت في انتقامه وجمعه من قلال الجبال شهوراً واعواماً

نخباً الأمير الكيس ثم أدّى للطحان مقداراً من المال ونحرّج يريد ان لا تصرف . فاستوقفه الطحان وهو يشكره على كرمه ويقول - ولكني أرجو منك يا سيدي ان لا تدخل الكنائس قبل يوم البرازك لا يفسد العمل

قال - وهل لك ان تعرف من الان من منا سيظفر بخصمه ؟

فأجاب الطحان وهو يتلجلج - ان ذلك في علم الله . . والارجح انك انت ستكرن نظائر . . لقد اتبأت قبلاً انك لن تموت بحد الحسام .

فودعه الامير ثم اقتاد جواده فركبه وعاد الى موسكو وهو غائص في
بحار التأملات



وكان في غياب الامير اناسي من قرية ألكسندروفا ان الملك
استدعى ماليوتا سكوراتوف وفوض اليه ان يلقي القبض على خدام الامير
وبجملهم على الاعتراف باعمال سيدهم الخفية ولا سيما ما كان لها
علاقة بالطحان

ولا ريب في ان ماليوتا قد أتخذ هذا الامر بالارتياح التام . فالتقى
القبض على جميع خدام الامير وذويه وزجهم في السجن وأذاقهم من ضروب
العذاب ما أكرهم على الاقرار بكل ما لقنهم اياه ماليوتا ، وكان اكثره
بل كله عارياً عن الصحة . . ولما استوثق ماليوتا منهم سأل الملك ان يعين
شهوداً وكتبه ليكتبوا له بالتفصيل اعتراف خدام الامير ففعل . ورفع التقرير
الى الملك موقفاً باسماء املاكك . . ودون الكتب واذا فيه ما يأتي :

« ان الامير اناسي غيانيوسكي يردد الى الطاحون بكثرة وفي نيته
اهلاك الملك بقوة الساحر الضحى . . . وانه يميل الى الامير فلاديمر شقير
الملك ويسمى سراً لتصيبه بدلاً من الملك يوحنا الرابع الحالي . . وانه يشيع
عن الملك اموراً كلها مختلفة وكاذبة ولكنها تحقره في عيون الرعية . . وانه
يكتب التردد وغيرهم من اعداء المملكة ويدعوهم الى اعلان الحرب على روسيا
واضرار نيران الثورة فيها . . »

وما وقف الملك على ذلك حتى استشاط غضباً وصمم على قتل الامير

اثناسي . الا انه امر ماليوتا ان يبق كل شيء مكتوماً وان يخبر الامير اذا
سأل عن خدامه انهم اتهموا بالسرقة . .

تم ارسل يستدعي ثيودور باسمايوف ليسأله ثانية عن الاير اثناسي ،
فعاد الرسول وأخبره ان باسمايوف قد ظعن بالامس من قرية الكسندروفا
ووجهته موسكو . ولم يكن الملك يتوقع ان يغادر باسمايوف القرية بلا اذنه ،
فغضب عليه ايضاً وخامرته من جهة الظنون المختلفة

واغتتم ماليوتا هذه الهزة فقال له - وما أدراك يا سيدي اذا كان
باسمايوف غير متفق مع الامير اثناسي على العمل بدأ واحدة ضد جلالته ؟
واما وشايت بالامير فليست الا رياء منه . وما هما في الحقيقة الا متعاضدان
على نصب الاشراك والمكايد لاغتيالك

فاجابه الملك - قد يكون ما زعمت . وسيكشف لنا المستقبل كل ما
يظنون . ولكنني اطلب منك لان بقي جميع هذه الامور طي انكتمان ،
ولا تدع باسمايوف يعرف اني طبته في ثناء غيبته حتى لا يتنبه الى شيء مما يريد

الفصل التاسع والثلاثون

البارز

وكان في زف اليوم امضرب للمبارزة انفضائية التي امر بها الملك .
فلما أسفر صباحاً اخذ الناس يقدون الى الساحة الكبرى زرافات زرافات ،
وقد غصت نوافذ تبيرت وترغفها رستورج بالمتفرجين كل صفة .
وكان الخبر عن هذا النزاع قد ذاع منذ ايام في كل مكان وأقبل

الاهلوز من موسكو وضواحيها وسائر المدن والقرى المجاورة ليشهدوا
مبارزة بين رجلين لم يكن يجلبهما احد من الخاصة والعامة
وكان يرى بين الجماهير المحتشدة رجلان احدهما كهل قد ارتدى
اثواب المغنين وحمل بين يديه ربابة ، والاخر شاب قوي البنية مقتول الفضل
تظهر على وجهه لوائح البساطة والبلاهة ممّا . وكان الكهل يدفع رفيقه الشاب
بيده ويقول - هيا بنا نرحم الناس لنصل الى الحاجز ونبصر باكثر جلا .
وكان الشاب لا يكثر في بدء الامر لكلام رفيقه ، وقد سار صامتاً
يتمايل ذات اليمين وذات اليسار وينظر الى كل جهة ، ولكنه تنبه اخيراً
لاشارة رفيقه واندفع امامه يراحم الناس ويشق الجماهير وهو لا يلوي على
شيء . وكان بعمله هذا قد اثار سخط كثيرين من المتفرجين لانه كان يدفعهم
بمناكيره ويديه فيرميهم الى الارض غير مبال بشنائهم ولطمهم . . وكان رفيقه
يقول له - سرينة حيث ركزت الحراب

وكان المكان الذي اشار اليه يغني معداً للملك واخصائه ، وقد اقيمت
هناك منصة عالية قرشت بالجوخة يزمي ونصب عليها كرسي للملك وركن
حولها من جميع جهات حرب رجل لحرس الذين سموا اليهم خفاوة المكان .
وقد عينت فرقة اخرى منهم خرساة متواجزة حتى تقيه من ان يبرزوا
وكان جميع الحراس قهقريين . في مكانه لا يدعون احداً يدنو الى المكابين
وبعد الجهد والعناء وصل الرفيقان الى ميدان المبارزة واخذا يتفرجان
على الحراب ويتأملان الحواجز الحديدية التي تكتنف المكان من كل
جانب . فصاح بهما احد الحراس وقد رفع حربته في وجهيهما قائلاً - اجمعا
من هنا والا اذقتكما نوت الزؤام !

فنظر اليه الشاب وهو في غاية الذهول . ثم التفت الى رفيقه كأنه يطلبه
الجواب . فرفع هذا رباطه بين يديه ثم حنى رأسه للحارس وقال - دعنا
يا سيدي نتفرج على هذه المباراة العجيبة . فنحن من مدينة فلاديمر وقد
جئنا لنمتع ابصارنا ونطرب الناس بأناشيدنا وعزفنا
فقال له الحارس - فدا اذاً حيث اتما ولا تتقدما



وبعد قليل جاء الى ميدان البراز وكلاء الخصمين وشهودهما واثنان من
النبلاء وكاتبان وقد عهد لهم مراقبة المباراة والنظر في خطتها . . وبينما كانوا
يتباحثون ويتمردون الخطة التي يجب مراعاتها قرعت الاجراس وبوقت
الابوان ايذاناً بحضور الملك، وقد جاء راكباً جواداً كريماً ومن حوله رجال
الحرس محدقون به كالختم . ولما وصل الى المنصة ترحل من جواده ثم في
المنصة فحنى رأسه للشعب يمنة ويسرة وجلس في كرسيه وعلى وجهه السرور
الدعة والسرور

ولما تم كل شيء نزل الى الميدان من جهتين متقابلتين الامير انسي
فيازيمسكي ولنديل دروجينا موروزوف وكلاهما بالعدة الكاملة من الخيول
والدروع والسيوف وغيرهما من ادوات النزاع وكلها مرصعة بالاحجار الكريمة .
وقد ركب كل منهما جواداً مطيعاً غاية من الخلق والجواهر ما يأخذ بالفتن
ويهرق نراظر

وكان انسي ورفيقه لا يزالان واقفين بالقرب من انسي نيش ميدان
ويتعجبان ، وقد همس ذوا الربابة الى رفيقه قائلاً - اي الجوادين تفضل ؟

فرك الشاب جبهته وأشار الى جواد موروزوف
فسأله له رفيقه - ولماذا؟
فأجاب - لانه أكثر اكتنازاً من الآخر
فضحك رفيقه وسكت

وفي تلك اللحظة سمع في جميع اطراف الساحة اصوات المنادين بما
يأتي : « ايها الناس ! انكم مشاهدون الان مبارزة بين الامير اناسي
فيازيمسكي والنيل دروجينا موروزوف ، لان كلا منهما قد شكا الآخر
مدعيًا الحق لنفسه . . وها انهما الان برضى جلالة الملك وامره سيحكيان
بينهما السيوف فتتحلي الخفيقة لكل ذي عينين . . واما انتم فاسألوا الله
ان يظفر صاحب الحق بمخصمه وينصره عليه نصراً مبيناً . . »

ولما كان المنادون يهتفون بما ذكر مكنت الاصوات وتحول كل اثنى
المحشد هناك بأبصارهم وأسماعهم لتلايفوتهم شيء من هذا المشهد

ولما فرغ المنادون من كلامهم خرج احد النبيلين الواقفين في الميدان
و من منصة بدأت نأخى اهله رقال - قد تم كل شيء يا سيدي ،
فهي تأذن بالشروع في العمل »

ولما أجب الملك بالاجاب عاد ريس هيئة ثم تنحى
مع رفيقه والوكلاء واليهود وكاتبين الى بعض الاطراف واعطى
الاشارة الاولى

ركن الامير اناسي والنيل موروزوف واقفين ، وكل في صهوة جواده

يستعد لاقبال الموت وسيفه مجرد بيده . وكانا بيدين بعضهما عن بعض
ينتظران العلامة المؤذنة بالنزال . فلما اشار اليهما النبيل برقت في ايديهما
السيوف ولبثا ينتظران اشارة اخرى ليطبق كل منهما على الآخر حسب
اصول المبارزة المرمية اذ ذلك في مثل تلك الاحوال

غير انه قد حدث في تلك اللحظة امر غريب حال دون الاشارة
المنتظرة وقضى بهشة الجميع . . . وذلك ان الامير ثنائي ارتعد بقتة وامتعق
لونه ووقع من يده عنن جواده وكاد يهوي الى الارض ، لو لم يتداركه
شهوده وينزله عن ظهر الجواد . بيد انه ما لبث ان تاب اليه روعه فقال -
خذوا الجواد من هنا لاني لا اريد ان اقاتل راكباً

ونا رى موروزوف ان خصمه ترجل ، ترجل هو ايضاً واستعد
للمبارزة راجلاً . . . غير ان لاميرم كاد ينتصب للبرز و يأخذ السيف
بيده ستي استطكت ركته . . . وخارت قوه

هـ - شمس شهزده وركلوه ر ر له صرت واحد - ما بان ايها الامير ؟
تجاذوة بن خصمك بسيت اشمورة وادكت عرضة للسخرية وتسير
فيل - انزعوا عني عدتي فانها ثقيلة ولست اطيعي حملي

ونا بادروا الى مساعدته اقتزع من عنقه كيس لاعشب لذي - فذه
به الطحان وطرحه جانباً وهزل وهو يتميز غيضاً - تبا له حرقت . خدعتني
وم كاد استهود يتنحرون عن الامير حتى هجم عليه انيل موروزوف
وهو يقول - استعد لقضاء الله ايها الخائن الغادر ، فلا ذيقك المرات
الاحمر جزء خيانتك رغب . . .

ولكنه لم يستطع ان يصل الى خصمه ، لان الشهود والوكلاء عادوا فوقوا بينهما

فقال الامير وقد احمرت عيناه من شدة الغيظ - سأقيم عني بديلاً ، لان خصمي قد غمس سيفه في الماء المقدس لكايي وأهلاكي
وللحال تقدم شهود موروزوف وأثبتوا انخدال الامير وانتصار النبيل .
فرد عليهم شهود الامير قائلين - كلا لم ينتصر احد من الخصمين لانهما لم يتبارزا

واشتد بين الفريقين الجدل .

وكان الملك يراقب كل حركة . فرأى اولاً ما حل بالامير من الهوان فأيقن بنشأه . . ثم لحظ الكيس الصغير الذي انتزعه من عنقه ورماه الى الارض ، فأمر باحضاره ، ولما جيء به تفرس فيه قليلاً ثم ناوله للمالبوتا وهو يتبسم ويقول - احرص عليه . . فسألك عنه

ولما رأى اللجاج بين شهود الخصمين امر باستدعاء الامير اثناسي وقال له - يظهر ان لا طاقة لك بقاء موروزوف !

فأجاب الامير وصوته يتلثم وقد علت وجهه صفرة الموت - أسمع لي يا سيدي الملك ان أقيم بديلاً عني في هذه المبارزة ، لان جراحي تؤذي شديداً فلا أقوى على حمل السلاح

وكان طلب الامير منافياً لأصول البراز لأنه لم يعرضه قبلاً ، ولذلك كان من المتحتم عليه وقد قبل الشروط ان يبارز او يقر بخيائته . . غير ان الملك اجابه الى طلبه هذا لانه كان يضمر اهلاك النبيل ايضاً فقال - أدع من شئت ايتوم عنك بمبارزة موروزوف ، فان توقفت والا فاستعدت لختفك

فانصرف الامير من امام وجهه وهو يكاد يتعثر بأذياله . وبعد قليل وقف المنادون وصاحوا بأعلى الاصوات : « ان الامير اثناسي فيازيمسكي يطلب رجلاً ليقوم عنه بمبارزة النبيل موروزوف ، فان انتصرف له من الامير جميع ضياعه في ضواحي موسكو ، وان قتل فليأله ثروة الامير بكاملها . . . » فلم يجب احد من الحضور الى هذا النداء ، لان الجميع كانوا يستقذون صحة دعوى النبيل وغدر الامير . . . ولما طال الانتظار صمم الملك على اعلان براءة موروزوف والقاء القبض على الامير اثناسي . ولكنه سمع فجأة قائلاً يقول - قد وُجد من يدافع عن الامير ! فالتفت واذا بمتي خوميالك قد ولج ميدان المبارزة وهو يتأهب للنزال

الفصل الأربعون

« مصرع الباطل »

اما النبيل موروزوف فماكاد يرى امامه متي خوميالك احد خدام ماليوتا سكوراتوف حتى ظهرت عليه امار الاحتقار ، فأعاد سيفه الى غمده وقال للشهود - لا يليق بالنبيل موروزوف ان يبارز مثل هذا النذل . . . ثم أقبل على الملك وقال - لقد اذنت جلالتك لمدوي ان يقبض بدلاً عنه مستأجراً ، فأذن لي انا ايضاً ان أفعل كذلك ، وألاً فر بارجاء المبارزة الى ان يصبح الامير في حالة تمكنه من ذلك وكان طلب موروزوف عادلاً ، فلم يستطع الملك الا ان يجيب سؤاله فقال - اختر من تحب ، وألاً فاعترف بفيك واستعد للعقاب . . .

وكان متى خوميالك في اثناء ذلك يحول في الميدان وهو تارة يقتل
شاربيه ويتبسم تبسم الكبر والخيلاء ، وطوراً يلوح بسيفه في الهواء
ويقول بملء فيه - هاتوا لي رجلاً يبارزني! .. ابن الابطال؟ ابن رجال
النزال؟ فهل لاحد منكم ان يبرز الي؟ ..

وكان المغني ورفيقه حين أبصرا متى خوميالك في حومة النزال قد
شخصت اليه أبصارهما وقال المغني همساً - لو كان حسامي ممي لما نزل
اليه غيري ..

ثم عاد فقال لرفيقه - هن عرفته؟

اما رفيقه الشاب فلم يجب بشيء ، بل تقدم بأسرع من لمح البصر ،
فرفع بعض الحواجز ودخل الى باحة الميدان وانتصب تجاه متى وهو يقول
- انا لك!

ثم وقف مبهوتاً من هذه الجرأة ، وهو ينظر تارة الى متى خوميالك ،
وطوراً الى رجال الحرس ، وحيناً الى الملك . ثم تبسم وعرك جبينه
فتقدم احد النبيلين المرافقين وسأله - من انت ايها الفتى؟
فنظر اليه الشاب ولم يحرجواباً
فأعاد عليه النبيل السؤال مرة اخرى
فأجاب - انا توما! ...

فلما سمع النبيل ذلك لم يملك نفسه من الضحك ، فتركه وشأنه ..
حينئذ دنا منه النبيل موردوزوف وقال - أشكرك ايها الفتى لاقدامك على
نصرة الحق . فاذا أتيج لك وانتصرت على العدو فلك مني الجوائز السنية
وكي ما تصبو اليه نفسك .. فاثبت اذاً وليكن الله معك

اما متى خوميالك فما أبصر توما مقبلاً اليه حتى ارتعدت فرائصه وسرت
قشعريرة الى سائر اطرافه ، وذلك لانه عرفه ، وكان قد شهد قتاله في غياض
الجاهلية ، ولا سيما حين هجم عليه وضربه بهراوته فقتل جواده وكاد يبطش
به لولا حيلة وخفة وارتاء وفتحاً له باباً للنجاة . . غير ان متى لم يشأ الان ان
يظل خائفاً مذموراً فتجلد ووقف ينتظر ما سيكون

ثم تقدم احد النبيلين الى توما وقال له - قد جئت ايها الفتى للمبارزة
ولم تتقلد سلاحاً . . فيماذا تريد ان تقاتل ؟

فلما سمع توما ذلك عرك جبينه والتفت جهة رفيقه كأنه يريد ان
يشاوره في هذا الامر ، فلم يره في مكانه . وقد عرف القارىء ولا شك ان
هذا المنفي رفيق توما لم يكن الاً برستن زعيم اللصوص . فلما رأى ان توما
قد نزل للبراز خاف ان تستريب به العيون ، فترك مكانه وتناغل بين الجمع
المزدحم اخفاء لنفسه

اما اننبيل فلما رأى تردد توما ذل له - خذ سيفاً وعدة
ونازل خصمك

فلم يحبه توما ، بل عرك جبهته مرة اخرى واخذ يتفرس في رجوه
الناس باحثاً عن رفيقه . . وكان الملك يرى ذلك ويتعجب ، وقد دهش
للامح هذا الشاب وحركاته فلم يتمالك ان ضحك وقال - ألبسوه عدة
وليبرز للزال لترى براعته

فأحضر له اشهود خوذة ودرعاً وسيفاً وباقي ادوات الزل . غير ان
الخوذة كانت صغيرة جداً بالنسبة الى حجم رأسه ثم تنصت لآفته ، وكذا

الدرع كانت صغيرة بالقياس الى صدره وعرض كتفيه . . فتأنف توما
وعاد يفتش بنظره عن رفيقه ليسأله ماذا ينبغي له ان يفعل
فلما أبصره الملك على تلك الحالة المدهشة أغرب في الضحك . ولم
يبق في تلك الساحة الا من ضحك عليه . . فاحتدم توما وقال - ما بالكم
تضحكون ؟ . . اني أبارز هذا الرجل بدون هذه الاسلحة . .
ثم نزع عنه الخوذة والدرع وطرح باقي الاسلحة جانباً ووقف كالمتوه .
فازداد القوم ضحكاً وقد علت اصواتهم وكثر لعنهم . فقال له احد النبيلين
- وبماذا تريد ان تقاتل اذا ؟

فمرك توما جبهته والتفت الى جهة الملك وقال - أليس عندكم هراوة ؟
فصاح بعض رجال الحرس - من هذا الأبله الذي جاء يقاتلنا
بالهراوى ؟ أخرجوه من الميدان وانظروا غيره من ذوي القول الصحيحة
وكان الملك قد ازداد ضحكاً واستفزّه كلام توما ، فانهر رجال الحرس
وقال بأعلى صوته - أعطوه هراوة وليقاتل كما يشاء .
فلما سمع متى خوميالك ذلك دعر واصفر وجهه وقل للملك - لا تسمح
يا سيدي باحتقار عبدك الى هذا الحد . فمن هذا الفلاح حتى جاء يبارزني
بهراوة ؟ . .

فقال له الملك - دعه ينازلك بما يشاء . . اما انت فبارزه بالحسام
ومائر ادوات سلاحك . . ولنتظر كيف يتأني لهذا الفلاح ان يدافع عن
النبيل موروزوف . . !

لم يكن الا القليل حتى أحضرت بعض الهراوى والمصي الضخمة ،
فما توما يتناولها واحدة واحدة ، فيهرّها ويحربها في الهواء ثم يطرحها

جاءاً . . . ولما لم يجبه شيء منها التفت الى الملك وقال - أفلا يوجد أضخم
من هذه الهراوى ؟

فاستلقى الملك من شدة الضحك وأمر باجابة سؤاله

فأسرع بعض رجال الحرس يبحثون عن مطلوبه وما عتصموا ان عادوا
وقد حملوا هراوة ضخمة جداً . فتناولها توما وهزها بيده ثم رفعها وضرب بها
الهواء ، فسمع لها دوي كالرعد ، فتبسم وقال - الآن طاب لي القتال . . .
اما رجال الحرس فتذمروا ولم يكتفوا غيظهم وقد نظر بعضهم الى بعض
وهم يقولون - من اين برز هذا الشيطان الرجيم ؟ . . .

ولما خرج أشهود والوكلاء والنبلاز والكاتبان ، وبقي في حومة الميدان
توما ومتى خوميالك ، رفع توما كفيه ارتقل في يديه ثم نظر الى خصمه وتل -
استعد الآن لضربتي بها النذل الزنيم .. فسأله كيف تسبي العرائس . . .
وكان متى قد أيقن بالوبال وابت عليه اماثر الانكسار فلما رآه الملك
على تلك الحالة امر بالشروع في المدازة . وللحل رفع توما الهراوة فوق رأسه
وجعل يديرها بقوة ومهارة ، وهو يذنو من خصمه انمراً . . . وكان متى في
اول الأمر يرجو ان يذتهز من خصمه عرة فيصيبه بجراحه . غير ان
اجتهاده ذهب عبثاً ، فصار همه ان يتقهقر امام توما لينجو من هراوته . وكانت
هذه الهراوة ترسم حول توما دوائر كبيرة تقيه حسام متى وتجعله عزيز منزل
وكان المتفرجون قد مالوا الى توما وصاروا يتوثنون لتصارعه . بقدر
ما كان الملك ورجال الحرس قد ساء بهم ما كانوا يفتخرون به بالاجادة فقط . . .

ولبت توما يثب بهرايته نحو خصمه ، وهو يهدده بكل ويل انتقاماً
لعروسه التي سبها . . وكان قد دخل في طور الاحتدام والغضب ، وأخذ
يجهد أن يصدم خصمه في رأسه أو كتفه أو رجله أو جنبه أو ظهره . .
والناس يظهرون استحسانهم وارتياحهم بتصفيقهم المتواصل ، وقد ارتفع بينهم
صياح الإعجاب وجملوا يراهنون على فوز توما وهم غير متبهمين لاستياء الملك
ورجال حاشيته

وظل توما يتبع خصمه بحفة اللب حتى ضايقه أخيراً ولم يبق لمتى
باب للفرج . فحمل توما عليه حملة عنيفة وضربه بالهراوة ضربة سمع لها
دوي شديد ، فهوى متى الى الارض لا يمي شيئاً . واقبض عليه توما فجثا
على صدره واخذ يعركه ويقول - لقد انتقم منك ايها التنذل وأخذت
بثأر عروسي . . .

ولما صرع متى علت اصوات الجماهير سروراً واستحساناً . فنظر اليهم
الحراس شزاراً وهم يصرفون عليهم باسنانهم ويتوعدونهم بكل شر
وكان مالبوتا سكورا توف حالماً سقط متى قد بادر الى الملك وهو كمن
قد رشده وقال - ان متى خوميالك يا ولدي من احسن رجال فرقة
الحرس . فاسمح ان نخلصه من هذا الشيطان لئلا يطحن عظامه
فأمر الملك بذلك بعض الرجال ، فأسرعوا الى متى وسحبوه بكل جهد
من تحت توما . . ولكنه كان جثة باردة . . .

ولما كان الجميع لاهين بهذا المشهد وقف الى جانب توما رفيقه المغني
(برستن) وقال له همساً - ما بالايه لا تزال راقفاً هنا ايها الفأفة الثقيل ؟
فاتبني حالاً وانج بنفسك . . .

ثم اختلسا أنفسهما وانسلّا بين تلك الجماهير فلم يشعر بهما احد

الفصل الحادي والاربعون

« الحكم على الامير اناسي »

وكان بعد ذلك ان دعا الملك النبيل موروزوف . فسكت الناس وشخصوا بأبصارهم ، فرأوا الملك قد وقف احتفاء بالنبيل ، ثم سمعوه يقول له - لقد شاء العدل الالهي ان تقتصر ايها النبيل على خصمك ، وبذلك أعيدت كرامتك وأيدت براءتك علناً امام جميع هذه الخلائق . . فاننا أهنتك وأعدك خيراً وأسألك ان لا تبرح من قرية ألكسندروفا قبل الوقوف على ما أريد

نخراً موروزوف على الارض وهو يشكر الملك كثيراً ويدعو له بالعمز والتأييد

ثم امر الملك باحضار الامير اناسي فيازيمسكي . ولما جيء به ألقى عليه نظرة طويلة كمن يريد ان يحترق أعماق قلبه ليطلع على خفاياه . . وبعد ذلك خاطبه قائلاً - لا شك انك غير ناس شرطي ، وتعلم اني لا أحيد عن انفاذ كل كلمة او كل امر يصدر مني . . وقد حكمت بالموت على من يغلب منكما في ميدان المبارزة . . ولما كان النبيل موروزوف قد انتصر عليك انتصاراً مبيناً وأظهر الله بذلك خيانتك وكذبك فقد استوجبت الموت العادل . . فهل لك كلام تقويه ؟

فاجاب الامير وقد لاحت على وجهه علامات اليأس - اني مستعد

لشرب كأس الحمام .. فربقطع رأسي لا نجو سريعاً من عذاب هذه الحياة
فبدت على وجه الملك ابتسامة غريبة وقال - نعم انك تستوجب
الموت .. غير ان لك جريمة اخرى تقتضي عقاباً اشدّ هولاً من الموت ..
ثم وجه كلامه الى مالبوتا فقال - ابن الكيس الذي عهدتُ
اليك في حفظه ؟

فتقدم مالبوتا وناولوه اياه . فأخذه الملك ونظر الى الامير قائلاً -
ما هذا ؟

فارتجف الامير وجهه نفسه ليتكلم .. فقاطعه الملك بقوله - ايها
العبد المارق ! لقد قرّبتك الى عرشي وفلذتاك اكبر مناصب الدولة وغمرتلك
بكل نعمة ، ولكنك عفتني وسعيت في اذيتي بأشراكك وجباثلك ، ولم يكن
هملك الا اتلافي بمنل هذه الاعشاب السحرية ..

قال هذا وأدار نظره في الجماهير ثم عاد فقال للامير بصوت عال -
ولقد شقّ عليّ ذلك جداً لاني انا احد كبار حاشيتي وقد عشت في كنف
متمتعاً بكل غطة ونعيم ، فما الذي دعاك وغرّرك الى السقوط في هذه
التهلكة ؟ .. ولم يكن في حسبي ان يظهر مثل هذا الشرّ في احد رجال
الحرس الذين اصطفيتهم لمساعدتي والقيام بتشيئتي ... فاننا مثل رب الكرم
وقد اختارني الله لحفظ هذا الكرم من كل فساد ، فلما رأيت ان الاشراف
والنبلاء والكابر القوم لا يريسون ان يساعدوني بل تأمروا عليّ أخذتُ
منهم الكرم وسلمته لافعة آخرين ، وهؤلاء الافعة هم رجال الحرس . فالذين
دعوتهم الى وثيتي ليكونوا معي يدأ واحدة في العمل وقد تهاونوا وأبوا ان
يأتراسهم غير اهل الدعوة ، وأرسلتُ عبيدي الى مفارق الطرق يدعون

الى كل من وجدوه ، فخلت واتي بهم . وهؤلاء ايضا هم رجال الحرس
الذين لبوا الدعوة

ثم نظر الملك الى الناس وقال - والان أسألكم ماذا جرى لذاك
الرجل الذي وجد بين المدعوتين وليس عليه حلة الحرس ؟ ... لا شك انكم
تقولون انه قد استوجب عقاباً أليماً ، لان الخدّام أوثقوا يديه ورجليه
وطرحوه في الظلمة البرّانية حيث يكون البكاء وصريف الاسنان ...
وكان الناس يسمعون كلام الملك وهم صامتون مبهوتين كأنّ علي
رؤوسهم الطير ... ولم يكن بينهم من تحرّك في قلبه عاطفة الشفقة على
الامير اناسي لكثرة ما عرف به من انصاف والمتوّ

اما رجال الحرس فقد ارتسمت على وجوههم امراً الخوف والاضطراب
ولم يحسر احد منهم ان يقول كلمة للدفاع عن الامير . غير ان اثنين منهم
ظهرت على وجوههما علامات الانتصار واثماتة وهما مايتوتا سكوراتوف
ونودور باسماوف ، وكان الاول منهما ينتظر بفارغ الصبر صدور امر الملك
باقضائه على الامير ، والثاني يمزو ذلك كله الى الاعشاب السعريّة التي
سلحه بها الطحان والتي أيقن انه سيدرك بها ذروة السعادة والعز . .

واما الامير اناسي فظلّ صامتاً وقد حنى رأسه على صدره ولم يرد
ان يقول شيئاً لتبرئة نفسه مما نسب اليه ، لأنّه كان يعرف صلابة الملك
واستبداد رأيه

ثم قال الملك للماليون ولمس كانوا حوله من رجال الحرس وهو يشير الى
الامير اناسي - ولان خنوا هذا "رجل من اممي" . تيدوه واطرحوه

في ظلمة السجن الى جانب اللص (يريد كرشون) الذي دخل مخدعي في
تلك الليلة المشهورة . . واني سأحكم عليهما بما يستحقان
ورفع بعد ذلك بصره الى السماء وقال - لا تؤذلي ايها الاله الرحيم !
بل وطد ملكي وأظفرتني باعدائي وانداء البلاد ليسود السلام وتتمتع الرعية
بالراحة والسعادة

ولما قال هذا نزل عن المنصة ، فامتطى صهوة جواده وعاد الى قصره
ومن حوله رجال الحرس صامتون خائفون
وللحال، تقدم مالبيوتا الى الامير انثاسي ويده جمل طويل فوثق
يديه وهو يقول مستهزئاً - عفواً يا مبديء الامير اذا كان فيما قهله ما
يوجب غضبك علينا ، فثما نحن مأمورون بهذا . .
ثم خفره ببعض الجنود وقاده الى السجن
واخذ الناس بعد ذلك ينصرفون كل الى منزله ، وهم في حديث ما
جرى في هذا النهار من الامور العظيمة . . وما هي الا ساعة حتى كنست
تلك الساحة فلم يبق فيها احد

الفصل الثاني والاربعون

« الحكم على باسمازف »

كان الامير انثاسي فيزيمسكي يقاسي في سجنه الآلام بهرحة وهو
يرجو ان تنقضي ايام المحنة ويحل اليوم المضروب لمقابله لينجو من هذه
الدنيا غير آمن عليها . . وكان مالبيوتا يتردد عليه بأمر الملك فيستضيفه ،

وهو يود أن يرغمه بسائر أنواع العذاب على الاعتراف بالمرور من طاعة الملك والتصميم على اغتياله ، أو ليحمله على الإفشاء بنير هذه الأسرار . .
بيد أن الأمير لم الصمت التام ، وقد احتمل كل ضروب العذاب والامتحان صابراً وفي قلبه نار آكلة ، حتى أنه لم يذكر ثيودور باسماتوف ولا أشار إلى ترده على الطحان

وكان الطحان قد قبض عليه بأمر الملك وأودع السجن سراً وأمر ماليوتا باستنطاقه واستجلاء غوامض أسرار واسرار غير الأمير اثناسي من رجال الملك الذين كانت لهم معرفة به

وأما ما كان من أمر ثيودور باسماتوف فإنه طار فرحاً وانشرح صدره لمصيبة الأمير اثناسي وشعر بأنه قد امتلك ناصية الكون وأدرك أوج السعادة لأنه تخلص من أحد أعداده ونظرته ، ونسب ذلك إلى قوة الأعشاب التي كان يحملها في عنقه ويحرص عليها حرصه على حياته . وقد أمل أنه بقوتها الخارقة سيفوز على جميع أعدائه ويسقيهم كأس الردى . .
وكان الملك يلاطفه ويظهر له المودة والانعطاف ، وهو في الحقيقة يكرهه وقد مال عنه منذ زمان . .

وفي ذات يوم خرج الملك بدمائه وأخصائه رجالاً من قرية الكسندروفا وقصد إلى دير في ضواحيها لزيارة والتبرك . زكن في جملة بطاقته ثيودور باسماتوف وأبوه الكسي وغيرهما من زعماء رجال الحرس إلا ماليوتا فإنه لم يكن معهم . فلما علم رئيس الدير بقدوم الملك خرج فاستقبله بغاية النجدة ورحب برجائه ودعاهم جميعاً لتناول الطعام

وكان الملك في ذلك النهار طيب النفس منشرح الصدر ، فلاطف

ندماه واكثر من ممازحتهم ومساييرهم ، وقد نال ثيودور باسمانوف من ذلك أوفر نصيب .. وبينما هم على مائدة الطعام سمع صوت وقع حوافر جواد في فناء الدير ، فقال الملك لثيودور - أنظر من القادم ؟

ولم يكذ ثيودور يفتح الباب حتى ظهر ماليوتا سكوراوف مذعوراً وهيئته تدل على انه قادم بمهمة خطيرة . فلما رآه باسمانوف في تلك الحالة ذعر وعاد الى مكانه وهو ممتنع الوجه مضطرب الحواس

وكان الملك قد بش لما ليوتا وهو يظهر ارتياحه لمجيئه وقال - عسى ان يكون قدومك في مثل هذه السرعة خيرا . فما وراءك ؟

فانحنى ماليوتا امام الملك ثم دنا من رئيس الدير وسأله ان يباركه .. وبعد ذلك نظر الى ثيودور باسمانوف شزراً وقال للملك - كنت الآن في السجن وقد قت باستنطاق الطحان الساحر فوقفت منه على اسرار اخرى غاية في الاهمية

فقال الملك وقد اتسعت حدقتاه - وبماذا أقر الساحر؟ أخبرني حالاً وإياك ان تخفي شيئاً

قال - انه سرد علي حديثاً طويلاً مفاده ان الامير اتناسي فيازيمسكي وشخصاً آخر من رجال البلاط كآما يختلفان اليه ويطلبان منه الاعشاب السحرية تنفيذاً لما ربهما الشريرة ومقاصدهما السيئة

فلما سمع ثيودور باسمانوف ذلك ارتجف وظهرت عليه لوائح الرعب والاضطراب .. اما الملك فمبس وقدحت عيناه شراراً . ثم سكن جأشه وقال - ومن هو هذا الشخص الآخر الذي كانت له هذه العلاقة بالساحر ؟ قال - هو ثيودور باسمانوف نفسه

واذ سمع ثيودور ذلك نهض وقال وهو يجهد في اخفاء ما حل به من
الرعب - لا تصدق ياسيدي الملك ذلك وما الطحان الا كاذب في دعواه ..
فهو اذ علم بانى كنت السبب في الفاء القبض عليه وايداعه السجن عزم على
ان ينتقم منى بمثل هذا الاقتراء.

فلم يجبه الملك بشيء ، بل نظر الى مالبوتا وأشار اليه ان يمضي في
حديثه فقال - وقد أخبرني الطحان ايضاً بان ثيودور باسماوف كان أشد
الحاحاً عليه من الامير اثناسي في طلب الاعشاب السحرية بقصد ائتلاف
جلالته .. وهو يحملها في عنقه
فهز الملك رأسه وتنفس طويلاً ..

اما ثيودور فاستطير له جزعاً وخاطب الملك قائلاً - رحماك يامولاي!
فكل ذلك ترهات وأوهام يقصد بها نكايي واذلا لي .. وانا لو كان لي
أدنى تدخل مع الطحان لما سعت به اليك

فقال الملك - لسكل شيء بينة . فأرنا ماذا تحمل في عنقك !
اجاب - ولكن ياسيدي ليس في ذلك ما يهلك ان تراه ..
فهناك صليب وبمض ايقونات صغيرة
قال - لا بد من رؤية كل ذلك

فكك باسماوف الازرار المالية من ثيابه ، ويداه ترتجفان وقبة يخفق
خفقاناً شديداً . ثم أظهر للملك "صليب والايقونات غير ان الملك لحظ ايضاً
شيئاً آخر كان ثيودور يجتهد في اخفائه بين اثوابه . فقام ومد يده الى
صدره وأخرج كيساً صغيراً كان محتقاً في عنقه . فتناوله وقلبه بين يديه وهو
يقول - فما هذا اذا ؟

فقال باسمانوف وقد طار رشده - هذا بركة والدني ..
فنظر الملك اليه شزراً ثم ناول الكيس للماليوتا قائلاً - فكه لترى ما فيه
فأخذه ماليوتا وفكه ثم أخرج منه اعشاباً وجذوراً صغيرة وعظام
ضفدعة .. ووضع ذلك كله على المائدة

واذ رأى الحضور ذلك دهشوا ووقفوا حيارى . وقد ارتعد رأس
الدير وأكبر هذا الامر وابتعد عن نيودور باسمانوف وهو يصاب ويجمجم .
اما الملك فما رأى محتويات الكيس حتى انقلبت سحنته فحفظت عيناه
وتطاير الشر من مقلتيه . ثم نالك روعه وقال لباسمانوف - أبهذا
إركسك والدتك ؟

فوقع نيودور على الارض من شدة الهم وقول بصوت مرتجف - اصفح
عني ياسيدي ولا تظن بي سوءاً . فما انا الا عبدك المخلص وخادمك الامين ! .
اما هذه الاعشاب فلم أطلبها الا لاصلاح شأني واستعماده ارتياحك الي ،
لاك في هذه المدة قد تغيرت على عبدك ولم تعامله بما عودته من
الحبة والمغلف

فقال الملك - واي شأن لمظام انضفدعة بين الانشاب ؟ وماذا قصدت
بها سرى اغتيالى ؟

قال - حذيتك ياسيدي الملك .. فار لم أدر بوجودها في الكيس ..
واني أقسم على ذلك أعظم الاقسام

فالتفت الملك الى ماليوتا وقال - انت تقول ان الساحر قد أفضى
أبلك بان نيودور كان يتردد عليه بقصد الايقاع بي

فأجاب ماليوتار وهو يخفي في صدره فرحاً لا مزيد عليه - نعم ياسيدي
هو ما تقول

فقال الملك لباسمانوف - بقي ان نجعلك بالساحر ونحملك على الاقرار
الصادق لئلا يقال ان الملك يعاقب الناس أجمعين ما عدا رجاله الاخصاء
فانه لا يمسهم ولو فعلوا جميع انواع المعاصي والآثام . . وعليه فلا بد من
امتحانك وحملك على الاعتراف الصحيح بهذه النواصير والافصاح عن
جميع هذه الاسرار

فترامى باسمانوف عن قسبي الملك وقال - رحماك يامولاي . . اسمع لي
ان أعطيت رحمتك هذه مرة فقط ، ولا تدع عبدك الامين يساق الى موضع
المذاب . . بل اصنع لي واذكر اني خدمتك ولم أخالف لك ارادة
فأعرض الملك عنه ولم يجبه بشيء

فدنا يودور - يح في اية سكي وقول - اشمه شيء . . وثدي
واسأل الملك ان لا يرذلني ربه فبني ويشمت بي اعدائي
فقال له يودور - أعرب عني ايها العقوق . . فست ابني ولا اعراك ما
دام نسب الملك حلالاً عليك

فترك يودور اباه ووقع على قدمي رئيس الدير وهو في شبه سلات
اليأس والحنوط وقال - ايها لاذب صاخب . . اني بئس ياك ان تستمد
لي المنع من جلالة مذات

وكان لرئيس وثقة لا يجرؤ عليه فطرق ضربه الى الارض وهو لا
يلدري ما يقرل

فقال الملك لثيودور - دع الرئيس وشأنه .. اما اذا كان لا بد من سؤاله فاننا نسأله ان يحتفل بختام تلك والدعاء بفقران خطاياك ... فلما رأى باسماثوف ان الملك لا يدعن ولا يلين أيقن انه هالك لا محالة ، لانه لا يستطيع ان يحتمل ضروب العذاب والامتحان ولا سيما من يده مليونا سكوراتوف وهو عدوه الازرق .. فهض من ساعته وقد تغيرت فجأة ملامح وجهه فأصلح جدائر شعره الذهبي وقال - هاءنذا منطلق الى موضع العذاب والنكال .. فألف شكر لك ايها الملك على عطفك وحبك ... اتي لم أضمر لك سوءاً ولم يخطر في ذهني قط ان أخالفك في شيء ... واما الذنوب التي تعرفها والتي لم يطلع على شيء منها احد من الخلق فانت سببها وسيحاسبك الله عليها ، وسوف أتلوها انا على الشعب يوم أؤد الى النطق . ثم التفت الى رئيس الدير وقال - والان تقض ايها الاب العديس فاسمع اعترافي ...

وما فاه بهنذا حتى انقض عليه رجال الحرس ولم يدعوه يتم كلامه بل أخرجه قسراً من الردهة ثم أوثقوه وأركبوه جواداً ، وسافه بمذ ذاك ماليرتا ووضه منهم الى قرية ألكسندروفنا وهناك زجوه في السجن وتنفس الملك تصمساء بعد خروج ثيودور ، ثم التفت الى رئيس الدير وقال - أريت أيها الاب كيف ان الاعداء يحقدون بي من كل جانب ؟ أريت كيف ان لي من خواص رجالي اعداء قاموا خفية لمناضتي بقصد تنقيص عيشي واطلاكي ... فصل لاجلي ... فصل لاجلي ... لاجلي ... انذار على جميع المدائي المنظورين وغير المنظورين ويرد عني كيدهم ويساعدني لأستأصل من البلاد جرثومة التمساد والخيانة ..

قال هذ ونهض فودّع رئيس الدير وخرج مع حاشيته ، فركبوا خيولهم
وساروا يقصدون قرية الكسندروفا . فشيعهم الرئيس والرهبان وهم يدعون
للملك بدوام اتنايد

الفصل الثالث والاربعون

طيلسانه المنجاة

اما كان من امر نبيل دروجينا موردوزوف فهو انه بقي في قرية الكسندروفا
ينتظر امر الملك ، ولم يكن همه الا ان يعرف مقر زوجته . فكان يقضي الساعات
الطوال وهو يفكر في امرها ، الى ان جزم اخيراً انها محتبثة في بعض
الاماكن تنوء لقياءه .. وكان كلما تذكرها يخطر في باله الامير نكيتا ،
فيذكر ما أجبره لاجله في تلك الليلة المشؤومة حينما هجم عليه الامير ثامسي
فيازمسكي برجله فللقام الامير نكيتا بشدة بأسه ودافع عن نبيل دفاع
الابطال المجريين وألهم بسبب ذلك في نسجن .. وكان النبيل قد سمع
بفرار نكيتا فودّع ان يهتدي اليه ويجمع به لانه لم يعد من ذلك الحين
يسمع عنه شيئاً

ومنا عاد الملك من زيارة الدير أرسل اثنين من حجابيه يدعوان النبيل
موردوزوف لتناول الطعام على مائدته . فسرّ النبيل بهذه الدعوة وأيقن بانتهاء
المكارة وأمل ان يعود بعد يوم او يومين الى موسكو فيبحث عن زوجته
ويحدد بناء قصره ويأري اليه مع حاشيته وذويه آمناً مطمئناً

وما عثم ان ارتدى انخرأوابه وبادر الى قصر الملك وهو خلي البال
طيب القلب لا يعلم ماخبأه له القدر

ودخل ردهة الطعام فوجدها غاصة برجال الحرس . وكانت الموائد قد
أعدت وبسطت عليها ادوات الطعام . ولم ير النبيل في الردهة غيره من
الشرفاء والنبلاء ، فزعم ان الملك انما اختصه بهذه الدعوة تكفيراً عما سبق له
معه من المساوي . فجلس في بعض جوانب الردهة وعلى وجهه امانر
الدعة والسرور

ولم يمض عليه في تلك الحالة الا القليل حتى سمع قرع الاجراس وفتح
الابواب ، فلم ان الملك قد خرج من مخدعه ليسير الى ردهة الطعام فتحفز
للافاته . ولم يلبث ان رآه مقبلاً وقد بت على وجهه لوائح الدعة والسرور
يحف به رجاله وفي جملتهم الاب ليفكي وفاسيلي غريازنوي وألكسي
باسماتوف ووريس غودونوف وماليوتا سكوراتوف

ول دخل حتى رأسه بالحضور ثم جلس في كرسيه وجلس رجاله كل
في مكانه . ثم بدأت جميع الكراسي لا رحداً بازاء كرسي بوريس
غودونوف وبعده في اترية . فنزل الملك الى انبيد موروزوف وبش له ثم
أشبه الى الكرسي الفارغ وقال - اجلس هنا ايها النبيل !

فسعد الدم الى وجهه . وزرف وقال - يشق علي ايها الملك ان أغير
من عاداتي القديمة . وما ابي قد طئت في السن ولم أرض قط بالمذلة .
دعني عني ان أتعرض مرة اخرى لسخائك وطرديك اياي من امام وجهك
من أن اجلس بعد بوريس

في بي منازلنا

رجالنا وأمرنا

عن مـمازحته في اوقات فراغي من الصلاة والعمل ، لان الانسان يميل
بالطبع الى تفكيه خاطره ببعض المـلاهـي والمـضحكات . والحق يقال انه من
يوم وفاة نديمي (نوغتيف) الحـجـان (المهرج) لم أسمع من احد منكم شيئاً بـسـري
الـهـموم ويـجـلـو صـداً للـقـلب . ولعلّ النـبـيل مـوروزوف مـا هـر بـهـذه المـهـنة وهـو
يـسـمـى اليـها مـنـذ زـمـان . ولقد وعدته بالنعم السنية . . فلا أرى أفضل من
تـعـيـنـه في بـلاطـي اول النـدـمـاء والمـضحكين ، وهـا انـي أخـلـع عـلـيـه ايضاً
طـيـلـسـان نوغـتـيـف الشـهـير فـلـعـلـه يـرجـع اليـه الـافـكار الثـابـة

ولما قال هذا التفت الى فاسيلي غريازنوي قائلاً - اذهب أحضر لنا
الطـيـلـسـان لنـتـسـلى وتـفـكـه ، لانـي أراني في أشد حاجة الى التـسـلـية . .

سمع النـبـيل مـوروزوف كـلام المـلـك فجـرى "رعب" فـمـ انـضـاؤه مـجـرى دـمـه
في عـروقه ، فألقى على المـلـك نظراً حاداً ليتـحـقـق صـحة عـزمـه ، فقرأ في وجهه
تـصـمـيماً على ذلك فكاد يـجـنّ من شدة التـهـيج والغضب

اما الحـضـور فـكـانوا جـالـسين ساكنين وقد هـالـهم الامر ولـبـثوا يـنـتـظـرون
ما سـيـكـون ، وهـم يـتـوقـعون ان يـروا مـشـهـداً فـظـيماً ، وقد أيقنوا ان المـلـك
سـيـتـخـذ هـذه الفـرصة لـصـب جام انتقامه على رأس هذا "شيخ

وكان فاسيلي غريازنوي قد خرج في هذه الاثناء من ردهة الطعام ،
وسالـت ان عـاد يـحـمل بين يديه ثوباً كـلـه قطع صغيرة من الجوخ والقـطـيـفة
متـصـلة بـمـضـها بـعـض ومـخـتـلـفة الـالـوان ما بين احمر وابيض واسود وازرق
واصفر وغير ذلك ، وقد علق بأطرافه كلها دفوف وعدد لا يحصى من
الاجراس الصغيرة . . .

بهذا الثوب تقدم فاسيلي غريازنوي الى موروزوف قائلاً - تفضل

ايها النبيل وارتد هذا الطيلسان الجميل .. فقد تمطف جلالة الملك عليك
بهذه النعمة لتكون خلفاً للمجان نوغتيف !

فلما سمع موروزوف ذلك صعد الدم الى رأسه وصاح بفاسيلي -
اخرس ايها الوغد فاني آف ان أجعلك مع كلاب غنمي ! .. اغرب من
وجهي ايها النذل ولا تجرؤ ان تمس النبيل موروزوف الذي لم يكن اجدادك
وأباؤك الا خدماً وحشماً عند اجداده وآبائه ..

ثم التفت الى الملك وقال بصوت يتلجلج من شدة الانفعال - ارجع
عن كلامك ايها الملك ومر باعدامي لانك حر في ذلك ، واما الشرف فلا
نمسة لاني لست حراً فيه !

فنظر الملك الى رجلى الحرس وقال - قلت لكم ان النبيل موروزوف
يحجب الممازحة والمجون .. فهو يقول اني لست حراً ان أنعم عليه
بهذه الطيلسان

فقال موروزوف والجلال برافق كلماته - ايها الملك ! اني باسم الاله
العزيز أسألك ان ترجع عن دزمك ، فاك لم تكن قد ولدت حينما كان والدك
ينعم على لاجل الاعمال العظيمة التي بها خدمته وخدمت البلاد . فاما الذي
قهرت اعداء الوطن في حروب ومواقع لا تحصى . وقد طهرت جهات نهر
أوكا من عيث الترو ودرتهم عن العاصمة . ثم أنقذت مدينة تولا ومزقت
الاعداء حولها شر ممزق ، وفملت غير ذلك مما لا يمكنك ان تنساه ولا
للأمة ان تنجده .. ولتجرحت كثيراً وسال من دأبي كثير في سبيل
الخدم الباهرة الكثيرة التي أدتها لبلاد . ولم أكن لأحفل بحياتي ، بل
كنت أتمرّض لجميع انواع الخطر غير هيب ولا وجل .. وكم دأمت عن

والدتك حين كنت طفلاً ، ثم عنك يوم كانت الاحزاب تتقاذفك وتعبث بك . ولم يكن همي حتي الان الا خدمة البلاد والمحافظة على شرفي وكرامتي .. فكيف تريد انت الان وهذه حالي ان تحتقر شيبتي وتشين شرفي وتلحق بي هذه الوصمة ... وعليه قرر الان ايها الملك بمعاقتي . مر فأسير الى النطم بالفرح والفخر كما كنت في السابق أسير الى مبادين الوغى ..

وكان الجميع يسمعون كلام موروزوف متعجبين وقد أدهشهم قوة حجته وشدة لهجته . غير ان الملك لم يتأثر لكلامه بل ثار غضبه عليه وقال - كفالك اعتداد نفسك ايها الشيخ المهذار . فان هذيالك بدل صريحاً على انك فكاه ماهر ومزاح بارع . فلبس هذا الثوب وأرانا راعتك وحذفتك ثم انتت الى جبال حارس قذراً - وما اتم من عذراء في ذلك . لانه تعود ان يخدم ..

ولو ان موروزوف أظهر بعض انخضوع لامر الملك او وقع على قدميه مستعطفاً لمفاعنه لاحالة .. غير ان هذا النبيل كان بعيداً عن كل تراف وتذال ، وكان كل ما في هيئته وحركاته بدل على عزة النفس وعظمة الذات . ولم يكن ذلك يوحى يطبق شخصاً هذه صفاته . بل كان يريد ان يتصاعر له جميع الناس ، ويكونوا اسفله ذللاً خاضعين يغذون لقل اشاراته ويدعنون لاقول اوامره

الفصل الرابع والاربعون

« الحديث ذو شجون »

وفي اقل من لحظة خلع رجال الحرس عن موروزوف ثيابه ثم البسوه

حليسان الحبان وهو واقف بينهم في تمام الخضوع والطاعة لا يقاوم ولا يعارض . وكانت افكاره ساجدة في عالم الخيال ، فلم يشعر الا وقد ابتعد عنه الحراس وهم ينظرون اليه ويضحكون . ثم تقدم اليه فاسبلى غريازوي ويده قبعة طويلة بألوان لا تحصى ، فوضها على رأسه وانحنى له قائلاً - ايها النبيل دروجينا موروزوف ! اننا نهتثك بهذا المنصب الجديد ، ونرجو ان تطرفنا بنوادرك ونكاتك كما كان يسلينا سلفك المرحوم نوغتييف

فرفع موروزوف رأسه وأدار نظره في الحشد ، ثم زفر زفرة حارة وقال برباطة جأش - اني اشكر للملك هذه النعمة الجديدة وأرجو ان أحسن القيام بتمثيل دوري . فتنحوا ايها الناس ودعوا الحبان الجديد يدنو من الملك .. فقد عزمت على ان أفكه خاطره بما لم يسمعه قط من غيري من النكات المدهشة والنوادير المضحكة ..

وكانه - سحر الحضور بهيئته وكلامه فتراجموا عنه الى الجانبين ، وسار هو بمنتهى العظمة والجلال كأنه مرتد حلة ملكية ، لا ثوب عجان بالاجراس والدفوف .. ولما اقترب من الملك جلس تجاهه ثم ألقى يديه على المائدة وشخص بصره اليه وقال : - « كيف تريد ان افكهك ايها الملك ، واتي شيء يطربك ؟ .. لان الذي جرى في البلاد ، منذ تبوئك سرير المملكة من الفكاهات ودواعي الطرب ، لا يقع تحت حصر .. ففي اول عهدك ، وانت غلام ، كنت تلهو بتعذيب الحيوانات وقذفها من نوافذ القصر وشرفته . ثم انتقلت منها الى تناس فكنت تطلق عليهم الدبة .. واذا خرجت راكباً للزهة ومعك أترابك من ابناء النبلاء كنتم تدوسون يجيادكم الجهادير من الشيوخ والنساء ولاطفال في اشوارع ومعاطف الطرق ولا تبالون .. »

« غير ان ذلك لم يكن الا لهواً صبيانياً لم يلبث ان أضجرك فعدت الى غيره ثم الى غيره من هذه الملاهي الكثيرة ، وانت تنتقل من رذيلة الى أذل ومن منكر الى أنكر ، على ما تسوقك اليه حالتك وأهواؤك . . . » فلما سمع رجال الحرس ذلك الكلام تحفزوا للوثوب على النبيل موروزوف وتقطيعه ، غير ان الملك منهم بإشارة منه ، فلبثوا في أماكنهم وقد ملكتهم العجب والاستغراب

ومضى موروزوف في حديثه فقال - « مات والدك وانت في سن الثالثة من العمر ، فكففتك والدتك وتولى امرك النبلاء الى ان آل الامر الى آل شويسكي . ولم يحسن هؤلاء الأوصياء تربيته ، بل تركوا لك الجبل على الغارب واتهموا بما كان نسباً بينهم وبين غيرهم من الأحزاب الاخرى من المنافسات والمنافرات ، فتموت على القسوة والفظاظة والشر ، وزاد ذلك فيك بعد موت والدتك وانت في سن الثماني سنوات »

« وبلغت السنة الثالثة عشرة من العمر وانت لا تعرف من شؤون الملك الا الصيد والقتل والمآذب والقصف والخلاعة على انواعها ، فشيت غيباً جاهلاً كما شيت ظالماً غشوماً »

« وآل امر الوصاية عليك الى أخوالك امراء آل غلينسكي ، وكانوا قد اتصروا على خصومهم ومزاحمهم ولكنهم ساروا بك في طريق الضلال كما سار غيرهم وتركوك وشأنك اذ لم يكن يهتمهم الا ظلم الرعية وابتزاز اموالها . وقد أوغروا صدرك على الامير اندراوس شويسكي وكان من القيمين عليك قدامهم ، فأمرت به فربط وطرح للكلاب فزقت بدنه والناس يبصرون ولا يجسر احد ان يتقدم للدفاع عنه . . . »

« وساءت احوال البلاد في عهد آل غلينسكي وكثرت الدسائس والفتن والمظالم حتى زهقت الارواح وعمت البلوى . وكنت انت لا تزال منصرفاً الى ملاهيك تطرب للشر ولا تشبع . . وقد رغبت في تلك الاثناء الى جمهور من مشاهير الرجال في الانحراط في سلك الرهبنة ، ولما فعلوا مددت يدك الى نساءهم وبناتهم وفعات ما تنجبل الانسانية من ذكره . . وكنت تكثر من الرحل في البلاد ، لا للوقوف على احوال الرعية بل لثرقها بالاتفاق على الاحتفاء بك وبمحاشيتك الكبيرة وتقديم الامول والهدايا لك ولرجالك »

« ولما بلغت السابعة عشرة أعلنت عزمك على خلع انوصاية والتفرد بالحكم . ثم أمرت فجئ اليك بأجل فتيات البلاد ، فاخترت واحدة منهن لتكون زوجة لك ، وهي الملكة انسطاسيا ، وكانت مهيبة دمنة الاحلاق ، فأمل الناس ان تؤثر فيك بلطفها ووداعها وتحملك على الانلاع عن قبائلك ولكنهم لم تستطع ان تفعل شيئاً . نعم انك أظهرت في اول الامر شيئاً وتدينياً ، وذهبت مع عروسك الى دير القديس سرجيوس ماشيين على الاقدام ، وليتما هناك اسبوعاً وانما عاكفان على الصلاة والصوم والعبادة ، غير ان ذلك لم يكن الا مظهراً من مظهر الرياء الكثيرة التي عرفت بها »
« انك لم تعرف من واجبات الملوك الا ان تظهر بمظهر الأبهة والجروت وتكثر من العقوبات . وكنت كالوحش الضاري لا تريدك لدماء الا نوحشاً وشراسة . وقد تفننت في طرق القتل ، لم تترك فيها نوعاً من انواع التوحش الا اثبتته ، حتى أريت في ذلك على جميع البرابرة والسفاحين »
« جاءك مرة نبلاً مدينة بسكوف يتظلمون من عاملك عليهم ، فكان

جوابك لهم أمك صبيت عليهم نبيذاً حاراً ، فأحرقت لحام وشعر رؤوسهم ، ثم أمرت فجر دوا من ثيابهم وطرحوا على الأرض ليجلدوا بالسياط . . . ولكن قبل ان ينفذ فيهم القضاء ورد اليك خبر سقوط الجرس العظيم في موسكو ، وكنت انت في تطواك بالاقليم ، فأسرت الى العاصمة ، ونجا نبلاء بسكوف مما كان ينتظرهم من ضروب الهلاك »

« ولما كانت سنة ١٥٤٧ احترقت العاصمة وظلت النار تضطرم في دورها وقصورها وشوارعها وحدائقها وكنائسها بصعة ايام . وقد احترق من السكان وقتل نحو الالفين ، وعد الناس هذه النكبة عقاباً لك من الله لثمة ضياعك عن شؤون المملكة . وكنت في ذلك الحين قد مللت عنزة آل غلينسكي ، ووجد من دس عليهم . فقرر لك ان أخوانك هؤلاء هم الذين أحرقوا العاصمة بقوة السحر ، وان امهم الاميرة حنة كانت تنبش القبور وتخرج من الموتى قلوبهم فتغمسها في الماء ثم تنضح بذلك الماء الشوارع ، ولهذا احترقت المدينة . . . وصدقت انت هذه الاكاذيب الفاضحة وامرت في الحال بهجم الناس على هؤلاء الامراء ودمروا منازلهم وقتلوا من ظفروا به مهم ، وكان في حملة من قتل امهم الاميرة حنة وهي جدتك ام امك »

« وجاءك بعد حريق موسكو الكاهن سلفستر الرجل الصالح الكبير وأخذ يعدد معايبك وينذرك بغضب لله ويهديك سبيل الرشاد ويقرأ لك المصول التهذيبية من الكتب المقدسة . وقد سمعت انت في بدء الامر كلامه وبكيت وتبت . . . وكان في جملة مستشاريك وقتئذ النبيل أداشف ، فاتفق والكاهن سلفستر على اصلاح سيرتك وتقويمك ، فعزمت على العدل في الرمية وتبت قوة عليانية امام جمهور عظيم من الشعب . . . وقام التتر في هذه

المدّة لمحاربة روسيا، وهبّ الشعب معك للذود عن الوطن، فانتصرت على
الاعداء واستوليت على مملكة قازان ومملكة أستراخان «
« ولكن نفسك الامارة بالسوء لم ترض بهذه الحالة الصالحة ..



(الكاهن ساستريوت ملك بوم الرابع ويتهده مسنة)

واخذت الدسائس تحوم حول سلفستر وأداشف . وزويت الملكة سافاسيا
في هذه الاثناء ، قليل لك انها ماتت نفس السحر لدي مستخدمه لذلك
.. سلفستر وأداشف .. وعدت انت الى اطوارك السيئة . فأصبحت لهذه
رهات وجزمت بخيانة هذين المستشارين الفاضلين . ففقيهما (سنة
١٥٦٠) واتخذت دلاًّ منهما عوانة لك ومستشرين لكسي باسماثوف
والامير اناسي فيزيكسي . سبي غريازنوي وماليرة سكوراتوف وامثالهم ،

وهم الذين يحبطون بك الان ولاعمل لهم الا السعاية والدسياسة . فاختلت
ادارة البلاد وانتشرت الفوضى من جديد ، وقت محارب النبلاء بدعوى
انصالحهم بسلفستر وأداشف واتفاقهم معهم على خيانتك والكيد لك . وصار
لكل كلمة من سعاية اعوانك هؤلاء قيمتها . وكانت كل كلمة منهم وكل
اشارة تكفي لسقوط رأس كل نبيل ومحو اسرته . . وكان هذا الدم دم النبلاء
المسفوك ظلماً وبنياء ، قد أسكرك ، فازددت فسوة وعتواً وفعلت ما لا يمكن
ان يصدق او يسطر مثله في تاريخ »

» وكنت قد أنشأت فرقة رجال الخرس ، فكأت البلاء الاشد على
البلاد وشعباد ، لانها فرقة أبالسة لا بشر ، وقد فاق رجالها أبالسة الجحيم
بمكراتهم وفضائهم . . وقد اخترت رجال حرسك هؤلاء من زصاف أناس
وشذاذهم وأوباشهم ليجاروك في اعمالك البذيئة ، تجاروك فعلاً في كل
بذاعة وكل فجور . ثم انتقلت هؤلاء الحراس من العاصمة الى قرية
الكسندروف هده . ولم تات ان اصطفيت بضع مئات منهم البستهم الملابس
الرهبانية وأقت نفسك رئيساً عليهم . وصرت مع هؤلاء الرهبان القديسين
تخرجون الناس نهراً وتعبدون ليلاً . وقد قتلت بهذا المنصب الاخير
احسن قيام ، لانك وانت لمطبخ بدماء الابرياء كنت تصلي وتتشدد الانبياء
الدينية وتترع الاجراس ، وكنت تقوم بالخدمة الالهية بنفسك . وهذا
النوع من التسلية قد أطربك جداً فأثرته على ما سواه . . اما المآدب
وحفلات التهنيت والخلاعة التي كنت تقيمها مع رجالك وندمائك هؤلاء في
ساعات فراغك من الصلاة والمبادة فيما لم يسبقك اليه احد . وها ان قصرك

الان ، وهو الذي تدعوه ديراً ، ينج عجيماً بالندماء والمجانين والمسموذين
واهل اللهو والخلاعة والدعارة من كل نوع »

« وقد سلطت رجال حرسك على البقية الباقية من النبلاء تريد ان
تستأصلهم جميعاً ليصفوا لك الجو ولا يبق من يقارمك او يكبح جماح أهوائك..
ولم يكن رجالك في حاجة الى من يوعز اليهم بمثل ذلك ، لان لهم من
طبيعتهم الفاسدة ما كان كافياً ليضمن لهم نجاح هذه المهمة ، فانتشروا في
البلاد يعيشون فيها فساداً ويتعقبون النبلاء في كل مكان ينصون عيشهم
ويرقبون حركاتهم وسكناتهم ويوقعون بهم ، حتى ضاق النبلاء ذرعاً بالامر ،
فهرب من هرب منهم والتجأوا الى انمالك المجاورة ، وفي من بقي وكانوا
لا يزالون جمهوراً كبيراً وكلهم من أصفاء رعاياك وأشد المخلصين لك. ولكنك
شدت وشاء أعوانك ان يكون هذا الجمهور من النبلاء عرضة لثمنتك وغدرك ،
وقد عبروا على الضيم وهم لا يخالقون لك مراً ولا يشكون ولاية مرون ،
وظلوا مخلصين لك وللوطن واخصائك على الرغم من كره هذا يقترون عليهم
ويكذبون ويشون »

« كان على رأس حيوشك الامير كور بسكي وهو اعظم قوادك وأشهر
أبطالك ، فأردت ان تقتله لانه كان صديقاً لا داشف ، فهرب النبلاء منه
وليس معه من أسرته وذويه الا « شيب نوف » حاجبه شخص . وقد كتب
اليك من انتم رسالة كلها حكمة وموعظة . وجاء حاجبه بهذه الرسالة فقبلك
ونت في ساحة القصر ، فامتلات غضباً على الامير ولم تر الا ان تنتقم من
حاجبه البري . وكان في يدك عكازك المشهور المحمد الطيف ، فنترت
الرسالة من الحجاب ووقفت تسمع تلاوتها ، وهو امامك في تمام الوقار ،

وانت متوكئ على المكاز وقد غرزته في رجل الحاجب فنفذ منها الى الارض، وهو واقف امامك لم يغير ولم يتحرك والدم يتدفق من قدمه وهو صابر . ثم أمرت فأخذ هذا المسكين ومثل به تمثيلاً لم يُسمع بمثله الى ان مات شهيد الوفاء لسيدته وقد سلخ جلده وهو حي »

« وكان لرسالة الامير كوربسكي اسوأ تأثير في نفسك فأخذت تبحث عن اهله وأصدقائه ومريديه وترجمهم في السجن وتفتك بهم ، وأعدائك يرشدونك كل يوم الى كل من يريدون الايقاع به من عدائهم النبلاء ، وانت تنزل بهؤلاء الابرياء امر البلايا ، وقد صلبت منهم بعضاً واحرقت بعضاً آخر وسلخت جلود آخرين »

« وبلغك على اثر ذلك . ان اهالي مدينة نوفورود النمضي يحضرون ان تقسمان عن روسيا والانضمام الى مملكة لتفا ، نزحت على المدينة حائنا لغتك هذه ، لوشاية ، كاذبة ودمرتها وقبضت على بضعة آلاف من سكانها وقتلت نحو ائف وخمسة مئة منهم ، مع ان المدينة كلها قد خربت لاستقبالك . زعمت انك ، زعمت هذه الطعنة ولا ذنب لاحد من اهلها من هذا الزرع ولا أحد »

« وسدت ان خان فريم نجيم على مرسكو بجيشه ، زدت ان ذلك لم يكن الا بالاتفاق مع النبلاء ، فألقيت القبض على اثنت منهم وصادرت امورهم وقتلتهم وفنتك بهم . . ورأى ابولونيون والاسوجيون ما رآه سكان النهر من اختلال الحالة في روسيا قدموا هم ايضاً يشنون الغارات على اطراف البلاد . وانت كلما أصبت بنكبة تنزوي ذلك الى خيانة النبلاء ورغبتهم في الابتزاز عليك »

« ولما هب المطران فيليب القديس في وجهك وانبرى يظهر لك معانيك وينذرك بالعقاب الالهي ان لم تقلع عن هذه اللفظائح وتبلغ فرقة رجال الحرس خلعتة من منصبه وأرسلت رجالك فجردوه ، وهو في الكنيسة يخدم الله ، من ثيابه الخيرية ، ثم أخرجوه من الكنيسة عنوة وهم يضربونه بالمكانس ويهذفونه بكل بذاة ، والشعب يتبعه باكياً متجنباً . . وقد قيت هذا الرجل البار ، الذي لم تر روسيا مثله حتى الان من رجال الدين والفضيلة ، الى احد الاديار ، وقبضت في الحال على جمهور كبير من اهله ومريديه ومثلت بهم بفطاعة تشعير لهوطها الابدان ، وقد قطعت رأس فتي من اقرباء المطران كان يحبه كثيراً ، وأرسلت هذا الرأس اليه الى السجن « هدية جميلة » . . ثم أرسلت بعد سنة مستشارك الخيـث مـاليوتا سكوراتوف ، فدخل عليه وهو جاث في غرفته يصلي وخنقه يديه (سنة ١٥٦٩) . . . »

« هذا برض من عدة من اعمامك الجهنمية ايها الملك ، ذكرته وقلبي مشتعل بنار الاحزان لسقوط مجد روسيا وهبوطها . . فهي في عهدك قد اصبحت مرتعاً للدسائس والفتن وسائر ضروب الفلاقل والاحن . وكل حافل من رعيـتك ينظر الى قبائحك بقلب متصدع ويخشى ان تحمل بسيدك قـمة الله على البلاد فتجزأ وتخرّب او تعود فتسلط عليها ايم اخرى كالتر او الالمان او ابولونيين ، وتضطر حينئذ جلالـتك ان تسجد للخان وقبـل ركابه »

ثم صمـت السـبيل مرـوزرف وفي صدره براكـير مشتـلة

الفصل الخامس والاربعون

« واذا لم يكن من الموت بذئ فمن العجز ان تكون جباناً »

كان النبيل موروزوف يتكلم بصوته الجمهوري والجميع مصفون اليه كأنهم على رؤوسهم الطير ، وقد اصفرَّت وجوههم وارتعبت قلوبهم ، حتى ان مالىوتا نفسه شعر بحققان شديد وخوف عظيم . اما انك فكان جالساً مطأطأ ، الرأس ممتقع الوجه تقدح عيناه شراً ، ولكنه لم يتحرك لئلا تقوته كلمة من خطاب النبيل ،

فلما فرغ النبيل من حديثه نهض فاسيلي غريازنوي وقد شهر في ربه خنجراً ، فدنا من الملك وقال — هل تأمر ان أغمد هذا الخنجر في حنجرتك لتتخلص من هذيانه ؟

فقال الملك وهو بذلذذ غصاً — اياك ارحمته ، لاني اريد ان اسمع حديثه اني ...

فنظر اليه موروزوف نظراً ظافراً لمتصراً وقال — طأست اذا لم تكف بما أطربتك به حتى الان من الملح والنكات بل تريد اكثر من ذلك ، فاسمع وتفهكه ...

« لم يبق من خدمك الامناء من ذوي الاعراق الشريفة الا واحد وقد قضى ايامه منقطعاً عن بلاطك الدموي ولم يتدخل قط في شؤونك . ولكم لم تتركه في سكينة ناعم البال ، بل عزمت على تنقيص عيشه اولاً

ثم على معاقبته ثانياً ليلحق باخوانه من شهداء انفضيلة ، وأخذت تبحث عن وسيلة تنيلك مبتغاك وتظفرك بأمنيتك . فلم تلبث ان استدعيته ثم صرفته بعد ان شهرت عليه غضبك . . . فعاد الى منزله وهو يود ان يبق حياته كلها مقصياً عنك منسياً منك . بيد انك لا تنسى احداً . . . فقد أرسلت اليه احد اخصائك الامير اثناسي فيازيمسكي فاحرق منزله وسبي امرأته . ولما جاءك متظلاً يسألك ان تنصفه لم تبدأ بدعواه العادلة بل أمرته بمبارزة الامير لتبثت ان الامير سيفوز عليه لا محالة بالنظر الى ما بينهما من التفاوت في الاعمار . غير ان الله أنى الا اظهار الحق ، ولم تكن انت تنتظر مثل هذه النتيجة ، فاعتظت واخذت تسمى لاغتيال هذا النبيل الشيخ بحيلة اخرى »

ثم انتصب موروزوف امام الملك كمثل الانتقام وضرب المائدة يده ورفس الارض برحله ، وقد هاج الدم في رأسه فاقعدت عيناه وارسم الغضب على وجهه وقر بصوت مرتفع - « فاستدعيت حينئذ خادك النبيل دروجينا موروزوف ، الذي أنقذ مدينتي تولا وموسكو من شر الاهوال والمصائب ، والذي لأجلك خاض غمار الحروب وصانح الموت مراراً بلا وجل ، والذي يود من صميم قلبه ان يسفك آخر قطرة من دمه في خدمتك وخدمة البلاد ، استدعيته وأمرته ان يرتدي صيلسان المجاز ليضحكك ، يسلي ندماءك . . . هذه هي انصافك على هذا الشيخ الجليل ايها الملك . وبهذا انت تكافئ اشراف مملكتك وقواد جيوشك وأبطالك ! . . . »

كان موروزوف يتكلم وجوارحه تنفض وأوتار صدره تكاد تقطع .

وكان منظره وهو في تلك الحالة مخيفاً رهيباً . وكان الملك وجميع رجال الحرس صامتين مبهورتين ، لم يلتفت احد منهم الى الطيلسان ولم ينتبهوا الى اجراسه التي كانت ترن لدى كل حركة يديها النحيل . . . ومن رأى هذا المشهد وقابل في تلك الساعة بين هيئة النحيل وهيئة الملك رأى الملك حقيراً جداً بالنسبة الى النحيل . .

وتنفس موروزوف طويلاً ثم عاد الى حديثه فقال - « وها، انذا ايها الملك قد قت بتمثيل دوري على قدر طاقتي ولم يبق الا ان أخاطبك بكلمة اخرى هي نهاية الحديث . . فاعلم انك وانت حي تظل افواه الامة الروسية صامته عن اظهار معاييك وشروك تقادياً من تملك . غير ان ملكك الوحشي هذا سيزول ، فتندفع حينئذ جميع اللسان من جميع طبقات الشعب تذيع ماتمك ومخازيك وتشرأباً سيئاتك وفضائحك ، ويكون اسمك مثال الظلم والتوحش ملموناً بكل شفة ولسان الى يوم الدينونة الرهيب ، يوم ينهض المئات والالوف من الرجال والنساء والشيوخ والاطفال الذين استبحت دماهم ، فيقفون امام الديان العادل ويطلبونك للمحاكمة . . . واذ ذاك أظهر انا ايضاً بهذا الطيلسان الفاخر وأذ كر خلاعتي . فاذا تكون حالك حينئذ : . . انك ستكون منفرداً ، ولا يستطيع رجالك هؤلاء الانذال ان يدافعوا عنك او يسدوا افواه الصارخين والطالبين الانتقام منك . . فالويل لك ثم الويل لك في ذلك اليوم . لان الديان العادل سيطرحك في النار الابدية لابلوس وزبانيته . . »

وأمسك موروزوف عن الكلام وهو ينظر بازدرآء الى الملك وندمائه.

ثم أعرض عنهم بأقّة وسارين الموائد بقدّم الغالب المتصر ، والمظمة بادية
في حركاته ، والجميع مذعورون مبهوتين كأنهم يرون رؤيا
وما كاد يصل الى باب الردهة حتى تنبه ماليوتا سكوراتوف من
غفلته وقال للملك - ماذا تأمر الان يا سيدي ؟ أقتله ام نوتقه ؟
فهب الملك كمن حلم وقال بصوت مرتجف - ألقوه في السجن ولا
يمسه احد ، بل أطعموه واسقوه واعتنوا به اشدّ عناية الى اليوم الذي
أريد .. واياك ان تسيء معاملته

فنهض ماليوتا لساعته وتقدم الى النبيل ومعه قمر من رجال الحرس ،
فقيدوه بأيدي مرتجفة ثم اقتادوه الى السجن وهم لا يحسرون ان ينظروا
الى وجهه
وخرج الملك من ردهة المائدة وسار الى مخدعه وهو أصفر الوجه
مشرّد الافكار

الفصل السادس والاربعون

« الاعداء »

ولما كان المساء أقبل ماليوتا سكوراتوف على عادته ، نخلا بالملك وقصّ
عليه اخبار السجون والسجناء . فأخبره ان السجن في قرية ألكسندروف
قد غصّ بالمجرمين الكبار وان عددهم قد أربى على الثلاثمئة ما عدا
موروزوف والامير اثناسي فيازيمسكي وخدمه يثيودور باسمايوف والطحان
الساحر واللص كرشون . ثم أضاف الى ذلك فقال - اما يثودور باسمايوف

فقد اعترف امام الشهود والكتابة بان لايه الكسي اليد الطولى في جميع
مآثمه وانهما مشتركان معاً في المؤامرة على جلالته
فقال الملك - ألق اذا القبض على الكسي باسماوف وأودعه
السجن ، وبعد يومين نفذ الحكم في جميع هؤلاء المجرمين في مدينة
موسكو بحضور جميع السكان ، لاني أريد هذه المرة ان يكون
العقاب علانية . . وقد حكمت على الطحان تساحر بالاحراق ، وعلى الأمير
اثناسي وثيودور باسماوف بالكلايب ، وعلى اللص كرشون وموروزرف
بأشد العذاب . . فاذهب وجهر الممدات اللازمة ولا تغفل شيئاً
قل - سمعاً وطاعة

قال مالبوتا ذلك ثم نهض فودع الملك وخرج وهو كأنه ذائب الى
وليمة او عرس . . .

وما أشرقت شمس اليوم التالي حتى كان في صهوة جواده ينهب
الأرض الى موسكو ومعه جمهور من رجال الحرس ، وقد حملوا آلات
التنذيب ومعدات الاعداد عملاً بأمر الملك . ولما وصلوا الى العاصمة قصدوا
الى الساحة الكبرى فيها حيث اعتاد الاهاون ان يحتشدوا في المواسم
والاعياد الوطنية

في هذه الساحة نصب مالبوتا ورجاله المنشاق وأقاموا الاعمدة ووضعوا
الخلاقين الكبيرة ، وقد هيأوا الدواب والجنائز والجبال والسيارات
والكلايب والفؤوس والنبال واللاتاد والسيوف وآلات اخرى كثيرة
مختلفة لكل نوع من انواع القتل . .

وكان سكان العاصمة يرون هذا التأهب ولا يدرون شيئاً ، وقد ذعروا

ووقفت حركة عملهم فأخلوا الشوارع والاسواق وأخذوا الى منازلهم وهم
يحسبون لذلك الف حساب .. ثم سادت السكينة في جميع اطراف العاصمة
فلم يعد يُرى في الشوارع احد او يسمع صوت احد



مطر من ماضٍ لاعداء : القتل لدولاب

وفي يوم ثاني حضر اعداء من قرية أدتسسيرو- في موكب حافل
برجال الحرس وكما شاكرو السلاح . فلم يخرج احد من الماهلين لاستقباله
لان الرعب كان قد استولى عليهم فأقروا في منازلهم يتفكرون ما سيكون ..
وفي هذا الحيز يجمع الخدم من الذين كبروا في قريون منيتهم في

غيايات السجن وكانوا نحو ثلاثئة وخمسين رجلاً ، فأخذوا كلهم الى
سجن العاصمة

وما اذف صباح اليوم التالي حتى خرج الموقوفون من قصر الملك وساروا
الموينا نحو الساحة الكبرى وهم يوقون . ثم أقبل جماعة من الحراس وقد
ركبوا خيولهم وساروا صفوفاً منظمة ليمدوا طريق الملك ويحفظوا السكينة
بين الناس . غير أنه لم يكن احد قد حضر ، فكانت السكينة والحالة هذه
مخيمة على تلك البقعة بأسرها . .

وكان بعد هذا ان أقبل الملك يوحنا الرابع ممتطياً جواده ومرتبياً
حلتة الملكية ، وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر ومزين بصور القديسين ،
وقد علق في عنق الجواد رأس كلب من الذهب ، الى جانبه كنانة النبال
وقوس من الذهب ايضاً . وكان سائراً الى جانب الملك ولي عهده ، يتبعهما
رجال البلاط والزملاء وكلهم على الجياد المطهمة

وجي بالجرمين بعد ذلك وهم مصفدون بالحديد ، يحترقهم رجال الحرس
من كل جانب . وكان موكب المجرمين هذا يتبع موكب الملك على الاثر
ولما وصل الملك الى الساحة ولم ير احداً من الاهلين دهش واستاء
جداً وأمر فانتشر رجال الحرس في الحال في سائر انحاء المدينة يسوقون
الناس سوقاً الى مكان الاجتماع ويطمئنونهم على قلوبهم . ولم يكن الا
القليل حتى اخذ الاهلون بمقاطرون زرافات وبرسداء الى ان غصت تلك
البقعة بهم

وكانت النار قد اضرمت تحت الخلاطين وتحفز الجلادون للعمل .
فصمت الجماهير وسكن ضوضاؤها
وكان الملك جالسا على عرش نصب له على منصة مرتفعة ومن حوله
رجال الحرس واقفون بالعدة الكاملة

ولما أعد كل شيء ولم يبق الا الشروع في العمل امر الملك فنودي على
بعض المحكوم عليهم وكانت جرائمهم خفيفة ، تخاطبهم الملك بصوت جهوري
سمعه كل من كان حاضرا في تلك الساحة قال - انكم قد عصيتم اوامر الحكومة
واستسلمتم للخونة الاشرار ، فاستوجبتم لذلك عقابا كعقابهم . غير اني قد
رأيت أن أعفو عنكم وأهبكم الحياة على شرط أن تكفروا عما مضى بتوبة
صادقة وتقدروا هذه النعمة قدرها . . فاذهبوا بسلام ولا تنسوا أن القضاء
يرصدكم اينما كنتم . .

ثم التفت الى جماهير الناس فقال - والان فانكم مشاهدون ضروبا مختلفة
من التعذيب والقتل ، وانا انما جئكم لذلك لتروا عاقبة الخيانة والعصيان . .
ان هؤلاء المجرمين الذين سينفذ فيهم القضاء اليوم قد انصرفوا الى الشر منذ
زمان وقاموا يناصبونكم وامنهم حربا هوانا ، وفي نياتهم الشريرة أن
يسلموا المملكة للاعداء . . فأي شر أعظم من شرهم ، وأية جريمة أعظم من
جريمتهم . . ولما كنت قد أقت من قبل الله لأسوس هذه المملكة وأرعاها
وأصونها من كل حيف ، فقد حكمت عليهم بالاعدام ، اذ لا واسطة غير
ذلك تبقى الامة من دسائسهم . . واتي في احكامي لا أحابي احدا ولا انحرف
عن الحق بل أحكم على القريب وتبعيد على السواء ، ولذلك فقد حكمت

أيضاً على البعض من رجالي الاخصاء وأقرب الناس الي لانهم أخذوا بهذه
الجريرة وكثروا عهدهم ، فدمهم اذاً على رؤوسهم ، وانا بريء من كل ذلك ..
ولما فرغ من الكلام أمر فقدم النبيل موروزوف ، وكان الملك قد أعد
له عقاباً اليماً جداً ، غير ان حب اهالي موسكو للنبيل قد حمل الملك على
التبصر فأمر بتخفيف العقاب ، ووقف احد كتبة الديوان الملكي على دكة
مرتفعة وقرأ صورة الحكم على ما يأتي . « ايها النبيل ! انك تهددت الملك
بأن تزدع الفتنة في البلاد ، وقد توأطأت مع خان التتر وملك لتنا علي
تجزئتها .. وبلغت منك الجرأة ان شتمت الملك نفسه وعيرته عما لا صحة له
البتة . ثم تحاملت على رجاله الامناء وخوادم مملكته وتذقهم بكل فرية
وبذاءة . فاستوجبت بذلك كله عقاباً أشد من الموت . غير ان الملك بالنظر
الى شيخوختك وما ترك السابقة قد غير نوع اعدامك وحكم عليك بالموت
السريع بقطع رأسك فقط .. وما مقتنياتك واثروك فلا تستولي عليها
الحكومة ، وانت حر ان تنهبها الان من تشاء .. »

فرقي موروزوف المنقطع وقال راطة جأش : « يلم الله اني بريء من
كل نهمه ، ولم يخطر ببالي قط ان اسيء الى الملك أو البلاد .. ولكن هذا
شاء الملك وبهذا حكم ، فانا اتجمع كأس المنيّة صامراً وأموت شهيد الحق
راقصية .. ما املاكي وأموالي التي تفضل الملك باقتنائها تحت تصرفي
المطلق فتقسم ثلاثة أقسام ، احدها ملك كنائس والاديار للصلاة عن نفسي
والترحم علي . والثاني لفقراء والمحتاجين ، والثالث لحاشيتي وذوي .. وني
أعاقبي عبيدي وامائي وأمنحهم الحرية اتامة فليذهبوا الى حيث شاءوا ..
وقد ساحت زوجتي أيضاً ، فهي في حل من عودها ولتقترن بمن أحببت .. »

ولما فرغ النبيل من كلامه ادار نظره الى الجمهور ثم حتى رأسه ، فتقدم
اليه الجلاد وضرب عنقه ، فتدفق دمه الزكي وقضى كغيره على مذبح التوحش
والاستبداد . . .



مطر آخر من مصر الاعداء : اقول
تسلط الماء على قبة رأس محرم

وبعد مصرع النبيل
موروزوف اقتاد رجال الحرس
الامير انساني فيازيمسكى
وثيودور باسمايوف واباه الكسي
باسمايوف . فقال الملك للجمهور
« هؤلاء الثلاثة كانوا من اخص
رجالي وأعواني ، وقد اقسموا
لي على الامانة والاخلاص
والرفق والرعية . ولكنهم حشوا
في ايمانهم وظلموا الناس وخاتوا
ملكهم وولي سمهم ، لانهم
أضمرؤا الفتك بي وتسليم البلاد

للاعداء . وقد توسلوا لبلوغ مأربهم الخبيث بالسحر وكنى السحر .
فليحصدوا ما زرعوا ولينالوا الآن جزاء ما قدمت ايمانهم . . .

ثم وقف الكاتب وقراً صورة الحكم

ولما استلم الجلادون ثيودور باسمايوف ووقفه على المنبر الست في
الجاهير وقال بصوت مرتفع : « اءيخوا الي يا سكان موسكو . سمعوا

اقراري الاخير ، لاني أريد ان أعترف لكم في هذا الموقف بجميع المآثم
والموبقات التي صدرت مني برضى الملك وإيمازه . . . »

ولكنه ما كاد ينطق بهذا حتى وثب إليه ماليوتا مكوراتوف ويده
سيف مسلول ، فبادره بطعنة دخل السيف فيها في عنقه فسقط الى الارض
والدم يتدفق من وريده ، وبذلك نجح من أهوال العذاب التي كانت تنتظره
اما ابوه الكسي والامير اثناسي فيأزييمسكي فسيقا الى النطع وشرع
الجلادون في تمذيبهما . وكان الكسي أشدّ احتمالاً للعذاب من الامير ، فان
هذا لم يعد في امكانه الوقوف على قدميه وكاد يموت ألماً وكاد جسمه كله
يصبح علقه من الدم . . . غير ان الجلادين القساة لم يكن من همهم الا تنفيذ
الاوامر بكل دقة . . . وحانت من الامير اثناسي في اثناء ذلك نظرة فرأى
الطحان موقهاً الى سارية على مسافة قصيرة منه ، والى جانبه خطين كبير
طافح بالماء الحار ، فتذكر استسلامه له واعتراه بقوته وشعورته فصرّ باسنانه
وقال - « لعنك الله ايها الساحر المحتال ! . . . »

ولم يكن بعد ذلك الا القليل حتى قضى أولاً على الامير اثناسي ثم
على الكسي باسماوف وهما في أشدّ حالات العذاب

ثم جيء باللص كرشون والطحان ، وبعد ان ذابا اصناف العذاب
طرح الطحان في الخطين ، وألقي كرشون على دولاب في أعلى بعض
السوردي ، ودأب الدولاب دورته فتزل المسكين قطعاً متناثرة على الارض . .
ونودي على بقية الجرمين بعد ذلك وكانوا جمهوراً كبيراً ، فوقف
الكاتب وقرأ الحكم عليهم بدعوى أنهم قهقروا عهد الملك ونفذوا رسومه
وعاقت قوسهم احكامه وتآمروا عليه وقد نوا ان يسلموا بعض الأقاليم

الروسية لملك لتفا وان لهم علائق اخرى بسلطان تركيا ، الى غير ذلك مما كان يمليه مالىوتا سكوراتوف على الشهود والكتبة بعد قبضه على كل جماعة من هؤلاء المجرمين

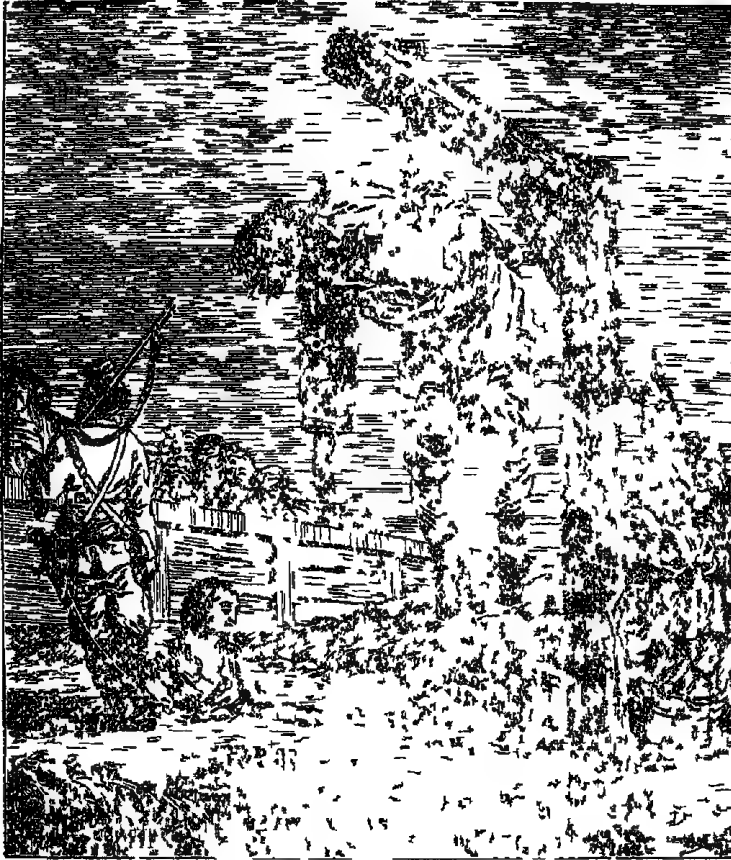
ولما فرغ الكاتب من تلاوة الحكم اقتيد بعض المحكوم عليهم الى المشائق . والبعض الآخر الى خلاطين الماء الحار . وغيرهم الى الدواليب . وطمر غيرهم في التراب الى ان ماتوا اختناقاً . ومرتق آخرون بالكلايب . وجلد غيرهم بالسياط حتى تنارت لحومهم وزهقت ارواحهم . ورفع بعضهم على حزم الشوك وأحرقوا . وسلخت جلود البعض الآخرون احياء . وشد آخرون الى سوار عالية وقد علق كل منهم من اضلاع جانب من جانبيه . وشد غيرهم الى سوار وأطلق عليهم الماء من ميزاب في أعلى كل سارية فظل الماء ينزل بقوة على قمة رأس كل منهم الى ان مات . وشوي آخرون وهم معلقون فوق رامييل من حديد مملوءة جمرأً مشتعلأً . ورنع البعض على الخوازيق . واخذ أنبافون فضربت اعناقهم . . .



وبينما كان ذلك يجري والناس شاخصون بأبصارهم وقد ذابت ثلوبهم هلمأً وكدأً شوهد رجل بسن الاربعين ، أصفر لوجه حافي القدمين مرتد أطماراً بالية . جاء يشق الجاهير وقد بدت على وجهه ابتسامة اليأس . فلما رآه القوم تحوؤوا بأبصارهم اليه وهم يقولون - اقتفحوا للطريق ، فان الناسك باسيل قد أقبل . . فاذا نرى يريد ان يفعل ؟ . .

وكان الجميع يحبون هذا الرجل ويحترمونه ويرهبون غضبه ، لانه كان

وديمًا بارآً بمقت الشر وفاعليه ويدافع عن الابرياء جهده . . وقد أقبل
الان يشق الجماهير حتى دنا من الملك ، فانتصب امامه وقال - لقد نسيتني
يا يوحنا . فانا ايضا أستحق العتاب . . .



مطر ثلج من مصادر الاعداء القتل ضد المحرم من اصلاعه الى السارية . وطور
اعرم في التراب (وفي الرسم ثرمة تطمر)

وكان الملك حاملا وقع بصره على الناسك قد ذعر فأشاح عنه وقام
فامتطى جواده يريد ان يتحول عن ذلك المكان . فتشبث الناسك بزمام
الجواد وقال - ما بالك تعرض عني ، ولماذا لا تريد معاقبتني كما عاقبت
مو ، وزوف وسائر الجمهور ؟

. فأخرج الملك مقداراً من الدنانير ألقاها الى الناسك وقال - خذها

وصل لاجلي

ففتح الناسك كفيه وهو يظهر انه يريد ان يأخذ الدنانير ، ولكن
رمى بها في الحان الى الارض وقال - ان دنايرك ايها الملك لنار محرقة ..
فهل أحيتها في جهنم ؟

فقبس الملك وقال - دعنا فليس هنا محلك

قال - لا .. بل هنا محلي مع جمهور الشهداء .. وانا ألح عليك ان
تعطيني اكليل الشهادة كما أعطيته لهؤلاء ونجعل نصيبك كنصيبهم ، فاست
بمعزل عنهم

فصاح به الملك مغضباً - دعني وامض في سبيلك

قال - ولكنني لست تاركك ما لم تسني بغيثي

ثم صحك ضحكاً عالياً وابتعد الى الجمادير المحتشدة ، ويشير الى
الملك وينهش - انظروا نظروا الى الملك ! .. فان هيئته قد اذابت ...
وها قد نبت في جبهته قرا جدي ، وصار رأسه كرس كلب ...
فستشاط الملك غضباً واتقدت ميناء انتقاماً وصاح - أغرب من
هنا ايها المغنوه قبل ان أطرحك أو الكلاب فتمزقك تمزيقاً ..

ثم تناول من احد رجال الحرس حربة وهجم على الناسك يريد ان
يطمنه بها ، فصاح الجمهور وقد عظم عليهم الامر - ايك ن تمسه بمكروه !
انك حر في رؤوسنا .. واما هذا الرجل القديس فلا تمسه

اما الناسك فابتسم وصاح - أقتلني ايها الملك العاشم ! اطعني ههنا في
صدرتي يا شاول الظالم ! أقتلني ايها السفاح الطاغني وألحقني بهؤلاء الابرياء !

لأنك اشد قسوة وأعظم شراً وبنياً من شاول وهيرودس وسائر الظلمة
الفجار . . ولكن الله سينتصف منك ايها الشيطان المتجسد جزاء ما جنيته
على الابرياء . . ١ .

وكان الملك يريد ان يطش بالناسك ، الا انه خشي هذه المرة
هياج الشعب فصمت وعيناه تقدحان شرراً . ولم يلبث ان لوى عنان جواده
وسار من ذلك المكان مخفوراً برجاله وأعوانه ، وسحته مقلوبة تخيف
اسد الغاب

وفي اليوم التالي كانت تلك البقعة التي شبت من دماء الابرياء هادئة
مطمئنة لم يظهر فيها احد من الخلق . وقد أقام الروسيون فيها على عهد خلفاء
يوحنا الرابع (الرهيب) عدة كنائس « على عظام ودماء » اولئك الشهداء
ولم يرحس من ذاك مرة احد خلفاً عن سلف ذكر تلك الحوادث الدموية الهائلة

الفصل السابع والاربعون

« رجوع الومبر نكيتا »

وكان بعد تلك الاهوال ان تلك اراد أن يعامل الشعب بالحسنى .
فأمر ان تفتح سجون العاصمة وبفرج عن جمهور من السجناء وان توزع على
الفقراء الصدقات والحسنات . وفي اليوم التالي خرج من موسكو فطلق
الى دير الثالوث الاقدس ، وهو من الاديبار التي يحترمها الروسيون قاطبة ،
فاقام فيه مع قمر من حاشيته بضعة أيام قضاها في الصلاة والعبادة . وكان
قد أرسل الى قرية الكسندروف بورييس غودونوف ليعده له فيها استقبلاً

حافلاً . ققام بوريس بهذه المهمة احسن قيام ولبت في القرية ينتظر
قدوم الملك

ولما كان في احد الايام جالساً في منزله يتأمل في ما صارت اليه حالة
الملك دخل عليه احد حجابه وقال - انت الامير نكيتا قد جاءك زائراً
يا سيدي ويطلب مواجعتك

فدُعِ بوريس لدى سماعه ذلك ووقف كالماخوذ وهو لا يدري ماذا
يفعل لعله ان الامير نكيتا بفراره من السجن قد استوجب غضب الملك
وان كل صلة به لهذا السبب قد تقضي الى التهلكة . . غير ان بوريس كان
يحب الامير ويحترمه ولعله ان الملك الان في حالة الرضى صمم على قبول
الامير ، وهو بهي في نفسه الاعتذار التي ينبغي له ان يذكرها للملك دفماً
لما قد يترتب على ذلك من اللوم وسوء الظن . ولكنه عزم ان يتحفظ ما
امكن ، فأمر الحاجب بادخال الامير ثم قدم فاستقبله في ردهة المنزل دون
ان يخرج للقائه كما كانت عادته فيما مضى . ولما خلا بهما المكان عقه باهنة
وهو يرحب به ويسأله عن صحته واحواله ثم قال - أخبرني اولاً ايها الامير
هل رآك أحد حين دخولك ؟

فاجابه الامير ببساطة - لا أعلم ، وربما رأي كثير من ، لاني لم آت
الى قرية ألكسندروف متكرراً ولم أحضر اليك خائفاً . ونما الذي دفعني الى
مقابلتك حال وصولي هو لانك صديقي وتكره رجال الخرس مثلي . وقد
جاء معي ايضا بضع مئات من اللصوص

فدهش بوريس وقن - وما شأنهم ؟ ولماذا أتيت بهم الى هنا ؟

قال - هم رفقائي في المعركة التي نشبت بيننا وبين التتر في ولاية
ريازان ، وقد جاهدوا جميعهم فيها الجهاد الحسن ، وجاءوا الان للمثول امام
الملك اظهرا الخضوعهم واخلاصهم لسيادته الملكية ، فله الخيار في عقابنا او العفو عنا
قال - اجل قد سمعنا ببسالتك وحسن بلائك في تلك المعركة ولم
يخف شيء من ذلك على الملك . فانت برجالك هؤلاء . قد كبرت التتر
ومزقتهم كل ممزق ، فواها لك ايها الامير ! . . . ولكن هل علمت بما جرى
عندنا في مدة غيابك ؟

فاندفع من صدر الامير نهدي عميق وقال - نعم علمت كل شيء ،
وليس لنا الا ان نسأل الله ان يلين قلب الملك ويرشده الى سبيل الصلاح
والعدل . . اما انت يا بوريس فقير معذور بكل هذا التناضي . انك ترى
الشر بينيك وكأنتك لا ترى شيئاً ، فلا تقاوم الشر ولا تدافع عن الحق . .
قال - يظهر ايها الامير انك لم تغير شيئاً من طباعك . . فهل انت
موقن ان الملك يسمع احداً او يقبل نصيحة ؟

قال - وهبه كما تقول ، غير ان الواجب يدعوك الى نصره الحق مهما
كان الامر . . واذا لم يسمع الملك منك الحقيقة فمن يليق به ان يسمعها ؟
قال - وهل تعتقد انت ، لا يعرف الحقيقة ؟ وانه ياقب جميع
اولئك الناس لجرّد الظنون والتهم الباطلة التي قدفوا بها ؟ كلا . . بل ان
ياقب لانه يجد لذة في ذلك ، ويماقب كل من وقع عليه سخطه . فليس
لاحد ان يعترضه في شيء او يتصدى لتحويله عن عزمه . . فهذا النبيل
موروزوف قام يسرد له سيرته كلها بفصاحة نادرة وكلام مؤثر ، فاذا كانت
النتيجة ؟ . . . انه سمع حديثه الى النهاية ثم أحصاه في زمرة المجرمين . .

ولا شك انك عرفت شيئاً من تفاصيل الحكم الرهيب الذي قد في
موسكو منذ بضعة ايام

قال - نعم عرفت . . واتي آسف على الاخص لمقتل النبيل موردوزوف
لأنه كان من اشراف الأمة وأعظم نبلائها وأقطابها

قال - فكيف عزمت اذاً على الرجوع الى قرية الكسندروف بما ان
وقفت على ذلك كله ؟

قال - رجعت لان الواجب يدفعني الى المثول امام الملك برأ بتسمي
ليس الا

قال - انت ايها الامير تسير على غير هدى ، فلا تحرّز ولا تحفظ
ولكن الله يحفظك ويحرسك أنى سرت . فكم من مرة تعرضت للمخاطر
واتشكك الله منها . . . وهذه المرة أيضاً لو عمت الى هنا قبل يوم الاعدام
لوقعت في الفخ وكان نصيبك كنصيب فيرك ممن قضى عليهم . . اما الآن
فقد صار لك أمل بففو الملك ، ولكن اياك ان تقابله قبل ان أراه انا
وأفانحه في شألك

قال - أشكرك ايها الصديق وأسألك ان تني على الخصوص بأمر
المفوع عن رفقائي لانهم يستحقون ذلك لاجل . . أبه ود من "بسالة والافدم
حتى كفروا عن مآثمهم السابقة احسن تكفير . . ، اما فلاتهم كثيراً بي لان
الموت والحياة ميان عندي الآن

قال - وهل ذلك لما داهمك من الاحزان أم لسبب آخر ؟

قال - لا شيء بكرهني بالحياة الا تقم الشر في البلاد . . وطالما

خطر بيالي ان أخذو حذو الأمير كوربسكي فاهجر الوطن والآل وأرحل
الى بلاد بعيدة لا أسمع فيها ولا أرى ما يجري هنا من القبايح والفظائع
قال - أجل ان الحياة عندنا أمست في معظم الشدة والاضطراب ولم
يبق لنا الا واحد من أمرين ، فاما الرحيل الى بلاد أخرى كما فعل الأمير
كوربسكي وامثاله ، او البقاء في رضى الملك وموالاته . اما انت فلا تتوسل
بأحد هذين الأمرين فلا تهجر الملك ولا تنفق معه ، وهذا عين الخطأ وآفة
الهناء . فاذا اردت البقاء في روسيا لانها وطنك المحبوب فليك يمدارة الملك
واحترام اوامره ورغائبه ، فيحبك ويملكك من أخص مستشاريه وأعوانه .
واذا تم ذلك واصبحنا كلانا أخص رجال البلاط فاننا نشرع في العمل يدأ
واحدة ونسعى جهدنا في ارشاد الملك وتقويم سبله وتسديده الى الصلاح
والخير ، وقد نعيد عهد سلفستر وأداشف ، وبغير ذلك لا تم لنا امنية
قال - أصبت . . ولكني لا أطيق ان يجمعني ورجال الحرس جو واحد
ولو يوماً واحداً . ولذلك اراني بعيداً جداً عن مرمى افكارك . واني أفضل
الموت وكل عذاب على الاختلاط بهؤلاء القوم ومعاشرتهم
قال - دع عنك امر رجال الحرس فانهم ينهشون بعضهم بعضاً وسوف
ينقضون من انفسهم . وها ان ثلاثة من زعمائهم المقدمين وهم الكسي
باسمانوف وابنه نيودور والأمير اثناسي فيازيمسكي قد هلكوا وسيلحقهم غيرهم
من هذه العصابة الشريرة . . فلا بد من الصبر والانتظار ومصادقة الملك
قال - صدقت بيد اني لا أقوى على الصبر والانتظار ، فلست بباق
في هذه الأرجاء ما دام فيها واحد من رجال الحرس ، وقد لا يغفو الملك
عني فأتخلص تماماً من عناء هذه الدنيا

قال - رويدك .. فأمامك آمال أخرى نستطيع ان نحيا بها وتكون في الوقت نفسه صديقاً للملك .. فما ان التريميثون في البلاد من جميع الجهات ، واثت من مهرة القواد ، فيمكنك ان تحاربهم وتخضع شوكتهم ، وبذلك تخدم الوطن والملك اشرف خدمة

قال - حبذا ما تقول ، فلا اشهى الي من ذلك ...

ثم بسطت مائدة الطعام فقام بوريث وضيغه فأكلا ما طاب لهما ثم عادا الى مجالسهما فتحدثا في شؤون مختلفة الى أن أقبل المساء ، فنهض الامير مودعاً وهو يقول - أشكر لك ايها الصديق ولائك واستودعك الله الآن الى الملتقى القريب

فنهض بوريث مستغرباً وقال - والى أين تقصد الآن ايها الامير ؟ ابق عندي الليلة وغداً يأتي الملك فتقابله

قال - ولكن رجالي ينتظروني في الغابة بظاهر القرية ، فلا بد من الذهاب اليهم .. ولو كان الملك اليوم في القرية لانطلقنا لمقابلته بحال وصولنا قال - لا بأس . عد الى ذويك وليكن الله حارسك . أما انا فساء واجه

الملك غداً ثم ارسل من يدعوك

ثم تعانق الصديقان . فخرج الامير لشأنه ولبث بوريث في منزله وهو يحمد الله لان الامير رفض دعوته ولم يبت عنده

وفي اليوم التالي عاد الملك يوحنا من زيارته بموكب حافل ودخل قرية الكسندروفا بالابهة والجلال كأنه رجع منتصراً من معمرة شديدة . ولما دخل القصر وكان الوقت مساء استقبلته حاضنته نوغرفنا بالشم والسباب

قائلة - نبالك أيها السفاك والوحش المقدس ..! انك لا تزال تظلمنا الى ارتشاف الدماء ولا تكاد تروي نفسك الخبيثة .. فكيف اجتأت على زيارة الدبر المقدس بعد الذي صدر منك من الفظائع الاخيرة في موسكو؟ .. أفلا تخاف ان يصعقك غضب الله وتنزل بك وبجيشك هذا الشيطاني الويلات والضربات؟ ..

فالتقى الملك على حاضنته نظراً حاداً ثم ولج مخدعه دون أن يجيبها بكلمة . أما هي فأردفت قائلة - ولكن مهلاً فإن الله سيناقشك الحساب على جميع هذه الجرائم والموبقات .. انه سيسحقك بنضبه ثم ينزل على قصرك رعداً فيدكه وعلى هذه القرية الدنسة ناراً فيحرقها ..

ولما قالت هذا نظرت الى رجال الحرس شزراً ثم تحولت بوجهها عنهم وانصرفت الى مخدعها وهي تتمتم ..

وما كاد الملك يدخل الى مخدعه ويتفرق رجال الحرس كل الى قراره حتى جاء بوريس غودونوف ، فدخل عليه وهو يظهر انه يريد الاختلاء به لأمر ذي بال . وكان لبوريس الحق في الدخول على الملك في أي وقت أراد نظراً لميل الملك اليه وثقته به . وكانت بوريس لا يوافي الملك عادة ليخلوبه ولا سيما اذا كان الوقت مساء الالمهام ضرورية ..

وقد سبقت الإشارة الى أن الملك كان له في مخدعه سريران ، أحدهما من الاخشاب العادية كان ينام عليه عادة في أوقات انفعالاته وتبكيت ضميره وهو انما يقصد بذلك تعذيب جسده ومعاقبة نفسه ، والآخر كان حسن الوطاء مفروشاً بالصوف الناعم والوبر النادر والحريير والديباج وكان الملك يرقد عليه متى كان منشراح الصدر لاشيء يقلق أفكاره أو يزعج نفسه

وكان بوريس قد درس منذ زمان طويل اخلاق الملك بوحنا الرابع، فكان يعرف من امائر وجهه كل ما كان يضمرة او يرغب فيه . . . ولذلك فلما دخل الخدع لم يشأ ان يبدأ حالاً بحديثه في الامر الذي جاء لاجله ، بل انتظر ريثما خلع الملك بمض اتوابه واستلقى على سريره الملكي (لا على الاخشاب) فسر بوريس في داخله واستبشر خيراً وقال - هل علمت يا مولاي ان السجين الذي فر من السجن قد ظهر الان ؟

فاجاب الملك وهو يتناب - واي سجين تني ؟

قال - أعني الامير نكيتا الذي هجم على الامير اثناسي فيازيمسكي الخائن وزوج بسبب ذلك في السجن

فاستوى الملك في سريره وقال - ومن ألقى عليه القبض ؟

قل - لا احد يا سيدي وانما هو قد جاء بنفسه وأحضر معه ايضاً جمهوراً من اللصوص الذين حاربوا تحت لوائه في ولاية ريبازان وطهروها من عيث التره . . . وجميعهم الان ينتظرون اوامرك العلية قل - وهل رأيت انت الامير نكيتا ؟

قل - نعم رأيتُه يا سيدي . فقد جاء اليّ بالامس وسألني ان أستاذن له في مقابلتك . . . اما انا فلما رأيتُه اردت ان أقبض عليه ثم عدلت لانه جاء مختاراً لا مرغماً فلن يحاول الفرار . . .

كان بوريس يتكلم ولا يظهر عليه ان له ضلعاً مع الامير نكيتا او انه يميل اليه . . . وهو لما شيعه بالامس ولم يخرج لوداعه لم يقصد بذلك ان يخفي هذا الامر عن الملك ، بل خشي ان يراه احد من رجال البلاط فيحمل الخبر قبله الى الملك ويفتحم هذه الفرصة فيشي عليه بما يشاء .

وأمسك بوريس عن الكلام وهو يتفرّس في وجه الملك ليرى تأثير كلامه فيه فلم يرَ ما يدل على غيظ . . وطال الانتظار والملك لاهِ بأفكاره وعلائم الرضى ظاهرة عليه ، فقال بوريس - فإذا تأمر إذا يا مولاي ؟ . .
أأدعو اليك ماليوتا ؟

فاتّبه الملك وقال - لعلك تزعم يا بوريس كغيرك من الناس انه لا يهنا لي عيش بدون سفك الدماء . . نعم اني فاس في احكامي ولكني مع هذا عادل ورحيم ، فأرحم من يستحق الرحمة وأعاقب من يستوجب العقاب . فكيتا مجرم امامي من عدة وجوه لانه لم يراع اوامري وقد استخفّ برجال حرسى وجافاهم وقتل منهم في حوادث شتى الى غير ذلك مما لا أستطيع احتماله . ثم انه فرّ من السجن . . ولكني مع هذا كله أرى في نفسي عاقبة ميل نحو هذا الرجل لانه صادق في قوله مخلص في خدمته لي محب لوطنه الى درجة العبادة . فهو نادرة زمانه من هذه الجهة . . ولست أعلم الان كيف تكون نتيجة مقابلي اياه . . فابث من يدعوه غداً برجاله الى هنا ، فأنا بلهم وأرى رأيي فيهم

الفصل الثامن والأربعون

« العفو »

وفي اليوم التالي أوفد بوريس غودونوف رسولا الى الامير نكيتا يخبره بأمر الملك . فقام نكيتا من ساعته وسار برجاله حتى اذا وصلوا الى القصر وقفوا في فناءه ينتظرون

ولست هذه بالمرّة الاولى التي عرف فيها اللصوص قرية ألكسندورفا .
فقد جاءوا اليها قبل ذلك مرات عديدة في أزياء وهيئات مختلفة . فمنهم
من جاء بزيّ مشعوز ، او بزي فقير ومتسول ، او بزي مغن ، او ضارب
على آلات الطرب ، او غير ذلك

وقد كان منهم جمهور فيها يوم جاء برستن وكوشون لاتقاذ الامير
نكيتا من السجن . وهم الذين أضرموا فيها النار ليهمّ الاهلون والجنود
بالحريق ويخلو الجو لبرستن فينجو بالامير من غير ان يشعر به كما سبق
ذلك في حينه

ولم يكن الان بين هؤلاء اللصوص جمهور غفير من مجموعهم . فقد
سقط بعضهم بمحّة الحسام في سهول ولاية ريازان في حرب التتر . والبعض
الآخر أبوا ان يتوبوا ويرجعوا الى الملك بل آثروا البقاء في الغابات بزعماء
خلوبكو . وكوشون قضي عليه يوم قضي على غيره من « المجرمين » .
ورستن برح قرية ألكسندورفا حالاً بعد المبارزة بين الامير اناسي
فيازيمسكي والنبيل موروزوف وانطلق الى جهات نهر فولتا ومعه توما
الشجاع



ولبت اللصوص ينتظرون في فناء القصر اكثر من ساعتين وهم لا
يدرون ان الملك يرقب حركاتهم بعينه النفاذة من كوة صغيرة في غرفة من
قصره تطل عليهم . .

وكان الامير نكيتا منفرداً عنهم في جهة اخرى وقد أمعن في الخيال فلم

يسأ بالخلق الكثير الذين وقفوا في الابواب يتفرجون على رجاله . ومن جملة
الوافين هناك كانت أنوفرقنا حاضنة الملك . فاما خرجت من مخدعها
ووقفت في ناحية تتأمل هؤلاء الرجال . . وربما كان في عزمها ان تدافع
عنهم اذا بدرت من الملك حدةً اوقسوة جديدة ، لانها كانت تميل الى
الامير نكيئا ولا تفضل عليه احداً من رجال القصر

وظل الملك يراقب اللصوص من الكوة المذكورة وهو مسرور جداً
لوقوفهم على تلك الحالة بين الموت والحياة . . ثم خرج اليهم ومن حوله بعض
رجال بطائه . فلما أبصره اللصوص خرّوا له ساجدين . فوقف يتألمهم
وهو صامت . ثم امر فوقفوا ، والتفت الى الامير نكيئا وقال - ما الذي جاء
بك الى هنا ؟ . . فهل ألفت السجن ؟

فقال الامير - اعلم يا حضرة الملك اني لم أخرج من السجن الا مرغماً . .
وقد جئت الان مع هؤلاء الرجال لاني رافقتهم الى ميدان الحرب حيث
أبلاوا البلاء الحسن فقهروا التتر واقذوا ولاية ريازان كلها من الخراب . .
وها اننا نحمل اليك رؤوسنا ، وانت مخير بين ان تعاقبنا او تفقوا عنا
فقال الملك للصوص - فاتم اذاً الذين أقدمتم الامير من السجن ؟ . .
فن اين تعرفونه ؟

قالوا - انه أقصد زعيمنا من الموت في قرية الدب ، فأقذه زعيمنا
بدوره من السجن وكافأه بمثل عمله

فقال الملك للامير وهو يتبسم - في قرية الدب ؟ . . نعم اني اذكر
ذلك . فانك هجمت وقتلته على متى خوميالك ورجاله وجلدتموهم وقتلتم
بعضهم . . ولقد صفحت لك ذلك الاثم ، غير انك مالبت ان هجمت على

رجالي مرة اخرى في منزل النبيل موروزوف وألقيت بسبب ذلك
في السجن

وأراد الامير نكيتا ان يتكلم غير ان أنوفرفنا قاطعته بقولها مخاطب
الملك - انت لا تذكر الا السيئات والمآثم ، واما الحسنات والمآثر فتغضي
عنها . . فالامير نكيتا لم يفعل في حياته ما يستوجب العقاب بل كان ولم يزل
أشرف جميع رجالك واكثرهم شهامةً واوفرهم اخلاصاً ، وهو الرجل الفذ
الذي لا يجود الزمان بمثله . . والآن لانه كافح عن البلاد والدين وفهر التتر
وكسره شركسة تريد ان تنتقم منه بدلاً من مكافأته ورفع رتبته . .
فنظر الملك شزراً الى حاضنته وقال - اخبرني . . فليس من شأنك
ان ترشدني وتشيري علي . .

ثم التفت الى اللصوص وقال - اين زعيمكم ايها الشجعان ؟ . . فليبرز
من بينكم لأراه

فأجاب الامير نكيتا - ان زعيمهم يا سيدي قد تركهم حالاً بعد وائفة
ريازان وانصرف الى حيث لا يعلمون

فقال الملك - بخيل الي ان زعيمهم هو رفيق اللص الشيخ وقد قدما
الى هنا كأنهما أعميان . . فالشيخ أمسك وأعدم واما الزعيم فجاز بالنجاة . .
ولكنني أمرت ايها الناس ان تبحثوا عنه وترفعوه على أخزوق

فقال الحاضنة - انت أولى منه بذلك . . وسوف يرفك الالباسة
على خازوق حال في العالم الآخر لتكون عبرة لمن اعتبر

فأظهر الملك انه لم يسمع كلامها ونال للصوص - ايها اثم فبا انكم
ايتيم الي بأختياركم فاني أرحمكم وأعفو عنكم . .

ثم امر الخدام ان يقدموا لهم عشرة براميل من الشراب ، والتفت الى حاضنته فقال - فكيف رأيت عبدي اينها العجوز الخرفة ؟

فنظرت اليه ولم تجب

اما اللصوص فصاحوا بصوت واحد - ليحي الملك ابد الدهر !
فقال الملك للخدام - وقدموا ايضا الى كل واحد منهم بذلة عسكرية ،
فاتي اريد ان أضمم الى رجال الحرس

ثم التفت الى اللصوص وقال - فهل تريدون ان تكونوا في فرقة
رجال الحرس ؟

فارتبك اللصوص في امرهم وقال بعضهم - أطال الله عمر مولانا
الملك . . . انا نريد ان نخدمك كيفما اردت

فقال الملك للامير نكيتا - ماذا تظن ؟ هل يصلح هؤلاء
الرجال للجندي ؟

قال - نعم يا سيدي . انهم يصلحون لذلك ، ولكن لا تجمهم في
سلك الحراس

فظن الملك لدى سماعه ذلك ان الامير يحسب اللصوص غير اهل لهذه
النعمة فقال - ولكني اذا عفوت عن احد رأدت مكافأته فإستأففته الا
اتم مكافأة

فقال الامير - واي مكافأة هنا يا سيدي ؟

فبهت الملك ونظر الى نكيتا بمنتهى الدهشة وقال - وما معنى هذا الكلام ؟
قال - انهم يا حضرة الملك قد قاموا بعمل مجيد ، ولولا قوّة سوابدهم
لا ستولى التتر على ولاية ديازان بأسرها

قال - حسن . وماذا يمنع ان يكونوا في سلك رجال الحرس ؟
فأجاب الامير برباطة جأش - انهم يا مولاي ولئن كانوا الصوصاً
ولكنهم مع هذا يفوقون رجال الحرس بكثير من الصفات الطيبة والمزايا
المحمودة .. وفي انضمامهم الى فرقة الحراس قضاءً على كل مزية من
مزايام هذه ..

ولم يكن الملك ينتظر مثل هذا الجواب من الامير ولم يدرك كيف يعامله
على ذلك .. وقد تذكر ان الامير لا يستطيع ان يخفي شيئاً مما يحول في
افكاره ، وانه يؤثر الصدق على التراوغة والحيلة . فانه في اول مقابلته له بعد
عودته من بلاد لنفا قد حكم عليه بالاعدام لجرّد اعترافه الصادق . ثم أتي
بعد ذلك في السجن ومع انه أفلت منه فقد عاد الان وهو يعلم انه من
المحكوم عليهم بالموت ...

وبينما كان الملك في مثل هذا تتأمل استوقف نظره مشهد آخر .
وذلك انه رأى رجلاً غريباً في نحو الستين من عمره قد اخترق جماعة
الصوص وأقبل يسعى خلسة نحو الامير نكيتاً ، حتى اذا اقترب منه مدّ
يده لمسك طرف ثوبه وهو يحاذر ان يراه الملك ورجاله
فلما أبصره الملك قال - " ترى من هذا الرجل الغريب الذي اندس "

بين الصوص ؟

اما الرجل المذكور فما سمع كلام الملك حتى اسرع واختفى بين الجمهور .
فقال الملك للصوص - تنحروا عنه الى الجانبين لاني اودّ ان اعرف من هو
وما كاد الصوص يتنحون حتى بادربعض رجال الحرس الى الجهة
التي أشار اليها الملك وسحبوا الرجل

فصدق اليه الملك وقال - من انت يا هذا ؟ ..

وكان الامير نكيتا حالما رأى الرجل قد عرف انه خادمه ميخيش فقال

للملك - هو خادمي يا مولاي وقد مضت عليه مدة ولم يرني

والحال انحلت عقدة لسان ميخيش فقال - نعم ايها الملك فهو سيدي

الحبيب . واني لم أراه منذ قبض عليه في منزل النبيل موروزوف ، فكنت

أنتسم اخباره مع كل ربح الى ان بلغني اليوم اتفاقاً انه في القرية ، فأسرعتُ

لأراه وانا أحمد الله على نجاته وسلامته

فقال الملك وهو مرتاب في صحة ما سمع - فاذا أردت ان تقول له

الان ، ولماذا اختبأت وراء اللصوص ؟

قال - لاني خفت رجالك ايها الملك ، فهم قوم ...

ولم يُتم كلامه

فقال الملك - امض في حديثك ايها الشيخ .. فهم اي قوم ؟

فنظر ميخيش الى وجه الملك فرأى اماثر الدعة والحلم فتشجع وقال -

انهم قوم اشرا لم تر مثلم قط ، ولم يسمع اجدادنا بمثل هذه الآثام

والموبقات التي يجرونها في طول البلاد وعرضها

فدهش الملك لما رأى ان الخادم مثال سيده في المبادئ والصراحة في

القول ، ووقف يتأمله

فدالت له حاضنته - مالك ترمقه بهذا النظر الخيف ؟ .. اولم يتكلم

بالصدق ؟ .. فهل رأى الروسيون منذ اندم الازمنة حتى الان عصاة

شريرة كحكياسك ؟ ..

واذ سمع ميخيش كلامها ازداد جرأة وقال - لا فضفوك يا سيدي

فان الشر لم يظهر في روسيا الا بظهور هؤلاء الناس . . فهذا سيدي الامير لم
ير بسبيهم هناء ولا ساعة واحدة من حين رجوعه من ميدان الحرب في
بلاد لتفا حتى الان . . فكم اوغروا صدر جلالة الملك عليه ووشوا اليه به ،
وهو أتقى من الثلج وأصنى من البلور . . .

فلما سمع الملك كلام حاضنته وخادم الامير نظر الى كل منهما وهو يكاد
يتميز غيظاً . غير انه ما علم ان عاد الى سروره وقد أضمر ان ينتقم من
حاضنته فقال لميخيش - اذا فانت لا تحب رجال الحرس . . .

قال - نعم يا سيدي لا احبهم ولا أظن ان احداً غيري يحبهم . . .
ولولاهم لكان سيدي الان أقرب المقربين اليك وأشهر رجال بلاطك
فقال الملك للامير وهو يتعجب - ان خادمك نادر المثال ، وليس
لدي من رجالي من بخلص لي الحبة كما بخلصها هو لك . فهل له في خدمتك
زمن طويل ؟

فأجاب ميخيش عن مولاه وهو يزدهي تهاً وعجباً بنفسه - اتني
خدمته يا مولاي منذ اول حياته ، وهكذا خدمت اياه من قبله ، وأني
خدم جدّه ، ولو أن لي اولاداً لخدموه وخدموا اولاده من بعده
فقال الملك - أقلم يكن لك أولاد ؟

فقال وهو يتهدد - الى . فقد كان لي ابنان ، ولكن الله قد شاء فنقبها
اليه ، فانهما قتلا في الحرب وهما تحت لواء سيدي الامير ، احدهما سقط
بمعد الحسام ، والاخر اخترق صدره سهم من سهام العدو

كان الملك يسمع وبهز رأسه كأنه مشارك لميخيش في حزنه على ولديه .
ثم قال له - ولكن الله رحيم . . فسبر ذك غيرهما

قال - لا يمكن ذلك . فقد فقدت امرأتي ايضاً ، فهل أرزق اولاداً من كمي ؟

فضحك الملك وقال - لا تيأس .. فאלله يرى لك غيرها

قال - وهذا مستحيل ايضاً لاني مسن ضعيف ، فلن ترضى بمثلي واحدة من النساء ..

فدنا الملك من حاضنته وأمسكها بيدها ثم نظر الى ميخيش وقال له - انظر . اني أهبك هذه الحسناء لتكون زوجة لك . نخذها وعش واياها على تمام الوفاق والمحبة وهي تلد لك اولاداً صالحين ..

فلما سمع رجال الحرس هذا الكلام أدركوا مراد الملك فضحكوا ضحكاً عالياً

اما أنوفرفنا فاتفخت أوداجها وصاحت بالملك - أصمت يا رفيق الابلالة ونديم الاشرار .. وهل بلغت منك القصة حتى نهزأ بي بمثل هذا الكلام البذيء ؟

فقال لها الملك - حسبك غنجاً ودلالاً . فان هذا الشيخ سيكون لك نعم القربن وسيحبك ويرشدك الى الصراط القويم .. وسنحتفل بالعرس اليوم مساء

ثم اتفت الى ميخيش وقال -- كيف ترى هذه العروس ؟

فاجاب ميخيش وهو في اشد حالات الاضطراب والذعر -

رحمك يا سيدي !

قال - ما باللك ؟ ألعلم لم رَضُك ؟ . فاعلم ان بائنتها ستكون كبيرة

تستر عيوبها

نجثا ميخيش على الارض وقال - بالله يا مولاي لا تقبل .. أحكم عليّ
بالموت .. أرسلني حالاً الى المشتقة ، ولا تعطني هذه المجوز ، لاني لن أقبل
هذا العار ! ..

فقهه الملك حتى كاد يستلقي على نفاه ثم قال لميخيش - لقد أردتُ
يزفاف هذه الحسنة اليك سمادتك وهناك ، ولكنك أيت ، فابقِ اذاً
لدى سيدك ، اخذمه واعتن به

ثم التفت الى حاضنته وقال - واما انت فلا تعطيني .. فاننا سنجد
لك عريساً آخر ..

ثم تركها فانصرفت الى مخدعها وهي تشتم وتلعن ..

كان الأمير نكيتا يسمع حديث الملك ومزحه وهو في اشد حالات
الذهول والكمد ، يندب في نفسه حالة روسيا وسوء مصيرها على عهد هذا
الملك الغاشم الجاهل الذي لا يهمه من شؤون أبنائه واحوال الرعية شيء
سوى ملاحى والمجون وضروب الخلاعة والبذاءة والظلم .. فتهد طويلاً
وكادت دموعه تتفجر من مقلتيه ، لولا ان الملك ناداه اليه وقال - رايك
فانا أعفو عنك ايها الأمير لانك كفرت عن جريمتك بحسن دفنك
وجهادك .. اما هؤلاء الرجال (يريد اللصوص) فلا أعينهم في فرقة الحرس
لثلا اضرم نار الغيرة في صدور رجائي ، فلينضموا الى جيش الحدود
ثم ألقى يده على كنف الامير وقال له بصوت كله لطف ودعة - وامر

انت فابق هنا لاني اريد ان اصلحك مع الحراس وأجعلك واحداً من
الزعماء الكبار . . نعم انك كسرت التبر واتصرت على جيوش لتفا وقهرت
غير هؤلاء . الاعداء ، غير ان لي من رعتي نفسها اعداء آخرين يتآمرون علي ،
فأريد ان اعتمد عليك وأفوض اليك البحث عن هذه الافاعي لسحقها
فلما سمع الامير هذا الكلام قبض وأراد ان يتكلم ، فقاطعه الملك
بقوله - أنا اعلم انك صادق الطوية شريف النية لا تعرف المراوغة
والرياء . . واتي لني امس الحاجة الى امثالك . فاكسب في سلك رجال
الحرس وتقلد منصب الامير انساني فيازيمسكي . واطم اني واثق بك فأنت
لن تخونني ولن تغدر بي . .

وكان رجال الحرس الواقفون بالقرب من الملك قد امتلأوا حسداً من
الامير وبغضاً له لعلهم بما كان متصفاً به من الصدق والصراحة ، فخافوا
اذا أصبح زعيمهم أن يضرب على ايديهم الاثيمة ويكبح جماح اهوائهم
ومفاسدهم . . ولكنهم كانوا بهذه الافكار في واد والامير في واد آخر ،
لأنه رأى ان الملك بهذه الدعة انما يتضي عليه القضاء المبرم . . كان الامير
أعرف الناس بنفسه ، فهو لا يستطيع ان يظهر ما ليس في قلبه وليس في
طاقته ان يلبس لسكل حالة لبوسها ، ولذلك فانه لم يبطيء في تأمله بل أجاب
الملك بثبات جاش قائلاً - اني اشكر نعمتك يا حضرة الملك وأتمنى بكل
جوارحي ان اخذ بك كيفما شئت ، فما عليك سوى الأمر وما علي سوى
الاطاعة ولو بسفك دمي . . غير اني لم أعتد معيشة البلاط بين رجال الحرس ،
فأبتهل اليك ان تمنيني منها وتأذن لي أيضاً في الانضمام الى جيش الحدود ،
فقد يتاح لي هناك ان أقوم بخدمة اهق لجالك والبلاد

ولم يكن الملك يتوقع ان يسمع مثل هذا الكلام ويقابل بهذا الرفض ،
فرفع يده عن كتف الامير حالاً وقال له بازدرأه - الظاهر انك تؤثر البقاء
مع اللصوص على المعيشة في البلاط .. فانت حر مطلق ، وانا لا اريد ان
أرغمك على ذلك ، لانك قد ألفت تلك الحالة في البراري والغابات فلم يمد
يروق لك غيرها .. وقد عفوتُ عنك فلستُ براجع في كلامي ، فاذهب الى
الحدود واختر لنفسك الحالة التي تريدها ..

ولما قال ذلك أرسل الى الامير نظراً حادثاً ثم حوّل ظهره ودخل القصر
وكان بوريس غودونوف واقفاً يسمع ما يدور بين الملك والامير من
الكلام ويتمجب . فلما انتهى الحديث وانصرف الملك تقدم الى الامير
ودعاه لبيت عنده تلك الليلة . وقد فعل ذلك هذه المرة عن حب أكيد له .
وقد احترمه هذه المرة ايضاً كما احترمه يوم غياض الجاهلية وراه الآز كما
راه يومئذ كبيراً غنياً يفرق كل الناس ..

خرج الامير نكيتاً برجائه من القصر الى حيث 'عدت' هم لبيتوا ، ثم
تركهم ونوجه الى منزل مالياً تا مسكوياتوف فزار والدة اخيه مكسيم قياناً
بوعده له وهو في أثواب الاخيرة .. ولم يكن مالياً تا اذ ذاك في منزل ،
فأقام بعض الوقت مع 'الوالدة' المسكينة يمدن ذكرى ابنها واخيه .. وكانت
أم مكسيم قد علمت بموت ابنها قبل قدوم 'الامير' اليها ، ولكنها لم تعلم
الان بموت اخاتها لانيها قامت فقبلته وباركته وهي تبكي .. وقد اعطتها 'الامير'
صليب مكسيم ثم نام فردتها ، وانصرف زهي تدعونه وتباركه

الفصل التاسع والاربعون

« في منزل بوريس »

وفي المساء ذهب الامير نكيتا ومعه خادمه ميخيش الى منزل بوريس غودونوف . فاستقبله بوريس بغاية الترحاب والبشاشة . وبعد تناول طعام العشاء قام الامير فدخل الغرفة الممددة لمبته وانصرف بوريس لبعض شؤونه وجاء ميخيش فدخل على سيده وأخبره بالتفصيل عما جرى له بعد خراب قصر النبيل موروزوف وما كان من اجتماعه بالطحان وبرستن الى ان قال - فلما وعدني برستن بالمساعدة 'عدت' الى الطحان فوجدت عنده السيدة هيلانة زوجة النبيل موروزوف ، وقد عرفتني فأنست بي كثيراً وسألتني ان أصحبها الى قرية الدب ، وكان زوجها قد حمل اليها بعد دمار منزله . ولم يكن أشهى اليّ من خدمتها ، فقممت من ساعتى فركبت جوادي وركبت هي جواداً آخر وصرنا في الطريق المؤدية الى القرية . وكانت نسألني ونحن في الطريق عن زوجها ثم عنك . فسررت ما تقاصيل دذاعك المجير عنها وعن زوجها ، وانك انما بسببها قد كبلت بالحديد وودعت السجن . فلما وعت كلامي امتنعت واستخرطت في البكاء . فطيببت خاطرهما وذكرت لهما ما عولت على اتخاذه من التدابير لاتقاذك . . . وبعد ان سرنا مسافة طويلة وعدد أشرفنا على قرية الدب توقفت فجأة وقالت : « اني يا عماء لا أستطيع ان أدخل القرية وأجتمع بزوجي » . فسألتها وقد تحققت انها لا تحب بل

نحبك انت وتحيا بك : « فماذا اذا تريدن ؟ » . اجابت : « هل ترى تلك الصلبان الذهبية الظاهرة في طرف النابة ؟ » . قلت : « نعم ، فان هناك ديراً للبنات » . قالت : « خذني الى هناك ، فذلك خير لي وأبقى » . قلت : « وكيف ذلك ؟ فهل عزمت على الترهّب ؟ » . قالت : « كلا . . وانما صحت عزيمتي ان أمكث في الدير اسبوعاً أفضيه في الصلاة والعبادة ثم أعود الى زوجي او يرسل هو فيطلبني » . فأجبته الى سؤالها وواصلنا سيرنا حتى اتينا الى الدير ، فسلمتها الى الرئيسة وعدت ادراجي . .

وكان الامير يسمع بمنتهى الاصغاء . فلما فرغ خادمه تهدّ وبدت عليه امأر الاتقباض والخوف ثم قال - وكم يوماً الى دير البنات ؟
فأجاب ميخيش - نحو ثلاثة ايام من هنا ، ومع هذا فهو في طريقنا اذا كنت لا تزال عازماً على السفر الى الحدود

قال - ولكنني مضطراً الى البقاء هنا صباح الغد ايضاً ، لانه ينبغي لرجالي ان يحلفوا يمين الطاعة للملك . ولذلك فاني أطلب منك يا عزيزي ميخيش ان تقوم هذه الليلة من هنا فتسافر بما امكثك من السرعة الى الدير ، ومتى بلغت وجه هيلانة وقل لها أن لا تقبل شيئاً قبل ان أجتمع بها لاني موافقها الى هناك

قال - السمع والطاعة يا مولاي ، فسأفعل ذاك بكل سرعة ، ولكن كن على ثقة بان هيلانة تنتظرك فلا ترهب قبل ان تراك . . نعم انها ستقضي في الدير بعض الوقت ايضاً قياماً بواجب الحداد على زوجها ، ولكنها لا تلبث ان تخرج وليس لها من الدنيا سواك

قال هذا وخرج من المنزل وهو يتأهب للمسير . وله يكن الا القليل

حتى امتطى صهوة جواده وأعمل في خاصرته المهازير راح يهب الأرض
ووجهته دير البنات

ولبت الأمير بعد سفر خادمه تتقاذفه الأفكار المزعجة وهو تارة يمشي
في الغرفة ذهاباً وإياباً وطوراً يجلس متأملاً في حالته وغموض مستقبله ..
وقضى غابر تلك الليلة إلى صباحها وهو لم يلم يمس لشدته ما أخذه من الهواجس
والخواطر : . ولما أصبح خرج من الغرفة يريد مواجهة صديقه بوريس ،
فاخبره الخدم أنه قد انطلق على عادته إلى القصر ليرسم صلاة السحر مع
الملك ورجال الحرس

وعاد بوريس بعد ذلك بقليل فحيا الأمير وهو يظهر تعجبه لهوضه في
مثل هذا الوقت من الصباح ، مع أن من عادة الإشراف والأمراء أن
يستيقظوا بعد شروق الشمس بكثير ، ولكنه تبسم كأنه يقول له « قد
عرفت سبب أرقك » ..

ثم جلس الاثنان يتحدثان ويتذاكران إلى أن سافها الحديث إلى ما
كان من أمر النبيل موروزوف وزوجته . فتيقن نكيتا من خلال كلام
صديقه أنه مطلع على أسرار قلبه ، فكشف له في الحال المخاوف التي طرأت
عليه تلك الليلة

فقال له بوريس وهو يريد أن يسري ما به — اما حبك لهيلانة فلم
يخف علي من مدة طويلة ، وقد عرفت ذلك حين قدومك من بلاد لنا يوم
دعاك الملك إلى مأدته ، فانك كنت في أثناء الولية تنظر إلى الأمير أناسي

فيازمسكي نظر الغضب الشديد ، فلم يخف على سر الامر . . . فانت ايها الامير
لا تستطيع ان تكتم شيئاً ، واذا خالجت فكر فانه يرتسم حالاً على وجهك .
وقد سمعتك بالامس تخاطب الملك فلم تخف شيئاً من مكنونات قلبك
فامتلات رعباً عليك ، لانك خاطبتك كأنه واحد من امثالك او ممن هم دونك
رتبة ومقاماً ، فلم تخف احداً ولم تحسب لشيء حساباً
فقال الامير - وكيف تريد ان أخاطبك ؟

قال - كان الاجدر بك ان تشكره على انعامه وترضى باختياره اياك
زعماً لرجال الحرس

قال - لا يمكن ان يكون هذا . . . ولماذا لم تدخل انت في سلك
هذه العصابة ؟ ولماذا لم يدعك الملك الى الزعامة فيها وهو يميل اليك ويحترمك ؟
فضحك بوريس وقال - لاني نهجت غير الاساليب التي نهجتها
انت . . . فالأأعترض الملك في شيء ، ولم أتمدّ قط شيئاً من رسومه
واحكامه ، فهو راض بي وعني بهذا فقط . اما انت فتقاومه بمحديتك مقاومة
وتظهر له آراءك في خشونة وازدراء . . . ولوانك رضيت بالمنصب الذي
عرضه عليك وعملنا للمصلحة العامة معاً لاثنين بالعجائب ولا شيئاً بعد مدة
وجيزة فرقة رجال الحرس تماماً عن وجه الارض

قال - هو كما تقول ايها الصديق ، ولكني لا استطيع ذلك ولا
أريده بهذه الصورة

قال - لا جرم لك خنفت للاصلاح ولكمك تجهل السبل المؤدية
اليه ولا تعرف منها الا سبيلاً واحداً . . . انت ترى للناس وتريد ان تقاومه

وجهاً لوجه وتضربه الضربة القاضية .. غير ان ذلك لا يفيد ، وانما يزيد الشر تفاقمًا وانتشاراً

قال - اذًا فانا لا أصلح للحالة التي تقتديني اليها لاني لا أستطيع أن أظهر بنير مظهري الحقيقي .. ولا اكتمك اني كنت الومك في نفسي لتظاهرك بنير ما تفسر . أما الآن فقد رأيت ذلك منك أسلوباً وقد يكون مفيداً بعض الاحيان . فمساك ان تبلغ يوماً الغاية التي ترمي اليها من الاصلاح .. وأما من جهتي فقد قضي الامر لاني استأذنت الملك ان يرسلني الى جيش الحدود واجاب طلي

قال - هذا لا يضر اذا أحببت ان تتخذ خطتي وتسير وياي يداً واحدة . فبعد ان تقيم على رأس جيش الحدود بعض الوقت وتخوض غمار بعض الممارك هناك ببسالتك المعروفة يعود الملك فيدعوك ويعرض عليك مرة أخرى منصب الزعامة في فرقة الحراس ، فعليك حينئذ ان لا ترفض طلبه .. وأما هيلانة فتكون الى ذلك الوقت قد أتمت المدة القانونية للترمل فتخرج من الدير وتسير اليك . فلا تخش ان تهرب وانا اعرف بقلوب النساء منك ، فهي لم تقترن بالنبييل موروزوف الا لانها كانت تخشى الوقوع في الاشراك الكثيرة التي نصبت لها في مدة غيابك عن الوطن . فهي اذًا قد وقفت لك قلبها وليس فيه الا صورتك ، فدعها الآن في الدير الى ان يبرد الدم ونجف الدمة

فقال الامير وقد أبرق في عينيه نور الامل بمحصوله على هيلانة - أشكر مودتك ايها الصديق وأسأل الله ان يتولى مكافأتك .. اما الى فرقة رجال الحرس فلا تدعني وفي بلاط الملك لا تأمل ان أكون لاني لا

أريد ان أقرّغ من ذمّي وضميري وليس في طاقتي ان أنعلم أساليبك ،
اذ لكل في هذه الدنيا طبيعته وموهبته ، فالصقر نوع من الطيران وللأوز
نوع آخر ..

قال - فانت اذا لا تنكر عليّ بعد هذا اعمالي وأساليبي حباً الى
المنفعة العامة

قال - حاشا ان أنكر عليك شيئاً او ألومك في شيء لانك قد
اصطنعت لي ولرجالي من المعروف ما يفوق الحصر ، فهم سيذكرونك بهذه
اليد البيضاء اينما كانوا . وثق ايها الصديق بان الامة بأسرها تميل الان
اليك وترجو على يدك خيراً ، فكن انت عند رجاها واملها ..

فأبرقت أسرة بوريس وتورد وجهه ، لان اقتناع رجل كالامير نكيتا
بحسن اعماله وأصاله رأيه كان عنده كثير الاهمية ^(١) فقال - وأنا أشكرك ايضاً
ايها الامير لحسن ظنك بي .. والذي أرجوه منك هو انك اذا سمعت احداً
من الناس يعزو اليّ ما انا براء منه ان تتصدّي لتسفيه رأيه وتقيد زعمه ،
وتقفه على ما تعرفه عني وما خبرته بنفسك

قال - لست بغافل عن ذلك ، فلن أدع احداً يقن بك سوءاً او
يقول فيك كلمة مجحفة

قال - وأسألك ايضاً ان تدعوني لحضور حفلة زفاف هيلانة اليك
ولا تنسني ...

(١) وهذا بوريس غودونوف قد أصبح مد وفاة الملك يوحنا الرابع وابيه ثيودور ملكا في
روسيا . وستأتي الإشارة الى ذلك في آخر الرواية

ثم نهض الصديقان فتعاقبا وخرج الامير من منزل بوريس وكله آمال
بقرب اجتماعه بالحبيبة

الفصل الخمسون

« الخروج من قرية الكسروفا »

وأمرع الامير نكتينا فجمع رجاله وانطلق بهم الى القصر ليقسموا الملك
يمين الطاعة والاخلاص . فأعطاهم الملك من بيت الذخيرة الاسلحة اللازمة
وأمر فرقة من الخيالة ان ترافق الامير وتكون تحت امرته ، ثم صرفهم وهو
يظهر للامير عطفه الخاص . وقد شعر بان الامير هو الرجل الوحيد الذي
قهره في المملكة كلها لانه لم يستطع ان يستميله اليه او يبطش به ، ولكنه
أضمر في نفسه ان ينتقم منه في فرصة اخرى شر الانتقام

وسار الامير يتبعه الفرسان ووراءهم اللصوص بأثوابهم الجديدة
وأسلحتهم الكاملة .. وقبل ان يخرجوا من للقرية رأوا مشهداً كان يمدُّ في
ذلك الزمان شؤماً . وذلك انهم بينما كانوا بالقرب من احدى الكنائس
اعترضهم في الطريق جمهور من الفقراء كانوا يتزاحجون على باب الكنيسة
انتظاراً لصدقات المحسنين . فاضطرَّ الامير وجيشه ان يسيروا بكل بطء
ليتمكنوا من المرور ، فسمعوا اصوات نشيد محزن في الكنيسة ، فسأل
الامير عن ذلك فقيل له ان مالىوتا سكوراتوف يقيم حفلة دينية لذكرى
ابنه مكسيم الذي قتله التتر في جهات ريازان . فوقف الامير وقد تقبض
سدره ، فسمع صياحاً شديداً ثم رأى بعض الناس يحملون من الكنيسة

امرأة عجوزاً فافدة الرشد ، فتأملها واذا هي أم اخيه مكسيم ، فتأثر لمرآها على تلك الحالة .. وفيما هو كذلك وقف بباب الكنيسة مالىوتا نفسه وقد قابلت عيناه عيني الامير ، غير انه كان هذه المرة حزينا منكسراً ولم تظهر على وجهه شراسته الطبيعية ، وقد حنى رأسه للامير ثم عاد ادراجه ..

وكان الامير ورجاله قد رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم وساروا في طريقهم بنم الخشوع . وظل الامير متأثراً بما رأى مسافة طويلة الى ان عادت الى مخيلته ذكرى هيلانة . وكان قد بلغ آخر مكان يشرف على قرية ألكسندروفا فوق وأرسل نظراً اخيراً اليها ثم حوّل ظهره ودخل الغابة وقد شعر براحة تامة كأنه كان يحمل على ظهره في تلك الجهات جبلاً من الحديد ، والان وقد غادرها شعر ان تلك الجبال قد سقطت عن ظهره ..

ولما أقبل الصباح كان الامير نكيتاً سائراً في طريق ، وسكو راكباً جواداً مطهناً بعدته الكاملة ، وفي اثره فرسانه ورجاله بنضاهم اسكري ، وامامه بويان كلب اخيه مكسيم يطفر فرحاً ويقف في بعض الاحيان فيرهب اذنيه ثم يعود الى مسيره ..

وبعد يومين وصل الامير الى مكان تنفرع منه طريقان ، احدهما طريقه الى حيث قسم له ، والاخرى تؤدي الى دير البنات . وكانت الشمس قد غابت وأقبل الظلام ، فأمر رجاله ان يبيتوا هناك ، وسر هو بسرعة البرق في ذلك الليل الدامس ليقابل خادمه ميخيش . وكان نظره موجهاً الى كل جهة يحترق الظلام وافكاره تائهة في مهامه الخوف . حتى اذا أقبل الفجر أبصر خادمه جالسا على قارعة الطريق وجواده الى جانبه يلهث تعباً فلما رأى ميخيش سيده مقبلاً وثب على رجليه ووقف في طريقه

وهو يقول - قف يا مولاي وعد من حيث أتيت ، فلم تبق لك حاجة الى الدير

فصاح الامير وقد جمد الدم في عروقه - ماذا تقول ؟ ..

قال - قد تم كل شيء .. وليس لنا حظ بالسعادة

فلما سمع الامير ذلك شعر كأن روحه قد اختطف من بين تراقيه وسقط على الارض خائر القوى . ولما تاب اليه روعه قال لميخيش - أخبرني ماذا جرى لهيلانة ؟

فهز ميخيش رأسه وسكت وكانت دموعه تهطل على خديّه

فازداد الامير ارتعاداً وقال - بالله لا تعذبني يا ميخيش بل قل

ماذا جرى ؟

قال - ان هيلانة ياسيدي قد تركت الدنيا ودخلت في سلك الراهبة

وأصبح اسمها الان « الاخت افدوكيا »

وكان الامير كمن يسمع الحكم عليه بالاعدام . غير انه تجلد وقال -

أخبرني بالتفصيل متى ترحبت هيلانة ؟

قال - يوم بلغها خبر مقتل زوجها . وكان الملك قد أرسل الى الدير

باسماء المقتولين لاجل اقامة الصلوات عن انفسهم

قال - وهل رأيتهما ؟

قال - نعم

وأراد الامير الكلام فأرتج عليه

فقل ميخيش - رأيتهما لحظة فقط لانها لا تريد ان تعابل احداً

وكادت ترفض مقابلي ايضاً

قال - ماذا أمرتك ان تقول لي ؟

قال - أن تصلي لاجلها ولا تحاول مشاهدتها

- ثم ماذا ؟

- لا شيء يا سيدي

- قدني الى الديز يا ميخيش فاني اريد أن أراها وأودعها

- لا يمكن أن يكون ذلك يا سيدي ، فلا تزعجها في خلوتها لانها

قديسة الآن ، والافضل ان نعود الى الجيش وتتابع مسيرنا

- بل لا بد من مقابلتها ...

فلما رأى ميخيش ان الممانعة لا تجدي فعماً قال - ليكن ما تريد

يا مولاي

ثم ركب كل منهما جواده وسارا في طريق الدير صامتين هاجسين ،

الى ان بزغ الفجر وقد مرّا بجانب نهر صغير وأبهرا بقربه رحي طاحون

وأقراض بناء فقال ميخيش - هل تعرف يا سيدي هذا المكان ؟

فرفع الامير رأسه وقال - نعم أعرفه .. فقد كانت ههنا طاحون

التي بنتا فيها ليلة ونحن قادمان الى موسكو من ساحة الحرب

قال - أصبت . وقد هدم رجال الحرس الطاحون بههنا فاختلوا

الطاحان المسكين زاعمين ان تحتها كنزاً مطهوراً ولكنهم لم يجدوا شيئاً

فلم يجبه الامير بشيء لان افكاره كانت منصرفة الى ما هو أهم من ذلك

ولما تناصف النهار قال ميخيش - قد كدنا نصل يا سيدي وههنا هي

قباب الدير قد ظهرت من وراء الغابة ولم يبق لنا الا مسافة قصيرة

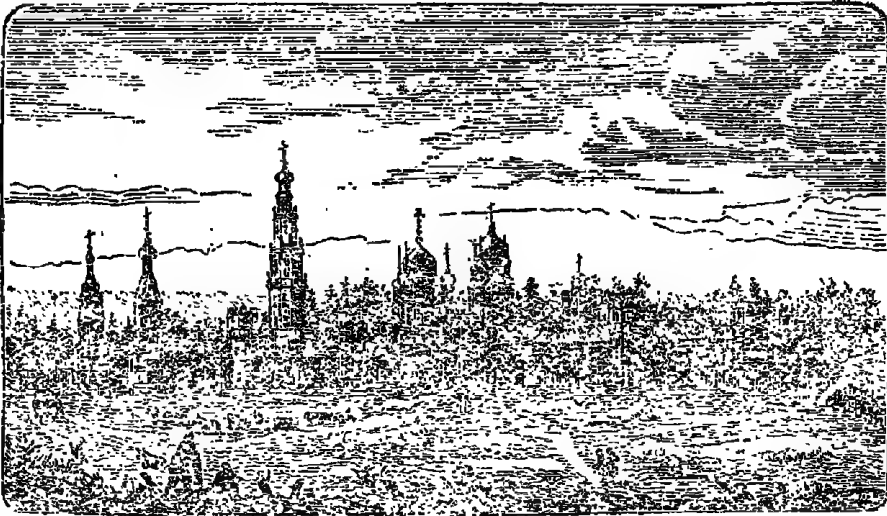
وما قرعت هذه الكلمات اذني الامير حتى شعر بقوة كهربائية أصابه

عجراها فاهتز لها جسمه وشعران عينيه تودان الخروج من وجهه لتطيرا الى
الجهة التي اشار اليها ميخيش ولا يستطيع تحويل نظره عنها

الفصل الحادي والخمسون

«الرير»

وظل الامير نكتنا وخادمه يبحثن الجوادين بكل قوتها حتى تصيب
العرق متها وكادا يسقطان تحتها عياء . ولم يكن الا القليل بعد ذلك حتى
وصلا الى الرناج الخارجى للدبر . فترجلا عن جواديهما وقرعا الباب قرعاً



دير البنات

عنيفاً ووقفوا ينتظران وهما على مثل الحجر . فسمعا من وراء الباب خطوا ثم
فتح وظهرت فيه راهبة فخيتهما وقالت - من تريدان يا سيدي ؟
فقال ميخيش - نريد الاخت افدوكينا ، وانت تعرفيني ايها الاخت
الصالحة ، فقد كنت هنا اول امس

قالت - كلا ، لا أعرفك ولم أرك ، لاني لم أكن هنا الا اليوم وقد
كانت قبلي الاخت أغنس

فقال ميخيش - نرجو منك اذاً ان تخبري حضرة الرئيسة بان الامير
نكيتا سير برباني يروم مواجهتها

فأقفلت الراهبة الباب ودخلت ، وبقي الفارسان خارجاً ينتظران وقد
سمماها تقول : « اللهم ارحمنا ، ولا تدع للاشرار سبيلاً إلينا . . . »

فتمجّب ميخيش ونظر الى سيده فرأى وجهه مخيفاً رهيباً وقد
ارتسمت عليه دلائل الاضطراب الشديد ، فأدرك سبب خوف الراهبة

وانه لكذلك اذ عادت الراهبة البوابة وقالت من وراء الباب بصوت
الخائف المذعور - عفواً يا سيدي فان حضرة الرئيسة لا تستطيع قبولكما.
وهي تسألكما باسم الرب ان تبعدا من هنا . . . وان شئتما فتعاليا غداً

فصاح الامير - ليس في طائفي ان أنتظري الى الغد . . .
ثم دفع الباب فكسره ودخل وقد ازدادت هيئته توتلاً . . . وما كاد
يدخل حتى أبصر امامه الرئيسة وزججها أصفر كأنها احد الاموات . فقالت
له وهي ترتجف من الخوف - أستحملك بالله ان تقف مكانك ! . . . لاني
أعلم سبب مجيئك الى هنا . . . غير ان الله عادل وهو ينتقم للابرار . فمضى من
حيث انبت ولا تسخط الله . . .

فلم يدرك الامير سبب خوفها وقال لها - ايها الاميرة اشريفة !
اسمحي لي ان أقابل الاخت افدوكيا وقتاً قصيراً جداً ، لاني أريد ان
أودعها فقط ثم أنصرف لشأني

قالت - وهل تريد حقيقة ان تودعها . . . وليس لك عزم آخر ؟

قال - نعم . اني اريد ان اراها وأودعها .. ولك مني في مقابلة ذلك
كل نروني وما أملك

فقلت له وهي غير مصدقة كلامه - انك كسرت باب الدير ودخلت الى هنا على الرغم من توسلاتنا .. ولا شك ان رجال الحرس امثالك يطوفون الان في الاديوار المقدسة بقصد الحصول على نساء النبلاء وبناتهم، اولئك النبلاء الذين حكم عليهم بالاعدام في موسكو .. والاخت افدوكيا هي زوجة احد هؤلاء المنكودي الحظ

قال - ولكني لست حارساً يا سيدتي ، بل أنا عدو هذه العصابة
الشرطانية ، ولو استطعت لفديت بروحي النبيل موروزوف زوج هذه
المخلوقة . . فاسمحي لي اذاً بمقابلتها ولا تطيلي تعذيبي

فنظرت الرئيسة الى الامير فرأت أماراً الشرف والمروءة بادية على وجهه
وفرأت في عينيه دلائل الصدق والاخلاص قتالت - لقد صدقت كلامك
ولم أعد أخشى شرآ من جهمتك ، فاتبهني

ثم سارت بين صفين من أشجار حديقته الدبر. والامير يتبعها سوطاً طينياً ،
وعمر صامت وحزين

وكانت هبلاته (الأخت افدوكيا) جالسة ساعته على متعدد من خشب
في أقصى مكان في اشديقة ، وقد ارتدت ثياباً اسود وسدت جها بلنام ، ولم
تـعلم شيئاً مما جرى

وتمسكته من اذنه فصرخ وصرخ قائلاً م تهرب اليها اذ ذرت رأسها فأبست
الرأسه وقامت من الاما. ولكنها ما كادت تسلك ذلك حتى رأت الامير
يكنى قال عيناها عبيده. فصرخت وسقطت الى الارض

فبادرت اليها الرئيسة فأنهضتها وأجلستها على مقعدها وهي تقول -
لا تضطربي يا ولدي .. فهذا الامير أحد أصدقاء زوجك وقد جاء ليودعك،
فتشجبي وقابليه

فلم تحب هيلانة بكلمة، بل كانت ترتجف والدموع نهطل من عينيها بغزارة
وكان الامير حين أبصرها بثوبها الاسود الرهباني قد ارتش ارتماشاً
شديداً واقلبت صورة الدنيا في عينيه . بيد أنه تجلد ودنا منها وقبله يتصدع
ألماً ثم قال - أمكذا قضي علي ان اقابلك يا هيلانة ؟
فأجابته وهي تنهد وتشرق بدموعها - نعم .. وليس لنا أن نتقابل علي
غير هذه الصورة

فشمر نكتنا ان ناراً تحرق أحشاءه فقال - ولماذا لم تنتظري عودتي
أيها القاسية ؟ لماذا لم تنتظري أياماً فلائس قط ؟
قالت - لانني لو انتظرت لما أمكنتي الهجره الى هنا .. وحسي
ما سقطت فيه من الآثام السابقة ..

قال - اذاً فقد تم كل شيء ، ولم يبق الا أن أودعك الوداع
الابدي .. فاسمحي لي أن اشاهدك المرة الاخيرة .. أميطي هذا اللثام
عن وجهك لأرى عينيك الوديعتين وأنزود منك آخر أنظرت
فأزاحت هيلانة اللثام عن وجهها ورأى كبد عبيد انصرتين من
شدة البكاء وقد ذل ورد وجنتيه

وكانت رئيسة قد أدركت بعض شيء من أمرهما فصرفت لسانها.
ولما خلا المكان قال الامير وفؤده يتنت ومهجنه تنقطع - الوداع

يا هيلانة .. الوداع يا من كانت قبة امانى ووجهة آمالي .. الوداع
يا من وفقت لها كل دقيقة من وجودي .. نعم الوداع .. وهي مشبهة
الله ، وقد كتب لنا هذا الشقاء ...

فأجأت هيلانة والدموع تكاد تنخفها - ليس لما أن تكون على حال
أفضل مما نحن فيه .. لان دم الندي ، مودوزوب قد حال مبتا وبين السعادة
التي كنا نرجوها .. هو بسبي قد نكب وعتب وقتل وأناعة ذلك كله ..
فكيف يمكننا بعد هذا ان نكون سعيدين ؟ .. ومن السعيد لان في روسيا
كلها من أنفسنا الى أنفسها ..

وكان الامير يفضل الموت على سماع هذا الكلام فقال - صدقت ..
فليس أحد سعيداً في هذه الاحوال المظلمة وفي هذا الهدد الدري ..
ولكني لم اكن أتوقع أن أفارقك في هذه السرعة فراقاً دائماً أبدياً ...

قالت - ولكن فراقنا ليس أمدياً كما تزعم .. بل هو وقتي في هذه
الحياة المملوءة مكاره ونوئ ولا سيما في بلادنا التمسمة

قال - ياليتني مت قبل الآن .. فقد تعرضت لكثير من المخاطر
والاهوال ونا لوفقات لكنت حنفت عن نفسي طاعة حزن لا يتاس به
أشد الاحزان وقوى اليأس .. فانا ان حوالآن من دنياي وقد اياشت
آمالي وقضي علي بان موت غماً ..

قالت - اصبر على حكمة تمضيه ولا تحمد عما تمودته مد زمان من
الاعمال الخبيثة في حكمة الوطى للزبره في ذلك خير وسيلة للسلو وأعظم
مساعدة على احتمال هذا الرزء الاليم .. أما انا فان أقطع عن الصلاة
لأجلك .. بساً انك يسليني بمض التسلية ويخفف عي بمض انقص

فزفر الامير زفرة حارة ثم قال وهو يضطرب وينتفض - واي وطن
 تمنين ... وابن هو هذا الوطن الذي يجب ان ندافع عنه ... ومن هم
 اعداء الوطن الذين ينبغي ان تقاومهم وزد عن الوطن كيدهم ... فاعلمي
 يا هيلانة ان اعداء اوطن هم الملك نفسه ورجال الملك المحيطون به ، وليس
 التران وغيرهم كما تزعمين وبزعم الجميع .. فالملك وحده هو عدو الوطن
 الاشد ، وهو علة بلايا وشقائه .. ان افكاري يا هيلانة قد اظلمت
 واضطربت . وكل شيء قد اظلم في عيني ، فلا تدري ابن الكذب وابن
 الصدق ، ابن الضلال وابن الحق .. وقد ذوى كل شيء صالح الان
 واختنق ، واما نشر فاشد وساد .. وطالما سوت لي نفسي ان اهجّر
 هذه البلاد وأرحل الى غيرها كما فعل الامير كوريسكي وغيره ممن لم تحتل
 قوسهم الاية مثل هذا الهوان ، ولكنني بذت هذه الافكار من رأسي
 لاني كنت أحيلا لاجل غاية وكانت في قوة ، وهي لي كنت أرى لدنيا
 كلها فيك ولا أرى من الدنيا سواك .. اما الان .. وقد كسر قلبي ومزقت
 كبدي ، فلم يبق لي مطعم في العيش ، وقد زالت هذه الغاية التي كنت
 أحييها وفنيت مني القوة واضطرب عقلي وأظلم ..

نفحات عليه هيلانة وجلت تحقف من هيجان فكاره وتجهدهن
 تسكين خواطره ثم قالت -- عفوا يا نيكيتا ! اصفح لي مدحني فقد نصبت
 حياتك وكنت علة شقائك .. ولذي أرجوه منك ان تنساني وتمحو ذكرى
 من قلبك وتحسب اني قطعت من ارض الاحياء .. وعلم ان في قلبي من نار
 الوجد ما يحرق جسدي في عيوني من دموع الحزن ما يترشح جفاني ،
 وهذا حسي .. فارحمي .. رث اضمني وعلمي ثقلات وقرة حناك مقارعه

الخطوب وكن عوني على البلاء بابتعادك عني ونسيانك اياي .. واياك ان تسول لك النفس معاداة الملك . نعم انه علة جميع هذه الخطوب والارزاء ، غير انه من الله ، وسيكافئنا الله في العالم الآتي احسن مكافأة ونرى بعضنا بعضاً .. على هذا الامل عش الان يا نكبتا ودعني أبكي حظي واكفر عن كل ما جرى بدموعي مترحة على الميت مترجة له ولنا العفو وانغفران .. وقم الان ايها الحبيب واذهب الى حيث أرسلك الملك ولا تنس الواجب الوطني .. انت رفضت الانخراط في سلك رجال الحرس وحسنًا فعلت ، واتما عليك ان تنطلق الان لمحاربة اعداء الوطن والدين ، وانا أسأل الله ان يهويك ويشدك ويجبر كسر ك ..

فأن الأمير أنيناً محرقاً وقال — سأصرف الان عنك يا هيلانة ، يحمل قلبي صورتك وتملك ذاكرتي امامي في كل دقيقة من دقائق حياتي ، فأراك بهري على الرغم مما بيننا من بعد المسافة .. ولو كان حبك لي كحي لك لقامت الخلائق كافة والمصائب والحياة وكل قوة وبقيت لي ..

ولما قال هذا اخذ يدها المبلتين بالدموع وقبلهما وهو يكاد يحرقهما بأفأسه .. ولم تعد هيلانة تقوى على ضبط عواطفها ، فانحنت عليه فقبلته وقبلها ثم فتمت كلمة الوداع وابتعدت عنه وهي تشرق بدموعها وتعتز بأذيالها. اما الامير فخلما فصلت عنه هيلانة اعتراه رعشة صديّة وقد أظلمت الدسا في عينيه وشعر ان دمه جمد في عروته وان قلبه تحول الى حجر . ولبت تضع دقائق شاخص تنظر باحظ العينين أصفر اللون كمن انتشرت على حياء ضباب الموت .. فتقدمت اليه الرئيسة وأمسكت يده وهي تزي لحاله ، ثم قادتة الى باب الدبر فتبعها مصطحاً وهو لا يفقه بكلمة . ولما مدت

يدها لتودعه أفاق من ذهوله فتجلد وشكرها ، ثم جمع قواه المتضعفة
وامتطى جواده وقفل راجعاً وهو يكاد يسقط عن الجواد لفراط حزنه
وشدة ارتعاشه

وكان ميخيش يتبعه صامتاً متدلهاً من الجزع والقلق على سيده لعله
بأن هذه الضربة هي أعظم ما يقوى على احتماله وأنها قد أذهبت رشده
وكسرت قلبه كسراً يصعب جبره ، فكيف له أن يسليه الآن ليدراً عن قلبه
الكسير ما لقيه من آلام الخيبة ومرارة الحرمان ..

وكانت مظاهر الطبيعة على جانبي الطريق مما يسر النواظر ويشرح
الخواطر ، ولكن نكيتا لم ينتبه الى شيء من ذلك بل أضمن في الخيال وفي
صدره ما يمزقه وفي قلبه ما يسيل دماء .. وقد تمثلت له مرارة الحياة باقصاله
عمن كانت سبب حياته ، فنأوه وقطع قلبه . وما زال يسير وهذه حاله حتى
التقى جماعة اللصوص والفرسان ، فسار في طليعهم وتبعوه الى الجهة التي
عُسمت له ولهم ..

ولم ينسَ الأمير وعده لرئيسة الدير . فلما كان بعد أيام من ذلك التاريخ
أرسل باسمها ما بقي لديه من ثروته وكانت أموالاً لا تحصى ، فقبلتها الرئيسة
وأضمتها الى مال الدير وكلها السنة ناطقة بشكر هذا المحسن الكريم والدعاء له

الفصل الثاني والخمسون

(بومنا الرابع في أواخر عمره)

وتابعت السون بعد ذلك والنكيت بوحنا لرابح الرهيب على حاله من

الظلم والاستبداد والتككيل بأشراف رعيته ومشاهير رجاله . وقد تمادى في ضلاله وطمعانه حتى زهقت الارواح وسمت الشكوى ، واشتد تيار المهاجرة وأخذ الروسيون يتزحون مثاث والوفاء الى بلاد لفا وبولونيا هرباً من ذلك البلاء الجارف

ولم ينج من غضب الملك من اخصائه الا مالىوتا سكوراتوف وبوريس غودونوف . وكان بوريس قد احتفظ بمنصبه ومكانته في البلاط ، فلم يسقط رأسه كما سقطت مثاث كثيرة من رؤوس غيره من الاخصاء والنبلاء ورجال الدولة الا لأنه كان بصيراً متروياً داهية ، وقد عرف مالىوتا وأدرك قوته من أول الأمر فصادقه وصافاه واقترن بابنته ، فأتى بذلك شره وأمن جانبه

وكان مالىوتا لم يزل رجل الأهوال والفضائح وصديق الملك وشريكه في اتشورور والمفاسد ، الى أن صرع أخيراً وقتل شرقة في احدى الحروب التي ثارت بين الروس من جهة والامان والاسوجيين من جهة اخرى ، ولما عي هذا الخبر الى الملك يرحنا قامت قيامته وأمر بتل جميع الاسرى من الأعداء فأحرقوا ...

وخلا الجو لبوريس بعد مصرع مالىوتا مبلغ ثمة المعالي وأصلح المستشار الوحيد للملك ومعتمده الخاص . وقد تزوج ثيودور ابن الملك اخيه (ايرينا) وكان ثيودور هذا الابن الثاني لبرحنا الرابع ، ثم أصبح ولياً بعده بعد موت أخيه (كما سيجي)

ورأى بوريس أخيراً ما آلت اليه أحوال البلاد من الخراب والدمار ، نهض لتلافي الأمر ودفع الشر ، وقد توسل لذلك بكل ذريعة الى أن حمل

الملك أخيراً على ملاشاة فرقة رجال الحرس التي كانت الضربة العظمى على البلاد وعلت كل هذا الدمار. وقد اتقاد الملك له أيضاً فهجر قرية الكسندروفا وعاد الى موسكو عاصمة البلاد

غير أن النكبات ظلت متوالية فلم ينقطع سيابها. وقد اشتدت الهجمات وانتشرت الاوبئة فأهلكت الخلق الكثير وأمسّت البلاد محفوفة من كل جانب بالخطر والاعداء يهددون بها كل يوم بالخراب. وقد اجتاحت التتر من الجهة الواحدة الاقاليم الجنوبية وأجلوا السكان من منازلهم وأوطانهم بعد أن نهبوا خيراتهم وساقوا نساءهم سبايا. ودوخ الاسويجون من الجهة الاخرى الاقليم الشمالية. بينما كان اتقناويون يشنون الغارات على الاقاليم الغربية ويكتسحونها. وكادت البلاد بذلك كله تصح قاعاً صافهاً

وكان يوحنا ولي عهد الملك يوحنا الرابع يشارك أباه في شروعه ومظالمه. . . وقد رأى انحطاط المملكة وتدورها فطلب من أبيه أن يرسله بجيش ليحارب الاعداء بنفسه. فأوجس الملك شراً في افكاره وقد رآه طلب ابنه وغلب عليه سوء الظن به، فرأى أنه يدر مكيده جديدة ينوي أن يكيدها له ليخلعه عن كرسي الملك ويتولى هو عوضاً عنه. . . ولما كان في أحد الايام وقد تجسم هذا الظن في نفسه نار غضبه على ابنه وولي عهده تناول عكازه المشهور وطمعه به في صدره وراح لمسكين شهيد جنون أبيه ريقن أن بوريس غودونوف كان حاضراً في أثناء مقتل ولي العهد. وقد رثب يخيم فأصيب بجرح خطير كاد يفقه حياته، ولم يتسن له الا ان يوفي له كفاً تسنى ذلك للامير نيكيتا في غياض الجاهلية. وبده الملك على ما فعل ندماً شديداً ولبث ما تسوس السكندر العظيم

أفكاره وتوعجه الأحلام المخيفة والرؤى الهائلة ، حتى بات عرضة للوساوس فلم يقر له قرار ، وقد شعر انه أصبح ملعوناً من السماء والأرض ، فأحب أن يتخلى عن شؤون المملكة وأعلن عزمه على الاقترع الى أحد الاديار ، وطلب من أعضاء المجلس الأعلى للمملكة (مجلس الدوما) أن يختاروا ملكاً جديداً . غير أن الأشراف ورجال الدين التمسوا منه أن لا يفعل ،



نمض لتلاقي الامر و... وقد حدث هذه الصورة عن شمال أتيمة في موسكو

وما زالوا يلحون عليه حتى رضي ببقائه في كرسي الملك وهو يظهر التوبة
والندم . . ولكنه عاد بعد أيام معدودة الى سابق عسفه . . ومن ذلك أنه
قضى بالاعدام على الفين وثلاثمئة رجل لأنهم سلموا العدو مقللاً كانوا
متحصنين فيه ، مع أن العدو نفسه شهد لهم بحسن الدفاع والبسالة النادرة
وأنهم لم يسلموا إلا بعد أن فقدت منهم جميع وسائل الدفاع
وخلاصة القول أن البلاد الروسية لم ترد ماراً أشد من الدمار الذي
اتلها في عهد هذا الملك الظالم الثاني ، وقد انسلخ منها عدة أقاليم استولى
عليها الأعداء ، والملايين لا يحصى باختراع أصناف العذاب واعداد آلات العقاب
والتنكيل برعاياه ، غير عالم كيف يدفع عن البلاد شر الأعداء . وقد أثرت
هذه الحوادث فيه تأثيراً شديداً فحنت ظهره وأفقدته كل رشد
وبينما كانت هذه الزعاع تعصف ووردت من جهات نهر فولغا شرى
أفعمت القلوب مسرة وهاء وأنست الناس مض مصائبهم

الفصل الثالث والخمسون

(برماق و برستن)

أن برستن زعيم القصر بعد ما شهد انه اربعة شهيرة بين نعيم
موروزوف والأمير ثنائي فيازيمسكي اقام في قرية نكسند وفي يوم آخر
ثم غادرها واطلق الى جهات نهر فولغا ، ولم يكن معه من رفقاء في هذه
المرّة الا توما اشجع

ولم يسر برستن ، حاث ثمة كاشون له مخصوص الكنز العظيم

بالقرب من قرية (البشارة) . فانه بحال وصوله الى جهات النهر العظيم قصد الى القرية المذكورة وبحث عنه في حقل « الدائرة » كما أشار كرشون فوجده واذا به أموال كثيرة ، فحملها مع نوما وسارا بها الى حيث كان يرماق كبير زمناه للقوزاق في تلك الجهات . فاستقبل يرماق صديقه كولاتسنو (هكذا كان اسم برستن في جهات نهر فولغا) بنابة الترحيب ودعاه ليعيم معه ويشاركه في اعماله

وكان ذلك أشهى مآثناه برستن . وقد رافق يرماق في جميع غزواته ، ونوما معه لا يفارقه لحظة من الزمن . حتى اذا كان في بعض الايام علم يرماق ان جمهوراً من تتر بلاد سيبيريا قد شنوا الغارة على بعض الاناميل الروسية المتاخمة لجبال أورال وعاثوا فيها وأنفدوا . فجمع في الحال رجاله وكانوا نحو ثمانئة وخمسين قوزاقياً . وقد استعان على تجهيزهم بالاسلحة والذخيرة بجمهور من كبار التجار الذين قطنوا تلك الجهات في اوائل عهد الملك يرخنا وكانوا معرضين لكل غزو وويل من جهة التتر ، فقدموا له اسخاء . كان في حاجة اليه ، وزحف يرماق برجاله بعد ذلك الى بلاد العدو وقد انتفى جبال أرزل وهو موطن التتر على الاستقام من التتر وغزوم ولا وصل الى الحدود السيبيرية انقى جيشاً من التتر عنته الحرب رتسهم ، لان اولئك الاقوام لم يكونوا قد عرفوا الى ذلك لهدد الاسلحة سارية ، بخلاف الروسين فقد كان لديهم كثير من البنادق والمدافع الصغيرة . فاما انجح القتل واخذ رجل يرمق يطلقون بنائهم ومدافعهم دهن انتروا وامنرا ان القوزاق جامدا بحاربونهم برعد سماء ، فاشللت

قلوبهم وركنوا الى الفرار ، واستولى القوزاق على كل ما كان لديهم من الزاد
والذخيرة وجدوا في ارم

وكان للتتر في سيبيريا في ذلك العهد ملك يقال له كوتشوم . فلما
بلغه خبر ظهور الروسيين في بلاده واتهم كسروا عسكر الحدود خاف خوفاً
عظيماً . ولم يبطئ ان استدعى احد قواده وكان من امرأ الاسرة المالكة
واسمه (مامتكول) وأمره ان يجمع جيشاً جراراً ويسير به لمحاربة الغزاة ،
وقام هو فتحصن ومعه جيش آخر في بعض الجبال القريبة من مدينة
« سيبير » عاصمة المملكة

وزحف مامتكول بجيشه لمقاتلة الروس . ولما التقاهم درت بين الجيشين
معركة هائلة كان النصر فيها لرجال يرماق ، فاهم قهروا التتر وكسروهم وشبه
كسرة ، وقد قتلوا منهم خلقاً كثيراً وبدؤوا شملهم ونجا مامتكول ومعه
قوم من رجاله . ولم يبق من الروسيين بعد تلك المعركة الا خمسة . فسر بهم
يرماق نحو الجبل الذي كان متحصناً فيه الملك كوتشوم ، وكان مامتكول
قد سبقه اليه

وفي اواخر شهر تشرين الاول سنة ١٥٨٢ اشتبك بين الفريقين قتال
هائل أجلى عن انتصار يرماق ، ولكنه خسره عدد كبيراً من رجاله . ولم
يحب ذلك على كوتشوم ، فأمر مامتكول بفرج من الحصار وأضيق على
القوزاق من جميع الجهات . واقتل الفريقان في قاع من الارض بظاهر
العاصمة وكانت نسبة للروسيين ايضاً ما تخنوا في الاعداء من قوم كل ممزق .
وكان ثوما الشجاع في هذه المعركة قد مجه على مامتكول بهراوته ولم يكن
الا انجيل حتى ضرب به مصره ثم سبه وفنده به يرم في ذليلاً

واذ رأى كوتشوم ما حلَّ يحيشه من الهوان أخلى حصونه بأعظم سرعة وأشد خوف وهرب بمن بقي لديه من الرجال ، فقتلهم رجال يرماق الى مسافة بعيدة ثم عادوا فافتحوا العاصمة واستولوا على ما كان فيها من الخيرات والحجارة الكريمة والقرآن الثمينة

وطار صيت يرماق في سيبيريا كلها وهابه الناس وأقبل عليه امرأه للتبر وعظماؤهم فهناؤه بانتصاره على كوتشوم وحققوا له عین الطاعة وقدموا اليه الهدايا الكثيرة تودداً اليه وتزلفاً من رضاه وسألوه ان يحمي ذمارهم ولم يبق لدى يرماق في ذلك الوقت من القوزاق الا نحو ثلاثمائة رجل فرأى ان يرسل من قبله وفداً الى موسكو لينبئ الملك يوحنا بما تمَّ وبممنه بهذه المملكة الجديدة الواسعة الاطراف ويطلب منه نجدة ، واختار صديقه كولنسو (برستن) ليكون على رأس هذا الوفد . ولم يبطىء برستن ان يختار من بين القوزاق بعض الاشداء وفيهم توما . وسار بهم يحترق السهول والجبال ، حتى اذا أصبح بالنياب من موسكو أقعد واحداً من رجاله ليخبر الملك بخدمته . ورسالته . فابتهج الملك وقابله بالاحتفال والابهة وتلطف معه في الكلام

وكان برستن قد حمل معه هدية للملك شيئاً كثيراً من الحجارة الكريمة والقرآن الجملة التي اشتهر بعملها اهل سيبيريا من جلود السمور والتمالب . فقبلها الملك بسرور ومد يده الى برستن علامة الرضى وقبلها برستن وقبله الملك في رأسه وأمره ان يروي له اخبار يرماق ورجاله وانتصارهم على تتر سيبيريا ففعل واخذ في حديثه بحماسة واعجاب وفما كان برستن يسرد اخباره وانلك ورجل احاشية مقبلون عليه

بأنتم الاصفاء اتبته الملك كمن غفلة خدق بصره الى برستن وقل - بخيل
الي اني رأيتك يا هذا قبل هذه المرة وسمعت صوتك فن انت ؟

فجنا كولتسو امام الملك وقال - نعم يا سيدي . فانا برستن زعيم
الصوص ، وقد دخلت مخدعك مع المم كرشون لأسرق مفاتيح السجن
وأخلص الامير نكيتا . . وها قد حضرت اليك الان ، فاما ان تصفع لي
زلي او تأمر بضرب عني

فقال الملك - حاشا لي ان أعاقبك بعد الذي ظهر منك من هذه
البسالة وهذا الاخلاص ، فانا أعفو عنك وأعدك من ابطال رجالي

فهض برستن وعاد فقبل يد الملك ثانية ووقف في مكانه . . وبعد
ان فرغ من أخباره أننى انلك عليه وعلى صديقه يرماق وجميع القوزاق
الذين اشتركوا في الحملة . وأمر ان يكتب الى يرماق بان الملك قد عينه اميراً
لبلاد سيبيريا وفوض اليه امرها واقتتاح باقي اقطارها . . ثم أوعز الى
بوريس غودونوف ان يقدم لكل واحد من رجال الوفه حلة جميلة وعدة
كاملة ويرس الذخائر اللازمة الى يرماق وجيشاً يكون تحت لوائه . وأمر
لكل من يرماق وبرستن بجائزة سنية وخوذة ملكية وبذلة فاخرة
وسيف مرصع ، فقتلها برستن وودع الملك وخرج شاكراً وهو لا يشتر
بالارض تحت قدميه تيهاً واعجاباً

وفي ذلك النهار دعي برستن ورجله الى مائدة في منزل بوريس
غودونوف ، وفي اثناءهم قام بوريس وبرستن فشربا نخب الملك وولي العهد
والامير يرماق ، ثم شرب كل منهم نخب الآخر ، وجلسا يأكلان
ويتذاكران . فسأل برستن عن صديقه لاميير نكيتا ، فأخبره بوريس بان

قد قتل منذ بضعة اعوام في احدى المعارك بعد ان انتصر على العدو انتصاراً
باهرآ زينت له البلاد بأسرها

قهض برستن وشرب نخب ذكرى صديقه الامير وقال — حقاً ان
خسارة الامير نكيتا لمي فادحة جسيمة على الوطن والامة ، اذ بمثله تسعد
الاوطان ، وبمثله ترتقي الامم الى أعلى مراتب الشهرة وعزة الشان ، فقد كان
عظيماً بنفسه عظيماً بأفعاله

الفصل الرابع والخمسون

« المرسوم المزعزع »

(وفيه تنبيه الحديث)

أساء الملك يوحنا الرابع الى رعيته وبلادهم منذ مولده الى وفاته والى ما
بعد وفاته . وكانت مدته مدة شقاء وعواصف هوجاء لم تنقض بانقضاء
حياته ، وظلت البلاد تباينها والامة تكتوي بنارها الى ان اقضت الاسرة
الملكة كلها وظهرت في الملكة أسرة جديدة ونشأ عهد جديد

وقد توفي يوحنا الرابع سنة ١٥٨٤ وكان قد تزوج خمس مرات وورث
اولاداً ، كان منهم في قيد الحياة يوم وفاته ابنان وهما ثيودور من زوجته
الاولى (الملكة انسطاسيا) وديمتري من الخامسة (الملكة ماريما)

وجلس على سرير الملك بعده ابنه ثيودور وكانت ضعيف البنية فاتر
الهمة ومن ارباب الورع والصلاح ، فوكل الى اعضاء مجلس الدوما ، وفي

مقدمتهم ختته (اخو زوجته) بورديس غودونوف ، امر السياسة والاحكام
وأطلق ايديهم في المقد والحل وانصرف هو الى العبادات والصلوات



تلميذ تيودور ابن الملك يوحنا الرابع وقد دخل بيوم عليه يوماً
وأحد اساتذة الامان واقف الى جانبه يلمه

ولم يعض على ذلك الا يسير زمن حتى استأثر بورديس بالسلطة وقام
وحده بتدبير شؤون البلاد . وقد أظهر حذقاً وبراعة وهمة ، فضرب على
ايدي المصائب الكثيرة التي كانت تغيث في اطراف البلاد من كل جهة ،
وحارب التتر والاسوجيين وكانت العاقبة في الحريين لروسيا ، ووطد
العلائق السياسية بين روسيا وانكلترا والنمسا وبولونيا ، وجعل روسيا بطريكية
ارثوذكسية مستقلة بشؤونها الدينية عن بطريكية القسطنطينية وعين لها

صديقه المطران ايوب مطران موسكو بطريركاً ، ووضع نظام استعباد
الفلاحين اي تقييدهم بالارض التي يعملون فيها فيباعون ويشترون معها
وأطلق للنبلأ الحرية التامة في امرهم فكان للنبل ان يستبد بمن عنده من
الفلاحين استبداداً مطلقاً حتى في امر حياتهم وموتهم

وبلغ بوريس أعلى مقام في المملكة واصبح امره نافذاً في جميع الشؤون
ولم يكن لاحد ان يعترضه في شيء . . ولكنه على الرغم من كل هذا لم
تطمئن نفسه وكان كثير القلق وعرضة للوساوس

وذلك لان الملك نيودور كان عقيمًا لا اولاد له ، فلم يبق لولاية العهد
الا اخوه ديمتري الصغير ، وكان بوريس يكره والدته واهلها اجمعين ، وقد
سوّلت له نفسه ان يكون هو الملك بعد نيودور ، ولا يمكن ان يتم هذا
وديمتري حي يرزق . . فعزم على ان يزيل هذه العقبة من طريقه ، وشرع
في ذلك على اثر وفاة الملك يوحنا الرابع ، فأوعز الى قوم من اتباعه ان
يشيعوا في العاصمة خبر تأهب اهل الملكة ماريا لاغتصاب العرش للطفل
ديمتري وانهم متواطئون على ابعاد نيودور الاخ الاكبر وصاحب الحق في
الملك . . . وصدق اعضاء مجلس الدوما هذه الاشاعة الكاذبة ، فقصوا في
الحال بنفي الامير الصغير والدته وكل من كان يمت اليهما بنسب او قرابة
الى مكان بعيد عن العاصمة ، فأبعدوا الى مدينة أوغليش ، وحظر بوريس
على رجال الدين ذكر اسم ولي العهد في الكنائس بحجة انه من الزوجة
الخامسة ليوحنا الرابع فهو اذاً غير شرعي

وظن بوريس انه قضى بذلك على آمال حزب ديمتري . . ولكن الامر
لم يكن كما توقع ، لان الامة بأسرها كانت تشرف بديمتري انه ولي العهد

حقاً وأنه ابن شرعي للملك المتوفى ، وكانت تعلق عليه آمالها بعد ان ينقضي عهد ثيودور الضعيف .. فرأى ان يعمل لمصاحبة نفسه بحزم اشد من طريق أخصر وأسد .

وقد رأى ان ديمتري اذا ترك واصبح ملكاً بعد اخيه فانه لا يلبث ان يفضي على مطامعه وقد ينفيه ا، بأمر باعدامه ، ورأى ان الفرصة سانحة الان ما دام ثيودور حياً وديمتري لا يزال طفلاً ، ففهم واخذ يدس على قلبه ،



متمن ديمتري ووالده

ثم أخذ قرأ من رجاله فانطلقوا الى مدينة اوغليش ، وترّبصوا لولي العهد مدة الى ان غفروا به ذات يوم وهو يتزده منفرداً في حديقة منزله ، فهجموا عليه وذبحوه (وكان في التاسعة من عمره) ولا ذوا بالفرار ، غير ان اهل المدينة مضوا عليهم وقتلوهم أشنع قلة ، وكانوا قد اعترفوا قبل موتهم انهم انما فعلوا ما فعلوه بايماز بوريس غودونوف نفسه . .

غير ان بوريس أشاع الخبر في العاصمة على غير وجهه ، وقال ان ولي العهد انما انتحر بيده تخلصاً من داء هياه كان ينتابه حيناً بعد آخر وتشتد وطأته عليه فيفعل ولا يمي . . وأوقف في الحال بعض النبلاء ورجال الدين من اعوانه الى مدينة اوغليش للفحص عن هذا الامر ، فعادوا بعد ايام وهم يؤيدون ما ذهب اليه بوريس ، ورُفِع التقرير بذلك الى الملك . .

ولم يكنف بوريس بما تم بل نهض للانتقام من « القلة » وهو يريد بذلك أن ينقي التهمة عن نفسه ويظهر للامة برأته من دم ولي العهد الطفل وشدة غضبه لمقتله . . وقد أنزل أشد البلاء بالملكة ماريا وذويها وبسكان مدينة اوغليش جميعاً لانهم أغفلوا الامر وتهاونوا في العناية بولي عهد ملكهم والحفاظة على حياته العزيزة . قضى على الملكة بالترهب فأبعدت الى أفسس الادبار ، وعلى أهلها وذويها بالعذيب والتعريب ، وعلى نحو « شتير » من أعيان المدينة بالاعدام ، وعلى غيرهم بالسجن والاشتغال الشاق . وعلى السكان وكانوا بصمة آلاف بالنفي الى سيبيريا . . . وانقرت المدينة على أثر ذلك فلم يبق فيها دينار ولا نافخ نار . . .

غير ان الامة لم تنخدع بهذه المظاهر وقد تأكد لها ان العمل هو عمل بوريس لا سيواه ، فنقرت منه وكمرته وأخذت تمزوا اليه كل كارثة

الصفحة مفقودة
Missing Page

الصفحة مفقودة
Missing Page

ولما برى، غريغوري من مرضه اخذ الامير واهل بيته ونبلاء لنفا
يظهرون له الاكرام اللائق بأبناء الملوك . وعلم بذلك سيجزموه ملك بولونيا
ولنفا ، فاستدعى في الحال ولي العهد المزعوم ورحب به وعين له مرتباً كبيراً
وتقرأ من الحاشية . وكان رجال الدين في بولونيا ينحون على الملك بالانتصار
لهذا « البرنس » الفتي واعادته الى عرشه المقتصب

ورأى سيجزmond ان في الانتصار له خدمة لنفسه ونشراً لنفوذ دولته
في الارجاء الروسية ، فهد بالامر الى « منيشك » احد نواده ، وكان
« ديمتري الكاذب » قد أحب ابنته « مارينا » وعاهدها على الاقتران بها
لتكرن ملكة البلاد



ديمتري الكاذب

وحشد منيشك جيشاً اكثره من
المطيرعين من بولونيا ولنفا ، وقد
انضم اليه جمهور كبير من الروسين
وانهزاق ، وسار هذا الجيش وفي
طلية ديمتري الكاذب سنة ١٦٠٤
حتى دخل تخوم المملكة الروسية .
واخذت المدن تخضع له واحدة بعد

اخرى وينضم اليه المتطوعون افواجا تحتهم ان ديمتري هذا هو صاحب
الحق في العرش . وكان الملك بوريس قد أرسل جيشاً لمحاربة الاعداء ،
فظهر عليه ديمتري الكاذب وبدد شمله وسار ظافراً حمة موسكو

في اواخر شهر نيسر سنة ١٦٠٥ توفي الملك بوريس غودونوف فجاء
وخلفه في العرش ابنه فيدر ، فارسل قائد مشهوراً باخلاصه له ونوالده

وكان من أسرة باسمايوف ليتولى قيادة الجيش الروسي ويطرد الدعي من البلاد . فلما وصل باسمايوف الى الجيش ورأى تخاذله أعلن صدق دعوى ديمتري ودخل في خدمته وأصبح من اشد المتصرين له . . وقبل ان يصل ديمتري الى موسكو أوفد رسلاً من قبله الى الملكة ماريا والدة ديمتري الحقيقي (وارملة الملك يوحنا الرابع) لتأتي وتترف به فقبلت . .

وفي تضاعيف ذلك كان الاشراف المعادون للملك فيدور قد أثاروا الشعب ضده وأسقطوا البطريك ايوب ، ثم قتلوا الملك ووالدته ، وبذلك مهدوا السبيل لديمتري الكاذب فدخل موسكو في اوائل آب سنة ١٦٠٥ باحتفال باهر وجلس على العرش الروسي ودان له الجميع

وأخذ ديمتري يتزلف الى زعماء الشعب ورجال الدين ، وقد أعاد من كان منفيًا منهم في عهد بورديس غودونوف . غير انه لم يلبث ان ظهر في عاداته واعماله ما كان منافياً لمبادئ ملوك الربس وتعاليمهم ، وخصوصاً ما كان متسقاً منها بالدين الارثوذكسي وطقوسه . وظهر في هذا الوقت في احدى المدن الروسية أربعة لهذا الكاذب كانوا بصريحون بكذبه وقمانه ، فاضطرب الشعب وعقدت المؤامرات ضده ، وكان اكثر الجميع انتقاماً عليه النبيل فاسيلي شويسكي وهو من الاشراف الذين كان شمسهم يحترق ويأتمر بأمرهم

وبعد سنة من يلبس ديمتري الكاذب على العرش الروسي جاءت عروسه مارينا منيشك ومعه ابوها وجيش من البولويين يبلغ الالفين من الخنود . وقد أقام هؤلاء في موسكو واخذوا يعيثون فساداً فيها ويضهدون الشعب . فغضب النبيل فاسيلي شويسكي كل ذلك وقتئذ يدرج

الرأي العام ضد الكاذب . وقد انحاز اليه جميع النبلاء والوعماء . وفي
اواخر شهر ايار سنة ١٦٠٦ هجم الاهدلون على البولوين وعلى القصر ،
قتلوا الدعي " افطم قلة ونكلوا يحنوده ، ونادوا بالنبيل فاسيلي شويبي
ملكاً عليهم

غير ان الامر لم يقف عند هذا الحد . فقد ظهر في اول عهد الملك
فاسيلي المذكور دعي آخر ادعى بانه الملك ديتري نفسه وانه لم يتنل في
موسكو كما اشعوا بل قتل رجل آخر شبيه به ، واما هو فهرب الى بلاد لنغا
وعاد الان يطالب بحقه الشرعي . وقد التف عليه اقوام من البولوينين
والقوزاق والروسين من طغث شتى ، وزحف بهذا الجيش الى موسكو
وخيم في قرية « توشينو » على مسافة نحو اثني عشر كيلو متراً من العاصمة .
وجيء اليه الى هنا يميننا منيشك زوجة ديتري الاول الكاذب فاعترفت
به واصبحت زوجته .

واقام ديتري الثاني الكاذب في قرية توشينو مدة وازلت به البلاد
الجهالة ملكاً عليه . فاصبح في روسيا ملكاً حقيقياً فاسيلي شويبي في
موسكو . والآخر ديتري كاذب في توشينو . وقد عنت له لاقابهم
تروسية تامة وقذت كلهم في اكثر الجهات . وكانت تلك المدة شهراً هولاً
واكثر اضطراباً من كل زمان في تاريخ روسيا

ولما رأى الملك فاسيلي استعصم الامر وعجز عن تحرير البلاد وجب
الى كارلوس التاسع ملك السويد استغيث به ويسأله القدوة على الامانة .

فأمده كارلوس بجيش انضم الى الجيش الروسي ، وضرب الجيشان جموع
ديمتري الثاني الكاذب وبددا شملها (سنة ١٦١٠) وهام ديمتري على وجهه
غير ان سيجزمووند ملك بولونيا انتصر له وزحف بجيشه الى التخوم الروسية
وتضاربت الآراء في موسكو وتقررت كلمة النبلاء واستطال امر
المنازعات والمشاخات بين الزعماء زمناً طويلاً . وقد اتفق الجميع على خلع
الملك فاسيلي لانه لا يصلح للحكم فقاموا واضطروه الى التهرب . وطلب
معظم النبلاء على اثر ذلك تولية فلاديسلاف ابن ملك بولونيا . وطلب غيرهم
تمليك الفتى ميخائيل ابن المطران فيلاريت رومانوف . واختار حزب الشعب
النبيل فاسيلي غروليتسين وأجمع القوزاق على اعادة ديمتري الثاني الكاذب
الى العرش ، ولما توفي هذا (وكان قد قتله احد القوزاق في اخر شهر كانون
الاول سنة ١٦١٠) قاموا يفسدون ابنه ايفان . .

واتهم النبلاء اشتغال الاحزاب بعضها ببعض فاستدعوا الى موسكو
جيشاً بولونيا وسألوا الملك سيجزمووند ان يرسل ابنه فلاديسلاف ليجلس
على سرير الملك . فاجابهم سيجزمووند بان ابنه لا يزال صغير السن ، وانه
هو الاب لا يتأخر عن الحضور بنفسه لتسلم زمام الاحكام

واخذ البيرونيوت من ذلك الحين يحتشدون في موسكو وينتشر
نقوذم فيها وفي ما جاورها من الاقاليم حتى اصبحوا اصحاب الامر والنهي
وقد استطالوا على الناس البني والجور وذافت البلاد في عهدهم من البلا
أمره ومن الضنك اشده

ورأى رجال الدين وزعماء الشعب في الاقاليم ما صارت اليه الحالة
فحشدوا جيشاً وطنياً لاقاها العاصمة من الاعداء وقد انضم اليه القوزاق .

وفي اواسط شهر شباط سنة ١٦١١ كان هذا الجيش مخبياً حول موسكو . ورأى البولونيون الخطر محققاً بهم فأضرموا النار في المدينة واعتصموا بمحصونها ، فاحترقت المدينة وكان حريقها بشهادة بعض المؤرخين اشد من حريقها سنة ١٨١٢ يوم كان الفرنسيون فيها . . ونشبت بين البولونيين والروسين معارك كثيرة جرت الدماء فيها انهاراً

غير ان الجيش الوطني لم يلبث ان وقع النفور بين زعمائه ، فقام القوزاق وقتلوا قائد الجيش وكثيرين من انصاره وعادوا الى الندادة باين ديمتري الثاني الكاذب وانبثوا في كل وجه يقتلون وينهبون حتى لم يبقوا ولم يذروا . وكانت الفوضى تنتشر انتشاراً هائلاً في جميع البلاد . وظهر دعي آخر في مدينة بسكوف دعا نفسه البرنس ديمتري . واختارت بعض الاقاليم الشمالية اخا ملك اسوج ملكاً عليها . وانتشرت عصابات اللصوص وانتدبوا في طول البلاد وعرضها . وتبدد الجيش الوطني في كل جهة . ودخلت اقاليم كثيرة في حوزة الاسوجيين ، البولونيين . . ولولم يفق الشعب مرة اخرى وينهض نهضة لرجال اواحد . للجهاد ولدفاع لاضمحت الدولة الروسية واتهمها الاعداء رميتها

وكان الفضل الاعظم لهذه النهضة الوطنية الجديدة لدير القديس سرجيوس المشهور بدير الثالوث لاقدس وهو على بعد مائة كيلومتر من موسكو . وكان محصناً بالاسوار العالية والابراج المنيعة . . من هذا الدير خرجت الدعوة للجهاد الديني ولدفاع عن الوطن الى كل جهة من جهات البلاد ، وكان لها تأثير عظيم في الشعب ، فاحتشدت الحافير من كل حذب ، بقيادة ، جلان اودها من عامة الشعب يقابل له مينين والآخر من

المضطلمين بقيادة الجيوش يدعى الامير بوجارسكي وكان على اعظم جانب من الحماسة الوطنية . فنظما الجوع وجما الاموال ثم زحفا الى العاصمة . وكان القوزاق قد مادوا فانضموا الى الجيش الزاحف

والتحم القتال بين الروسيين والبولونيين خارج المدينة وكانت الغلبة للروسيين قهروا الاعداء وكسروهم ثم ضربوا الحصار على المدينة شهرين كاملين الى ان اقتحموها عنوة في اوائل شهر تشرين الثاني سنة ١٦١٢ واحتلوا عليها . . وكان الملك سيجزمووند البولوني زاحفاً وقتئذ ليرفع الحصار عن موسكو ، فالتقى شرادم البولوبيين الهاريين وعاد على اعقابه الى بولونيا



ولما هدأت الاحوال عقدت في موسكو الجمعية العمومية وفيها نحو سبعة نواب من جميع المدن والاقليم وفيهم الامراء والنبلاء ورجال الدين وزعماء الشعب ، واختاروا الفتى ميخائيل رومانوف قيصراً للملاد ، وكان سليل أسرة من النبلاء لامظام وبه ابتدأت

تاريخ قياصرة الروس في اواخر مدهم

دولة رومانوف ، وقد تودي به في اوائل شهر اذار سنة ١٦١٣ وتداول العرش الروسي من آل رومانوف جدد من الاء بعده وكانت مدتهم ثلاثمئة سنة ونيفاً رأسهم :

بطرس الاكبر (١٦٨٢ - ١٧٢٥) المصلح العظيم
وكاترينا الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦) وهي أشهر ملكات الامال

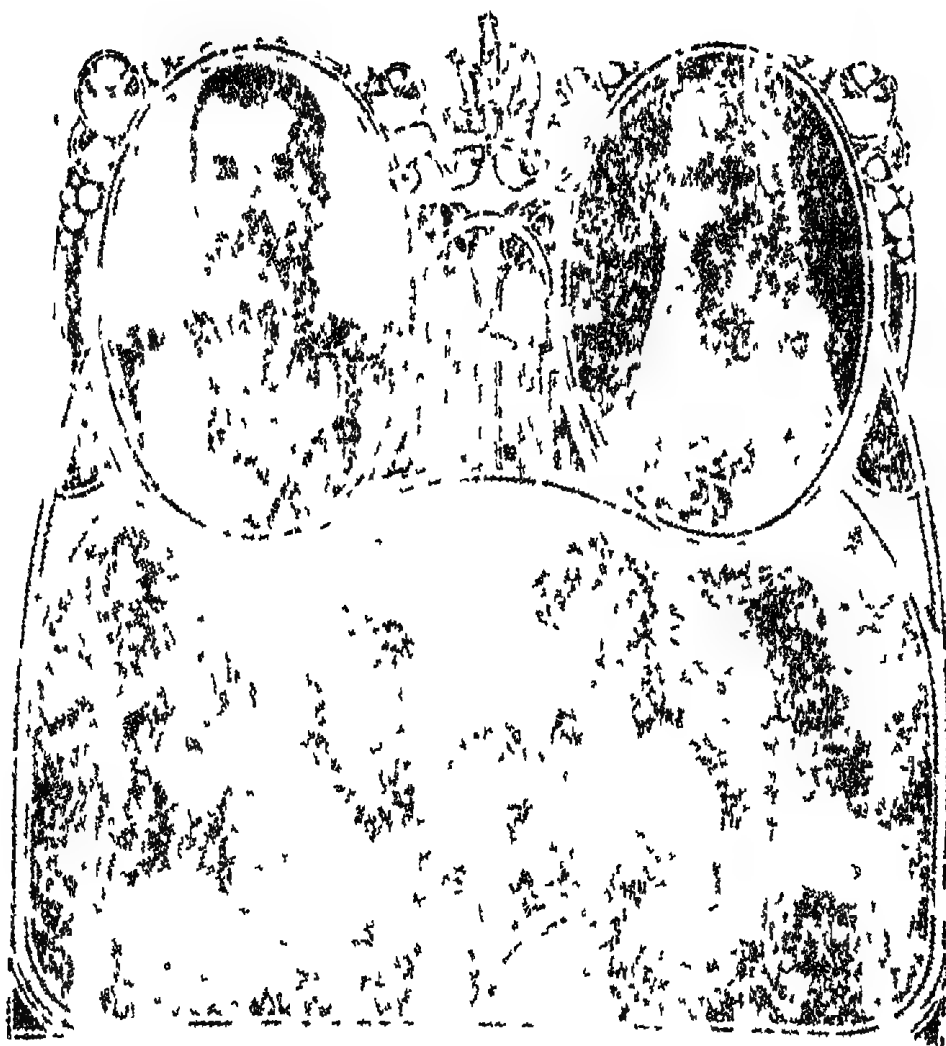
على الاطلاق

واسكندر الاول (١٨٠١ - ١٨٢٥) قاهر نابوليون بوناپرت ومحرر
روسيا واوروبا من رقبته

وقولا الاول (١٨٢٥ - ١٨٥٥) اعظم أبطال الحروب والفتوح
من القيصرية

واسكندر الثاني (١٨٥٥ - ١٨٨١) 'محرر الفلاحين في روسيا
واسكندر الثالث (١٨٨١ - ١٨٩٤) حافظ السلام في روسيا
والعالم أجمع

وقولا الثاني (١٨٩٤ - ١٩١٨) آخر قيصرة الروس من اسرة
رومانوف . وفي عهده احتفلت روسيا بيوبيل الثلاثمئة سنة لهذه الاسرة ،
وكان عيداً عظيماً لم تر البلاد أنخم منه . . وقد قتل تقولا الثاني في هذا في
١٧ تموز سنة ١٩١٨ في اواخر الحرب الكونية ، قتله نبلاشفة على اثر الثورة
العظيمة التي انهمرت في روسيا سنة ١٩١٧ وكان من نتائجها ان البلاشفة
خاموا الامبراطور ثم اغتالوه مع انضائه اسرته (زوجته واولاده الخمسة)
ثم قتلهم جميعاً أنظرتة . ربهلك قضاوعى لاسرة المائكة وعلى الحكم
التيهيري رحلوا آل ديميدوف شيونية



قيصر قزاقيا لثاني وروخته القهجرة الساميرا وابولابم اخيه وقد قتل الثلاثة هذه
لاسرة وقبضوا بهاب على الحكم المصري في روسيا

فهرس

صفحة		
٦	المقدمة	
٩	الفصل الاول	- الامير مكيتا
١٤	» الثاني	- قرية ائب
١٩	» الثالث	-- رجال الحرس
٢٤	» الرابع	- في الطريق
٣١	» الخامس	- الدجال
٣٨	» السادس	- موسكو
٤٢	» السابع	- النبيل موروزوف وزيمت
٤٩	» الثامن	- اناسك
٥٥	» التاسع	- هيلانة
٦٤	» العاشر	- الامير والنبيل
٨٠	» الحادي عشر	-- قرية اكسنهروف
٩٠	» الثاني	- الولية
١٠٤	» الثالث	- بين اوت وحياة
١١٩	» الرابع	- الوالد والولد
١٢٦	» الخامس	- نليل
١٣٦	» السادس	- الوشاية
١٤٥	» السابع	- مريس رفةمأوه

صفحة	
١٥١	الفصل الثامن عشر — الامير نكيتا ويوريس قودونوف
١٥٨	» التاسع » — المعركة
١٦٦	» العشرون — هواجس مودوزوف
١٧١	» الحادي والعشرون — المأذبة
١٨٣	» الثاني » — الذئاب الخاطفة
١٨٩	» الثالث » — الطحان
١٩٨	» الرابع » — ميخيش
٢٠٢	» الخامس » — وما جزاء الاحسان الا الاحسان
٢٠٨	» السادس » — في السجن
٢١٥	» السابع » — الاعميان
٢٢٤	» الثامن » — الحكاية
٢٣٩	» التاسع » — النجاة
٢٤٥	» الثلاثون — مكسب
٢٥٤	» الحادي والثلاثون — ثورة اللصوص
٢٦٥	» الثاني » — التأهب للجهاد
٢٧٧	» الثالث » — الظفر
٢٨٥	» الرابع » — تيودور باسمانوف
٢٩٢	» الخامس » — الاقصال
٢٩٦	» السادس » — حبوط المسمى
٣٠١	» السابع » — شكوى موروزوف

٣٠٨	الفصل الثامن والثلاثون - الفرور
٣١٧	» التاسع » - المبارزة
٣٢٣	» الاربعون - بين الحق والباطل
٣٢٩	» الحادي والاربعون - الحكم على الامير اثنامي
٣٣٢	» الثاني » - الحكم على باسماثوف
٣٣٩	» الثالث » - طيلسان المجان
٣٤٤	» الرابع » - الحديث ذوشجون
٣٥٤	» الخامس » - واذا كان من الموت بد...
٣٥٧	» السادس » - الاعداد
٣٦٨	» السابع » - رجوع الامير نكتا
٣٧٦	» الثامن » - المفور
٣٨٨	» التاسع » - في منزل بوريس غودونوف
٣٩٤	» الخمسون - الخروج من قرية الكسندروفا
٣٩٨	» الحادي والخمسون - الدبر
٤٠٥	» الثاني » - يوحنا الرابع في اواخر عهده
٤٠٩	» الثالث » - يرماق وبرستن
٤١٤	» الرابع » - العرش المنزعزع

ملق السبيل

تأليف
مؤيد الدين الشاذلي

وأثره في الانقلاب الفكري الحديث

تأليف البعثة الكبير

الاستاذ اسماعيل مظهر بك

(عدد صفحاته ٣٦٢ بالقطع الكبير وثمنه ٢٠ قرشاً واجرت البريد ٣ غروش مصر)

اننا تول فرانس

في مباركة

تأليف امير جاك برسون

وزبدة ما قالته الجرند الفرنسية في فرانس يوم وفاته

نقل الى العربية وصدره بمقدمة وعلق عليه بمسحوات

كاتب الشرق الاكبر صاحب العطاء

الامير شكيب ارسلان

من اصحاء المجمع لدرى

وقد حليناه بما يزيد عن المائة والخمسين صورة

وطبعناه على ورق جميل وجعلنا ثمن النسخة ٢٠ قرشاً والبريد

